

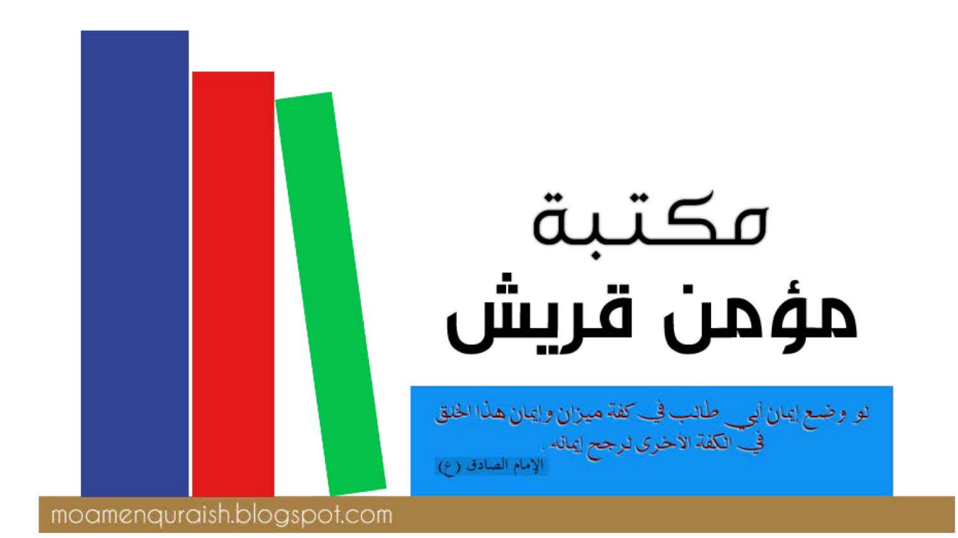
دراسات وتحليلات عن الثورة الحسينية

أهدافها، ظروفها، وقائعها، نتائجها

محمد نعمة السماوي

الجزء الأول

دار المرتضى



مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع ايمان أبي طالب في كفة ميزان وايمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح ايمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com


موسوعة
الثورة الحسينية
١

دار المرتضى

للطباعة والنشر والتوزيع
لبنان ـ بيروت
تليفاكس ٠٠٩٦١١٨٤٠٣٩٢
ص.ب.: ٢٥/١٥٥ الغبيري
E-mail: mortada14@hotmail.com

الطبعة الأولى
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

مَوسُوعَة
الثَّوْرَة الحُسَيْنِيَّة

دِرَاسَات وَتَحليلَات عَن الثَّوْرَة الحُسَينيَّة

أهدافها، ظروفها، واقعها، نتائجها

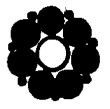
أحاديث عن أنصارها ومناوئيها
ونتائجها المباشرة والبعيدة
وبحوث في تاريخ الإسلام والمسلمين
ومجتمعاتهم في ظل الخلاف والانحراف

محمد نعمة السماوي

الجزء الأول


بسم الله الرحمن الرحيم

مضامين الكتاب وبحوثه



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة[1]

يذهب الناس في أمر ثورة الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام مذاهب شتّى، ولهم فيها آراء ووجهات نظر عديدة، وقد بدأت هذه الثورة ـ عملياً ـ سنة خمسين للهجرة، عندما رفض الحسين دعوة معاوية إلى البيعة بولاية العهد لابنه يزيد مِن بعده، وانتهت أوائل سنة إحدى وستين عندما استُشهد مع جماعة من أهل بيته وأصحابه في (واقعة الطف) في (كربلاء)، بعد أن أوعز يزيد ـ وقد استلم السلطة فعلًا ـ لعبيدالله بن زياد أن يتصدى له، ويستنفر كل أعوان الدولة وجنودها في العراق لمنعه من دخول الكوفة وقتله. وقد نفّذ ابن زياد الأمر بحماس منقطع النظير، في محاولة منه لكسب ودّ يزيد الذي كان يُعرض عنه قبيل تلك الفترة ولا يوليه أدنى رعاية أو اهتمام، وسار إلى الكوفة بسرعة قياسية، وحشد عدّة آلاف من أهلها بمعونة (الأشراف) والمتنفذين فيها، اشتركوا بالمجزرة المروّعة التي افتتح يزيد بها حكمه القصير.

ويرى قسم من هؤلاء الناس أن الثورة كانت الأمر الوحيد الذي لا بد أن يقوم به الحسين عليه السلام لإيقاف الانحراف المتزايد السريع من قبل مؤسسات الدولة الأموية الحاكمة، عن الإسلام ومبادئه وتشريعاته، وعن خط الرسالة الصحيح الذي رسمه نبيّ الإنسانية الأكرم صلى الله عليه وآله، ذلك الانحراف الذي كان يُنفَّذ وفق خطة ماكرة منظمة، وكان يبدو أنه سيودي بالمجتمع الإسلامي حتماً ويحطمه تماماً، ويجعل الإسلام بعيداً عن دائرة اهتماماته وحياته.

---

(١) صدر أول كتاب لي عن ثورة الحسين سنة ١٣٨٨هـ ١٩٦٨م بعنوان (ثورة الحسين ـ أهدافها، نتائجها). دراسات تاريخية، عن دار التربية ـ بغداد. وقد كنت أزمع التوسع بتلك الدراسة فيما بعد، مع كتاب آخر نشر لي تلك السنة وهو (منهاج الإسلام في التربية)، وقد كتبت هذا الكتاب في رفحاء، بعد هجرتنا المباركة إليها، وأعدت كتابته في السنوات اللاحقة في واشنطن ومِشِيگن في الولايات المتحدة، بعد سفرنا إليها من هناك.

ويؤيد آخرون فكرة الثورة، إلا أنهم لا يحبذون قيامها بالشكل الذي قامت به، والذي انتهى بتلك الخاتمة المأساوية المروعة، التي صدم بها المسلمون، ويرون أن الحسين قد أخطأ في التوقيت وفي اختيار الساحة التي أراد اعلان ثورته منها، وأن يزيد قد ازداد جرأة على الايغال في سفك الدماء والقتل بعد أن مرت مذبحة الطف دون ردٍ قوي أو عقاب رادع سريع ضده، وإن الحسين أيضاً قد جازف بنفسه وأصحابه، وكان ينبغي عليه أن يتأنى، فلا يعجل بخروجه من المدينة ومكة إلى العراق، ويذهب إلى مكان منيع كجبال اليمن، أو يهادن يزيد ريثما تتهيأ الظروف المناسبة للثورة، وأنه قد منَحه (بعجلتِهِ) تلك فرصة ذهبية لمحاصرته والانقضاض عليه.

ويرى عديدون ـ ومنهم مؤرخون وباحثون ومثقفون ـ إن الحسين قد شقَّ بثورته، وحدة الأمة الإسلامية التي جمعها معاوية ليزيد، وأنها كانت ايذاناً ببداية فرقة واختلاف كبيرين بين أبناء هذه الأمة، ويأخذون عليه قيامه بها ضد (ولي أمر المسلمين) و(أمير المؤمنين) و(الخليفة) الذي بايعته وأجمعت عليه، أما كيف تم أمر هذه البيعة، وما هي ملابساتها، وما هي مواصفات هذا الخليفة، فأمور لا تهم، وليس علينا مناقشتها، ما دامت قد تمت فعلاً وأصبحت أمراً واقعاً، وأصبح يزيد الممثل الفعلي، وخليفة رسول الله ﷺ على أمته، والمتصرف بأمورها ومقدراتها.

وذهب البعض إلى حد الحقد الشديد عليه لهذا السبب لأنه قد عكّر ـ بنظرهم الجو الهادىء الذي أخذت تعتاده الأمة بعد استتباب الوضع لصالح معاوية ويزيد من بعده وبعد (فتن) و(خصومات) لم تجنِ فيها سوى الويلات والمآسي، وإنها فتحت الباب مجدداً لمزيد من الخصومات والخلافات والثورات.

ولا يأخذ البعض إلاَّ الجانب المأساوي منها، ولا تمثل أمامهم إلا الطريقة البشعة التي أريقت بها دماء الحسين وأهله وأصحابه وعومل بها حرمه ونساؤه وصبيته، فلم يتعد رد الفعل سوى الحزن والتفجع والتظلم، متناسين الدوافع الحقيقية لهذه الثورة، وآثارها الإيجابية الكبيرة فيما بعد.

وعزز من اختلاف وجهات النظر بشأنها، التيارات والمذاهب السياسية المتناحرة التي برزت على ساحة الوطن الإسلامي، في العصور اللاحقة، وقيام أنظمة الحكم (الإسلامية) العديدة، طيلة هذه العصور، بتشجيع الناس على تبني مواقفها

ووجهات نظرها المعلنة حول مختلف الأمور والقضايا ومنها هذه القضية التي تبرز دائماً في طليعتها.

وقد التبس الأمر على العديدين، فمن ظنوا أنها ثورة (شيعية) بحتة، مع أن التشيع الذي يعنونه، والذي تبلور فيما بعد بالمذهب الجعفري، الذي هو مذهب آل البيت، لم يكن قد ظهر بعد، وذهب بعض من ظن ذلك إلى اتهام الشيعة بالتمرد والولع بالثورات والعصيان لمجرد الرغبة في مجاراة تلك الثورة الأولى، وراحوا ـ في سياق الحملات المعادية لهم ـ يلصقون بهم التهم المختلفة، متوهمين بذلك أنهم يؤدون للإسلام خدمات جلّى. ولم يكن رد بعض هؤلاء ـ في بعض الأحيان ـ يتم بالموضوعية والفطنة، خصوصاً بين الفئات التي لا تتمتع بقدر كاف من العلم والثقافة، مما أتاح لعدوهم المشترك المتربص؛ عدو الإسلام، أن يجد في جو الخصومة والخلاف والانفعال، الوسائل التي تمكنه من توسيع الشقّة، ليكون هو المستفيد الوحيد في النهاية. ويكونون المتضررين الوحيدين بفعل هذه (المعارك) الوهمية وغيرها من السموم التي يبثها هذا العدو الماكر اللئيم.

وكان الأمر سيستمر هكذا لولا تصدي بعض المخلصين الغيورين لهذه المؤامرة المكشوفة التي تستهدف تمزيقهم والنيل منهم، حينما لم يجدوا ما يشير إلى خلاف حقيقي في القضايا الجوهرية.

ومنها مسائل الإيمان والعقيدة، ولم يجدوا إلا القليل من الاختلاف في القضايا الأخرى، ومنها بعض الحوادث التاريخية التي تقادم عهدها ووفد أصحابها وصانعوها على رب كريم عادل، يفصل فيها بحكمته وعدله ورحمته.

إن مسألة التفاهم والتقارب بين عموم المسلمين لا تتم بمجرد التمني، ولا بد من خطوات عملية لتحقيقها. واستعراض جانب من تاريخ هذه الأمة ـ قد يكون مثار خلاف ونقاش ـ إذا ما تم بروح متجردة غير متحيزة، قد يعمل على توضيح الكثير من الخفايا، ويعمل على أن ننظر إلى كل القضايا والأحداث الإسلامية، بعين بصيرة، بعيداً عن التصورات والمواقف المسبقة، ويعمل بالتالي على أن تنصب جهودنا مجتمعة لخدمة الإسلام والمسلمين في كل بقاع الأرض.

إن استعراض ثورة الحسين، من خلال رؤية موضوعية معاصرة، غير متأثرة بما

درج على التأثر به بعض الكتاب والباحثين الإسلاميين للأسباب التي أوردتها قبل قليل، ولأسباب أخرى عديدة، تطرقت إلى قسم منها في بعض فصول هذا الكتاب، ربما سيكون أحد عوامل تقريب وجهات النظر بخصوص هذه الثورة الأم، ويزيل الكثير من الالتباس الذي علق في بعض الأحيان حول ضرورتها وجدواها، خصوصاً وأن نتيجتها المباشرة كانت مأساوية، وكان الحسين وأصحابه أول ضحاياها، مما قد يوهم بأنها كانت ثورة فاشلة خصوصاً وأنها لم تستطع إيقاف الانحراف الأموي المتزايد، بل أن الدولة الأموية بدت في الظاهر مزدهرة قوية.

ولم أعتمد المصادر (الشيعية) وحدها في هذه الدراسة، بل كان لمصادر (أهل السنة) النصيب الأوفر. ولم يكن ايرادي لها لغرض القاء الحجة وتبرير الأطروحات الواردة، وإنما رأيت عند الكثيرين منهم انصافاً وغيرة على الحق وقدراً كبيراً من الدقة في البحث وعدالة وموضوعية أخذوا بها أنفسهم رغم احتمال تعرض بعضهم الأذى والنكال على أيدي من أرادوا لهم أن يكتبوا غير ما كتبوا، فرأيت أن أستفيد من أقوالهم وإيراداتهم المنصفة أيضاً، ليرى الجميع الآن أن القضية التي نتناولها، قضية إسلامية لا شأن لها بمذهب معين، إذ لم يمثل الحسين الشيعة، كما يتوهم البعض وإنما كان يمثل عموم المسلمين، وكان ينطلق بثورته من منطلق إسلامي شامل، كما أن يزيد لم يكن طرفاً يمثل عموم أبناء السنة على الخصوص ولم يكن ينتمي إلى أي مذهب معين، وكان وجوده خليفة لرسول الله ﷺ وقائداً للأمة الإسلامية يمثل نكسة خطيرة لا بد أن تجتازها لتعود إلى الخط السليم الأصيل.

لا بد لثورة الحسين، كما لا بد لكل قضايانا التاريخية الأخرى، أن تعرض على بساط البحث الهادىء الجاد، ولا بد من الاطلاع على كل ملابساتها وظروفها وحسم كل الاشكالات والخلافات القائمة بشأنها إلى الأبد، ليكون ذلك وسيلة إلى المزيد من التقارب والتآلف بين عموم المسلمين، وهو أمر طالما كانوا بحاجة إليه خصوصاً في عصرنا الراهن، حيث ترى قوى عالمية عديدة في الإسلام عدوها المخيف الذي ينبغي عليها أن تتصدى له بكافة السبل الممكنة، وتجعل مسألة اضعافه، بل محوه من أولوياتها. وليس من المعقول أن نساعد ـ نحن المسلمين ـ هؤلاء في مهمتهم المدمرة هذه. لكننا نفعل ذلك بالتأكيد ونقع في الفخ الذي أعده لنا خصومنا، إذا لم نحسم

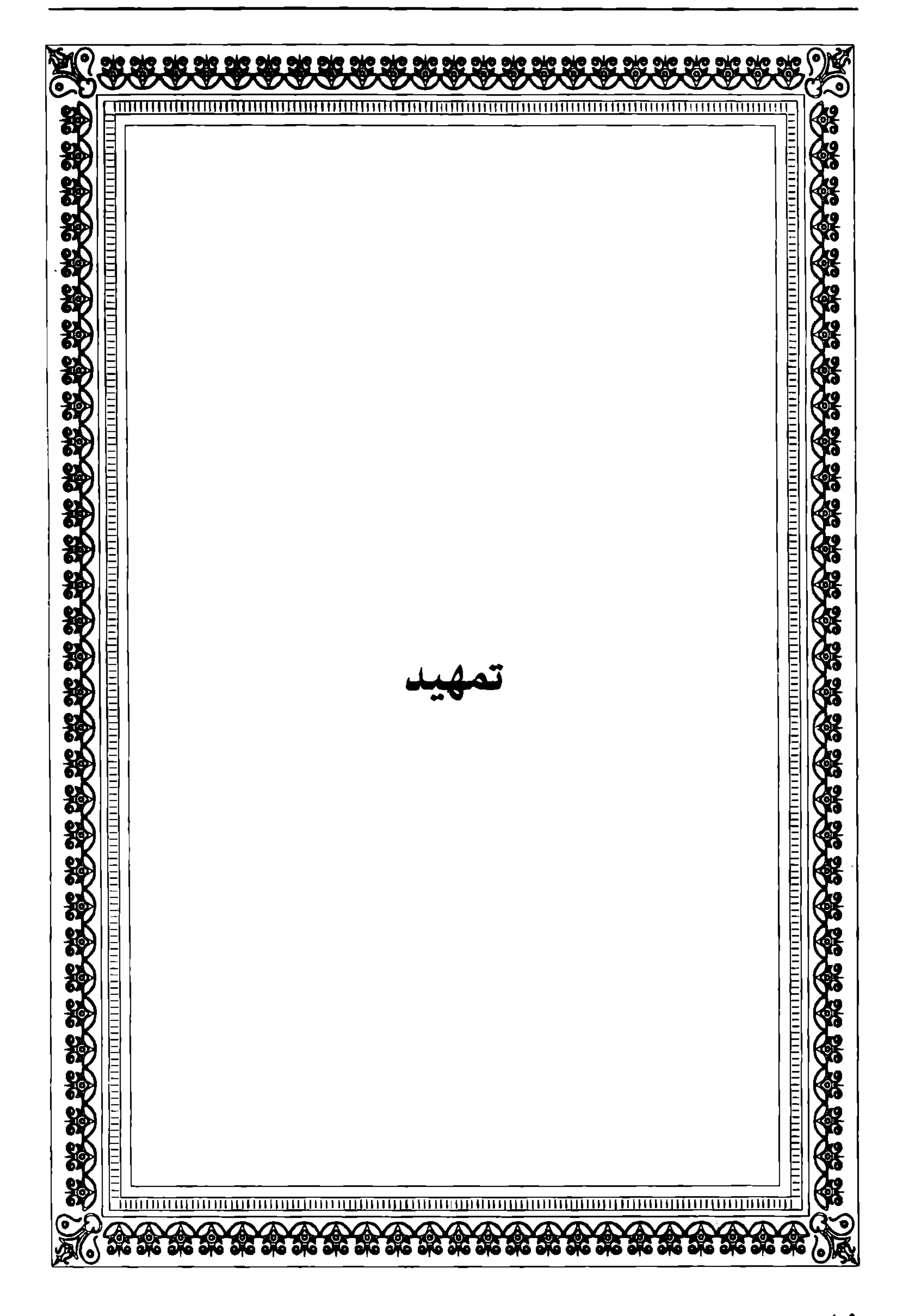
خلافاتنا، ونحل مشاكلنا. وكلها ـ كما قلت ـ خلافات ومشاكل مفتعلة أريد لها أن تناقش في أجواء من الغموض والانفعال والتبني المسبق لأفكار وأطروحات قديمة، فهل نحن مدركون لذلك حقاً؟ هذا ما نرجوه ونتمناه. ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1].

رفحاء ـ في السابع من صفر ١٤١٣ هـ = تموز ١٩٩٢ م

مشِكِن ـ شوال ١٤٢١ هـ = كانون الثاني ٢٠٠١ م

محمد الشيخ عبد الرسول السماوي

(١) البقرة: (٢٨٦).



تمهيد

تمهيد

لنفهم الإسلام.. حتى نفهم ثورة الحسين عليه السلام

لم يحظ حَدَثٌ إسلامي كبير، طيلة ألف وأربعمائة عام، وهي تاريخ العصور الإسلامية كلها، بالاهتمام الذي حظيت به ثورة الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، التي قام بها بوجه الانحراف الأموي الخطير الذي بدأ يتضح بشكل بارز في أخريات عهد معاوية وأوائل عهد يزيد، ولم يكن هذا الاهتمام مقصوراً على الباحثين والدارسين الإسلاميين، وجماهير المسلمين عموماً، وإنما شمل معظم المعنيين بالتاريخ الإنساني عموماً، والتاريخ الإسلامي والمنهج الإسلامي في النظر والتفكير والحياة.

وربما أثارت النتائج الكبيرة التي تركتها هذه الثورة على أغلب الأحداث والوقائع التي تلتها منذ ذلك الحين (سنة ٦١ هـ)، وحتى الآن، حيرة واندهاش العديدين ممن يتناولون الحوادث التاريخية بمعزل عن مسبباتها وظروفها؛ إذ كيف يمكن ـ بنظر هؤلاء ـ (لمأساة) قتل فيها قرابة ثمانين شخصاً أن تحدث هذا التأثير الهائل في مسيرة الأحداث والوقائع العديدة التي كوّنت مجمل التاريخ الإسلامي فيما بعد، مع أن حوادث مأساوية عديدة قد وقعت، وقتل فيها أضعاف الذين قتلوا في واقعة الطف، وهي المشهد الختامي من تلك الثورة التي تزعمها الإمام الحسين عليه السلام، وقد ارتكبت في تلك الحوادث المتأخرة جرائم وفظائع، فاقت في حجمها وفي بشاعتها ما ارتكب في تلك الواقعة البدرية الثانية. ومن تلك الوقائع (واقعة الحرة)، في المدينة المنورة، عاصمة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وموطن هجرته، التي استبيحت بها تلك المدينة وأهلها طيلة أيام ثلاثة بشكل لا يطاق، على يد نفس تلك الطغمة الحاكمة التي ارتكبت المجزرة الأولى، بعد فترة قصيرة من ارتكابها.

ولعل البعض يرى في هذا الاهتمام الكبير من الكتاب والمؤرخين المسلمين مبالغة كبيرة لتضخيم (حَدَثٍ) ربما لم يعرفوا هم ـ بعدُ ـ حجمه الصحيح وابعاده، إلا إذا أتيحت لهم فرصة دراسة الإسلام نفسه ومنهجه في الحكم والحياة، والظروف

والأحداث التي وقعت منذ فجر الرسالة الإسلامية وحتى بداية الحكم اليزيدي الأموي، الذي اتخذ في الظاهر، رغم اعلانه العملي صيغة الحكم المطلق، المظاهر العامة التي تعارف عليها المسلمون ومنها الأشكال المألوفة للطقوس التعبدية، وصيغ البيعة والخلافة والولاية وامرة المؤمنين وغير ذلك من المظاهر المتعارفة الأخرى التي طبعت أشكال الحكم والحياة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله.

ثورة الحسين عليه السلام، كانت الحل الوحيد لايقاف الانحراف عن الإسلام

لم تكن ثورة الحسين عليه السلام، إحدى تلك الثورات العابرة التي شهدتها الساحة الإسلامية، ولم تكن قد حدثت نتيجة رغبة خاصة ذاتية لدى قائدها أو نزعة للزعامة والملك، وإنما كانت (ضرورة) اقتضتها الأحداث التي سبقتها، وكانت الأمر الوحيد الذي لا بد من القيام به لايقاف الانحدار الهائل والانزلاق السريع نحو الهاوية التي وجد المسلمون أنهم يقفون على حافتها فعلًا، ولم تكن إحدى تلك الثورات أو الانقلابات التي يراد منها مجرد استبدال الحاكمين وأجهزة الحكم ووضع أجهزة أخرى محلها، كما أنها لم تكن نتيجة صراع بين أفراد (قرشيين) من بيوت رفيعة جعلتهم مؤهلين جميعاً ـ ما داموا بهذه الدرجة ـ للتنافس على منصب الخلافة السامي، ولا يهم ما داموا من نفس الأصل الرفيع، من يفوز منهم بهذا المنصب. كما حاول معاوية تصوير المسألة[1]، وإنما كانت امتداداً لثورة الإسلام الأولى التي رفضت القيم والأوضاع الجاهلية، وجاءت بأوضاع وقيم وتصورات ومفاهيم جديدة، لم يكن المجتمع الجاهلي يعرفها من قبل، قائمة على أساس الإسلام وحده. وقد وضعها الرسول الكريم صلى الله عليه وآله بوحي من الله جل وعلا، وبتسديد منه لتأخذ طريقها في رسم منهج كامل للحياة يختلف عن كل المناهج المتخبطة والمشوشة والضبابية بفعل الانحراف عن خط الأنبياء السابقين وعدم النضج اللذين عرفتهما البشرية منذ أوقات بعيدة وإلى ذلك الحين.

---

(١) فقد صرح معاوية بُعيد ترشيحه يزيد لولاية العهد قائلاً (... أنه لم يبق إلا ابني وأبناؤهم، فابني أحب إليَّ من أبنائهم..! العقد الفريد ـ ابن عبد ربه الأندلسي ـ ج ٥ ـ مكتبة الرياض الحديثة ـ دار الفكر ـ ص ١١١ ـ ويراجع ـ تاريخ الخلفاء ـ جلال الدين السيوطي ـ دار الفكر ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م ص ١٩٢ وقول معاوية لمن حذره من استخلاف يزيد: «نصحت وقلت برأيك وإني لم يبق إلا ابني وأبناؤهم، وابني أحق»).

ولم يكن المنهج الإسلامي في الحياة منهجاً (أخلاقياً) مجرداً أو (أفلاطونياً) لا وجود له إلا في الخيال، وإنما أخذ طريقه بشكل عملي فاعل، راسماً بوضوح طرق الأداء الحياتي والسلوكي اليومي للإنسان بكل تفصيلاتها وتعقيداتها ومتغيراتها، بشكل يحقق التوازن الواقعي بين الرغبات والغرائز والمتطلبات الاجتماعية والحقوق والواجبات، ويحقق توافقاً منسجماً متناغماً لعموم أبناء المجتمع على أسس وتفصيلات جديدة جاء بها الدين الجديد، والذي بقي جديداً دائماً بما يملكه من عناصر القوة والديمومة والقدرة على توجيه الحياة الإنسانية وقيادتها، ما ظلت هذه الحياة قائمة، وإن تنوعت معطياتها وأشكالها ومنجزاتها العلمية والحضارية في مختلف بقاع الأرض. إذ أن الإنسان هو الإنسان نفسه في كل زمان ومكان، مهما اختلفت ظروفه وأوضاعه، غير أن قيادة الإسلام للحياة، وقدرته على توجيهها، رهين بحاملي هذا الدين (الوعاء الذي يحمله ويحفظه)؛ رهين بالمسلمين أنفسهم، وقدرتهم على التحرك الصحيح وفق التصور والفهم الصحيح له.

ولا شك أن الإسلام بقدرته المحركة القادرة على توجيه البشرية وقيادتها دوماً، يمتلك المقومات التي تتيح له السيطرة الدائمية على الإنسان بشكل متوافق مع حركته ومنسجم معه ومعبر عن طموحاته ورغباته وتوجهاته التي لا تتقاطع مع فطرته وحاجاته الأساسية ورغباته وغرائزه. غير أن المهمة الدائمية للإسلام تتمثل بتحقيق التوازن والانضباط لضمان عدم انفلات الغرائز والرغبات الإنسانية وخروجها عن الأطر البشرية المطلوبة التي تضمن تحقيق سعادة الجميع.

ولكي يظل الإسلام متمكناً من قيادة البشرية وفق توجهاته ومعطياته، ولكي لا تتميع قيمه أو تذوب أو تذوي بفعل الزمن واختلاف الأمكنة والبيئات والحكام، ولكي يظل يفعل فعله في النفوس، ويملك القدرة على التغيير والبناء، فلا بد من امتلاكه مقومات أساسية من شأنها أن تجعل الإنسان في حالة مراقبة دائمية لنفسه وأوضاعه ومجتمعه، وتحمله مسؤولية البناء والتغيير ودفع أي انحراف عن المنهج الإسلامي الشامل، والتصدي له بكل الأشياء المتيسرة، وانكارها باليد أو اللسان أو القلب، وجعل الإسلام الاصرة الوحيدة التي تشد أعضاء المجتمع المسلم إلى بعضه على الأسس والمبادىء التي أوضحها هذا الدين الشمولي العام، وهذه المقومات موجودة فعلاً في الإسلام، ويمكن تلمسها بوضوح في القرآن الكريم والسيرة المطهرة.

إن هذه المراقبة الدائمية ترتب على المسلم مسؤولية التقويم المستمر لنفسه ومجتمعه على السواء، كونه راعياً في هذه الأمة ومسؤولًا عن رعيته، وتمنحه زخماً إضافياً وشحنة دائمية تشعره بأهمية وجوده في هذه الحياة، وأنه لا يعيش على هامشها، وإن كان لا يتمتع بدور (رسمي) واجتاعي مرموق.

وهذا التصور الإسلامي للحياة والمجتمع، لا بد أنه يستهدف الإنسان العادي ويطلب منه التصرف على أساس فهمه واستيعابه، مع الحث المستمر على ضرورة رفع مستوى هذا الفهم والاستيعاب أما الآخرون الذين يمتلكون مؤهلات علمية متنوعة، ابتداء من المتعلمين العاديين وطلبة العلوم الدينية وحتى المتخصصين بالدراسات العلمية والفقهية العالية، فلا شك أن مسؤولياتهم تتسع بشكل كبير، وحسب علمهم وفهمهم. أما الراسخون في العلم، المتيقنون، فلا شك أن مسؤولياتهم أعظم وأشمل ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]، وهؤلاء ـ بلا شك ـ هم الصفوة المختارة التي أثرها الله بالنبوة والإمامة، ولا شك أن تصرفاتهم تنبع عن علم ويقين ثابتين، لا مجال معهما لأي تردد أو انحراف. إنه العلم المطلق والإيمان المطلق واليقين المطلق.

لذلك فإن علينا، عند تناولنا لهذه الثورة الكبيرة، أن لا نأخذ أحداثها بمعزل عن فهمنا لمركز الإمام الحسين عليه السلام وشخصيته ومسؤولياته وعلمه وتصوراته، فمثل هذه الدراسات ستظل ناقصة مبتورة ما لم نفهم المهمات الكبيرة الموكلة لهذا الإمام، وطبيعة نظرته المتيقنة للإسلام، ودوره القيادي في توجيه الأمة والنهوض بها، مهما كانت التضحيات والمتاعب التي قد لا يحتملها الإنسان العادي..

هل كان متوقعاً أن يكون يزيد خليفة للرسول ﷺ

كما أن علينا أن نفهم الظروف التي سبقت قيام هذه الثورة، والتباين الكبير، بل الهائل بين (المتخلّف) عن الأمة، وهو يزيد، وبين الأصل الذي أريد لهذا أن يكون خليفة له، وهو رسول الله ﷺ.

ولا شك أنه أمر مثير للمرارة والسخرية على السواء، تصور تولي يزيد وأشباهه فيما بعد، مهمات رسول الله ﷺ في قيادة الأمة الإسلامية وتوجيهها، بعد أن انتزعوا

---

(١) الزمر: ٩.

هذه السلطة، أو انتزعت لهم على الأصح، بالقوة والإكراه من أصحابها الحقيقيين. وأن يكونوا على رأس الحكومة الإسلامية التي يفترض أن تكون مؤهلة ـ علمياً ونفسياً ـ لبرمجة كل فعاليات ونشاطات المجتمع الإسلامي، على أساس من الفهم الواعي والتدبر الدقيق للقرآن والسنة؛ أي للإسلام بجملته، وهذا أمر يفتقدونه بكل تأكيد، كما تجمع كل الوقائع والروايات التاريخية المختلفة، وحتى تلك المتحيزة إلى جانبهم، كما سنلمس ذلك خلال استعراض فصول هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

وإذا ما تخلى الرجال الأقوياء المؤهلون فعلًا، مثل الحسين عليه السلام عن واجباتهم ومسؤولياتهم، ولو كان ذلك بالإكراه، وتركوا الساحة لمن لا يصلحوا حتى لتحمّل مسؤولياتهم الشخصية. وإذا ما ذهبوا إلى حد وضع أيديهم بأيدي هؤلاء، مبايعين ومؤيدين وأتباعاً، كم كانت الخسارة ستكون فادحة، والثمن باهظاً لو حصل ذلك بالفعل؟.

هذا ما ينبغي أن يشار إليه عند التطرق إلى أمثال هذه الدراسات، كما أن الخلفيات التاريخية والممهدات التي كانت وراء وصول يزيد إلى (كرسي الخلافة) الذي أصبح كرسياً للملك يتصرف به الوريث المدلل كيف شاء، يجب أن تؤخذ بنظر الاعتبار عند دراسة هذه الثورة بالذات.

لا خيار إلا التضحية

وعلينا أيضاً أن نطرح تساؤلات عديدة أخرى، ونفرد لها مباحث خاصة:

هل أن الخيارات كانت مفتوحة أمام الإمام الحسين، ليتخذ أحدها كأسلوب بديل لمواجهة السلطة الأموية المستبدة، أم أنه كان لا يملك إلا أن يقوم بما قام به؛ فأما البيعة ليزيد والاقرار له بالحاكمية المطلقة بدلًا من حاكمية الإسلام، وأما الثورة عليه وسلوك طريق التضحية والفداء والاستشهاد بالشكل الذي تم فيه، في هذه العملية البطولية النادرة الملفتة للنظر والمثيرة للانتباه دائماً بما حفلت به من معطيات كبيرة، فقد قام من ينبغي أن يكون الخليفة الشرعي للمسلمين وولي أمرهم، بتقديم نفسه وأهل بيته وأصحابه قرباناً من أجل قيام الخلافة الشرعية، ومن أجل وقف انحدار المجتمع الإسلامي برمته نحو الهاوية التي وضعه معاوية على حافتها، ولم يهمه أن يكون هو الضحية، ما دام سيحفظ بذلك الأسس والقواعد التي تجعل من هذه الخلافة مشروعاً قائماً ومستمراً أمام مستحقيها، وأمراً مستحيلًا أمام كل من لا يستحقها ولا

يمتلك المؤهلات اللازمة لتوليها. وما دام بذلك يوقف الانحدار وينبه الأمة إلى نتائجه الحتمية.

إن وقفته تظل ماثلة على الدوام، تنبه دائماً من غفل عن حقائق الإسلام ومبادئه، وتدعو إلى الرجوع إليه وانتهاج خطه وطريقه. هذا ما يجب أن نتأكد منه عند تناولنا هذه المسألة الحساسة التي ذهب فيها المؤرخون والمفكرون مذاهب شتى.

ثم إن مسألة أخرى مهمة ينبغي أن تطرح قيد البحث، وهي: من الذي استفاد من عطاءات هذه الثورة التي أعادت للمسلمين عزيمتهم وشموخهم وللإسلام حياته وقوته؟ ومن هو المدين لها حقاً..؟ هل هم الذين اتخذوا التشيع ونهج آل الرسول صلى الله عليه وآله مذهباً لهم؟ أم أنهم كافة المسلمين المتصدين للأنظمة الطاغوتية التي اتخذت النموذج (اليزيدي الأموي) مثالّا لأساليبها وطرائقها في الحكم والحياة..؟.

ولماذا يقف العديد من أبناء الأمة الإسلامية، من كل المذاهب، أمام هذا النموذج الأموي المتجدد والماثل أمامهم بصيغ واشكال مختلفة، مضحين بكل ما يملكون..؟ أليس من أجل إعادة قيام الإسلام ثانية، ومن أجل تشذيبه وتطهيره من كل الشوائب التي علقت به عبر هذه القرون الطويلة؟.

لو لم يتصدَّ الحسين عليه السلام ليزيد لما تصدى أحد بعده لأمثال يزيد.

كيف ينبغي أن تدرس ثورة الإمام الحسين عليه السلام

ونتساءل أيضاً: كيف ينبغي أن تدرس الثورة هذه وتستعرض وتطرح للبحث؟ هل ندرسها بعقلية المستشرقين الأجانب الذين لا يدينون بالإسلام ولا يحملون أو يفهمون تصوراته وأسسه الحياتية والفكرية ـ العملية غالباً، والذين قَدْ يرون في الثورة ـ من وجهة نظرهم الغريبة ـ مجرد صراع على الحكم لا غير بين شخصين قد لا يختلفان عن بعضهما (بالمؤهلات الرفيعة) كعراقة الأصل..! إذ أن كلاهما من قريش، زعيمة العرب وحاملة لواء السيادة فيهم.. (كما حاول معاوية نفسه أن يوحي بذلك بالضبط) ـ ونكون بذلك قد درسناها بمعزل عن (الإسلام) الذي قامت من أجل بقائه وسيادته؟ أم ندرسها من خلال فهم خاص، هو الفهم الإسلامي الشمولي، الذي يرى أن رأس الدولة، ليس مجرد شخص، يتيح له مركزه السامي التمتع بامتيازات تشبه تلك التي يتمتع بها الملوك المطلقون، وإنما يرى فيه رمزاً حقيقياً للإسلام، يحكم باسمه، بل يحكِّمه وينهج نهجه، ويمتلك مقومات الفهم والنظر والاستدلال والحكم الصائب،

ولعله يتحمل من المشاق والصعوبات وشظف العيش والالتزامات أكثر مما يتحمله الآخرون.

هل علينا أن ننظر إلى الإسلام، كما نجده الآن فعلًا، مجرد طقوس وفروض تعبدية مجردة، تؤدى على هامش الحياة وبمعزل عنها أما الحياة نفسها فتؤدى بقوانين وأنظمة غريبة عنه..؟ أم أن علينا أن ننتظر ممن يحكم باسم الإسلام أن يحكم الإسلام، وأن يكون هو أول من يحتكم إليه.

إن علينا، وقد ابتعدنا قروناً طويلة عن بدايات ظهور الإسلام والجو الذي ظهر فيه والعقلية التي حملته بحكم قربها من الرسول ﷺ وبحكم استمرار بعض الصحابة الذين حملوا تلك العقلية أحياء بعد وفاته ﷺ لسنوات عديدة أن ندرس المقومات التي كونت تلك العقلية الإسلامية والتي لم يرد لها أن تنقطع بمجرد وفاة حملتها الأوائل أو اختفائهم من مسرح الحياة، مع التأكيد أن الجميع لم يحملوا تلك العقلية بنفس الدرجة من الفهم والوضوح.

بين التصور الأموي.. والتصور الإسلامي

إن كثيرين ممن لا يفهمون الطبيعة الدافعة المحركة والفاعلة للإسلام والمؤهلة لقيادة الحياة وتوجيهها والتحكم فيها وجعلها تنسجم معه ومع كل ما فيه من مقومات الفعل والتأثير والتغيير الإيجابي المتوافق مع متطلباتها اليومية ووفقاً للمنهج الإلهي المنزل والكامل والمسدد بالوحي والإرادة الإلهية الحكيمة. هؤلاء الذين لا يدركون تلك الرابطة القوية مع الإسلام، يثير حفيظتهم اصرار الإمام الحسين عليه السلام على المضي قدماً في مهمته التي كانت تبدو محفوفة بالمخاطر والمتاعب (لانتزاع) الحكم من السلالة الأموية الممثلة بيزيد والتي أرادت أن تجعله وراثياً مطلقاً، وقد جعلته كذلك بالفعل، ومهدت لهذا النمط الملكي الوراثي المطلق ليأخذ دوره كنمط (مقبول) بل (لا بد منه) لحكم البلاد والعباد، وجعلت من الإسلام مجرد غطاء (شرعي)، حكمت باسمه، وجرّدته من كل حيويته وقابلياته الفعلية للتأثير، حتى بدا كذلك بالفعل، مجرد تعاليم وطقوس (تتقاطع) مع (الواقع)، ولا تتمكن من قيادة الحياة بشكل فعلي.

وكان رأس هذه السلالة (أبو سفيان)، (الطليق) الذي أجبر على اعتناق الإسلام عند فتح مكة، بعد أن كان على رأس الحركة المناوئة للإسلام منذ بداية التنزيل، قد

رأى أن (ملك محمد أصبح الغداة عظيماً)، وصرح عندما تحدرت الخلافة إلى عثمان ـ الذي كان ينتمي إلى البيت الأموي (تلقفوها يا بني أمية تلقف الكرة)، منكراً في تصريحه ذاك الجنة والنار، والله سبحانه ـ نفسه.

إن هذا التصور الأموي المعلن على لسان عميد الأسرة الأموية، وجد له أفضل صدى عميق في أذهان أعقاب هذه السلالة، وفي مقدمتهم الرأس الآخر الحاذق الداهية، معاوية بن أبي سفيان (الطليق) الذي (أسلم) بذات الوقت الذي (أسلم) فيه أبوه، تحت وطأة الحراب والسيوف، والذي كانت كل تصرفاته وانماط سلوكه تدل على أنه كان لا يحكم الإسلام إلا في الظاهر، وطبع أنماط الحكم المتأخرة بطابعه الخاص طيلة مئات من السنين، وأصبح (طابع معاوية) ولمساته وطرائقه وأساليبه في الحكم هي الطرق المألوفة (المؤهلة)، (والقادرة بشكل فعلي وواقعي) على القيادة والتأثير، والجديرة بالبقاء. لما أثبتته من (قدرات سابقة)، ملموسة ومجربة طيلة عهود وأزمان طويلة امتدت منذ بداية الحكم الأموي، ولا تزال ترى هنا وهناك في مختلف بقاع العالم الإسلامي.

وطبيعي أن يزيد، ذا الادراك والمؤهلات المحدودة قياساً لأبيه الأديب الداهية! فهم الأمر كذلك، كإحدى المسلمات الطبيعية. وفهمه كذلك من جاء بعده أيضاً، لأن من مصلحتهم أن يفهموه كما فهمه أسلافهم ـ بعيداً عن الدين وتصوراته وقيمه. وقد رأوا أن من مصلحتهم أن ينشروا فهمهم هذا بين أبناء الأمة لتتطبع عليه ويكون هو النمط الأساسي الوحيد المتقبل.

وقد راح أولئك الذين أخذوا على الإمام ثورته وعزمه على المضي إلى النهاية لتعرية وكشف زيف وأباطيل الادعاءات والافتراءات الأموية بشأن الخلافة والحكم، (بضربة) حاسمة، تركت طابعها المؤثر على الضمير الإسلامي والإنساني عموماً، والاقدام بكل شجاعة وثبات لاعلان الرفض القاطع لكل تلك الأباطيل الدخيلة والدعوة إلى ما دعا إليه جده ﷺ، أي إلى الإسلام كله بكل نقائه ووضوحه واستقامته. راحوا يصورون قيامه بهذا الأمر، وكأنه يقوم بمغامرة فاشلة ومجازفة لا جدوى منها أمام السلطان القوي الكاسح لِ (خليفة المسلمين) و(أمير المؤمنين) الذي (أجمعت) الأمة على مبايعته والانقياد له، وتجمعت حوله بعد فرقة طويلة وفتن عديدة. . !! مع أنهم أعرف الناس بالكيفية التي أخذت له فيها البيعة، وكيف مُهِّدَ السبيل لها. غير أن التصورات المسبقة والتحيز القديم المدعم بالتفسيرات

الاستشراقية الطارئة الغريبة التي تنسب لنفسها (الموضوعية) و(العلمية) تجعل من الصعب عليهم التحول إلى المنظار المعقول والواقعي الذي ينظر الإسلام من خلاله إلى الأمور جميعاً ومنها أمور الخلافة والحكم.

ذهب الأمويون وبقيت أساليبهم

اننا لا ينبغي أن ننفي هنا اختفاء أو ضعف تأثير الأسلوب الأموي في أذهان الكثيرين من (العلماء) و (المؤرخين)، الذين ينحازون إلى صفه بحكم بقاء نفس هذا النموذج المتكرر وأشباهه لحد الآن، وإن كان ذلك يبدو بصيغ وأشكال أخرى، قد تدعي ـ نفسها ـ رفض أو نبذ هذا النموذج، مع أنها تنتهجه في الواقع مغيرة ومشذّبه ومحسنة لبعض المناظر واللوحات الظاهرية.

ومن الطبيعي أن يكون من شأن هؤلاء الرافضين للأسلوب الحسيني في التصدي ليزيد ومن سيأتي من بعده، وهم يعيشون في ظل المؤسسات المكرورة المعادة للشكل الأموي، ويكتسبون مما تغدقه عليهم هذه المؤسسات، وربما خوفاً من سطوتها وجبروتها، التقليل من أهمية الدور العظيم الذي قام به الإمام الحسين عليه السلام لاعادة الإسلام إلى موقعه الأول.

كما أنِ من شأن كل تحرك إسلامي قام على مر العصور وإلى يومنا هذا، أن يستلهم تلك الثورة الرائدة التي أراد لها الإمام أن تمس كل ضمير حي وكل عقل نيِّر يرى ضرورة العودة إلى الإسلام الحقيقي، لا المسخ الذي صوروه بصورة الإسلام، وألبسوه ملابس مهلهلة من (الطقوس) (العبادات) المجردة المنفصلة عن واقع الحياة.

ولعل دراسة شخصية الإمام الحسين عليه السلام الناضجة الغنية، والتي تشكل امتداداً لشخصية جده رسول الله صلى الله عليه وآله وأبيه، أمير المؤمنين عليه السلام ـ تأثرت بهما وانطبعت بطابعهما ـ تجعلنا ندرك أبعاد عقليته، والدوافع الكامنة خلف تلك الثورة التي تجعل الجميع يفكرون بجد، وهم يقفون على نفس مفترق الطرق الذي وقفت عليه، ويؤثرون في النهاية، انتهاج نفس الطريق الصحيح، بل الوحيد الذي انتهجته، والذي يؤدي إلى احياء الإسلام في نفوس المسلمين وبسط نفوذه إلى الأبد.

المأساة.. كيف ينتصر الدم

إن كثيرين نظروا إلى الثورة من جانبها المأساوي البحت، الذي تمثل بقيام الطغمة الحاكمة باعداد جيش كبير لابادة سبط الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه، والتمثيل

بجثثهم، وقطع رؤوسهم والطواف بها، وحرق مخيمهم وسلب ممتلكاتهم، والتنكيل بأطفالهم ونسائهم، قاطعين الحدث عن مسبباته ونتائجه، وغابت عنهم جوانب كثيرة من الوقفات الشجاعة للحسين وصحبه وحتى النساء والأطفال، خلال المعركة وبعدها، وحتى عندما أخذ الأطفال والنساء أسرى لابن زياد في الكوفة ويزيد في الشام، مدركين أنهم لا بد أن يؤدوا هذا الثمن الباهظ في سبيل هذه المهمة الكبيرة.

كما غابت عن الكثيرين المعطيات العظيمة التي لا تنفد والتي يمكن استخلاصها من تلك المواقف الشجاعة النادرة، ونتائج تلك الثورة العملاقة، ولعل سر قوة هذه الثورة تكمن خلف تلك الوقفة الباسلة المصممة إلى جانب الحق، مع معرفة النتيجة، وهي الموت المحقق الأكيد. انها تحفّز الذهن البشري للتساؤل دائماً عن سر تلك القوة التي امتلكتها تلك النفوس المنتصرة وهي تواجه كل قوى الشر المتحفزة للانقضاض عليها. إنها تجعلنا نفكر: كيف جاز للبعض أن يعتبرها هزيمة، مع كل ما حققته من نصر.

لقد صمد الحسين عليه السلام وسار دون تردد، ولم يهزم أمام المخاوف البشرية العادية، وقد طالعته التهديدات والتحذيرات المختلفة طيلة سيره من المدينة إلى الكوفة، مروراً بمكة، وقد انتصر على تلك المخاوف، كما انتصر أصحابه، وأثبت للأمة أن التضحية بالحياة لا تشكل خسارة كبيرة أمام النتائج المتوقعة، بل إن حفنة متبقية من سنين العمر، لا تعد شيئاً ذا بال أمام ما سوف يتحقق.

وهكذا فليس لنا أن نناقش قضية انتصار الإمام عليه السلام من وجهة نظر غير إسلامية، لا ترى ما يراه المسلمون، وأن نستعمل أدواتنا الخاصة في الدراسة والنظر وعلينا أن لا نستعير أدوات غيرنا قبل أن نتأكد من صلاحية وسلامة الأدوات التي نستخدمها والتي تخصنا نحن، وليس فيها ما يثبت عدم قدرتها على تلبية حاجاتنا واجابة مطالبنا، بل لعل أولئك الذين لم يكتشفوها بعد هم الأكثر عجزاً عن فهم هذا الدين.

ما مِن شهيد في الأرض كالحسين عليه السلام

إن أدواتنا الإسلامية في النظر والاستدلال ستثبت لنا حتماً أن الحسين عليه السلام قد حقق نصراً حاسماً، كما انتصر رسول الله صلى الله عليه وآله، حينما عزم على اقامة العقيدة في الأرض ومواجهة كل طواغيت الأرض، رغم ما ناله من كيد وأذى، وكما انتصر

الأنبياء السابقون رغم أنهم قد طوردوا وعذبوا وأهينوا ونكل بهم. (والحسين ـ رضوان الله عليه ـ وهو يستشهد في تلك الصورة العظيمة من جانب، المفجعة من جانب، أكانت هذه نصراً أم هزيمة؟ في الصورة الظاهرة وبالمقياس الصغير كانت هزيمة. فأما في الحقيقة الخالصة وبالمقياس الكبير فقد كانت نصراً. فما من شهيد في الأرض تهتز له الجوانح بالحب والعطف، وتهفو له القلوب وتجيش بالغيرة والفداء كالحسين رضوان الله عليه. يستوي في هذا المتشيعون وغير المتشيعين. من المسلمين. وكثير من غير المسلمين)[1].

لقد نفذت هذه الثورة بسرعة إلى الجماهير المظلومة المغلوبة في كل العصور، ففهمتها أكثر من غيرها، وجعل كل واحد من أفرادها نفسه من أصحاب الحسين، وإن لم يضرب معه بسيف أو يحمل برمح ولم يستشهد معه، ووقفت على طريقتها تتلمس خطاها دائماً، وتتمنى أن تنال ما ناله الأصحاب الأوائل من شرف الشهادة والموت في تلك المعركة المظفرة.

ثورة دائمة.. ثورة ناجحة

كما أن هذه الثورة قد وضعت الحاكمين أمام محك كبير، أصبحوا لا يملكون معه، إلا الالتفات إلى شعوبهم بحذر، كلما عنَّ لهم أن ينحرفوا عن الإسلام، حاسبين لها حساباً كبيراً دون اهمالها واسقاطها من الحساب كما فعل يزيد ومتخلّفون عديدون بعده.

ومع أن الإمام الحسين عليه السلام في وقوفه المتحدي أمام جيش ابن زياد الهائل، لم يطح بيزيد في تلك المعركة، فإنه وضع العصا في عجلة الحكم الأموي، ومهد لسقوط الأنظمة المنحرفة عن الإسلام، لا خلال حقبة الحكم الأموي وحسب، وإنما خلال الفترات التي أعقبتها وإلى يومنا هذا، فهي بالتأكيد ثورة ناجحة، حققت كل أهدافها، وجعلت الجميع يلتفتون إليها التفاتة واضحة، ولا تزال تفعل فعلها في التغيير وفي تعميق الوعي الإسلامي والشعور بالمسؤولية، ولا تزال تمتد ثورة دائمة وأماً لكل الثورات، وهدفاً لكل الثائرين الذين يرون في الحسين صورة لجده صلى الله عليه وآله وسلم وأبيه عليه السلام المضحين والمستهينين بالموت وكل ضروب الأذى والتنكيل في سبيل

---

(١) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ دار العلم للطباعة والنشر بجدة ط ١٢. ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م. جـ ٢٤ م ٥ ص ٣٠٨٦.

العقيدة التي رفعا لواءها على رؤوس الجميع، ولم يأخذ أحد عليهما، وخصوصاً على النبي ﷺ ـ كما يفعل البعض مع الحسين ـ إنهما اندفعا بمغامرات خاسرة، في سبيل أهداف ومبادىء قد لا تتحقق، وقد تحف بها المصاعب والمشكلات، ونسوا على الخصوص ما تعرض له النبي ﷺ من أذى ومخاطر، بوقوفه الأعزل ـ إلّا من سلاح الإيمان ـ أمام قريش العاتية المتجبرة الغاضبة على هذا الذي ينال من آلهتهم وقوتهم ومركزهم، واحتمال قتله على أيدي أولئك الجبابرة بمثل القتلة التي قتل فيها الحسين عليه السلام، بعد أن انتصر الإسلام وأجبر أعداءه على الاستسلام في النهاية، ولو أنه قتل قبل اتمام رسالته وانتشار دين الله، ربما لم يزد أولئك المؤرخون والباحثون على أن يقولوا عن دعوته إنها مجرد مغامرة أو نزوة. ولظلت الاتهامات التي كيلت له بالسحر والجنون والكذب وغيرها، تكال له إلى اليوم.

النموذج الأموي السائد يدافع عن النموذج الأموي الأول

لقد حكم الدولة الإسلامية شخص (مسلم) بالاسم فقط، وكل ممارساته وأفعاله دلت على أنه كان بعيداً عن الإسلام، بل وكان معادياً له، جسَّدَ ذلك سلوكه الفاضح وتصرفاته المعلنة التي لم يحاول اخفاءها والتعتيم عليها، لقد حكم باسم الإسلام مدعياً أحقيته بخلافة رسول الإسلام ﷺ، أي أنه ليس مجرد شخص من المسلمين، بل هو أميرهم، بل (أمير المؤمنين)، ولنلاحظ ما تعنيه كلمة (المؤمنين) وما تحفل به من معان كبيرة.

ماذا تصبح المسألة الآن أمام أولئك الذين يعرفون الإسلام معرفة حقة، ويعرفون الرسول ﷺ معرفة تامة، ويرون أمامهم هذا (الخليفة) المسخ الذي يجلس على منبره ويدعي خلافته لمجرد أنه ورث ذلك عن أبيه، المغتصب السابق للخلافة.

وحيثيات المسألة مذكورة ومفصلة في كتب التاريخ، وسنستعرضها بعون الله في حينها، هل يتخلون عن المسألة برمتها، وعن الإسلام نفسه، ويتركون الأمر للقوة الغاشمة التي جاءت بهذا المتخلّف إلى سدة الحكم؟. ويحنون رؤوسهم أمام عاصفة البغي والدمار التي هبت عليهم وحاولت اكتساحهم؟ أم أن مسؤولياتهم تبدأ منذ تلك اللحظات التي تعرضوا فيها لهذه المحنة القاسية، المتمثلة بإقصاء الإسلام عن الحياة وعزله عنها لانهاء هذه الحالة الشاذة.

إننا ينبغي أن نعرف طبيعة العقلية الإسلامية والتصور الإسلامي لكل قضايا

الكون والحياة والمجتمع هل هي عقلية تكتفي من الإسلام بالطقوس والشعارات وبعض الممارسات المجردة وتترك كل ما جاء به الإسلام من تشريعات ونظم وطرائق للحياة والعمل ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾[1]، أم أنها عقلية تفهم الإسلام كله، وتريد الأخذ به كله، ولا تضعه على الرف، وتقف هي على التل تتفرج وتنتظر ما سوف تتمخض عنه الأحداث.

إنها تصنع الأحداث وتوجهها على ضوء فهمها الشمولي الواضح للإسلام.

إذا ما أدركنا ذلك، أصبحت الإجابة عن الكثير من التساؤلات سهلة ميسرة، واستطعنا أن نفهم لماذا أخذ الحسين على عاتقه القيام بهذه المهمة الصعبة ولم يؤجلها إلى أبعد من ذلك الوقت، واستطعنا أن نفهم أيضاً سر نجاحها الباهر عندما قامت في ذلك الوقت بالذات، وامتدت أماً لسائر الثورات الحقيقية التي عصفت بالكثير من الأنظمة المستبدة البعيدة عن روح الإسلام وقيمه ومبادئِه، فمن أولى من الحسين بالفهم الشمولي الصحيح للإسلام.

إن بعض هذه الأنظمة ـ القائمة على أسس بعيدة عن الإسلام ـ في محاولاتها المحمومة للبقاء والامتداد، تتظاهر برفع بعض الشعارات التي حملتها تلك الثورة، وتدعو في الظاهر إلى بعض ما دعت إليه، في محاولة لكسب الجماهير الإسلامية، المتحيزة عن وعي وفهم إلى صف الإسلام وصف تلك الثورة الأولى الرائدة المحفزة على الدوام، وربما أصبح وعي الجماهير الآن بدرجة من الوضوح يجعلها تدرك حقيقة وصدق الشعارات المطروحة، ويجعلها لا تنساق بسهولة ويسر وراء حامليها والمتاجرين بها.

إن النموذج الأموي (المتحرر) من (قيود) الإسلام والتزاماته، برز على ساحة الأحداث منذ مدة طويلة، ولا يزال لذلك، فإن أنظمة الحكم هذه، حينما تدافع عن النموذج الأموي الأول وتدفع كتابها ومفكريها و (مُنظِّريها) لإيجاد مبررات شرعية لوجود وصلاحية ذلك النموذج، والتقليل من شأن أي حركة أو ثورة مناوئة له ـ بما فيها ثورة الحسين بالطبع ـ فإنها بذلك تحاول إيجاد المبررات لشرعيتها هي وبقائها، كأنظمة صالحة وصحيحة، بل وأنظمة نموذجية مثلى، لا ينبغي لأحد أن يرى وجه

(١) البقرة: ٨٥.

حق في الخروج عليها لأي سبب من الأسباب، فتروح في حملة الدفاع المحمومة عن نفسها تأخذ على الحسين قيامه بوجْهِ يزيد وترى في ذلك وقوعاً في الفتنة وترويجاً للشغب والمرج، وخروجاً على الحاكم (الشرعي) الذي (اختارته) الأمة (وبايعته) و (أجمعت) عليه، فهو إذاً خروج عن الإسلام، ويقتضي العقاب والردع، وطبيعي أن امكانات هذه الدول التسليحية والتعبوية والمالية، لا تتناسب مع امكانات الثائرين والمصلحين والمنتفضين، المحدودة غالباً، والذين يعلنون عن مواقفهم ورفضهم بمجرد أن يتطلب الظرف ذلك، دون الانتظار الطويل لتحشيد المزيد من القوة والأعوان والسلاح، وقد يقوم بعضهم بمهمة التصدي والرفض والثورة لوحده، إن استدعى الأمر ذلك، مستلهماً عزيمة الإسلام وصدق المبادىء التي يحملها.

كتّاب الدولة ووعّاظ السلاطين

لقد وجدنا من ذكر ـ كما روت لنا كتب التاريخ المختلفة، والتي يكاد بعضها يروي عن بعض ويستنسخ نفس الأقوال والروايات ـ أن كثيرين قد حاولوا اقناع الحسين عليه السلام بالعدول عن الذهاب إلى العراق والثورة على يزيد، إذ أن ذلك كان يعني الموت المحتم له ولأصحابه.

ومن هؤلاء الذين حاولوا اقناعه بعض من يمتون إليه بصلات وثيقة من القرابة أو النسب أو الصداقة، وبالتأكيد فإن هؤلاء يحرصون على حياته، أي أن دعواتهم لبقائه كانت (صادقة) حريصة مخلصة.

لقد كان الأمر يبدو ـ في ايحاء مدروس، للقارىء والمتابع لفصول الحوادث ـ وكأنه أمرُ حكم يريد الحسين انتزاعه من يزيد أو أنه نزوة أو رغبة محمومة في رأس إنسان مغامر رأى أمامه فرصة للحكم والسلطان، وأنه ـ حينما لم يستجب لنصائح المحذرين العقلاء وبعضهم من أقاربه وأصدقائه، ولم يقعد كما قعدوا ـ فإنه المسؤول الوحيد عن ذهاب نفسه و (ضياعها) وقتل أصحابه ونهب ثقله ومتاعه وأذى صبيته ونسائه.

إن أية ثورة مماثلة ـ مهما بلغ أصحابها من علو الشأن والمكانة والمنزلة، ستفسر على أنها نزوة أو مغامرة طائشة تستهدف تفريق الأمة وتشتيت وحدتها. إنها التلويح المسبق لكل ثائر محتمل، أن ثورته لن يقضى عليها وحسب، بل وستفسر

أسبابها ودوافعها بمثل ما فسرت به دوافع تلك الثورة الأولى، وهذا ما حصل بالضبط على مر العصور، وهذه مفردات الحوادث تروي لنا ذلك[1].

لقد فات هؤلاء أن من ينتهج درب تلك الثورة الأولى، يبتهج حقاً ويفتخر إذا ما فسرت دوافعه بمثل ما فسرت به دوافع الحسين وأصحابه، وقد لا يهمه محاولات تشويه صورته بعد أن قدّم نفسه وبذلها في سبيل الإسلام.

قصص عن نصائح مزعومة

إن من المؤكد أن بعض القصص التي رويت عن المحاولات التي بذلت لايقاف الحسين ومنعه من الذهاب إلى العراق، موضوعة وملفقة، وكان يراد منها التأكيد على خطأ المسار الذي اتخذته الثورة منذ البداية... وإذا ما صحّ قيام البعض باسداء (النصيحة) بعدم المسير، فإن ذلك ربما يكون نابعاً عن تصور محدود لدى هؤلاء لطبيعة مهماتهم كمسلمين، في وجه الانحراف، ولا بد أن هذا التصور لم يصل إلى مستوى تصور وفهم الإمام الحسين عليه السلام نفسه، لكي يقوم بمهمة ايقاظ النفوس والعزائم الميتة والنائمة ورفع حالة اللامبالاة والاهمال اللذين سادا وتولدا نتيجة قيام القيادة الأموية المتمثلة بمعاوية ويزيد من بعده ـ والتي لا تنظر إلى الأمور إلا من منظار مصالحها ورغباتها ـ بانتزاع وسلب السلطة من الإسلام ومن الخلفاء الشرعيين المؤهلين والمعدّين لقيادة الأمة قيادة صحيحة عادلة، وممن كان مركزهم يبدو أفضل وضعاً من مركز الإمام الحسين من الناحية العسكرية والتعبوية كأمير المؤمنين عليه السلام مثلاً.

وقد عبر شاعر ساخر في تلك الفترة عن غيظه المكبوت من حالة اللامبالاة

---

(١) وربما برر قمعها بما بررت به أعمال (الخلفاء الأمويين) مثل مروان وعبد الملك، حتى في ضرب هذا الأخير الكعبة، يقول ابن خلدون في المقدمة (دار الجيل ـ بيروت) ص ٢٢٨ (وكذلك كان مروان بن الحكم وابنه وإن كانوا ملوكاً لم يكن مذهبهم في الملك مذهب أهل البطالة والبغي إنما كانوا متحرين لمقاصد الحق إلا في ضرورة تحملهم على بعضها مثل خشية افتراق الكلمة الذي هو أهم لديهم من كل مقصد...) ويقول ابن العربي في كتابه (العواصم والقواصم):
(إن الحسين قتل بشرع جده) ـ نفس المصدر ص ٢٤٠. وسنطلع على العديد من هذه الأقوال المماثلة عند استعراض بعض فصول هذا الكتاب.

والخدر التي أصابت الأمة بلغت ذروتها حينما رضيت أن يكون يزيد بديلًا عن رسول الله في قيادة الأمة وحكمها ببيت شعري ساخر أيضاً؛ قال:

فلو جئتم برملةَ أو بهندٍ جعلناها أميرةَ مؤمنينا

لقد عبر عن حالة اليأس المريرة التي أصابت الناس، وجعلتهم لا يرون فرقاً في أن يجلس يزيد أو جدته أو إحدى أخواته على كرسي الخلافة، وربما لم يجدوا بأساً من جلوس زياد أو سمية أو عبيدالله بن زياد على هذا الكرسي.

حتى ابن زياد طمع في الخلافة

ومن الطريف قيام عبيد الله بعد وفاة يزيد بدعوة أهل البصرة لمبايعته[1] هذا ما سنتطرق إليه في حينه، لقد رأى نفسه مؤهلاً ربما أكثر من يزيد لهذا الأمر، وما دام يزيد قد أفلح في مسعاه وأصبح خليفة، فلماذا لا يفلح هو.

ترى لو أن الأمر استقام لابن زياد فعلاً بعد وفاة يزيد ونجح في مسعاه وجلس على كرسي الخلافة، ألا يروح الكثيرون من (فقهاء الدولة) و (علمائها) و (محدثيها) و (قصّاصها) يطبلون له ويزمرون ويدعون إلى مبايعته وعدم الخروج عليه، أو الخروج على اجماع الأمة، أو الجماعة، ويضعون الأحاديث والقصص والروايات المفتراة والملفقة، لا يفعلون ذلك أيضاً لو أن الأمر استقام للحجاج وأصبح هو المتخلِّف عن المسلمين، بدلاً عن عبد الملك أو الوليد. ألم يفعلوا ذلك لعبد الملك والوليد ويزيد وغيرهم من رموز الدولة الأموية بعد أن (استقام) لهم الأمر.

إنك ترى المعركة بين الإسلام وبين أنظمة الحكم المتسترة والمبررة بالشرعية، وا[illegible]ع الأمة وتحريم الخروج عليها تحريماً يوجب القتل لمن يقوم بذلك، تلوح بأشكال مختلفة، وترى بروز المقولات والأطروحات والافتراءات الأموية القديمة، ثانية وفي كل مرة تتعرض فيها هذه الأنظمة لغضب الجماهير ونقمتها، إنها تبرر اللجوء إلى نفس الأساليب الأموية القديمة (كالأخذ على الظنة والشبهة وأخذ القريب بالبعيد والولي بالولي والخلي بالمذنب. . .) بحجة الكيد للأعداء وقطع دابر الفتن وخشية افتراق الكلمة، وبحجة التحوطات والتدابير الأمنية المسبقة، مع أن تعليمات الإسلام قاطعة بشأن الظنة والشك والشبهة.

(١) الكامل للمبرد ـ لأبي العباس م[illegible]مد بن يزيد المبرد النحوي/ دار الفكر ـ بيروت ج ٣ ص ١٥٨.

إن هذه الأنظمة تبرر هذا (الحق) باللجوء إلى مختلف الأساليب غير الشرعية، (بالشرعية) نفسها. إنها لا تريد فسح المجال لثغرات قد تتسع أمامها فلا يعود بوسعها أن تسدها أو تسيطر عليها، فمهمة الحكم المجرد من المبادىء لا تمنع من اللجوء إلى أي وسيلة (مناسبة) لتوطيد أركانه وبسط نفوذه، وهكذا يجد له في كل مرة يخرج فيها عن المألوف أو عن الحدود الشرعية المعروفة من يبرر له عمله، بل ويزيّنه ويعرضه على أنه العمل المشروع الوحيد الذي لا بد من القيام به.

ومن هنا وجد يزيد الجرأة على قتل الحسين وأصحابه عليهم السلام، ومن هنا جاء الاهمال المبيَّت ـ فيما بعد ـ لثورته والتناول المائع الرخو لها ولآثارها ونتائجها، وكأنها حَدَثٌ عابر مرَّ وانقضى، ثم لم يعد يذكر إلا في معرض ذكر الحقبة التاريخية التي وقع فيها، ولم يستعرضها الكثيرون كحركة كبرى أنقذت الإسلام حقاً، وأعادت إليه نضارته وبريقه وحيويته، بعد أن جرت حملة منظمة دؤوبة لمنعه من أخذ دوره القيادي الواقعي من قبل نفس أولئك الذين وقف آباؤهم ضده صراحة وأعلنوا الحرب عليه، ووقف أبناؤهم ـ بعد أن اندسوا بين صفوف أبنائه ـ لتنفيذ نفس المخططات اللئيمة الغادرة ولكن بأساليب مستحدثة أتاحها لهم مركزهم الممتاز بعد تولي معاوية (الخلافة).

إن من المخجل حقاً أن يمسك بزمام القيادة الإسلامية نفس أولئك المتعصبين ضد الإسلام والذين نذروا أنفسهم للتصدي له ومحاربته منذ بداية ظهوره، ولعل هذه المهزلة الكبيرة التي عاشها المسلمون وشهدوا فصولها وأحداثها المثيرة هي التي عززت من حالة اللامبالاة والاهمال الكبير في نفوسهم حيال ما يحدث من أمور جسام حينذاك، وجعلتهم لا يصمدون في معركة الباطل تلك ضد الحق، ولا يبالون مع أي معسكر يقفون، ما داموا قد رأوا أن أهل هذا الباطل ـ وبعد تيقنهم من أنهم أهل هذا الباطل حقاً ـ يوظفون الأمور لصالحهم، مع وجود الأعداد الغفيرة من المسلمين، ومن الصحابة بالذات، من الذين شهدوا عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وعاشوا معه وسمعوا أحاديثه وتمتعوا بسيرته الوضاءة، وبالشكل النموذجي للحكم الإسلامي الأصيل، وها هم الآن يلمسون مدى الانحراف الذي وصلته السلطة الأموية الغاصبة، والتشويه والافساد الشديدين للنموذج الأصلي؛ القدوة، الذي عاشته الناس في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله، القريب نسبياً من عهدهم، وربما بدعم من بعض أولئك الذين حسبوا من عداد الصحابة، كمعاوية نفسه الذي نسبوا إليه أنه كان أحد كتّاب الوحي.

ولا بد أن يستمر هذا الموقف المهمل لهذه الثورة العظيمة ودورها الكبير، بل لا بد أن تقوم الحرب ضدها مرات ومرات، وضد كل نموذج مشابه لها، ما دام الأمر قد أخذ على أنه صراع على السلطة والحكم، وما دامت قد أعطيت المبررات الكافية لأي نظام متستر بالإسلام وشرعيته، للتصدي لأي تحرك إسلامي حقيقي، حتى لو كان مثل ثورة الحسين ويحمل نفس أهدافها ومضامينها.

هل النموذج الأموي أكثر فائدة وواقعية من النموذج المحمدي العلوي

ولا يمكن دراسة ثورة الحسين عليه السلام بمعزل عن الأحداث والظواهر العديدة التي عملت على ايصال المجتمع الإسلامي إلى ما وصل إليه من تأخر، وحرفه بشكل حاد عن رسالته ومهماته التي كان من المتوقع أن يقوم بها لو لم تقع تلك الأحداث. فاستعراضها على أسس منطقية وموضوعية غير متحيزة، كفيل بالإجابة عن الكثير من التساؤلات عن هذه الثورة وأهدافها ومهماتها والنتائج العظيمة التي حققتها، كما أنه كفيل بتمكيننا من الوقوف على النظرة الإسلامية الصحيحة في الحياة والحكم والخلافة، والتي حاولت الأطروحات الأموية والعباسية وغيرها فيما بعد، أن تحتويها وتؤطّرها وفق رغبات ومصالح الحكام والساسة الذين أصبحوا نماذج (عربية) و (إسلامية)، تمثّل هي ـ لا غيرها ـ الإسلام، ما دامت قد استطاعت أن تثبت (جدارتها) و (واقعيتها) و (قدرتها) على ممارسة الحكم بشكل فعلي (ناجح) لفترات طويلة من الزمن، وفق معايير ومقاييس (السياسة) والدهاء والبراعة، والإفادة من التراث (الإنساني)، الفارسي أو الروماني، وغيرهما، الخاص بشؤون الحكم، ولا الإسلامي فقط، ولا يهم إن لم تكن له علاقة بالإسلام نفسه، ما دام يعزز من الخبرات الخاصة بممارسة الحكم ويساعد على تثبيت دعائمه و (يسوس الرعية) بشكل ملائم، وقد رأينا كيف أن معاوية قد عمد إلى دراسة الأساليب القديمة والاطلاع عليها بشكل يومي مستمر، وكذلك فعل المنصور بعده، وغيرهما من (الخلفاء) فيما بعد.

ومن هنا جاءت النظرة التي تقول، بعد أن حقق هذا النموذج نجاحاً (ساحقاً) على مر العصور، بعدم واقعية وجدوى النموذج الإسلامي الأول الذي مثلته قيادة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، وبأنه خيالي لا مثالي لا يصلح للحياة، ما دام لم يستمر ولم يدم فترة طويلة بعد وفاته، يتحكم في هذه الحياة ويقودها ويوجهها، لقد عمل أعداؤه على أن تتقاطع ممارساتها اليومية الكثيرة مع هذا النموذج الأول. وصوروه على أنه

شيء لا يمكن تطبيقه إلا مع وجود الرسول ﷺ نفسه، فظل حلماً في أذهان الكثيرين، وظلت إعادته مهمة صعبة أخذ على عاتقه القيام بها مَن فَهِمَ الإسلام فَهماً صحيحاً واعياً وامتلك التصور المتكامل عنه.

وأخذ غير المسلمين ـ من المستشرقين وغيرهم ـ الأمر على هذا الأساس، بعد أن رؤوا أن من مصلحتهم أن يأخذوه كذلك. وكانت خلفياتهم، وطبيعة (أديانهم) وأنظمة الحكم التي عاشوا في ظلها، تتناسب مع ما أظهروه من تصورات وأفكار، استلهمناها! ـ نحن المسلمين ـ وأخذناها بشكل جاهز، وطبلنا لها وزمرنا، وادعى بعضنا أنها من بنات أفكاره ومن اكتشافاته.

دراسات المستشرقين.. لم تقم على فهم حقيقي للإسلام

إن دراسات أولئك المستشرقين والغرباء عن الإسلام و (دوله) و (مؤسساته) القديمة لم تقم على فهم حقيقي له، والأمر نفسه مع العديد من المسلمين أنفسهم، الذين فقدوا ـ بتقادم العهد مع ذلك الزمن الأول، ثقتهم بقدرة هذا الدين على قيادة الحياة، بعد أن انفصل عنها ذلك الانفصال الطويل بفعل الهجمة الأموية الشرسة، والمؤامرة اللئيمة الماكرة عليه، وما رافقها من عوامل (مساعدة)، عملت عملها لتعزيز هذا الانفصال، واظهاره على أنه هو القاعدة، وأن الاستثناء، كان هو الفترة التي تمكن فيها من قيادة الحياة قيادة فعلية زمن الرسول الكريم ﷺ! وإن ذلك كان متعذراً لولا وجوده ﷺ على رأس القيادة. وقد لا يتاح مرة أخرى ما دام ﷺ قد توفي واختفى عن الساحة، إلا بوضع اللمسات (العملية) وممارسات الحكم (الواقعية)، والتي وضع الحكم الأموي أساسها كما أوضحنا في هذا التمهيد أو الأنظمة التي لا تمت إلينا بصلة، تلك الأنظمة المنسوخة والمقتبسة من الأنظمة اليونانية أو الرومانية والفارسية القديمة أو غيرها.

إن في ذلك ـ بالتأكيد ـ إشارة واضحة إلى أن الإسلام (مملكة) لا وجود لها إلا في الخيال، وأنه كالمسيحية واليهودية وغيرهما، يجب أن يوضع على هامش الحياة، ويبتعد عن شؤون الدولة والمُلك، اللذين تفضلا فجعلاه أحد الشعارات الجميلة، وزينة يتزينان بها، كما يتزينان بإحدى التمائم التي تحفظ من الوقوع في المشكلات والمتاعب والتعرض للموت والأذى، وفيه إشعار لنا بأن ننبذ فكرة قدرة الإسلام على حكم الحياة وتوجيهها، وأن نكتفي منه بالمظاهر الطقوسية وبعض القيم الأخلاقية،

وفي هذا ما فيه من قتل لكل تطلع مشروع لهذه (الفكرة) التي أريد لها أن تولد ميتة منذ البداية، وليس لأحد أن يفكر فيها أو يطمح بجعلها قابلة للتنفيذ.

فهم الملابسات أيضاً

سنحاول ـ في غضون هذا الكتاب ـ التنبيه إلى الملابسات التي جعلت الأحداث، تتخذ مساراتها الخاطئة المعروفة، والتي أدت إلى قيام هذه الثورة في النهاية، هذه الثورة التي استهدفت تصحيح هذه المسارات على مر السنين، فقد عملت على ايقاظ واستفزاز وتحفيز النفوس التي أصابها الخدَر واليأس واللامبالاة عندما ترى أمامها واقعاً معاشاً متقاطعاً ومتعارضاً مع القيم التي ينادي بها الجميع إلا أنهم لا يحلونها محلًا عملياً في حياتهم وسلوكهم العام.

إن الصراع، كما بدا من مجربات الأحداث، لم يكن بين فئتين من المسلمين، لهما نفس المؤهلات والصفات ونفس التصور والتوجه، وإنما كان صراعاً بين تصورين أو عقليتين مختلفتين، تنظر كل منهما إلى الإسلام وإلى الخلافة والحكم، نظرة خاصة تباين النظرة الأخرى، ومن هنا جاء التباين في سلوك أفراد الفئتين وتصرفاتهما للأخذ بزمام الأمور، ومن هنا نرى سبب التصرفات اللامبدئية التي اتخذتها الجبهة الأموية والتصرفات المبدئية المسؤولة التي وقفتها الجبهة المحمدية العلوية، إذا صح التعبير، لأن جبهة علي عليه السلام ومن جاء من بعده من الأئمة الأطهار، تمثل خط محمد صلى الله عليه وآله، وخط الإسلام الصحيح، كما لا بد أن يدرك ذلك الجميع دون محاولة للتجني على الجبهة الأموية أو (المعاويّة) التي اخترقت الإسلام وهتكت حرمه وتقاليده وقوانينه.

كما سنحاول ـ بعون الله ـ أن نجيب عن العديد من التساؤلات بخصوص حوادث التاريخ الإسلامي وملابساته، من خلال طرح هذه الثورة على بساط البحث والتحليل البعيدين عن النظرة العاطفية المتحيزة، مع تبيان الضرورة التي استدعت قيامها، وأثرها في رسم معظم مسارات الأحداث المهمة التي تلتها، والتي شكلت ـ ولا تزال ـ منعطفات مهمة في مسيرة الشعوب الإسلامية في مختلف بقاع الأرض، حيث أنها تفاعلت مع الضمير الإنساني الحي ووجدت لها صدى واضحاً في هذا الضمير الذي لا بد أنه يتطلع بشغف إلى القيم العليا التي حفل بها ديننا الإسلامي الحنيف.

وتبقى أسئلة كثيرة نحاول أن نجد لها أجوبة بين سطور هذا الكتاب، هل أن هذه الثورة، ثورة شيعية؟ إذ أننا نرى الشيعة أمامنا يحتفلون باحياء ذكراها كل عام ويستحضرون مواقفها وجوانبها والمأساوية منها على الخصوص، في مجالسهم ومن على منابرهم. فهل أن فضلها وعطاءها عمَّ الشيعة وحدهم دون غيرهم؟ وهل ينبغي لنا أن نفكر بها ونستعرضها من خلال الأطر الضيقة و (الاختلافات) أو التصورات المذهبية المحدودة؟ أم ضمن الإطار الإسلامي الواسع الشامل؟.

لا شك أن (ثورة الحسين) تشكل مثلًا أعلى لكل الثائرين على الظلم والباطل والانحراف، ينهلون من عطائها ويستحضرون كل ما حفلت به من معانٍ كبيرة، وخصوصاً في هذا العصر حيث يعلو المد الإسلامي وتتصاعد الصحوة الإسلامية متحدية كل التيارات التي ظلت مسيطرة على الساحة وحكم بعضها باسم الإسلام وادعت تمثيلها له، ماذا يضع الثائرون الآن أمام أعينهم، وهم يتحدون النموذج الأموي اليزيدي الذي يبرز الآن باشكال وصور مختلفة..؟ لماذا يخوضون معارك غير متكافئة، ولا سلاح لديهم في معظم الأحيان سوى الإيمان الذي يجيش في صدورهم، وسوى الاقتناع المطلِق بقدرة الإسلام على السيادة والحكم، وهل يطمح أي منهم باستلام السلطة والحكم لنفسه ولتحقيق مكاسب خاصة؟ أم أنه يقنع، بل يفرح ـ حتى وإن استشهد ـ وينام قرير العين إن استقامت الأمور للإسلام وليكن الحاكم من يكون، ما دام سائراً على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

من هو الأقرب لهؤلاء الثائرين (مهما كانت انتماءاتهم المذهبية) الحسين؟ وهو يحمل أصالة الإسلام وروحه وصدق مبادئه؟ أم الحكام الذين ينتبسون ـ اسمياً وفي بطاقة الميلاد إلى أحد تلك المذاهب؟ لماذا ثار الحسين على يزيد؟ ولماذا يثورون ـ هم ـ على النماذج والوجوه الأخرى ليزيد؟ أليس الهدف واحداً؟.

ولو أنهم الآن قد نجحوا في مسعاهم، أكانوا يقبلون بشبيه ليزيد على كرسي الحكم؟.

خلط الأوراق

إن مسائل حساسة، لا بد أن تبرز وتناقش، عند تناول ثورة الحسين عليه السلام، وينبغي الانتباه إلى أمور عديدة، وأهمها الخطة الماكرة الخبيثة التي لا تزال تنطلي لحد الآن في أذهان الكثيرين وتجد لها قبولًا واسعاً، إذ أنها بلغت من البراعة والقوة في

الحبك والعرض إلى درجة أن دوائر ثقافية ودينية واسعة قد انزلقت إليها واقتنعت بفحواها، وفي مقدمة هذه الأمور، أمر (خلط الأوراق) المحكمة الدقيقة، إضافة لما ذكرناه قبل هذا، فقد صور معاوية وضعه، وهو يخرج على أمير المؤمنين عليه السلام ويرفض مبايعته، بأن (النزاع) و(الاختلاف) بشأن الخلافة والحكم، كان السبب فيه هو علي عليه السلام وأنه خلاف بين (جبهتين). جبهة علي ومن والاه وشايعه، وجبهة الخلفاء الثلاثة الذين تولوا الحكم بعد رسول الله، ورابعهم معاوية ومن يأتي بعده بلا شك، واستند معاوية في حيثياته عند عرض قضيته ـ بأن الإمام علياً عليه السلام لم يكن له أي حق خاص في الخلافة، ولم يوص به رسول الله صلى الله عليه وآله، طالما أن آخرين قد نافسوه منذ البداية، وأنه كان يحسدهم ويبغي عليهم، وأنه ـ أي معاوية ـ لم يفعل إلا ما فعله السابقون من الخلفاء. وأنه لا يقل قدرة وكفاءة عنهم، وأنه مظلوم مثلهم، إذ ينافسه علي عليه السلام، الذي كان من شأنه دائماً أن ينافس الآخرين (المؤهلين) لمثل هذا (المنصب)، وقد راح يتهم الإمام علناً بذلك، وقد أجابه الإمام عليه السلام بقوله: (.. وزعمت أني لكل الخلفاء حسدت، وعلى كلهم بغيت. فإن لم يكن ذلك كذلك، فليس الجناية عليك، فيكون العذر إليك، وتلك مشكاة ظاهر عنك عارها...)[1].

وسنعرض بعض النصوص، التي تؤكد سعي معاوية لتأكيد هذا الايحاء لدى الناس. لقد أراد أن يضم نفسه إلى جبهة عريضة مقبولة لدى فئات كبيرة من المسلمين، فراح يدعم موقف من سبقوه ويؤكد أفضليتهم على علي عليه السلام حتى يدعم موقفه هو، ليكون مدعماً ومبرراً ومشروعاً، وموقف علي عليه السلام هو الموقف الخاطىء، وقد أنف أمير المؤمنين من الرد عليه بهذا الخصوص ـ كما رأينا ـ ورأى أنه ليس معنياً بالأمر حتى يروح يعتذر إليه ويبرر تصرفاته أمامه، وقد أجابه برسالة أخرى مستهيناً به وبتصديه لأمور الأمة، قائلاً (.. وما أنت والفاضل والمفضول والسائس والمسوس؟ وما للطلقاء وأبناء الطلقاء والتمييز بين المهاجرين الأولين وترتيب درجاتهم وتعريف طبقاتهم، هيهات لقد حن قدح ليس منها، وطفق يحكم فيها من عليه الحكم لها. ألا تركع أيها الإنسان على ظلعك وتعرفُ قصور ذراعك)[2].

(١) نهج البلاغة/ الإمام علي بن أبي طالب/ شرح الشيخ محمد عبده/ دار البلاغة/ بيروت ط ٢ ـ ١٩٨٥ ص ٥٤٩.

(٢) نفس المصدر ٥٤٦.

لو عرف السبب.. معاوية: دهاء أم غدر

لقد حاول معاوية جر المسلمين للخلاف حول هذا الموضوع الشائك، أو الذي أراد هو أن يكون شائكاً، ونجح في ايقاع العديدين في الفخ الذي نصبه لهم.

إن من يدافع عنهم معاوية قد يكونون في نظر البعض مثله تماماً، وقد راح هذا البعض في غمرة دفاعهم عن موقف الإمام عليه السلام من الخلافة ـ وهو موقف معروف ـ وفي غمرة تبنيهم موقفه في الصراع مع معاوية يأخذون على معاوية تصرفاته ويؤاخذونه بها ويقفون موقفاً سلبياً من كل من أراد ايهام الناس أنه يقف في صفهم ـ وهم الخلفاء الثلاثة ـ.

وراح آخرون في غمرة دفاعهم عن الخلفاء، يبررون موقف معاوية، ويدافعون عنه ويرون أن حقه في الخلافة لا يقل عن حق أبي بكر وعمر وعثمان، ما دام قد نال (اجماع المسلمين) وتأييدهم وبيعتهم.

وفي غمرة هذه (المعركة) المزعومة بين علي عليه السلام ومن سبقه من الخلفاء، والتي حاول معاوية عرضها بأسلوب تحريضي ضد علي عليه السلام، أخذ معاوية بالتقليل من شأنه إلى درجة أنه جعل سبّه على المنابر سنة سار عليها من جاء بعد معاوية من المتخلّفين الأمويين، وقد حاول اخفاء الأحاديث والروايات والأخبار الخاصة بفضل علي وآل بيته عليهم السلام، (المشوهة) للإمام عليه السلام، بل عرضه (كمحرض) مباشر على قتل عثمان، ووضع قميصه في أحد مساجد دمشق واتخذه ذريعة للمطالبة بدم الخليفة المقتول، والذي كان هو أحد الأسباب الرئيسية المباشرة في قتله، وصوّر اتباع الرسالة المحمدية الحقة والذين عرفوا لأمير المؤمنين عليه السلام حقه بأنهم (شيعة) خاصون بعلي، وأن مذهبهم قام على تعاليم بثها (عبدالله بن سبأ) اليهودي، مع أن هذه الشخصية مزعومة ولا وجود لها على الاطلاق.

لقد نجح معاوية بنقل المعركة بين المسلمين وأعدائهم، وجعلها تدور بينهم، ليكون هو (المستفيد) الوحيد من نتائجها، ويشن حملة اضطهاد وإبادة واسعة لتصفية كل من يُعتقد ولاؤه لعلي عليه السلام، وقد أوهم الكثيرين ممن انحازوا إليه عن وعي أو دون وعي أنهم يخوضون معارك مبدئية لا بد لهم من خوضها، ضد خصومهم أشياع علي عليه السلام وخصوم خلفائهم المنتجبين الذين نالوا تأييد واجماع الأمة والمختارين من قبلها، بما فيهم معاوية بالطبع، وحتى أولئك الذين لا يستطيعون أن ينالوا من أمير

المؤمنين عليه السلام أو ينقدوا مواقفه الواضحة، يترددون عند استعراض مواقف معاوية ويرون أنه اجتهد وسار وفق اجتهاده كما يفعل ابن خلدون وكثيرون غيره، ممن خدعوا بمعاوية، مع أنهم حسبوا أنهم من الأذكياء وإن ما طرحوه كان خلاصة لآرائهم وتجاربهم[(١)].

وطبيعي أن نقل (المعركة) بهذا الأسلوب الماكر، يولد رد فعل عنيف لدى الكثيرين من البسطاء الذين يأخذون الأمور بظواهرها، فيكون رد فعلهم كما يريده مَن فَعلَ ذلك وجعل المعارك تدور بين المسلمين أنفسهم، وهو معاوية، السياسي الداهية الماكر، ليكون رد الفعل على السباب والشتائم هو السباب والشتائم المقابلة. لقد أذكت هذه الحالة التي أوجدها معاوية ومهد لها ـ كما سنبين ذلك فيما بعد في فصول هذا الكتاب ـ أكبر نار للفتنة لا يزال أوادها مشتعلًا ليومنا هذا مع الأسف، ولم ينتبه إليها الكثيرون الذين حسبوا في غمرة الوهم والتعود على المواقف الخاطئة والتبني المسبق لها ولبعض التصورات الخاطئة والقاصرة أيضاً، إنها مواقف (خلافية)، لا بد من تبني دور الطرف (المحق) فيها لابعاد (أعداء الإسلام) وقمعهم وإبادتهم وإنها من القضايا الضرورية التي لا يجوز السكوت عنها، وأنها كانت من قضايا الساعة المهمة قبل معاوية، مع أننا لو نظرنا بدقة ـ كما سنفعل بعون الله ـ لرأينا أنها لم تنشأ إلا في عهد معاوية، وبايعاز مباشر منه، فراح كثيرون في غمرة خوض هذه المعركة (المقدسة) وفي معرض (الدفاع) عن الخلفاء الراشدين ينالون من هؤلاء الشيعة الأعداء، ومن إمامهم، بالضبط كما خطط معاوية وأراد.

المدرسة الانتهازية الأموية... أساس دول الظلم

وقد عملت هذه المدرسة (المعاويّة: الانتهازية الماكرة)، والتي سبقت

---

(١) (. . . وإن كان المصيبُ علياً، فلم يكن معاويةُ قائماً فيها بقصد الباطل، إنما قصدَ الحق وأخطأ. والكل كانوا في مقاصدهم على حق ثم اقتضت طبيعة الملك الانفراد بالمجد واستئثار الواحد به ولم يكن لمعاوية أن يدفع عن نفسه وقومه فهو أمر طبيعي ساقته العصبية بطبيعتها واستشعرته بنواميه) ـ مقدمة ابن خلدون ـ ص ٢٢٧.
هكذا يبرر ابن خلدون قيام معاوية بالاستئثار بالأمر لنفسه وتفسيره بأنه أمن تقتضيه طبيعة الملك وأنه من دافع العصبية التي استشعرتها بنواميه. . . وكأن هذه المبررات، إسلامية مشروعة لا تتقاطع مع مفهوم الخلافة كما جاء به الإسلام. . . .

(الميكافيلليه) بقرون عديدة، على أن تُظهر (ثورة الحسين) ـ فيما بعد ـ وكأنها تمرد (شيعي) محدود، انتهج القائمون بها منهج علي عَلَيْهِ السَّلَامُ في (التهافت) على كرسي الحكم والرغبة في السلطة لا غير، وقد عرضت أمير المؤمنين نفسه كمولع بل عاشق للسلطة، أمام أنظار أهل الشام ـ على الخصوص ـ الذين تأثروا بمعاوية إلى حد بعيد، وتلقوا فهمهم للإسلام وتصوراتهم له، من خلاله، وبررت مواقف يزيد وأعوانه من هذه الثورة، كما بررت حمامات الدم التي قامت بها تلك الطغمة، في الطف والمدينة وفي أماكن أخرى فيما بعد، بأغطية الشرعية والرغبة في الحفاظ على وحدة المسلمين أمام الأعداء المتربصين بهم من فرس وروم وغيرهم، ومنع المرج والفتن.

ومن الطبيعي أنهم ما كانوا ليعترفوا بابتعادهم ـ هم أنفسهم ـ عن الخط الإسلامي الواضح، في غمرة المكاسب الهائلة التي حصلوا عليها، وانهماكهم وإقبالهم على لذات الحياة ومباهجها ونعيمها، تلك التي لم يشهد لها آباؤهم مثيلاً من قبل، ولم يحلموا أنهم سيحيون حياة مثلها، وما نحسب أنهم كانوا سيتنازلون عنها بسهولة لأي شخص مهما علت منزلته، حتى ولو كان الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، أو حتى لو كان رسول الله ﷺ نفسه، بل كانوا سيدافعون عن (المكاسب) التي حصلوا عليها (بكدهم وجهدهم ونضالهم) وصراعهم المرير المتواصل وحسن دهائهم وسياستهم وتصرفاتهم. ولم يكن الإسلام إلا واجهة جميلة تزين عروشهم لتسر الناظرين، وهم هنا الجماهير الإسلامية المظلومة المغلوبة.

وإلا كيف يبرر من يريد الآن قيام دولة إسلامية، الدفاع عن معاوية أو يزيد و(منهجهما) في الحكم. وهذا (المنهج) يعلن بشكل واضح تقاطعه وافتراقه عن الإسلام، ولم يتخذاه إلا غطاء لشرعية حكمهما وديمومته، كما فعل الكثيرون من (الخلفاء) والحكام بعدهما. بل لعل تصرفات بعض هؤلاء الحكام الشخصية أفضل بكثير من تصرفات يزيد المعلنة والمنافية للإسلام بشكل واضح وصريح.

ونعيد ما سبق أن قلناه: لا بد من التعمق في البحث والدرس لمعرفة الدوافع الحقيقية الكامنة وراء قيام هذه الثورة وبالأسلوب والشكل الذي قامت به، ولا بد من معرفة أن المذاهب والطوائف الإسلامية لم تعرف إلا بعد سنوات طويلة من قيامها، ولا بد أن ننظر إليها من زاوية تختلف عن الزاوية التي نظر فيها أعداؤها الأمويون إليها، والذين حاولوا أن يلغوا مبررات قيامها من الأساس.

إن أكبر عمل تخريبي ضد الإسلام هو الذي قامت به (المدرسة الأموية المعاويّة) بافتعال معارك وهمية بين المسلمين أنفسهم، واتاحة الفرصة لأعدائهم الحقيقيين لكي يستعيدوا قواهم أمام المد الإسلامي الأول، ومطاولة النزال بينهم وبين المسلمين المختلفين المتناحرين فيما بينهم إلى يومنا هذا.

كما أن أكبر انتصار حققه أعداء الإسلام، وخصوصاً الصليبيون، أتاحه لهم معاوية الذي أذكى نار العداوة والبغضاء بين المسلمين في سعيه المحموم لكسب (الخلافة) والملك له ولأفراد عائلته المتمردة على قوانين الإسلام وتعاليمه.

منهجنا في البحث

لا يمكن استعراض كل ما نريد قوله في هذا التمهيد، غير أننا نحب أن نبين منهجنا في البحث، الذي يقوم على طرح تساؤلات جدية بخصوص هذه الثورة المباركة، وعدم تبني مواقف مسبقة ـ بأي اتجاه ـ حتى ولو حسبناه في صالحها، ثم قمنا ببحث الأسباب الواقعية والعوامل التي أدت إلى قيامها بعد أن استعرضنا مفهوم الخلافة والحكم في الإسلام على ضوء التصور الإسلامي البحت الذي يعتمد القرآن والسنة، وعلى ضوء المفاهيم الإسلامية التي يمكن أن نستخلص منها ما يجعلنا ندرك أن الخلافة الإسلامية يمكن أن تنوب (بحكم الأمانة التي ألقاها الله تعالى على عاتق عباده)، عنه سبحانه في ممارساتها الحياتية المتعددة، وهي مسؤولة بين يديه بحكم عبوديتها المطلقة له وتحررها من العبوديات الأخرى، وملزمة بتطبيق أحكامه وتشريعاته، لا التصرف وفق هوى شخصي معين أو اجتهاد منفصل عن توجيه الله سبحانه وتعالى (وإنما تحكم بالحق وتؤدي إلى الله تعالى أمانته، بتطبيق أحكامه على عباده وبلاده. . . حكم الجماعة القائم على أساس الاستخلاف فإنه حكم مسؤول والجماعة فيه ملزمة بتطبيق الحق والعدل ورفض الظلم والطغيان، وليست مخيرة بين هذا وذاك)[(١)].

أهداف واضحة.. عودة إلى عهد رسول الله ﷺ

وهكذا فإن الإمام الحسين عليه السلام وضع أمام أهل العراق في رسالته الأولى إليهم قبل مسيره مهمات الخليفة أو الإمام، لكي يلمسوا بأنفسهم، ويروا إلى أي مدى قد

(١) الأساس الإسلامي لخطي الخلافة والشهادة ـ الشهيد الصدر ص ١٣٦ - ١٣٧.

ابتعد من تصدى لهذه المسؤولية عن خطها الحقيقي ومضمونها ومتطلباتها الأساسية. (فلعمري ما الإمام إلا العامل بالكتاب والآخذ بالقسط والدائن بالحق والحابس نفسه على ذات الله...)[1] فبهذه الشروط يكون قد أدى دور الخلافة، وإذا ما خرج عنها فإنه يكون ـ حينذاك ـ عبداً لهواه ومصالحه وشهواته ويكون قد خرج عن حدود المسؤوليات التي ألزمه بها الله سبحانه وتعالى.

وقد استمر الإمام عليه السلام ـ في خطبه التالية ولقاءاته مع أصحابه ومع الجيوش التي أوفدت لمحاربته وقتله أو اجباره على الاستسلام ليزيد، بإيضاح مهمات من يتصدى لإمامة المسلمين وقيادتهم، وكان عليه السلام في كل خطبه يؤكد على أمر مهم وهو اصطفاء الله لنبيه محمد ﷺ لإمامة البشرية وقيادتها، والقيام بارساء نظام للحكم يتولى فيه مسؤولية الخلافة على أساس الالتزامات والمواثيق والسنن الإلهية التي أوردها القرآن الكريم، وجسدها الرسول ﷺ نفسه في سنته الشريفة لتكون أساساً دائمياً لكل حكم إسلامي مرتقب، قائم على ما قام عليه حكمه ﷺ للدولة الإسلامية الأولى.

ولا شك أن أحداً ـ مهما بلغت به الوقاحة ـ لا يستطيع أن يعلن تحديه السافر لما حكم به رسول الله ﷺ وأمضاه، ولا يستطيع أن يلوح بأي لون من ألوان الشك تجاه تصرفاته ﷺ وسننه المطهرة، أو اتجاه القرآن الكريم، وإلا كان قد أدان نفسه وحكم عليها بالخروج المعلن عن الإسلام، واستفز المسلمين بأجمعهم حتى أبسطهم وعياً وأقلهم علماً.

فقد شاء الله أن تجتمع الأمة على محمد ﷺ وأن لا يختلف عليه اثنان، وأن يدعي حتى مبطلوها تمسكهم به وبنهجه، وإن راحوا ـ في غمرة انسياقهم مع الباطل ـ يضعون على لسانه، ويروجون أحاديث وروايات ملفقة، تبرر باطلهم وانحرافهم وتصرفاتهم المشينة.

أراد الحسين عليه السلام أن يضع أمامهم صورة الرسول ﷺ ليروه كما رآه الأوائل من صحابته، الذين عاصروه وعاشوا معه، أراد أن يذكرهم به ويوضح لهم ابعاد تلك الشخصية التي أحبوها وجعلوها رمزاً لإيمانهم واخلاصهم، كما أراد أن يذكرهم بأن

---

(١) تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك) ـ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري دار الكتب العلمية ـ بيروت لبنان ـ دار الباز ـ مكة المكرمة ط ١ ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م ٣٢ ص ٢٧٨.

هذا الذي يدّعون التمسك به والسير على نهجه والأخذ بما جاء به، إنما هو جدّه وحبيبه وأقرب الناس إليه، وأنه عليه السلام أجدر ـ بما يملك من علم وأخلاق وعدالة وشعور بالمسؤولية ومعرفة تامة بدين جده صلى الله عليه وآله وسلم الذي رباه وأعده بعد ذلك، ليعيش في كنف أبيه عليه السلام وعلمه الغزير وحياته الحافلة ـ أن يحمل شرف مسؤولية الخلافة، وأن ينقاد له الجميع ويسيروا وراءه، يحملون شعلة الإسلام ونوره إلى كل بقاع الأرض، على أساس واضح مبين، لا يقيم سلطة طاغوتية، وإنما يركن إلى حكم الإسلام ويرسي دعائمه القوية، لتظل قائمة إلى الأبد، لا تتحطم أو تزول عند أقل حدث أو طارئ، أراد أن يذكرهم بعهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى أمته، التمسك بكتاب الله، وأهل بيته، حتى لا تميل هذه الأمة، أو تنحرف مع الأهواء والأطماع والسياسات الفرعونية والقيصرية والكسروية، ويضعهم أمام مسؤولياتهم الكبيرة لتقويم الانحراف الذي وجدوا أنفسهم ينساقون إليه، بل وساهم بعضهم في إيجاده، (إن الله اصطفى محمداً صلى الله عليه وآله وسلم على خلقه وأكرمه بنبوّته واختاره لرسالته، ثم قبضه الله إليه. وقد نصح لعباده وبلّغَ ما أُرسِل به صلى الله عليه وآله وسلم. وكنا أهله وأولياءه وأوصياءه وورثته وأحق الناس بمقامه في الناس. . .)[1]، وسنذكر ـ بعون الله ـ نماذج أخرى من أقواله عليه السلام تشير لنفس الغرض.

أحاديث عديدة عن الثورة والنتائج

وقد استعرضنا بعض الشخصيات التي لعبت أدواراً مهمة في التاريخ الإسلامي، وكانت لها علاقة كبيرة بمجريات هذه الثورة وأحداثها.

كما أفردنا مباحث عديدة عن المجتمع الإسلامي في (عهد معاوية) وطبيعة التركيبة الجديدة لهذا المجتمع. ودور الأئمة عليهم السلام المتكامل في الأحداث التي وقعت بعيد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحتى قيام الثورة.

واستعرضنا التفاصيل التي رافقت الثورة منذ قيام الحسين عليه السلام في المدينة ومغادرته إلى مكة وإلى الكوفة بعد ذلك.

وأفردنا حيزاً كبيراً للحديث عن شخصية معاوية التي لا يزال يلفها الغموض في

(١) المصدر السابق ص ٢٨٠ وراجع البداية والنهاية. . لأبي الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ٤٢ ج ٨ ص ١٥٩.

أذهان الكثيرين منا، رغم وضوح الإشارات إلى انحراف هذه الشخصية وخروجها المعلن عن الإسلام وتسببها في الانحرافات اللاحقة في عهدي الأمويين والعباسيين، وبعدهما.

كما أفردنا مباحث للحديث عن أصحاب الحسين عليه السلام، ودور المرأة المسلمة في المعركة، وبينا في النهاية نتائج هذه الثورة على المديين القريب والبعيد وآثارها العميقة على مجمل الأحداث التي وقعت بعدها... وتطرقنا إلى بعض الآراء بشأنها وحاولنا مناقشتها على ضوء المفاهيم والأطروحات الإسلامية.

ولسنا نعتقد أننا كنا قادرين في هذه الدراسة وحدها على وضع أيدينا على كل ما يتعلق بهذه الثورة ووقائعها وأسبابها ونتائجها، وكل ما فعلناه هو أننا أشرنا إشارات سريعة وخاطفة لبعضها، وما نحسب أن الباب لا يتسع إلا لهذه الدراسة المحدودة القاصرة، بل نرى أنه مفتوح لمزيد من الدراسات والتأملات والبحوث لاستيعابها استيعاباً حقيقياً ورسم الصورة الواضحة لها، واعطائها ما تستحق من عناية واهتمام جديدين بها، وذلك أمر لا بد له من أشخاص عديدين، بل مؤسسات تعيد كتابة تاريخنا بعين منصفة واعية وأمينة، وتولي الصفحات المشرقة من تاريخنا الإسلامي عنايتها الفائقة، لتدفع بذلك الغبش والضباب عنها وتجعل جماهيرنا الإسلامية على بينة من كل ما جرى، لتنبذ بالتالي (معاركها) المفتعلة وتلتفت إلى مخططات أعدائها الحقيقيين الذين أرادوا على الدوام الكيد لها والنيل منها، وتتخلى عن كل المواقف المسبقة المتحيزة التي أخذت بها في السابق دون وعي أو تفكير أو تأمّل.

وحسبنا أن ما ندعو إليه جميعاً ـ نحن المسلمين ـ هو الإسلام الحق، إسلام محمد بن عبد الله الرسول الأمين صلى الله عليه وآله، أما كيف عرضه علينا، وكيف أرادنا أن نفهمه، فهذا ما ينبغي أن يكون موضوع تأملنا على الدوام، وسنجد ما يريحنا حقاً ويجعلنا مطمئنين إذا ما رجعنا إلى منهل الإسلام الأول، القرآن الكريم والسنة المطهرة، وإذا ما قلبنا صفحات تاريخنا بهدوء وروية ووعي، وحينذاك سنجد الاجابات الشافية الدقيقة عن كل ما يخطر في بالنا، فهناك الوضوح والقول الفصل.

الفصل الأول

الخلافة بين

الإمامة المشروطة.. والمُلك المطلق

الخلافة بين
الإمامة المشروطة.. والمُلك المطلق

الخلافة قضية قديمة حديثة

استأثرت المباحث الخاصة بالخلافة، والتي غالباً ما كانت مثار خلافات ونزاعات بين (الأطراف المعنية)، أو التي ترى نفسها معنية، مع أنها قد لا تكون كذلك ـ وخصوصاً الآن ـ لتقادم العهد وانقضاء تلك الحوادث وعدم تأثيرها الفعلي الواقعي على الحياة العادية للمجتمعات الراهنة، وقد لا تكون هذه الحياة كذلك أيضاً إلا بعد أن تأثرت بهذا الموقف أو ذاك وقد يكون ذلك بحكم الأجواء التي عاشتها ولعبت فيها الآراء المسبقة للآباء والأجداد دورها. إذ وجد كل واحد نفسه في جو يتبنى موقفاً معيناً، فتبناه بدوره، بحكم التأثر والعلاقة الحميمة مع الأهل والوسط، فلم يزد عمله إلا على ترسيخ وجهات النظر المتبناة مسبقاً، ودحض وجهات النظر المغايرة.

استأثرت هذه المباحث باهتمامات المؤرخين والنقاد والباحثين المسلمين، وغيرهم أيضاً، مع أن غير المسلمين وغالبيتهم من المستشرقين ـ حاولوا في الأغلب ـ من خلال الايحاء بموضوعيتهم وحيادهم وعلميتهم تصوير بعض الأمور ـ ذات الأهمية الثانوية، وكأنها من قضايا الساعة المهمة التي لا يمكن العيش دون حسمها، ودون الوقوف موقف النزاع والتأهب للجدال والخصومة (مع الطرف الآخر). وأججوا على أساسها نزعات طائفية مقيتة، لم نجنِ نحنُ منها سوى المزيد من الفرقة والاختلاف، وتبني المواقف المتحيزة المتجنية أحياناً.

لقد وجد كثيرون، ممن درسوا التاريخ، أن الأمور سارت مسيرتها المألوفة، وتقبلوا سير الحوادث والأمور، كما وقعت بالفعل، واتخذوا ـ في أغلب الأحيان ـ نفس المواقف الرسمية ووجهات النظر التي وقفها واتخذها من كان طرفاً في تلك الحوادث على مر الأزمان، ومَن كتب تاريخها. مع أن أغلب أولئك المؤرخين كانوا يكتبون ما يوافق نزعات ومصالح الحكام (الخلفاء).

كما أن كثيرين منا ـ عندما نشأوا في هذه الحياة، وجدوا الأمور في واقعها الحالي، فهناك من يحكمون، وهناك من يؤلفون حلقات متعددة الأهمية والقرب من أجهزة السلطة الحاكمة، وهناك مَن يشكلون الأغلبية من المحكومين، الذين تتفاوت مراكزهم وثرواتهم وأحوالهم المادية والاجتماعية. وجدوا القوانين التي وضعتها الحكومات (لحمايتهم) في الظاهر، مع أنها قد لا تكون إلا لحماية هذه الجهات الحاكمة نفسها، ووجدوا المؤسسات الضخمة الفخمة، العسكرية والسياسية والإدارية والمالية وغيرها تشكل دروعاً لهذه الأنظمة.

التحيّز للحق أم للآباء

وجدوا أمراً (واقعاً) معاشاً، ووجدوا من يقول لهم، بأحقية هذه الجهات الحاكمة بالخلافة والملك والسلطان. أما كيف اتفق أن كان هذا الأمر الواقع أمراً واقعاً، وكيف وصلت الأمور إلى ما وصلت إليه.. كيف وجدوا أنفسهم على الحال التي وجدوها عليه.. لماذا كان الحاكم حاكماً، والمحكوم محكوماً. وكيف أصبح الفقير فقيراً والغني غنياً، لماذا اتخذت الأحوال مساراتها الراهنة، فهي أمور ليس على الجميع مناقشتها، وعليهم تركها لذوي الاختصاص. كل شيء يحاول أن يقول لهم: تقبلوا الأمور كما هي، ولا تحاولوا أن تقلبوا الأحوال التي وجدتم آباءكم عليها، وأقرها أولئك الأباء الحكماء المجربون! وهل أنتم أكثر حكمة وتجربة وواقعية ومعرفة منهم؟ لقد كانت هذه حالة اجتماعية مكرورة تطرق إليها القرآن الكريم في أكثر من موقع، داعياً إيانا من خلال استعراضها إلى عدم تبني المواقف الخاطئة للآباء لمجرد أنهم آباء، وعدم التحيز إلّا إلى الحق، وذكر لنا نماذج اندفعت دون وعي أو إرادة لترسم طريق آبائهم الخاطئة رغم وضوح حجج الأنبياء الذين دعوهم إلى الحق[1].

---

(١) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ البقرة: ١٧٠.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ المائدة: ١٠٤.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ يونس: ٧٨.

فهم التاريخ: على أساس السنن أم الواقع المنحرف

وكما تقبل الكثيرون (واقعهم) دون محاولة لتغييره، أو حتى التساؤل عن أسباب وجوده كما هو، فإن الكثرين من (المؤرخين) (والباحثين)، بحكم الإلفة التي وجدوا أنفسهم عليها مع وقائعه، وبحكم تقبلّه ممن سبقهم من المؤرخين والباحثين (الآباء) كأمر واقع، لم يحاولوا أن يدرسوا (السنن) الإلهية، والأبعاد التي تنتظمها هذه السنن، وذلك على الأسس التي طرحها علينا الإسلام، وهو الدين الذي تدين به أغلبيتنا، ولو من الوجهة الرسمية المظهرية، أو من خلال الشكل المفرغ من المحتوى لهذا الدين. . . كما لم يحاولوا تلمس الوقائع والأحداث التي أدت إلى محاولة تحريف تلك السنن، وعرض الأشكال المحرفة، وكأنها هي السنن الطبيعية الموضوعة من قبل الله سبحانه وتعالى لتنظيم عملية الخلافة على الأرض وتنظيم حياة الإنسان بكل جوانبها المتشعبة وأبعادها.

ومن هنا شكّل الخروج على (الأمر الواقع) أو (السنن الموضوعة أو الكاذبة). . لكن الواقعة فعلاً. . أمراً نشازاً، لا يليق بالمسيرات الملوكية النموذجية المزوقة المسددة ـ رغم أنف الحسود ـ بالعناية الإلهية!! التي استعرضتها كتب التاريخ. . وكأن استنكار بعض المواقف (للخلفاء والملوك) الأوائل، ثورة على (الخلفاء) الجدد. . . إن تعكير الصور الأولى (الجميلة النموذجية) التي تحاول النماذج الحديثة ملكية أو رئاسية دستورية! أو مطلقة السير على خطاها حذو النعل بالنعل أحياناً ورفع

= ﴿قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ الشعراء: ٧٤.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ . .﴾ لقمان: ٢١.

﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ الزخرف: ٢٢.

﴿. . أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ هود: ٦٢.

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْاْ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الصافات: ٦٩-٧١.

﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ الأعراف: ٢٨.

﴿. . قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ إبراهيم: ١٠.

شعاراتها واعتماد أساليبها وسياساتها. . . لا بد أن يعمل على تعكير هذه الصور الجميلة الحاضرة.

فعندما تدافع سلطة قائمة، تعتمد أساليب وخطط معاوية (بعد إلباسها ثوب العصرية والحداثة) في السياسة والحكم والدين والخلافة، حتى وإن لم تتظاهر بذلك، ولم تصرح به علناً، فإنها لا بد تحاول أن تدعم التوجهات الرامية إلى اسباغ الشرعية والواقعية على حكم السلاطين الأمويين، وإن ابتعدت المشقة وطال العهد، ولا بد أنها تحاول بذلك ـ عن طريق غير مباشر ـ الإيحاء بصدق وشرعية وسلامة قيامها وتوجهاتها هي.

إننا لا نعمل على مناقشة التاريخ الإسلامي في أجواء وظروف صحية، وقد نتناول الأمور أو الأشكال الظاهرة للحكم في عهد معاوية، فنقرر استناداً إلى ما نجد أنفسنا عليه من أوضاع بالغة الانحراف فاقت تلك التي برزت في ذلك العهد ـ إنها كانت أشكالًا متطورة عن الأشكال (البسيطة) الأولى التي ظهرت في العهد الإسلامي الأول في عهد الرسول ﷺ ومن جاء بعده من الخلفاء[١]، وربما بررنا لمعاوية ومن جاء بعده من (الخلفاء) الأمويين، وحتى العباسيين تصرفاتهم. . حتى قبل خلافة معاوية عندما كان والياً على الشام ـ وربما رأينا أنها بما تفوقت ـ في النواحي الفنية والإدارية على الأشكال (البسيطة) أولى، بحكم تطور الحياة واتساع الفتوحات، وبحكم المواجهة الكبيرة للإسلام مع القوى المعادية، الرومانية والفارسية واتباع الديانات المعادية الأخرى كاليهودية والمجوسية والوثنية وغيرها[٢]، وإن الإسلام كان يعرض نفسه كقوة كبيرة منافسة لهذه القوى والديانات، وربما اعتقدنا أن التغلب عليها

---

(١) وكما يقول ابن خلدون في (المقدمة): (الخلافة إنما هي دين ليست من السياسة الملكية في شيء) ص ٢٦٢.

(٢) فقد روى أبو محمد الأموي، قال (خرج عمر بن الخطاب إلى الشام، فرأى معاوية في موكب يتلقّاه، وراح إليه في موكب، فقال له عمر: يا معاوية، تروحُ في موكب وتغدو في مثلهِ، وبلغني أنك تُصبح في منزلك وذوو الحاجات ببابك! قال: يا أمير المؤمنين، إن العدوَّ بها قريب منا، ولهم عيون وجواسيس، فأردتُ يا أمير المؤمنين أن يروا للإسلام عزّاً؛ فقال له عمر: إنّ هذا لكيد رجل لبيب، أو خدعَةُ رجل أريب؛ فقال معاوية: يا أمير المؤمنين، مرني بما شئت أَصِر إليه؛ قال: ويْحك! ما ناظرتك في أمر أعيب عليك فيه إلاّ تركتني ما أدري آمرك أم أنهاك) الطبري ٣ - ٢٦٤ وراجع مقدمة ابن خلدون ص ٢٢٥.

يستدعي اعتماد أساليب (دنيوية حديثة)، ولا بأس من (الدهاء والسياسة) اللذين اختلط مفهومهما في أذهان الكثيرين منا، حتى أصبحا يمثلان (الحيلة والمكر والغدر)، وكأننا بذلك نشجع أولئك الذين يريدون اقناعنا بأن الإسلام (بواقعيته)، وصدق توجهاته ومبادئه، قد يكون (خيالياً) أو (مثالياً)، لا يصلح لمعالجة كل أمور الحياة ومواجهتها، وخصوصاً تلك التي تخص أمور السياسة والحكم.

ومن هنا رأينا التباين الكبير بين سلوك وسياسة معاوية الداعية لمثل هذا النمط الجديد..! وعلي الذي مثّل الإسلام بكل ما حمله من مبادئ مستقيمة لا تعرف الالتواء والانحراف والمكر، ولم يكن علي عليه السلام، ربيب القرآن وابن الإسلام الذي استوعب كل أفكاره ومبادئه وقيمه، وعمل بها طوال حياته، في نظر (المدرسة الأموية) إلا إنساناً قليل الحيلة (مثالياً) لا يصلح للحكم في هذه الحياة المتقلبة المتطورة، مع أن نظرة علي عليه السلام للحياة والحكم والخلافة وكل شيء، هي نظرة الإسلام نفسه[1]، هي نفس نظرة القرآن الكريم والرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، ومعنى اتهام علي عليه السلام بقصور النظر في معالجة أمور الحياة والحكم، هو اتهام علني للإسلام نفسه والرفض المتعمد لأساسيات ومبادىء هذا الدين الذي حكم الجميع باسمه ورفعوا شعاراته، ولم يروا مانعاً من وضع بعض الأحاديث والشعارات والأقوال المفتراة لجعله (أكثر واقعية) من الحياة الأولى التي رسم خطوطها الإسلام في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله، ومنسجماً مع (الحياة) التي أرادوا هم رسم خطوطها ووضع تفصيلاتها وأسسها الجديدة؛ حياة يكونون هم فيها على سدة الحكم خلفاء وملوكاً وسلاطين وأمراء للمؤمنين.. ولا تهمُّ المسميات ما دامت الأهداف تتحقق.

الخلافة قضية إسلامية مناقشتها بتصور إسلامي

إن مسألة الخلافة، عندما تناقش مع أناس اعتمدوها كصيغة أو أساس لحكمهم (خلفاء مسلمين)، لا بد وأن تناقش على أساس التصور الإسلامي البحت، الذي جاء به القرآن الكريم والنبي الكريم صلى الله عليه وآله فقط، ولا يمكن بأي حال من الأحوال الابتعاد عن

---

(١) وقد رد عليه السلام على من اتهمه بذلك قائلاً (..والله ما معاوية بأدهى مني، ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس، ولكن لكل غدره فجره، ولكل فجره كفره. ولكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة. والله ما أُستغفل بالمكيدة ولا استغمز بالشديدة). نهج البلاغة ص ٤٥٩.

التصور الإسلامي، تحت أية ذريعة أو حجة؛ إذ أن الإسلام وحده وَحْدة متكاملة، لا يمكن الأخذ ببعضه وترك الباقي، ما دام الذي نأخذ به يحقق مصالحنا ورغباتنا ولا يتعارض معها، وما دام الباقي لا يحقق ذلك، بل يتعارض مع هذه المصالح والرغبات.

إننا لا نناقش حكماً رومانياً أو فارسياً قديماً، اعتمد ديناً مغايراً للإسلام ليبني عليه حكمه؛ حاكماً يستفيد من (سياسات ودهاء وعبقريات) الحكام السابقين، وإنما نناقش حاكماً مسلماً، يعلن بأنه جاء يحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فكيف نبرر ابتعاد هذا الحاكم وأضرابه، بل ونبذهم الصريح للدين الذي حكموا تحت ظله وباسمه، وحققوا كل ما حققوه من مكاسب وأرباح. وحياة أسطورية لا يزال يتغنى بها الكثيرون من المؤرخين والشعراء والكتاب، على أساس أنها تمثل جانباً من حالة الرفاه العامة التي تحققت لجماهير المسلمين، حتى أن الكثيرين منهم يتباكون على تلك الأيام الخوالي، أيام العز والسموّ، مع أنها كانت بداية الانحدار للإسلام الناشىء و(الحياة الإسلامية) التي لم يكد المسلمون يذوقون طعمها حتى نسوها، في ظل أكبر عملية تشويه وتخريب شهدها هذا الدين في وقت مبكر من وجوده، ولا تزال تفعل فعلها المخيف لتهديمه وطمسه، والتي لا نزال نشهد بعض آثارها في الفرقة والعداوة بين أبنائه أنفسهم، رغم مرور هذه المدة الطويلة على تلك الأيام الأولى التي جنت فيها عوائل محدودة المكاسب والأرباح وجنت مئات الملايين من جماهير المسلمين، الضياع والذل والفرقة والجهل والمرض.

التاريخ الإسلامي ـ تاريخ الحكّام لا الشعوب

ولا شك أن تاريخ العرب والمسلمين كان يسلط الأضواء على الحكام بشكل مركز وملفت للنظر، وغالباً ما يميل إلى تحسين صورهم وتجميلها، اللهم إلا إذا كان المؤرخ لا يعيش تحت ظل أحد هؤلاء أو أحفادهم، أو كان يكتب من معسكر مقابل معاد، يقوده حكام آخرون معادون لأولئك.

ولا يكاد مَن يقرأ التاريخ الإسلامي، يلمس إلا صوراً باهتة لتفصيلات الحياة الشعبية العامة وهمومها وممارساتها اليومية، يلتقطها من بين بعض السطور والصفحات، التي تبذل كرماً ملحوظاً، عند تناول حتى المباذل العادية اليومية والسفاسف والسخافات لبعض الحكام المتمادين في لهوهم ومجونهم وابتعادهم عن شعوبهم، في غمرة شعورهم (بالحق الإلهي الموروث) بحكم الناس والتصرف في

حياتهم ومصائرهم. هذا الشعور الذي أخذوه عن عوائلهم المالكة (العريقة) في اعتلاء ذرى السلطة والملك والولاية، حتى أنهم في غمرة هذا الشعور، ينسون الله والناس على السواء، ولا يرون إلا أنفسهم، ولا يكادون يتحملون أقل قدرٍ من النقد أو التوجيه، وحتى المبادأة بالكلام من الآخرين[١]. ومن هنا جاءت أنماط من (الآداب) التي تعنى بكيفية التعامل مع الملوك والسلاطين وأساليب مخاطبتهم وخدمتهم، ووضعت لذلك سلاسل من الكتب والرسائل، أخذ كتابها يتبارون فيها، بعرض براعاتهم في توجيه الناس لحسن التصرف مع الملوك وكيفية مخاطبتهم وابداء منتهى الذلة والخضوع في ذلك، مما لو استثمر بشكل آخر ووجد لتعليم الناس صيغ التعامل مع النفس ومع الله ـ سبحانه ـ ومع الآخرين لكان محصلة ذلك ثروة أخلاقية كبيرة قد تقي الناس السقوط وتجعلهم في عافية في دينهم ودنياهم.. غير أن وعاظ السلاطين وأدباءهم ومؤرخيهم لم يروا إلا ما رآه أسيادهم، فكأن الكون خلق من أجل هؤلاء الأسياد فقط، وأنهم بمنجاة مما قد يتعرض له الناس (العاديون) يوم الحساب[٢] ومن هنا كانت مصيبة تاريخنا العربي الإسلامي المكروه المعاد والحافل بالنماذج المتسلطة الشاذة التي لا تقيم وزناً أو اعتباراً لأي شيء.

ومع أن التاريخ قد طلع علينا بنماذج (نادرة) لحكام جيدين، إلا أن ندرة هؤلاء جعلنا نذكرهم كحالات (شاذة) برزت على سطح التاريخ، ويكاد بعضنا ينبهرون بسلوك أولئك الحكام، الذي كان ينبغي أن يكون أفضل من أدائهم (الممتاز) عن سلوك الآخرين في ظل ظروف إسلامية صحية، فإذا ما استعرضنا حكم الدولة الأموية مثلًا ـ فإن سلوك (عمر بن عبد العزيز) يبدو وكأنه أعجوبة عظيمة، وكأنه يسد الفجوة أو يصلح الشرخ الذي أحدثه من جاء قبله وبعده[٣]. ولا يكاد يتبيَّن من يكتب

(١) روى السيوطي في ـ تاريخ الخلفاء ص ٢٠٣ أن عبد الملك بن مروان كان (أول من نهى عن الكلام بحضرة الخلفاء وأول من نهى عن الأمر بالمعروف). كما منع الناس من تسميته بعد العطاس... وربما رأى أنه لا يحتاج ـ كغيره من الناس رحمة الله...!.

(٢) (قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لما ولي يزيد (بن عبد الملك) قال: سيروا بسيرة عمر بن عبد العزيز، فأتي بأربعين شيخاً فشهدوا له ما على الخلفاء حساب ولا عذاب) تاريخ الخلفاء ـ السيوطي ص ٢٢٩.

(٣) فقد روي عن أبي جعفر المنصور قوله في عمر بن عبد العزيز (... وأما عمر فكان أعورَ بين عُميان...) مقدمة ابن خلدون ص ٢٢٩.

عنه أنه إنما كان يدين كل السلالة الأموية، باعجابه المتميز بهذا الخليفة الأموي (الراشد) ـ الفلتة الذي لم يكن مثله مثل الآخرين الذين لم يحصلوا على ما حصل عليه من اعجاب وثناء، فكأنَّ ثناءهم واعجابهم المتميز، شتيمة للآخرين الذين كان ينبغي أن يكونوا مثله على الأقل، ومع ذلك تغاضى المؤرخون عن هفواتهم ـ وما أكثرها وتناسوا المآسي التي أحدثوها وأسسوا أساسها وبنوا بنيانها.

إن الذي حصل هو أن الحاكم (الإسلامي) حكم بتصور غير إسلامي حمل عقلية غير إسلامية، وترتب على ذلك أنماط من السلوك لم تعتمد خط الإسلام بأي حال من الأحوال، مع أنها بررت من قبل فقهاء الدولة ووعاظها وقصاصيها وغيرهم وأبرزت على أنها هي الشيء الوحيد المقبول الصحيح.

الاستخلاف الإلهي ـ أمانة لا امتيازات شخصية

لقد طرح القرآن الكريم مسألة الخلافة، لا على الأسس الجاهلية السابقة، التي استبعدت وجود الخالق الواحد القدير المدبر، وهيمنته على الكون، وإن كان بعضها لم يستبعد هذه (الفكرة) نهائياً ووضع محلها فكرة أخرى تتيح إسباغ غطاء من الشرعية على حكم الطواغيت الذين حكموا بموجبها كما شاءوا وكيفما شاءوا، فأشركت مع الله قوى وآلهة أخرى، أرادت الناس أن يعبدوها هي في محاولة للتقرب إلى الله نفسه[1] بل إنها أوحت للناس أن هذه الطواغيت هي آلهة أو انصاف آلهة أو من سلالة الآلهة، وليست مجرد بشر أو أناس عاديين، وإن هذا النسب أو (الانحدار) عن الآلهة يتيح لهم حقوقاً وامتيازات لا يمكن بأية حالٍ أن تتاح للبشر العاديين.. لقد وضعت نفسها في مراكز ما كان لأي أحد أن يحلم بالوصول إليها، وأسبغت على نفسها هالات من العظمة الخارقة التي لا تتاح إلا للمتحدرين من سلالات الآلهة، والتاريخ حافل بهذه النماذج. وقد حدثنا القرآن الكريم نفسه عن بعضها.

وقد طرح القرآن الكريم مسألة الخلافة هذه أيضاً على أسس واضحة أرادها أن تكون نواة لتصور إسلامي صحيح عن الله والكون والحياة.. ولم يطرحها كمسألة عقلية بحتة أو فلسفية قابلة للنقاش والرد، بل بشكل منسجم مع الفطرة الإنسانية والحاجات والدوافع البشرية المتعددة.. كما لم يطرحها بمعزل عن النظرة الإسلامية

(١) ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ الزمر: ٣.

الشاملة المتكاملة والمؤهلة بشكل تام لقيادة هذه الحياة وتوجيهها توجيهاً صحيحاً، يحقق التوازن التام بين الغرائز والرغبات والعلاقات الاجتماعية العامة بكل أشكالها وبكل ما تحفل به من جوانب متعددة تشمل كل أداء حياتي للناس وتمتد حتى لعلاقات الإنسان مع الطبيعة وتعامله معها.

وعندما يستعرض القرآن الكريم هذه الآية الكريمة ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1] نجد أن مبدأ إقامة مجتمع على الأرض، قد تقرر من قبل الله ـ سبحانه ـ وقد أنبأ به الملائكة، وأنه لم يكن عقاباً إلهياً أنْ عشنا على هذه الأرض. أما كيف.. وأين.. فذلك غيب من الغيب لا يعلمه إلا هو ـ سبحانه ـ وحسبه أنه أخبرنا بهذا الشكل الواضح المبين.

وهناك ثلاثة عناصر يمكن استخلاصها من العبارة القرآنية:

أولاً: الإنسان.

ثانياً: الأرض والطبيعة بوجه عام ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فهناك أرض أو طبيعة على وجه عام، وهناك الإنسان الذي يجعله الله سبحانه وتعالى على الأرض.

ثالثاً: العلاقة المعنوية التي تربط الإنسان بالأرض وبالطبيعة، وتربط من ناحية أخرى، الإنسان بأخيه الإنسان، هذه العلاقة المعنوية التي سماها القرآن الكريم بالاستخلاف.

ولكن المجمعات تختلف في طبيعة هذه العلاقة وفي كيفية صياغة هذه الطبيعة)[2] وفهم هذه العلاقة، ووضعها على أساس العمل والواقع، تشكل أحد أسباب الاختلاف بين المجتمعات المتعددة وبينها وبين بعض الأفراد، منذ أن وجد الإنسان على هذه الأرض عبر القرون.

(١) البقرة: ٣٠.
(٢) المدرسة القرآنية ـ الإمام محمد باقر الصدر ـ دار التعارف للمطبوعات / بيروت/ لبنان ١٣٩٩هـ ص ١٢٦ - ١٢٧.

إن بعض هذه المجتمعات ـ وخصوصاً الحديثة، والقديمة جداً ـ تقطع العلاقة أساساً مع البعد الإلهي وتنفيه نهائياً، ولا تعتقد إلا بالفعل الإنساني واللمسات البشرية البحتة، هذه اللمسات المتغيرة، المتأثرة بنزعات الإنسان ونزواته ومطامعه ورغباته.

ولا يهمنا أمر هذه المجتمعات المنسلخة عن الإسلام والبعيدة عنه تماماً في هذا البحث، غير أن الذي يهمنا ذكره أن الذي يحكم باسم الإسلام، ويدعي تمثيله، لا بد أن يتبنى التصور الإسلامي الكامل والواضح ـ غير المؤول ـ في الحياة والحكم على وجه الخصوص، وأن يعتمد القرآن الكريم أساساً لنظراته وسلوكه.

الاستخلاف أربعة أطراف

لقد بين القرآن الكريم مسألة الاستخلاف كأمرٍ يعبر عن المشيئة الإلهية، فهي (العلاقة الاجتماعية من زاوية نظر القرآن الكريم. والاستخلاف ـ عند التحليل ـ نجد أنه ذو أربعة أطراف، لأن الاستخلاف يفترض مستخلفاً أيضاً. لا بد من مستخلِف ومستخلَف عليه ومستخلَف. فهناك إضافة إلى الإنسان وأخيه الإنسان، والطبيعة، يوجد طرف رابع في طبيعة وتكوين علاقة الاستخلاف وهو المستخلِف. إذ لا استخلاف بدون مستخلِف. فالمستخلِف هو الله سبحانه وتعالى، والمستخلَف هو الإنسان وأخوه الإنسان، أي الإنسانية كل الجماعة البشرية، والمستخلَف عليه هو الأرض وما عليها ومَن عليها. فالعلاقة الاجتماعية ضمن صيغة الاستخلاف فتكون ذات أطراف أربعة.. وهذه الصيغة ترتبط بوجهة نظر معينة نحو الحياة والكون بوجهة نظر قائلة بأنه لا سيد ولا مالك ولا إله للكون والحياة إلا الله سبحانه وتعالى وإن دور الإنسان في ممارسة حياته، إنما هو دور الاستخلاف والاستئمان، وأَي علاقة تنشأ بين الإنسان والطبيعة، فهي في جوهرها ليست علاقة مالك بمملوك، وإنما هي علاقة أمين على أمانة استؤمن عليها وأي علاقة تنشأ بين الإنسان وأخيه الإنسان، مهما كان المركز الاجتماعي لهذا أو لذاك، فهي علاقة استخلاف وتفاعل بقدر ما يكون هذا الإنسان أو ذاك مؤدياً لواجبه بهذه الخلافة، وليست علاقة سيادة أو ألوهية أو مالكية، هذه الصيغة الاجتماعية الرباعية الأطراف التي صاغها القرآن الكريم تحت اسم الاستخلاف، ترتبط بوجهة النظر المعنية للحياة والكون..)[1].

---

(١) المصدر السابق. ص ١٢٨ - ١٢٩.

العلاقة بين المستخلِف والمستخلف

هذه العلاقة بين المستخلِف والمستخلف، والتي بينها القرآن الكريم بهذا الوضوح الكبير في أماكن متعددة منه، ينبغي أن يتبناها، ويعمل بها، مَن تصدوا للاستخلاف وتبوأوا مركز الخلافة وقبلوا هذه المسؤولية الجسيمة، بل سعوا إليها وتقاتلوا من أجلها. وينبغي أن لا يعدوها مكسباً شخصياً بأي حال من الأحوال.

إننا لا نجد مبرراً لتعطيل (البعد الرابع) أو التجاوز عليه أو (تفسيره) على أنه مانح امتياز لأناس لا يقبلون أن يشاركهم فيه أحد، بحكم حق إلهي مطلق، غير مقيد أو بحكم وجود مؤهلات أو صفات ممتازة مفترضة، اللهم إلا إذا كان الذي يحكم، قد استبعد الإسلام أساساً من تصوره ومن حياته، ولم يحتفظ إلا ببعض المظاهر الخارجية أو القشور التي يزين بها حكمه ليضيف عليه جواً من الشرعية. وفي هذه الحالة ينبغي على من يكتشفوا ذلك، عدم السكوت، وفضح هذا الحاكم الذي (يسطو) على الإسلام ويحاول سرقة مكتسبات المسلمين بحجته وباسمه.

إن ادراك هذه المسؤولية التي يتحملها من يتصدى للخلافة كأمين على أمر استؤمن عليه، ترتب مسؤوليات أخرى من المراقبة الذاتية الواعية ومن المراقبة الشعبية العامة الراصدة المشروعة المقوّمة عند الشعور باحتمال ظهور أي خلل أو انحراف.. ولا بد أن يكون هذا الخليفة متمتعاً بقدرٍ من الحصانة والقدرة على حمل هذه الأمانة الثقيلة لكي يؤدي واجبه بدقة ووضوح على ضوء القرآن والسنة قادراً على مواكبة التطورات والمستجدات في الحياة، واجداً لكل مشكلة حلّاً ملائماً منسجماً مع هذه التطورات والمستجدات.

ولا يصح أن يكون شعور من يتبوأ أعلى مركز في الدولة الإسلامية على درجة من الضعف والغباء، بحيث لا يدرك طبيعة العلاقة أو الوضع الذي جاء به إلى هذا المركز المسؤول، وينسى الأساس الذي أقام عليه حكمه، وهو حكم من جاء به وحدد له مشروعية مركزه، بعد أن كان قد تمتع بالامكانات التي تتيح له حمل الأمانة الكبيرة مثل تمكنه من فهم القرآن الكريم، وفهم الإسلام بجملته.

إنه يدرك أن السيد والمالك الحقيقي والمتصرف بعباده وأمره هو الله، وإن دوره كخليفة أو إمام لهذه الأمة، لا بد وأن يتطابق مع (المثل الأول) الذي أنزلت عليه الرسالة لأداء هذه المهمة، وهو رسول الله ﷺ، ومع أن لا أحد يدعي قدرته على أن

يكون كرسول الله ﷺ، إلا أن النماذج الأخرى القريبة والشبيهة به، والتي تربت في أحضانه ووعت رسالته وتأهلت لحملها ونقلها عبر الأجيال، وحملت أكبر قدرٍ من الفهم والوعي والشعور بالمسؤولية، لا بد أن تكون هي المرشحة للقيام بهذه المهمة فمن غير المعقول أن يؤدي مهمة رسول الله ﷺ مَن لا يلتقي معه التقاءً تاماً في كل جوانب فكره وسلوكه ولا يحمل نفس تصوراته ونظراته لكل شيء.

إن أقل انحراف من قبل (الخليفة) أو الحاكم الإسلامي عن خط رسول الله ﷺ يشكل ظاهرة خطيرة، تؤدي لمزيد من الانحرافات من قبل الآخرين، فإن لم يتمسك هذا (المؤتمن) بالرسالة وبنودها ومناهجها، وتساهل بها أو بجانب من جوانبها، فكأنه يوحي بذلك ـ للآخرين ـ ببطلانها أو عدم مشروعيتها. وبالتالي عدم مشروعية وجوده هو على رأس السلطة كخليفة أو راع أو إمام أو أمير المؤمنين.

إنه يزيد بتجاهله بعض بنود الرسالة الإسلامية مبررات بقائه على سدة الحكم ويفقد المشروعية التي تؤهله لذلك؛ لأنه يتناسى المستخلِف الذي جلس ليحكم بين الناس باسمه، وهو الله سبحانه وتعالى، الذي لم يعطِ لأحد من البشر صلاحية حذف أو تجاهل أي حكم من أحكامه.

عقد الاستخلاف لا مجال للهوى أو الشيطان

وفي هذه الحالة تبرر مشروعية قيام من يدرك معادلة الخلافة الإسلامية وابعادها ويمتلك التصور الصحيح عنها، بالثورة على هذا الخليفة أو الحاكم والوقوف بوجهه وازاحته بكافة السبل المتاحة، لفسح المجال أمام من تأهل لهذا الأمر، وامتلك مقومات القيادة، وحمل الأمانة، وأدرك أبعاد الرسالة على ضوء الأسس التي جاء بها القرآن الكريم، إذ أن (عقد الاستخلاف فيه قائم على تلقي الهدى من الله، والتقيد بمنهجه في الحياة. ومفرق الطريق فيه أن يسمع الإنسان ويطيع لما يتلقاه من الله، أو أن يسمع الإنسان ويطيع لما يمليه عليه الشيطان. وليس هناك طريق ثالث، إما الله وإما الشيطان. إما الهدى وإما الضلال. إما الحق وإما الباطل. إما الفلاح وإما الخسران وهذه الحقيقة هي التي يعبر عنها القرآن كله، بوصفها الحقيقة الأولى، التي تقوم عليها سائر التصورات، وسائر الأوضاع في عالم الإنسان)[1] ومنها علاقة الإنسان بأخيه

(١) في ظلال القرآن ـ سيد قطب م ١ ج ١ ص ٥٥.

الإنسان، وقيامه بدور المستخلَف أو الخليفة على الأسس والتصورات التي نزل بها القرآن الكريم، وعليها وحدها فقط، هذه الأسس والتصورات التي تتيح له استكشاف قدراته الكافية في التعامل مع الطبيعة ومع أخيه الإنسان بشكل إيجابي بناء متطور، لا يهمل أياً من مقومات الحياة الإنسانية، ويتعامل معها بكل جدية واحترام.

الإمامة ـ لا ينال عهدي الظالمين

وفي الحوار الذي يدور بين الله عزّ وجل وبين خليله إبراهيم عليه السلام، الذي عرضه القرآن الكريم علينا في الآية الكريمة ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[1] تُحسم المسألة بشكل نهائي، فمهمة الإمام ليست مهمة محدودة، وإنما هي مهمة قيادية تستهدف تحقيق المهام التي يطلبها الله سبحانه ـ من الناس.

وإذ أنها تناط بشخص مؤهل مختار من قبل الله سبحانه وتعالى، فإنها لم تكن ستناط ـ بالضرورة ـ بذريته، إذا ما كانوا ظالمين، وغير مؤهلين لحملها، وبعيدين عن الله سبحانه وتعالى (إنَّ الإمامة لمن يستحقونها بالعمل والشعور، وبالصلاح والإيمان، وليست وراثة أصلاب وأنساب. فالقربى ليست وشيجة لحم ودم، إنما هي وشيجة دين وعقيدة. ودعوى القرابة والدم والجنس والقوم إن هي إلا دعوى الجاهلية، التي تصطدم اصطداماً أساسياً بالتصور الإيماني الصحيح قال: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾. والظلم أنواع وألوان: ظلم النفس بالشرك، وظلم الناس بالبغي. والإمامة الممنوعة على الظالمين تشمل كل معاني الإمامة: إمامة الرسالة، وإمامة الخلافة، وإمامة الصلاة، وكل معنى من معاني الإمامة والقيادة. فالعدل بكل معانيه هو أساس استحقاق هذه الإمامة في أية صورة من صورها. ومن ظلمَ ـ أيّ لون من الظلم ـ فقد جرَّد نفسه من حق الإمامة وأسقط حقه فيها، بكل معنى من معانيها)[2].

غير أن هذا الأمر الذي طلبه إبراهيم عليه السلام لم يطلبه لكل ذريته، بعد أن أفهم أن ذلك لا يتاح للظالمين من هذه الذرية، وإنما طلبه لبعضهم المؤهل لهذه الإمامة والقيادة، وكان من ذريته محمد ﷺ، الذي أصبح برسالته العالمية الشاملة إماماً وقائداً

---

(١) البقرة: ١٢٤.

(٢) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ج ١ ص ١٠٦.

لكل الناس، وحتى أولئك الذين رفضوا قيادته عن عمد واصرار ووعي، وأولئك الذين رفضوها بدافع التقليد والمتابعة للآباء والأهل، دون علم أو وعي، كان عليهم أن يدركوا ابعاد هذه الرسالة، ليقرروا موقفهم على ضوء ذلك. ولا شك إن هذا الموقف سيكون إيجابياً إذا ما فعلوا ذلك حيث سيؤمنون بها حتماً ويسيرون على هداها.

فالإمام هو القدوة الذي (يقودهم إلى الله ويقدمهم إلى الخير، ويكونون له تبعاً وتكون له فيهم قيادة)[1].

من المؤهل للإمامة؟

ولم ينل هذا العهد ـ عهد الإمامة والقيادة للأمة ـ إلا من امتاز عن غيره بمؤهلات نادرة لم يمتز بها غيره فاستحق أن يتحمل مسؤولية الرسالة العظيمة، التي لم يستطع الآخرون حتى من الذين شاركوه في النسب وشرف المحتد أن يحملوها، بل أن الأمر قد ذهب إلى أبعد من ذلك ـ بالنسبة إلى الرسول ﷺ ـ إذ أن بعض من يمت إليه بقرابة وثيقة مثل أبي لهب، ومعظم عشيرته قريش ـ قد شنوا عليه حرباً شعواء، ولم تؤازره منهم إلا القلة القليلة كأبي طالب وحمزة.

فالمسألة إذاً ليست مسألة قرابة أو نسب بحت، وحتى إذا ما نوقشت هذه المسألة، وتعرضنا فيها إلى هذا الجانب، فإننا ينبغي أن نتناوله على أنه ليس الجانب الوحيد الذي يتيح حقوقاً استثنائية في مجال الخلافة أو الولاية.

إنها ينبغي أن تناقش على الأساس التالي:

من هو المؤهل لحمل دور الخلافة على هذه الأمة، وتأديته بصورة قريبة من الصورة التي كان يؤديه بها رسول الله ﷺ، وبأسلوب أقرب إلى أسلوبه؟ بغض النظر عن قرابته منه ﷺ، أو مركزه في قريش أو في العرب..؟ وإذا ما حصل ووجدنا هذا (المؤهل)، فما الذي جعله لائقاً بهذا المركز القيادي المهم؟ بغض النظر عن علاقة النسب التي تشكل سبباً مضافاً لأسباب احترامه وتقديمه إضافة لمؤهلاته الأخرى؟.

إن الذي يجعله لائقاً ومؤهلًا هو حمله تصورات إسلامية نقية صافية غير مشوبة

(١) المصدر السابق ص ١٠٦.

بأي تصور أو سلوك جاهلي، إذا أن من شأن ذلك أن يجعله لا يرى سوى الإسلام وسوى الله، ولا يقيم اعتباراً لأية قيم جاهلية لتطفو على سطح تصرفاته. لا بد أن يتنفس هواء الإسلام صافياً، ولا بد أن يكون قد نشأ في زمن الإسلام ولا يحمل خلفية جاهلية، لأن في ذلك ضماناً له وعصمة من الانزلاق والخطأ، كما هو الأمر مع رسول الله ﷺ نفسه، مع أنه معصوم بالرسالة ومؤيد بالتسديد الإلهي، إلا أننا نرى أن طبيعة الحياة التي عاشها قبل نزول الرسالة، كانت تجعل منه (أمة) مستقلة منفردة عن أمة العرب الجاهلية التي كان يعيش في وسطها، فكأنه كان منعزلًا عنها بقوة غير اعتيادية لم تتح لأوبئتها وهوائها الوخيم أن يتغلغل في رِئَتيه. لقد تكفل به الله سبحانه فأوجد له حياة خاصة فسيحة تقيه أمراض الجاهلية وأدرانها، كما تكفل هو بإعداد من أرادهم أن يكملوا شوطه ومشواره فيما بعد.

وإذاً فعلينا أن نؤكد الحقيقة المهمة وهي ان على من يحكموا باسم الإسلام خلفاء وأمراء للمؤمنين أن يحكِّموا هذا الدين نفسه، وأن تجسد تصرفاتهم التصور الإسلامي النقي غير المشوب بأي تصور آخر يهمل البعد الرابع ـ كما سماه الشهيد الصدر ـ أو ينساه أبداً، وهو المستخلِف أو الله سبحانه، وإن الإنسانية المستخلَفة المستأمنَة على الكون والحياة ينبغي أن تعي دورها على ضوء السنن الإلهية الواردة في القرآن الكريم، وأن تتمتّع بدرجة عالية من الاستيعاب والفهم والتدبر. إذ أن اهمال أي سنة إلهية يعني تعطيل البعد الرابع ـ الأساس ـ والالتقاء مع النظرات الأرضية البحتة، الفرعونية غالباً، والتي لا ترى لله يداً في عملية خلافة الأرض وعمارتها.

ولم تكن الخلافة مجرد عمل أنيط بالإنسان كامتياز، لأنه أكثر المخلوقات على هذه الأرض مؤهلات وقدرات لأداء أدق الأعمال وأخصها بوعيه وإرادته، لكنه عمل اؤتمن عليه لهذه الأسباب نفسها أن (هذه العطيّة الربانية، كانت تفتش عن الموضع القابل لها في الطبيعة)[1] ولذلك فإن الله ـ سبحانه ـ بين لهذا الإنسان بأن هذه المهمة ليست امتيازاً أو عطية ربانية دون شروط، بقدر ما هي أمانة ثقيلة عليه أن يتحلى بقدر كبير من الصبر والمثابرة والجلد لكي يحافظ عليها. ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) المدرسة القرآنية ص ١٣٣.

وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[1] فالأمانة هي الوجه التقبلي للخلافة، والخلافة هي الوجه الفاعلي والعطائي للأمانة. الأمانة والخلافة عبارة عن الاستخلاف والاستئمان وتحمل الأعباء)[2] إنها ليست مجرد تكريم بالصيغة المطلقة غير المقيدة، والتي قد تفسر بأنها امتياز خاص أو منحة، بقدر ما هي مسؤولية ثقيلة لحمل الأمانة بشكل مشرف لا بُدَّ أن يخرج منه الإنسان بسلامة في نهاية المطاف ولا يغضب الخالق الذي عهد بها إليه وألزمه بشروط يضمن بها قيامه بدوره على أكمل وجه باعتبار أن (هذه العطية الربانية كانت تفتش عن الموضع القابل لها في الطبيعة)[3] مع أن هذا (الموضع)، هو الإنسان.

قد لا يتحمل هذه الأمانة، بل ويتحدى السنن الإلهية التي أرادته أن يكون متوافقاً معها ورهن إشارتها أن يكون على أهبة الاستعداد دائماً لحملها بشكل صحيح. . إذ أن ذلك يرتب عليه معرفة الدين القيّم، الذي جاء من عند الله، فهذا الدين وحده ـ إذا ما توجه إليه الإنسان بشكل صادق ـ هو الضمانة الوحيدة التي تمكنه من حمل هذه الأمانة وتجنب المنزلقات والانحرافات التي قد يتعرض لها، فلا معنى لإيجاد أي مبرر لكونه (قيّما) على الناس ليتحكم في حياتهم ومصائرهم وأموالهم، عندما يتخلى عن هذا الدين صراحة. إنَّ عليه إذا ما فعل ذلك أن يبين ذلك بصراحة أكبر ولا يجعل من الدين مجرد غطاء يبرر شرعية وجوده و (قيمومته) وامرته على الناس.

إن الإنسان الخليفة المؤتمن، هو أحد أطراف هذه المعادلة الرباعية المنسجمة، وإذا ما أخذ دور أحد هذه الأطراف الأخرى أو ألغاه، فإنه بذلك قد ألغى كل هذه المعادلة، وأبرز نفسه كعامل طارىء أو غريب عنها، وأصبحت مهمة الآخرين الذين قبلوه ما دام يحافظ على توازناتها وفق المشيئة والإرادة الإلهية، أن يرفضوه الآن،

---

(١) الأحزاب ٧٢.

(٢) المدرسة القرآنية ص ١٣٢ - ١٣٣ وقد أوضح أمير المؤمنين عليه السلام ثقل هذه الأمانة بقوله: (ثم أداء الأمانة، فقد خاب من ليس من أهلها. إنها عرضت على السماوات المبنية والأرضين المدحورة، والجبال ذات الطول المنصوبة، فلا أطول ولا أعرض ولا أعلى ولا أعظم منها. ولو امتنع شيء بطول أو عرض أو قوة أو عز لامتنعن، ولكن أشفقن من العقوبة وعقلن ما جهل من هو أضعف منهن وهو الإنسان ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ نهج البلاغة ٤٥٩.

(٣) نفس المصدر.

وأصبح واجبهم الشرعي اجباره على التخلي عن المهمة التي يعجز عن القيام بها ويوظفها لمصالحه وغاياته الخاصة وفق هواه ورغبته.

إذ كيف حصل أن زيداً من الناس أصبح هو (القيم) بدل هذا (الدين القيّم) هل تم الأمر برغبة الناس كلهم وباختيار عام له؟ هل نال الأمر بالوراثة؟ هل نزل فيه كتاب أو وحي؟ هل له رسالة خاصة يحملها؟ ومن حمَّله هذه الرسالة؟.

كما اختار الله الرسول ـ اختار الخليفة

نحن نعلم أن الإسلام هو خاتم الأديان، وأن محمداً ﷺ هو خاتم الرسل، بكتاب ونص من الله عز وجل. وقد حاول هذا الرسول العظيم ﷺ الذي تأهل للقيادة وحمل الرسالة (الأمانة) إلى الناس كافة، أن يكرس حياته لنقل هذه الرسالة إلى الأمة كافة ليحملوها بدورهم إلى كل الناس في كل بقاع الأرض، وقد رأينا أنه خير من تحمل هذه المسؤولية عبر كل الرسالات ومن بين كل النبيّين، فكانت سيرته تجسيداً للإسلام ومبادئه وقيمه.

لقد أرانا هو نفسه ﷺ، أنه كان (النموذج) المؤهل الذي ينبغي على من يتصدى لعمله ومهامه أن يكون على أعلى درجة من الشبه والتقارب معه ﷺ عاملًا بنفس أسلوبه ومنهجه، متمتعاً بمثل ما تمتع به من قدرات استثنائية وشعور عالٍ بالمسؤولية التي ارتفعت به إلى حد العصمة.

انه أمر لا يمكن أن يتاح للجميع، فسيرة الرسول ﷺ المتفردة لم تكن تتاح لأحد، فهي مهمة دقيقة وجادة ومن هنا كان الفحص عن الأشخاص المؤهلين لحمل هذه الرسالة؛ هذا الدين القيّم، ونشره في الحياة ليكون قيّماً حقاً وحاكماً ومهيمناً، سيؤدي بِنَا إلى ادراك أن من شُرِّفوا بحمل هذه الأمانة الصعبة الثقيلة، كان ينبغي أن يتمتعوا بكفاءات وامكانات، تفوق الكفاءات والامكانات البشرية العادية.

وسنتكلم ـ بعون الله ـ في فصل لاحق عن هؤلاء المؤهلين لحمل الدور الذي حمله الرسول الكريم ﷺ وبأداء يقترب من أدائِه، وعن الصفات والمزايا التي جعلت منهم مؤهلين حقاً لحمل هذه الرسالة الضخمة الكبيرة، التي تتيح لهم تحمل الأمانة الملقاة على عاتق البشرية.

تلفيقات وأقاصيص لتثبيت دعائم الانحراف

غير أن المفارقة الكبيرة التي تطالعنا في ثنايا الحوادث العظيمة التي نالت من

الإسلام وحاولت تدميره، هي قيام من لا يتمتعون حتى بالقليل الأقل من مزايا الرسول القائد ﷺ وقدراته وصفاته، وإنما من تقاطعوا معه واختلفوا مع كل ما حمل من سجايا وصفات وقدرات، بقيادة الأمة الإسلامية الكبيرة على مر العصور وادعاء خلافته وحق الامرة والقيمومة على المسلمين، وهو أمر مهمّ حاولنا تخفيف وطأتِهِ، بمحاولة تحسين صور وأشكال وأفعال هؤلاء (الخلفاء) الذين تقاطروا على سدة الحكم، متذرعين بالحق الإلهي المتوارث، الذي يتيح لهم ذلك و (يمنع) الخروج عليهم بأية ذريعة.

وإذا ما غضضنا الطرف عن معظم الحوادث والأفعال التي نسبت إليهم، فإن ما وصلنا عنهم ـ ولا يكاد الجميع يختلفون عليه ـ ويكاد المؤرخون يجمعون على روايته أيضاً، والذي هو من المسلمات والحوادث التاريخية المعروفة ـ يجعلنا ندرك، أنَّ عملهم ذاك قد شكل أكبر عملية اختراق للإسلام، بذرائع وحجج، أوجدوها هم، وحاولوا أن يبيّنوا للناس أن الله أرادها ودينهم دعا إليها.

وقد كانت التلفيقات والأقاصيص والأحاديث الكاذبة المفتراة على رسول الله ﷺ أولى الوسائل التي لجأوا إليها، مع ما لجأوا إليه من أساليب أخرى لبسط نفوذهم وتعزيزه مثل وسائل القمع والرشوة بالأموال والمناصب، وإثارة العصبية القبلية والعنصرية التي أوشكت أن تموت في عهد الرسول ﷺ.

ولم يكونوا يستحيون أن يبيّنوا ـ وقد بيّن ذلك بعضهم فعلًا ـ أَن همهم لم يكن إلا الحصول على الملك والسلطان، وانهم غير حريصين على الإسلام أو الخلافة المقيدة به، أو التي تحكم باسمه فعلًا، وبصورة واقعية، وأنهم لم يجعلوا من الإسلام إلا ستاراً يغطون به على أعمالهم وممارساتهم اللامشروعة، وقد أضافوا بذلك إلى ظلمهم الناس الذين ابتلعوا بهم، ظلماً لهذا الدين ورسول الله ﷺ، وقد أرسلهما الله رحمةً لنا جميعاً[١].

(١) فقد (قال معاوية مخاطباً أهل الكوفة... ما قاتلتكم لتصوموا ولا لتصلوا ولا لتحجّوا ولا لتزكوا، وقد عرفت أنكم ستفعلون ذلك. ولكن إنما قاتلتكم لأتأمر عليكم فقد أعطاني الله ذلك وأنتم كارهون..) ـ البداية والنهاية ـ ابن كثير ج ٨ ص ١٣٤ وقال معاوية (... إني لا أحول بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا...) الكامل في التاريخ ابن الأثير/ دار الكتب العلمية/ بيروت ـ لبنان ط ١ ١٩٨٧ م. م ٣ ص ٣٧٤.. وهناك أقوال مشابهة (لخلفاء) آخرين سنذكرها في حينها ـ بعون الله.

بين وضوح الإسلام والتواء المنحرفين

إن الوضوح الذي تناول به القرآن الكريم، أمور الاستخلاف على هذه الأرض ومسؤولية الإنسان لمعرفة كل أبعاد هذه المسؤولية، وتوضيح كل المهمات البشرية المنطلقة من الفطرة السليمة لتكون منسجمة مع دينه القيّم ـ بمختلف العصور ـ والمنزَّل بصيغته النهائية المتكاملة على رسول الله ﷺ، هو الذي يجعلنا ندرك أيضاً سر العصمة التي تهيأت لرسول الله ﷺ ، ليكون هو نفسه أحد الصور الجميلة، بل خارقة الجمال لهذه الرسالة، وجعلنا ندرك أنَّ مسألة خلافة هذا الرسول ـ الذي تمتع بقدرات استثنائية مع أنها بشرية ـ والذي لم يحاول أن يجني أو يحصل على أي مكسب شخصي له أو لعائلته إلا ما أعطاه الله ـ أمر ينبغي أن لا ينظر إليه بدافع الهوى أو المصلحة الشخصية المتحيزة، وأنه ليس أمراً يراد من ورائه السعي للمغانم والمكاسب الشخصية، وإن على من يتحملون مسؤوليات الرسول ﷺ ومهامه، أن يكونوا قريبين منه ومن شخصيته، بل ومن أكثر المؤهلين الذين يحملون بعض صفاته؛ وبعبارةٍ: من أشبههم به.

فهذه المسؤولية الكبيرة لا يستطيع عملها إلا محمد ﷺ ومن هم مثله وعلى شاكلته ومن أقرب الناس إليه، والقيمومة على المسلمين لا تكون إلا لأكثرهم كفاءة وشبهاً به ﷺ .

وإلا ـ فبعيداً عن بعض ما ألفناه من نقاشات ومماحكات لفظية وكلامية ـ هل نستطيع أن نتجنى على الإسلام، ونقول إن مسألة الحكم فيه لا تختلف عن أي منهج آخر، حتى لو كان (منهجاً) فرعونياً أو قيصرياً أو كسروياً، أو شكلًا مستحدثاً، غالباً ما يتخذ أحد صيغ هذه (المناهج) بصيغ (حديثة) معاصرة تعتمد (الديمقراطية) و (إرادة الشعب) لتبرير وجوده وممارساته؟ .

إن المنهج الإسلامي عندما يتقارب مع هذه المناهج الغريبة، ويحاول الأخذ عنها والتأثر بها، ويلغي جانباً من أوجه التصور الإسلامي في الحكم والحياة، فإنه يناقض بذلك نفسه، ويؤكد قصوره وعدم قدرته على إدارة الحياة بامكاناته الخاصة، ويشهد على نفسه بذلك طالما أنه يستعين بغيره بالأمور الأساسية، ولا يجد في نفسه القدرة للقيام بمهمته لوحده. وطبيعي أن المنهج الإسلامي في الحكم، الذي تمثله السلطات الحاكمة (التي تأخذ مختلف الأشكال وتتسمى بمختلف المسميات)، وهي التي تحاول (التأثر) والأخذ و (الاقتباس)، وليس المنهج الإسلامي المطروح،

والمطبق في بداية عهد الرسالة من قبل الرسول ﷺ. هذا المنهج ليس مسؤولاً عن ذلك، إلا أن (الأوصياء) و(القيمين) هم الذين تنعكس تصرفاتهم علينا وعلى غيرنا ـ من الغرباء عن عالمنا الإسلامي ـ سلباً وإيجاباً.

إنهم بتصرفاتهم تلك وجريهم المحموم خلف تلك المناهج والصيغ الغريبة، ينسون، بل ويلغون عن عمد البعد الإلهي المهم الذي أوكلت إليهم مهام الاستخلاف على أساسه وحده، وإن أي انحراف عن هذا المنهج، مهما اختلفت الحجج والذرائع بشأنه غير مبرر ولا مقبول على الاطلاق.

حكم الجاهلية ــ الغاء الحكم الإلهي

وإن الخروج عليه ـ ولو بمقدار بسيط، يعني جواز الخروج عليه لمدى أبعد وأوسع، وإبعاده عن ساحة من ساحات الحياة، يعني التمهيد لابعاده عن كل الساحات، وهذه حالة يرفضها الإسلام رفضاً قاطعاً:

﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[1].

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾[2].

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾[3].

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[4].

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[5].

﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًاۚ﴾[6].

---

(١) المائدة: ٥٠.
(٢) الإنسان ٢٤.
(٣) النساء: ١٠٥.
(٤) المائدة: ٤٤.
(٥) المائدة: ٤٥.
(٦) المائدة ٤٨.

﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾[1].

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2].

إن تعطيل أي جانب من جوانب الإسلام، تعطيل للإسلام كله، وإذا ما تم ذلك من قبل (أهله)، فإن هذه شهادة عليه، بأنه غير مؤهل لإدارة الحياة وحكمها، وهي شهادة خطيرة، تنال منه أكثر مما تنال منه كل الحملات التي يشنها عليه أعداؤه الأجانب عنه، إن ذلك يعني إمّا عدم فهمه، وهو أمر لا يقل خطورة عن الأمر الأول، أو أن ذلك يتم بشكل متعمد، ليفيد الحاكم ويعزز مصالحه ويبرر سلوكه أو خروجه بذريعة من الذرائع، وفي كل هذه الحالات، فإن من يتصرف على هذا الأساس، فهو غير مؤهل حتى لتسلم أبسط المسؤوليات الشخصية، ناهيك عن مسؤوليات الأمة بأجمعها (خليفة) و (إماماً) و (ولياً) و (أميراً للمؤمنين).

إن التجاوز على حد من حدود الإسلام وتأخيره، يعني أيضاً الاستعداد لتعطيل بقية الحدود.. أي الاستعداد للتخلي عن الإسلام نهائياً.

وقد بيّن أمير المؤمنين عليه السلام الفئات التي ينبغي أن تستبعد عن مركز قيادة المسلمين تحت أية مسميات أو واجهات، (.. لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم والأحكام وإمامة المسلمين البخيل فتكون في أموالهم نهمتُه، ولا الجاهل فيضلهم بجهله ولا الجافي فيقطعهم بجفائه ولا الحائف للدول فيتخذ قوماً دون قوم، ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق ويقف بها دون المقاطع ولا المعطل للسنة فيهلك الأمة)[3].

(.. إنَّ أحق الناس بهذا الأمر أقواهم عليه وأعلمهم بأمر الله فيه)[4].

(.. لا يقيم أمر الله إلا من لا يصانع ولا يضارع ولا يتبع المطامع)[5].

---

(١) المائدة: ٤٩.

(٢) يوسف: ٤٠.

(٣) نهج البلاغة: ٣٠٠ - ٣٠١.

(٤) المصدر السابق: ٣٧١.

(٥) نفس المصدر ٦٨٢.

دور الإمام مكمل لدور الرسول

إن دور الإمام في الأمة الإسلامية مكمل لدور الرسول الإمام، ومن غير المعقول أن يتصدى لهذا الدور مَن لا يحمل حداً أعلى من المؤهلات القريبة من مؤهلات حامل الرسالة ﷺ نفسه، بكل أشكالها وصورها، وإن كان لا أحد يستطيع أن يجاريه مجاراة تامة بكافة المؤهلات التي حملها ﷺ، ولعل من الغبن الكبير للرسالة والناس ـ على السواء ـ أن يُستبعد مَن أُهِّلَ لهذه المهمة، لكي يتولاها من لا يستطيع حملها كمهمة مكملة للدور التاريخي للرسول ﷺ، فكيف سيكون الأمر إذا كان مَن يحملها مِن أبعد الناس عن تلك الشخصية (النموذج) التي عرضت علينا بشكل واضح، ولا زالت سيرتها تتراءى أمامنا كمنهج مكمل لمنهج القرآن الكريم.

وإذا ما حصل أن انقطع دور الرسالة، وانتهى عمر الرسول ﷺ، فإن ذلك يعني انقطاع الدور الذي ينتهي فيه التنزيل، ولكن دور التبليغ والأداء لا ينقطع، إذ أن دور الإمامة الذي ترافق في البداية مع دور الرسالة يستمر ويمتد مع عمر الأمة طالما أنها تواجه ظروفاً وأحداثاً ومستجدات حياتية مختلفة ليعالج كل متغيرات الحياة وملابساتها ومشاكلها المستجدة على مرّ الأيام.

إن تصوير الأمور بالشكل الذي بدا لبعض الناس فيه أن لقريش حقوقاً مكتسبة باعتبارها من سلالة إبراهيم عليه السلام عن طريق ابنه إسماعيل عليه السلام، كما كان بعض أهل الكتاب يعودون بنسبهم إليه عن طريق إسحاق عليه السلام، وترتيب حقوق إضافية على هذا الأساس وسلطاناً مكتسباً لهذا السبب فقط، وقوامة على الناس وفضلاً وشرفاً، أمر غير مبرر على الاطلاق، إذ أن المؤهل الوحيد لنيل الفضل والشرف والقوامة، ونيل درجة الإمامة التي هي جزء متمم لدور الرسالة، ومكمل لمسيرتها عند انقطاعها، لا يناله إلا من استحقوه عن جدارة.

وهذا الاستحقاق يتمثل بالاستجابة التامة للرسالة وحملها بكل ما تحفل به من قيم وتصورات، وإن أي انحراف أو ميل عنها، مهما تكن التبريرات يعني عدم استحقاق من ينحرف أو يميل عن شرف الانتماء إلى الإسلام أصلاً، ناهيك عن مركز الإمامة أو الخلافة الرفيع، طالما أن المرء قد تصدى للقيام بهذا المركز الرفيع، فما لم يكن الإسلام هو الحاكم، وما لم تكن الاستجابة له تامة دون تحفظ، وما لم يتمسك به أولئك الذين يريدون (استثمار سلطانه) عن إيمان وقناعة، فلا معنى للسلطان الذي يدعونه لأنفسهم، ولا معنى لطلبهم أية حقوق أو امتيازات على أساس قرشيتهم

وانتسابهم لإبراهيم عليه السلام، ولهذا جاءت مقالة أمير المؤمنين عليه السلام لأهل المدينة موضحة هذا الأمر الدقيق (إن في سلطان الله عصمة أمركم، فأعطوه طاعتكم غير ملوّية ولا مستكره بها. والله لتفعلن أو لينقلن الله عنكم سلطان الإسلام ثم لا ينقله إليكم أبداً حتى يأزر الأمر إليها..)[1].

فقد كان سلطان الله فيهم طالما كانوا محافظين على الإسلام، وحملوا تصوراته وقيمه، فهو الضمانة الوحيدة لعصمة أمرهم ومنعتهم، وجعلهم يظلون في المقدمة، كما أن ابتعادهم عنه يعني فقدانهم المؤهل الوحيد لتوحيد شملهم وقوتهم، وإلا فهو منقول إلى غيرهم.

إن هذه الأمة قد استحقت (وراثة هذه الأمانة، دون ذرية إبراهيم جميعاً، بذلك السبب الوحيد الذي تقوم عليه وراثة العقيدة، سبب الإيمان بالرسالة، وحسن القيام عليها، والاستقامة على تصورها الصحيح)[2].

إن هذا التصور الصحيح للرسالة قائم على التوحيد وهو (الاعتقاد بوحدانية الخالق في الألوهية، وعدم وجود شريك له في الربوبية واليقين أنه هو المستقل بالخلق والرزق والموت والحياة، والإيجاد والاعدام، بل لا مؤثر في الوجود إلا الله، ولا تجوز العبادة إلا لله وحده لا شريك له، ولا تجوز الطاعة إلا له.)[3].

لقد قام القرآن الكريم، ببناء التصور الإسلامي، على أسس واضحة بيّنة، وأكد على مسألة الوحدانية بشكل رشيق رفيق، يخاطب الفطرة الإنسانية السليمة المؤهلة لعبادة الله والاستجابة التامة له.

إن البساطة الكبيرة والوضوح الخارق الذي يتعامل به القرآن الكريم، بخصوص هذه المسألة، أمر اختص به هذا الكتاب المعجز المبين المنزل، وتكاد آياته، تخاطب الفطرة الإنسانية خطاباً مباشراً قريباً، مفهوماً منسجماً معها ومع كل تطلعاتها المشروعة السليمة، ومع كل ما تحفل به من ارتفاع وسمو فما ارتفاع وسمو

---

(١) الكامل في التاريخ ـ م ٣ ص ٩٥.

(٢) في ظلال القرآن م ١ ص ١٠٥.

(٣) أصل الشيعة وأصولها ـ محمد الحسين آل كاشف الغطاء ـ النجف الأشرف ١٣٥٠ هـ، ص ١٠٦.

الروح الإلهية التي نفخها في الإنسان. . ومن تدن وهبوط إلى التراب الذي خلق منه هذا الإنسان ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[1].

لم يتعامل القرآن الكريم مع إنسان (مثالي) تميز بصفات ملائكية وحسب، غير موجود على أرض الواقع، وإنما تعامل مع إنسان يحفل بالغرائز والرغبات والنزعات المتباينة المتناقضة، وقد جعل القرآن ـ ضمن مهماته ـ أن يوظف هذه الغرائز والرغبات والنزعات لمصلحة الإنسان وتنظيم حياته، بشكل يوحد في حسه طريق الدنيا والآخرة ويضمن له خيرهما، وتظل هذه المهمة دائمية متواصلة لا تنقطع في زمن معين، ولا تصل إلى هذا الإنسان عن طريق كهنة أو أحبار أو سدنة، وإنما تظل تخاطبه بشكل مباشر سريع.

مع الكاتب الإسلامي محمد قطب (تبرير الانحراف)

لقد حسم القرآن الكريم، مسألة الإيمان بالله، والتصور الإسلامي الصحيح بخصوص التعامل مع هذه المسألة، لا على أساس يهتم بالممارسات الطقوسية فقط، وإنما على أساس أداء سلوكي حياتي عبادي متكامل وبعبارة أدق منهج كامل للحياة، تترابط كل مفرداته ومواده مع بعضها ترابطاً حياً، متناسقاً، منسجماً متوازناً لا يطغى فيه جانب على آخر، (وأنه ليوحد بين شتى ألوان النشاط البشري، فلا يفرقها نشاطات مختلفة، منفلتة، كل واحدة في طريق، فالنشاط السياسي قائم بذاته! والنشاط الاقتصادي قائم بذاته، والنشاط الاجتماعي قائم بذاته، والنشاط الفكري والروحي قائم بذاته، والنشاط الفني قائم بذاته، كأنما يمكن أن يقوم في الحياة البشرية شيء منفصل عن شيء، وكأنما هي خزافات متفرقة، كل واحد منها لها مفتاحها الخاص. .)[2].

لقد أوردنا هنا هذا النص من محاضرة الأستاذ محمد قطب، حيث أن لنا أحاديث معه بخصوص أقواله نفسها عندما تكلم عن المبررات التي ساقها معاوية، أو التي ساقها هو لمعاوية، وعندما أكد كاتبنا الكبير أنه انحرف في (المجال السياسي)

---

(١) صَ ٧١ - ٧٢.

(٢) الصراع بين الفكر الغربي والفكر الإسلامي ـ محمد قطب ـ دار الفاروق، الطائف، ص ٦.

فقط، وأن هذا الانحراف في هذا المجال الوحيد فقط، ينبغي أن لا يعطي صورة غير دقيقة لذلك التاريخ، صوره مشوهة ممسوخة[١].

إذْ كيف كان يمكن أن يقع الانحراف في المجال السياسي فقط، لو لم تقع من نفس مستعدة للانحراف لا في هذا المجال فقط، وإنما في كل المجالات، وطبيعي أن ذلك الانحراف (وليس مجرد خطأ واحد بسيط)، عندما يقع من قبلها، فإن ذلك يعني أنها لم تستجب لطبيعة الإسلام الموحّدة لشتى ألوان النشاط البشري، فلماذا التكلم إذاً عن فصل النشاط السياسي عن بقية النشاطات، عندما نبحث انحراف معاوية وغيره الواضح في هذا الجانب وعدم ربطه بجوانب الانحراف الأخرى، واهمال تلك الانحرافات وعدم التحدث عنها، واتهام من يتناولها، بأنه يقوم بذلك بدوافع الميول الشيعية، هذه الاتهامات التي يلجأ إليها كل من يعجز عن مقارعة الحجة بالحجة، ولا يجد ما يبرر به سلوك من يميل إليه، وإن ادعى الموضوعية والحياد. ولنا عودة إن شاء الله ـ إلى هذا الموضوع، عندما نتطرق إلى الحديث عما نال الإسلام من شرخ كبير نتيجة انحراف معاوية الفاضح والبيِّن عن خط الإسلام الواضح، مما ظلت تعانّي منه هذه الأمة الإسلامية المنكوبة ليومنا هذا.

والطامة الكبرى أن بعض كبار مفكرينا الإسلاميين، عندما يعيدون الحديث عن وقائع ذلك الانحراف ومبرراته، ويتكلمون عنه وكأنه كان نتيجة النزاع أو الخلاف الشخصي بين علي ومعاوية، بين شخصين تحفل نفساهما بنفس القدر من عوامل الخير والشر، وإنهما متكافآن من حيث امكانية الوقوع في الخطأ أو تنكب طريق الصواب، وهذا أمر لنا عودة له بعون الله. غير أننا عندما نستمع إلى أقوال مثل هذه (إن قوماً من الناس، تهولهم الزوبعة التي غشيت المجتمع المسلم بالنزاع بين علي ومعاوية)[٢]. فإن قوله هذا يهولنا حقاً، وهو الباحث الرصين، عندما يدعو إلى التروي والدقة والموضوعية والحياد، عند كتابة التاريخ، ثم يقوم بتصوير الأمر وكأنه مجرد زوبعة تثار نتيجة صراع بين علي ومعاوية. هكذا فقط، وينبغي أن لا ننزعج منها، ونعتمد على قوة هذا الدين، التي ستخلصه من النتائج السيئة لهذه الزوبعة الناشئة من الصراع بين هذين الشخصين.

---

(١) كيف نكتب التاريخ الإسلامي ـ محمد قطب ـ دار الوطن للنشر ـ الرياض ١٤١٢ هـ ص ٣٣.

(٢) المصدر السابق. ص: ٦٨.

لقد سار الأمر كما أراد معاوية بالضبط، عندما صور مسألة سعيه لاغتصاب الخلافة من أصحابها الشرعيين، وكأنه خلاف بين شخصين متكافئين قريبين من بعضهما بالنسب والجاه..! وإن المعركة كانت خاصة بينهما، ولا علاقة للإسلام، ولا حتى للمسلمين بها..! لقد بلغ من (دهاء) معاوية أن كتاباً إسلاميين عديدين، مثل كاتبنا الأستاذ محمد قطب، مشهود لهم بالمواقف الجيدة والنظرات الصائبة عند تناول العديد من القضايا الإسلامية المتنوعة، ينخدعون به، فكيف لا ينخدع به السذج والبسطاء الذين لا ينظرون إلى الأمور بنفس الدرجة من الدقة والوعي والعمق.

هذه مسألة رأيت أن أشير إليها هنا إشارة عابرة، عند التحدث عن مسألة الخلافة، وسأتحدث عنها باسهاب، لايضاح الطريقة الماكرة التي استدرج بها معاوية الآخرين لتقبل فكرة وجوده خليفة لرسول الله ﷺ، كأمر طبيعي، وأبعد من ذلك إعدادهم لتقبل فكرة جلوس يزيد على مقعد الخلافة، وحتى من يأتي بعد يزيد، وهو بحث دقيق سنتطرق إليه في حينه ـ بعون الله ـ.

إله مع الله ـ رسالة التوحيد بعد خاص

إن رسالة التوحيد، تلغي كل الأطروحات والتصورات البشرية البحتة عن الآلهة، والإله الكبير، ابتداء من التصورات البدائية الأولى، وحتى الأسطورية الاغريقية ثم الرومانية المشركة التي نشأت في أعقاب المسيحية الهشة، بعد غياب السيد المسيح عليه السلام ورسالته الحقة، ومسخ الديانة اليهودية التي أقام اليهود على أنقاضها ديانة أخرى، منطلقين من مصالحهم وأطماعهم وعقدهم الكبرى. كما أن هذه الرسالة تلغي الأدوار المزعومة لآلهة الشرك التي عبدها البوذيون والمانويّون والزرادشتيّون والهندوس وعبدة الأصنام في الجزيرة العربية.

وعندما تؤكد أن كل هذه الآلهة والمعبودات هي من نتاج العقل البشري ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾[1].

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[2].

---

(١) النجم ٢٣.
(٢) المؤمنون ٩١.

﴿.. أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾[1].

﴿.. أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2].

﴿.. أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[3].

﴿.. أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[4].

﴿.. أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[5].

﴿.. أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾[6].

﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾[7].

﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[8].

وإن هذا العقل البشري، حاول تبرير وتفسير كل ظاهرة وأمر لصالحه، أو لصالح (الملأ) أو الطبقات العليا الرفيعة التي تحكمت بالمجتمعات البشرية على مر العصور، فإن رسالة التوحيد قامت بمحاولة تصحيح، بل الغاء هذا التصور البشري البحت، ومسح كل لمساته وظلاله التي ألقيت على العقل البشري خلال حقب طويلة من الزمن، وأعلنت عن عزمها المنبثق عن اليقين المطلق لحل الجدل والتناقضات التي نشأت نتيجة هذا التصور، لا عن طريق هذا الجدل وهذا التصور نفسه ـ فإن هذا أمر لا يمكن أن يؤدي إلى نتيجة بأي حال من الأحوال، وإنما من خلال (الشعور بالمسؤولية. لكن لا الشعور المنبثق عن نفس هذا الجدل، فإن الشعور المنبثق عن

(١) النمل ٦٠.
(٢) النمل ٦١.
(٣) النمل ٦٢.
(٤) النمل ٦٣.
(٥) النمل ٦٤.
(٦) الأنعام ١٩.
(٧) الكهف ١٥.
(٨) الذاريات ٥١.

نفس هذا الجدل لا يحل هذا الجدل، هو ابن الجدل، بل هو افراز هذا التناقض، وإنما الشعور الموضوعي بالمسؤولية لا يكلفه إلا المثل الأعلى الذي يكون جهة عليا، يحس الإنسان من خلالها بأنه بين يدي رب قادر سميع بصير محاسب، مجازٍ على الظلم، مجازٍ على العدل)[1].

وَإذْ أن المعركة لا تأخذ طابع الخلاف النظري حول الأفكار والتصورات البحتة فقط، وإنما هي معركة مصالح وامتيازات ـ على مَرِّ العصور ـ فإنها تتخذ طابعاً شرساً، تقف فيه الأقلية (المنتقاة) لتعزيز سيطرتها ونفوذها، موقفاً صلباً، لا تسامح فيه ولا لين، مكرسة طاقاتها وامكاناتها الكبيرة، ومنها الأغلبية المستضعفة ذاتها، التي جعلتها تدور في فلكها، وجعلت منها دوائر متعددة الأقطار والأطوال لحماية مصالحها، ورغم أنها مستغلة، فإنه أُريد لها أن لا تعرف ذلك، وتعلم أن حياتها ووجودها ترتبطان بحياة ووجود الأقلية المتنفذة، وإن أي خروج عن قطر أية دائرة محددة لها، يعني الخروج عن بقيتها، وخروج على الأقلية المتنفذة نفسها التي غالباً ما تمسك بجهاز الحكم بقبضة حديدية بشكل مباشر، وعن طريق الثروة والمال ووسائل النفوذ المختلفة، وتحاول أن توحي إليها ـ أي إلى الطبقة الواسعة المستضعفة (الجاهلة غالباً والفقيرة) ـ إن خروجها يعني تحطيم (مصالحها) هي أولّا، قبل أن يصل الأمر إلى الاضرار بالطبقة الحاكمة.

وليس من السهل على المرء ـ في ظل أوضاع كهذه ـ أن يعلن عن نواياه المجردة، بضرورة محاربة المستغلين المتنفذين، بل وتغيير كل الأوضاع التي كرست لتعزيز هذه المصالح، والقيام بثورة اجتماعية كبرى، وهذه لا تنجح في أغلب الأحيان، إذ أن التصدي لها سيكون حازماً وعنيفاً ـ إلا إذا كان الدافع أقوى من مجرد الشعور العادي بالظلم، وإلا إذا كانت هناك قيادة مؤهلة، مكلفة من قبل قوة عظمى، غير بشرية وضعت لهذا الكون نظاماً دقيقاً، ووضعت لعموم الناس نظاماً لا يقل دقة وانسجاماً وتناسقاً عن النظام الكوني الدقيق نفسه، وهذه القيادة متمثلة بالرسول البشر المؤهل المختار من قبل هذه القوة العظمى، يستطيع حمل الرسالة وتبليغها بوعي واصرار، بعد أن يتيقن هو نفسه بقدرة من اختاره واصطفاه لحمل هذه الرسالة، وبعد أن عرفه معرفة تامة..

---

(١) المدرسة القرآنية ١٨٩.

فالنبوة ـ هنا ـ ليست أمراً بشرياً خالصاً، مع أن البشر هو الذي حملها من قبل الله ـ سبحانه ـ كما أنها ليست تجسيداً لمصالح الأقلية على حساب الأغلبية، وليست توظيفاً للأفكار البشرية لضمان مصالح هذه الأقلية، وهي ليست منبعاً لأفكار وآراء مهدئة أو منومة أو مخدرة، وليست أفيوناً ـ كما يدعي الماديون والملحدون، الذين يقطعون كل صلة أو علاقة للحياة مع الخالق، ويفسرون الوجود على أساس مادي بحت يخضع لقانون الصدفة أو الاحتمالات الخيالي الذي لا يمكن أن يهضم من قبل العقل البشري على الاطلاق لما يحفل من ثغرات وأخطاء وتناقضات غريبة تزيد الأمر تعقيداً وتجعل الوصول إلى أي جواب مقنع أمراً مستحيلاً.

النبوة ظاهرة ربانية ــ كذلك الإمامة

غير أن (النبوة ظاهرة ربانية في حياة الإنسان، هي القانون الذي وضع صيغة الحل بتحويل مصالح الجماعة وكل المصالح الكبرى إلى مصالح الفرد عن طريق إشعاره بالامتداد بعد الموت والانتقال إلى ساحة العدل والجزاء)[١].

وعندما يعمل دين التوحيد على تقليص أو استئصال امتيازات الأقلية المستغلَّة، فإن مهمته في ذلك ليست منبثقة عن ذات الرسول أو النبي نفسه لإصلاح الحالات الشاذة وإعادة الأمور إلى نصابها بما يحقق العدالة للجميع، إذ أنه لو فعل ذلك على هذا الأساس، لكان عمله وتطلعه بشرياً بحتاً قابلاً للخطأ والصواب، لكنه يعمل ذلك بوحي من رسالة حُمِّلَ بها وأرسل بها من قبل الله ـ سبحانه ـ رسالة واضحة المعالم في ذهنه، تحمل القدرة على ارساء حياة متوازنة متوافقة في المجتمع الذي أرسل إليه ـ وهو المجتمع الإنساني كله بالنسبة إلى الإسلام ـ ومن هنا كانت مهمة هذه الرسالة الأخيرة الخاتمة، مهمة توحيد العالم كله على أساسها وهي مهمة هائلة نحتاج إلى قيادة عظيمة ـ تقتدي بقيادة الرسول ﷺ وتجعل منها أساساً لعملها وتوجهاتها.

فـ (النبوة هي التي توفر الصلة الموضوعية بين الإنسان وما بين المثل الأعلى الحق المنفصل عنها الذي هو ليس من افرازها ومن انتاجها المنخفض. هذه الصلة الموضوعية يجسدها النبي على مر التاريخ. الأنبياء صلوات الله عليهم هم الذين يجسدون هذه الصلة الموضوعية)[٢].

---

(١) الفتاوى الواضحة ـ السيد محمد باقر الصدر ـ المقدمة.

(٢) المدرسة القرآنية ١٩٨.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[1].

﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[2].

ومن هنا نرى دقة انتقاء الرسل من بين ملايين البشر، لحمل هذه المهمة الضخمة التي يتعرضون فيها لمختلف المخاطر وضروب المحن والشدائد، فلا يتنازلون ولا يتوانون عن تبليغ ما حملوا إلى الناس، ولا ترهبهم تلك القوى المتسلطة، مهما بالغت في استعراض سلطانها وبطشها وجبروتها.

إن الرسول ينطلق في عمله الرسالي عن يقين من وعى وعلم وشاهد وسمع الرسالة، وهي تصل إليه واضحة غير مبهمة، لكي يتولى مهمة إيصالها إلى البشر الآخرين، فهو ينطلق في مهمته دون تحفظ، متيقن من وجود القدرة الإلهية الفاعلة الخالقة المدبرة القديرة التي تتضاءل أمامها كل القدرات البشرية العادية، مهما أحاطت نفسها بمظاهر القوة والتسلط... وإذ كان هؤلاء الرسل معدّين مسبقاً ومنتقين ومعروفين من قبل مجتمعاتهم قبل نزول الرسالة عليهم، فإن مهمتهم تبدو سهلة في هذه المجتمعات ـ وخصوصاً بين الطبقات المغلوبة والمقهورة ـ ولا تكاد تلقى أية صعوبات، لولا التحدي الشرس لآلهة المصالح والشرك، التي تحجرت على قيمها ومثلها وأوضاعها، والتي حققت في سالف عهدها أكبر قدر من النجاح والفوز في هذه الدنيا، ووظفت كل مخلوقات الله لتثبيت هذه الأوضاع. ولا بد أنها ستقف بقوة أمام أية جهة تنشد التغيير، حتى لو كانت بوحي من الله نفسه.

وإذاً فإن المسألة، ليست مسألة رغبة في التغيير، تساور نفس الرسول وحسب،

(١) الأعراف ١٥٨.

(٢) النساء ١٦٣-١٦٥.

وإلا لما كان رسولاً، وإنما كان مجرد مصلح أو ثائر، يريد تغيير نمط واحد من أنماط الحياة.. أحسَّ أنه يلحق غبناً أو حيفاً بالمجموع، فأراد تغييره، وكان على هذا الأساس وحده، سيخضع ـ كغيره ـ لكل المشاعر البشرية المتضاربة، وما كان سيتمتع بأية قدرة استثنائية، تجعله مؤهلًا لقيادة الناس واستقطابهم حوله، وكان سيتوقف، يهرب، أو يساوم أو يتعثر عند أول معركة، وكانت الهزيمة لا بد لاحقة به، وربما هزم أمام نفسه وبنظر أصحابه أنفسهم إذا تراجع ولم يمض حتى النهاية.

يقين تام

إن يقين الرسول الأكيد، وتوجهه التام لحمل الرسالة الموكلة إليه، واندماجه الكلي، بكل ما تحمله من قيم ومبادىء وشعارات، يجعل من تصرفاته الحياتية اليومية، مهما تكن بسيطة، منصبة على تجسيد ما يحمله، وتكاد تكون أبسط مفردات هذه الحياة (شواهد) و (نماذج) معروضة أمام الآخرين الذين يتلقون منه الرسالة.

إن ذاته كلها مكرسة للرسالة التي يحملها ولا يكاد يرى غيرها، وتهون عليه كل القوى المعرقلة والمانعة والمعادية مهما استعملت من قدرات تدميرية وقمعية هائلة أمام الآخرين ما دام متيقناً من الفوز في نهاية المطاف.. فوزاً لا يعرفه أعداؤه ولا يرجونه، إن ذاته منسجمة مع الذات الإلهية التي حمَّلته هذه الرسالة انسجاماً تاماً، ﴿..قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ..﴾[1].

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾[2] فهو يحب في الله ويبغض في الله ويعطي في الله ويمنع في الله.

إن مهمة الرسول تمتد لايجاد نماذج مشابهة له على الساحة التي يعمل فيها، بعد وفاته واختفائه منها، مع أن هذه النماذج قد لا تؤثر نفس تأثيره أو تتطابق معه تطابقاً تاماً، وهذا أمر لا يعبر عنه بمجرد ابداء الرغبة بذلك، وإنما من خلال اعداد بعض النماذج المقربة منه، والتي يتوسم فيها قابلية وتفوقا واستعداداً لاكمال مهمته بعد غيابه، إنه يريد نقل يقينه إلى الآخرين، وهي مهمة تربوية تستدعي صبراً وثباتاً ويقيناً من قبل من يعد لمثل هذه المهمة.

---

(١) الأنعام: ٩١.

(٢) التوبة: ١٢٩.

إن هذا اليقين الذي يحمله الرسول، يجعله لا يرى أمامه إلا أداء مهماته على الوجه الذي يريده الله ـ سبحانه ـ أداءً متقناً رفيعاً ينسجم وعظمة الرسالة التي يحملها وعظمة وقدرة الخالق الذي أنزلها واختاره هو لتبليغها. إن عمق شعوره بالمسؤولية هو الذي يجعل منه معصوماً، إذ أن أي انحراف مهماً كان بسيطاً، وأي خروج عما يدعو إليه هو نفسه، سيكون انتكاسة كبيرة لهذا الدين الذي يدعو إليه.. وسيكون تفسير أي (خطأ) من الرسول للآخرين مهما كان هذا الخطأ بسيطاً ـ أمراً غير قابل للفهم أو التبرير.. فإن على من يحمل الرسالة وينقلها إلى الآخرين، أن يكون وجهاً ناصعاً لها، وصورة ناطقة تشهد بوضوحها وضرورتها أيضاً. بل الرسالة نفسها.

الرسول يطاع كيف عصي

لذلك فإن شهادة الله لرسله، وخصوصاً لخاتمهم محمد ﷺ بأنه المصطفى، وأنه خير الخلق. وأنه بلغ الغاية في الخلق العظيم. ليس من باب زج الثناء لمجرد زج الثناء، وإنما أراد ـ سبحانه ـ بذلك، أن ينبهنا أن سيرة الرسول ﷺ وسنته، بكل ما تحفل به من أوضاع وأقوال وأعمال، مكملة لكتابه الكريم المنزل، بل هي امتداد له، وأنها تشكل معه قوام الإسلام وأساساً لكل فعالياته وتشريعاته وقيمه. لذلك فإن طاعته مفروضة على الناس كطاعة الله. إذ أن محصل طاعته ستؤدي بالتالي إلى تحقيق ما يريده الله وإلى طاعته سبحانه ومن غير المعقول أن نجد تقاطعاً أو تناقضاً إذا ما أطعناهما كليهما.. الله ورسوله.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ..﴾[1].

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ..﴾[2].

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[3].

﴿.. وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[4].

(١) النساء ٦٤.
(٢) النساء ٨٠.
(٣) التوبة ١٢٨.
(٤) النساء ١٣-١٤.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟...﴾[1].
﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[2].
﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾[3].
﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[4].

وعندما يقول الرسول الكريم عن نفسه (أنا سيدُ البشر ولا فخر) ويقول (إن الله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه).. فإنه لا يتباهى بذلك تباهي الجاهليين أو يفخر كفخرهم، وإنما يريد اقرار حقيقة: أنه مختار ومصطفى ومنتقى من قبل الله بشكل خاص لحمل خاتمة الرسالات؛ الرسالة الإسلامية الكاملة، إلى البشر كافة، في كافة أقطار الأرض وفي كافة الأزمان والعصور. لا على أساس التصورات البشرية الخاصة المجردة، بل على أساس اليقين المطلق والمعرفة الحقيقية بما أنزل الخالق، وعلى أساس المثل الأعلى الذي لم يكن نابعاً من تصوراته الذاتية، إن هذا (المثل الأعلى المنفصل عنه، الذي هو فوقه، الذي أعطاه نفحة موضوعية من الشعور بالمسؤولية. وهذا الشعور بالمسؤولية تجسد في كل كيانه، في كل مشاعره وأفكاره وعواطفه ومن هنا كان النبي معصوماً على مر التاريخ)[5] إذ لو لم يكن كذلك، وكان معرضاً كغيره للوقوع بنفس الأخطاء التي يقع فيها الآخرون، لكان معرضاً أيضاً لعدم القدرة على القيام بنقل الرسالة نقلاً أميناً، أو تحريفها بما يوافق هواه، ولما كان ذلك يمثل انتكاسة واضحة لهذا الدين - تسبب فيها قيام الرسول نفسه بالتحريف والتبديل! فإن انتكاسات أخرى محتملة لا بد أن نتوقعها من أناس آخرين، لا يحملون نفس اليقين الذي يحمله، كما نتوقع أن تتزايد وتتعمق على مر الأيام، ومعنى ذلك أن هذه الرسالة مقضي عليها بالفشل والموت منذ البداية.. وإن ضمانة ديمومتها وثباتها وتحكمها في الحياة أن لا يكون ناقلها إلى الناس، وهو الرسول، خاضعاً لما يخضع له الناس الآخرون من عوامل الضعف والانحراف والانسياق وراء الهوى أو المصلحة

---

(١) الحجرات ١٥.
(٢) القلم ٤.
(٣) الأنبياء ١٠٧.
(٤) الحشر ٧.
(٥) المدرسة القرآنية ص ١٨٧.

الشخصية وأن يكون منزهاً عنها، ليكون الجميع على يقين بأن الرسالة قد وصلتهم كاملة سالمة غير محرفة ولا مبدلة.

الإمامة امتداد للنبوة

إن أمام الرسل دائماً ـ وعلى امتداد التاريخ ـ معارك حقيقية. إذ أن من احتكروا السلطة والنفوذ والثروات، ونصبوا أنفسهم مثلًا عليا وآلهة وطواغيت، لم يكونوا ليتركوا الساحة، ويدعوا الأمور هكذا ببساطة، أمام من جاءوا يساوون بين الناس، على أساس العدل (الإلهي) والسلطة الإلهية وحدِها.. ووحدها فقط. ولم يكونوا ليتركوا قيمومتهم وزعامتهم على الناس، لمجرد الاستجابة لرسالات لم يكونوا هم ـ دون غيرهم على الخصوص يدركون محتواها الحقيقي ـ في غمرة تمتعهم بالامتيازات وحياة الرفاه والبذخ والتسلط. فكان لا بد من المعارك! لا بد من قيامهم بتكريس كل قواهم واستنفاد كل طاقاتهم للتصدي لأي عملية تغيير تعمل على (تعكير) صفو حياتهم التي نظموها، على أساس ضمان هذه المصالح، واستمرار وتكرار نموذج الحالة التي عاشوها وعاشها آباؤهم من قبل.

والمعركة لا بد أن تواجه باستعداد مماثل لها من قبل هؤلاء الرسل. بل إن هذه المعركة لا بد أن تكون أول ما يضعه هؤلاء الرسل نصب أعينهم، وعليهم أن يعدوا أنفسهم ومن آمنوا برسالاتهم لخوضها ضد هذه الطواغيت والآلهة المصطنعة.. (والمثل المنخفضة التي تنصب من نفسها قيماً على البشر، وحاجزاً، وقاطع طريق بالنسبة للمسيرة التاريخية. لا بد من معركة ضد هذه الآلهة ولا بد من قيادة تتبنى هذه المعركة. وهذه القيادة هي الإمامة، هي دور الإمام. الإمام هو القائد الذي يتولى المعركة. ودور الإمامة يندمج مع دور النبوة في مرحلة من النبوة يتحدث عنها القرآن.. ودور الإمامة يندمج مع دور النبوة، ولكنه يمتد حتى بعد النبي، إذا ترك النبي الساحة، وبعد لا تزال المعركة قائمة، ولا تزال الرسالة بحاجة إلى مواصلة هذه المعركة من أجل القضاء على تلك الآلهة، حينئذٍ يمتد دور الإمامة حتى بعد انتهاء النبي)[١].

ومن هنا قام القرآن الكريم باعداد المسلم لفهم دوره الإيماني الذي يعني ببساطة

---

(١) المصدر السابق ص ١٩٦.

التمسك بالإسلام كله، والعمل بكل تعاليمه وأحكامه.. ويعني أيضاً رفض كل ما عداه ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ..﴾(1).

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾(2).

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ..﴾(3).

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ..﴾(4).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(5).

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾(6).

﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(7).

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾(8).

لقد أعده لمهمات صعبة، لِمعارك يخوضها في سبيل الله، يثبت فيها صدق إيمانه وصدق توجهه وصدق تمسكه بالإسلام، الدين الذي شرح الله له صدره وهداه به وأراده أن لا يموت إلا وهو متمسك به، وقد أراده أن لا يعلن عن صدقه وعدم ارتيابه بالله ورسوله بمجرد بالقول، وإنما بالفعل المصمم الهادف الذي يجسد اصراره وعزمه على التغيير ودعوة الناس إلى دين الحق هذا أيضاً والدفاع عنه، مهما كانت الصعوبات والمتاعب التي سيلقاها.

ومهمة القرآن في ذلك، كانت مهمة متواصلة طويلة، استمرت طيلة العهدين اللذين نزل بهما في مكة والمدينة، كما أنها تستمر إلى ما شاء الله، مع كل الذين يتوجهون إلى هذا الكتاب الكريم، فيطالعون فيه قول الله الحق النافذ المبين، غير المحرف ولا المزور، الكلام السهل الممتنع المعجز، إن توجيهه لنا ـ في مجال الاستعداد الدائم للجهاد مع النفس ومع أعداء الإسلام الناصبين له العداوة على الدوام، يوضح لنا بعبارة موجزة الدور الذي ينبغي أن نقوم به كمسلمين، مؤمنين،

(1) آل عمران: 19.
(2) آل عمران: 82.
(3) الروم: 43.
(4) آل عمران: 85.
(5) البقرة: 132.
(6) الأنعام: 125.
(7) آل عمران: 102.
(8) فصلت: 33.

صادقين، غير مرتابين ولا متشككين ولا مترددين طوال حياتنا لا في مرحلة معينة وحسب.. ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ..﴾(١) فهم يجسّدون إيمانهم يقيناً وعملاً، لا يحسبون حساباً إلا لله وحده، لا خوف إلا منه ولا حب إلا له، ولا نهج إلا نهجه، ولا قول إلا قوله، ولا توكل إلا عليه.

ومنهجهم في العبادة لا يتمثل بمجرد الاعراب عن ذلك الحب، وسماع قوله وقراءة كتابه، وإنما يتمثل في أداء سلوكي متكامل منسجم مع انحيازهم التام إلى صفِّه جملة وتفصيلًا ورفض كل ما عداه... ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾(٢).

الايمان ـ نوايا أم عمل

ولا يقتصر عمل المؤمنين على مجرد (الإيمان) الذي قد تستشعره نفوسهم وتتشربه حواسهم دون نهج حياتي سلوكي عام واضح، يأخذون أنفسهم على انتهاجه وعدم الخروج أو الحيدة عنه، كما أنه يمتد للتمهيد للآخرين الذين لم تتضح لهم معالم هذا الدرب، والأخذ بأيديهم ليسيروا عليه متوسمين نفس الطريق الذي سار عليه رسول الله ﷺ والصفوة من صحبه.

وأمر كهذا لا ينال بمجرد التمني والنوايا (الصادقة)، وإنما تثبت النوايا صدقها، إذا ما حزمت النفس أمرها للجهاد على الساحتين كلتيهما ساحة النفس وساحة القتال الفعلي بالسيف واللسان والرأي والشعور، والجهاد لا يكون إلا في سبيل الله، وإلا فإنه غير مقبول، إذْ أنه غير مجد إذا لم يكن كذلك، وهناك ميادين عديدة يتبين لنا فيها كيف أنه في سبيل الله، إذا ما كان في سبيل الدفاع عن الدين أو المال أو العرض... والجهاد قد يكون بالنفس أو المال، وهما أعز ما يملك الإنسان، إنه يعد نفسه للتضحية والبذل، ويتوقع كل شيء في المعركة السجال الناشبة بينه وبين عدوه، غير أن أمراً واحداً، يدرك أنه بالغه، مهما كانت نتيجة المعركة الأرضية الدائرة، وهو النصر المحتوم والفوز الأكيد حتى وإن استشهد أو قتل أو افتقد

---

(١) الحجرات: ١٥.

(٢) الأنفال: ٢.

أو جرح أو أسر أو تشرد. . فلقد أدى مهمته إلى أبعد مدى استطاع القيام به، وما عليه إلا أن ينتظر الجزاء.

وهنا نقطة الافتراق عن النظرات الأرضية البحتة، النظرات البشرية المجردة، التي لا تتطلع إلا إلى الطين والوحل والتراب، ولا تكاد تحس بروح الله التي نفخها فيها والمحيطة بها، والتي تريد أن تسمو بها إلى كل ما تحفل به من معان زاخرة بالعظمة والارتفاع والسمو، غير أنها تعاكس هذه الروح الإلهية وتأبى أن تسير إلا عكس التيار.

علي استمرار للرسول

إن هذه المسيرة، هذه المعركة الدائمة لا بد لها من قائد حكيم، قائد مسدد بالعناية الإلهية، يسير أمام الأمة المسلمة، وتراه على الدوام رائداً وإماماً. إن دور النبي في هذه القيادة والإمامة لا جدل عليه ولا خلاف، غير أن حياة هذا النبي، لا بد أن تنتهي من على هذه الأرض، مع أن دوره لا بد أن يستمر بنفس القوة والوضوح، وأن يحمل رسالته من تربى في أحضانه وتلقى منه وفهم عنه. لا بد أن يكون ابن القرآن الحقيقي ـ الذي لم يعرف طريقاً آخر ولم يتلق أو يفهم سوى لغة القرآن، هو المؤهل لهذا الدور القيادي الحساس الذي يعتمد عليه مصير الأمة ومستقبلها ما دامت المعركة قائمة، وما دام الدين لم ينتشر بعد ولم يفهم من قبل فئات كبيرة من الأمة، بل من قبل شعوب عديدة في العالم.

إن دور الإمامة ينبغي أن يفهم على هذا الشكل، ولا بد لها من ادراك ضرورة هذه القيادة المتمثلة بالإمام والتي هي شكل مشابه لقيادة الرسول، ويفترض أن يكون لها نفس الدور القوي لتلك القيادة، لو أن الأمور سارت كما خطط لها ﷺ وأعد لها من قبل، ولم يكن الأمر مجرد ثناء يزجه الرسول ﷺ لأمير المؤمنين عليه السلام عندما قال له (أنا وأنت أبوا هذه الأمة)، فهو يريد بذلك أن يلفت نظرياً إلى تطابق مسؤوليتهما في تربية هذه الأمة وقيادتها والأخذ بيدها حتى تتجاوز الأخطار وحتى تتاح لها الفرصة الكافية لفهم الإسلام من خلال العمل به وانتهاجه طريقاً وحيداً في الحياة، طريقاً يؤدي سلوكه إلى الفوز الأكيد. . (الإمامة هي في الحقيقة تلك القيادة التي تندمج مع دور النبوة. النبي إمام أيضاً. النبي إمام ولكن الإمامة لا تنتهي بانتهاء النبي، إذا كانت

المعركة قائمة، وإذا ما كانت الرسالة بحاجة إلى قائد يواصل المعركة. إذاً سوف يستمر هذا الجانب من دور النبي من خلال الإمامة)[١].

بهذا المعنى ينبغي أن نفهم قول أمير المؤمنين عليه السلام باستمرار الإمامة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله، وأن لها رجالها المؤهلين لحملها كما تحمل مسؤولياتها النبي صلى الله عليه وآله من قبل (. . أرسله صلى الله عليه وآله بأمره صادعاً، وبذكره ناطقاً، فأدى أميناً، ومضى رشيداً، وخلّف فينا راية الحق، من تقدمها مرق، ومن تخلف عنها زهق، ومن لزمها لحق. . . إلا أن مثل آل محمد صلى الله عليه وآله كمثل نجوم السماء، إذا خوى نجم طلع نجم. .)[٢] ومن هذا المنظور ينبغي أن يكون فهمنا لكلام أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المعنى. . . وأن لا نفهم أنه يريد منه مجرد إعلام المسلمين بمنزلة آل البيت عليهم السلام العالية، دون ترتيب مسؤوليات حقيقية عليهم تتناسب ومكانتهم ودورهم وفهمهم العالي للإسلام وإمامتهم للأمة.

(. . والله ما أسمعهم الرسول شيئاً، إلا وها أنذا اليوم مسمعكموه، وما أسماعكم اليوم بدون اسماعهم بالأمس. .)[٣].

(تالله لقد علمتُ بتبليغ الرسالات وإتمام العدات وتمام الكلمات، وعندنا أهل البيت أبواب الحكم وضياء الأمر)[٤].

(نحن الشعار والأصحاب والخزنة والأبواب، لا تؤتى البيوت إلا من أبوابها. من أتاها من غير أبوابها سمي سارقاً)[٥].

(نحن النمرقة الوسطى بها يلحق التالي وإليها يرجع الغالي)[٦].

(أنا يعسوب المؤمنين. .)[٧].

(. . فبهم (آل النبي) كرائم القرآن، وهم كنوز الرحمن، إن نطقوا صدقوا. وإن صمتوا لم يسبقوا)[٨].

---

(١) المدرسة القرآنية ١٩٨.
(٢) نهج البلاغة: ٢٤٤.
(٣) المصدر السابق ٢٠٩.
(٤) نفس المصدر ٢٨٣.
(٥) نفس المصدر: ٣٣٠.
(٦) نفس المصدر: ٦٨١.
(٧) نفس المصدر: ٧٣١.
(٨) نفس المصدر: ٢٣١.

(. . . وإنما هو تعلم من ذي علم. . . فعلمٌ علّمه الله نبيّه فعلمنيه ودعا لي بأن يعيه صدري وتضطم عليه جوانحي)[1].

إن ما ذكره أمير المؤمنين عليه السلام، لا يشير هنا إلى مواهب بشرية عادية تؤهل حامليها لمهمات محدودة، بل يشير إلى امكانات استثنائية أعد أصحابها لتحمل مسؤوليات استثنائية غير عادية، وهي قيادة الأمة وإمامتها. وسنتحدث عما ورد بشأنها عن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم وما ورد من إشارات وأقوال صريحة بذلك في فصول لاحقة.

خلافة الانسان ـ تكريس العبودية لله

إن خلافة الإنسان على هذه الأرض كانت مهمة صعبة وأمانة ثقيلة، تصدّى الإنسان وحده للنهوض بمهامها، بعد أن رفضتها السماوات والأرض والجبال وأشفقن منها ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[2].

وعلى طريق النهوض بأعباء هذه الخلافة، ولتمكين الإنسان من أداء مهامها بالشكل الذي يرضيه، فإنه (سبحانه)، أوضح هذه المهام ووضع له مناهج متكاملة، تمثلت بالأديان المختلفة التي ترافقت مع مسيرة البشرية، والتي لم تكن تختلف عن بعضها من حيث الجوهر، وكلها تنصب على عبادته والاخلاص له والتمكين لكلمته لتكون هي العليا. وهذه المناهج لم تكن مجرد أداء لبعض الشعائر أو الطقوس التعبدية وحسب، وإنما كانت مناهج وتشريعات متكاملة للحياة تتدخل بكل أمورها وخصوصياتها، وتوجهها التوجيه الصائب الذي من شأنه أن يحل كل التناقضات والاشكالات التي أوجدها الإنسان نفسه على هذه الأرض، في غمرة الصراع على المصالح والدفاع عن الآلهة المصطنعة والطواغيت ـ وبدعم وتوجيه منها في أغلب الأحيان.

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ. .﴾[3].

(١) نفس المصدر: ٢٩٨.
(٢) الأحزاب: ٧٢.
(٣) الشورى: ١٣.

لقد حددت الأديان بشكل حاسم وواضح مهمات الإنسان في خلافته على هذه الأرض، وأوضح الإسلام ـ خاتم هذه الأديان وخلاصتها ونموذجها الشامل ـ منهجه الواضح الصريح للإنسان، بعد أن طمست معالم الديانات السابقة بفعل الطواغيت وآلهة الهوى والعصبية والمصالح، والكهان والأحبار الذين قاموا بتحريف وتزوير مضامين الكتب المقدسة واخفاء بعضها واتلافها إلى الأبد.

إن منهج الإسلام، الذي تكفل باعثه بحفظه ـ في نهاية المطاف ـ عن طريق حفظ كتاب الإسلام نفسه وقانونه ودستوره الأبدي ـ القرآن الكريم ـ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾[1] ـ وقد صدق الله وعده ـ أوضح بجلاء مجمل النشاطات الإنسانية المطلوبة لمهمة خلافة الأرض واعمارها، وتنظيم العلاقات البشرية بشكل ينتفي معه وجود الاستغلال والظلم وهيمنة الطواغيت والآلهة والأصنام، ووجود طبقات متباينة تبايناً حاداً صارخاً في مستوياتها المعيشية والاجتماعية، كما كان الحال في أوروبا في ظل المسيحية الممسوخة والمزورة، وكما هو الحال بعد ذلك وقبله على مر العصور، وكما هو الحال الآن أيضاً ـ عندما أوجدت (عوالم ثلاث) من المجتمعات والشعوب على خارطة الأرض، وقد شاء وأضعوا هذه الخارطة، أن يكون عالمنا الإسلامي ضمن العالم الثالث الجائع الجاهل المريض، وحتى في عوالمهم الأولى، وجدت طبقات وعوالم.

إن مهمة الإسلام الأولى، تكريس عبودية الإنسان لله وحده، وتخليصه من عبادة الطواغيت والشهوات والهوى، ومهمة هؤلاء الطواغيت منع هذه المهمة وايقافها، لتكريس عبودية الإنسان لهم ولمصالحهم، من خلال التلاعب بهواه واضعافه، وتزيين كل ما ينحط بالنفس البشرية وينزل بها إلى حمأة الوحل والأقذار.

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾[2].

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ . .﴾[3].

---

(١) الحِجر: ٩.

(٢) الفرقان: ٤٣.

(٣) القصص: ٥٠.

﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[1].

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾[2].

وإلا كيف يستميل الطغاة الناس ليكونوا عبيداً لهم؟.

وإذ يقف الدين حجر عثرة في طريق أولئك الطغاة لتحقيق طموحاتهم وتطلعاتهم غير المشروعة، فإنهم يحاولون (ترويضه) و (تطويعه)، بتأويل ما يرد في القرآن الكريم وتفسيره على هواهم[3]، وتحريف بعض الأحاديث وافتراء بعضها على لسان رسول الله ﷺ وبعض صحابته لاضفاء الشرعية على وضعهم في مركز الخلافة، وتصرفاتهم وسلوكهم البعيد عن الإسلام والمنافي له بشكل واضح و (ترويض) من اختاروهم ليقفوا إلى جانبهم، بعد أن اختاروا الوقوف إلى جانب الحق واستئصالهم إن استدعى الأمر، عن طريق القتل أو النفي أو السجن.

وهذه جوانب سنتعرض لها، في معرض التطرق إلى الخرق الجسيم الذي تعرض له الإسلام في بداية الحكم الأموي، بل وقبل استلامه السلطة، أو (الخلافة) بشكل رسمي، استجابت له الأمة طواعية أو جبراً، حتى أن المظهر الاحتفالي قد أضفي عليه، ليكون ذلك العام مشهوداً ومعروفاً بـ «عام الجماعة» مع أنه كان عام الافتراق العلني عن الإسلام، مع أن مَن أرادوا ذلك الافتراق لم تتح لهم فرصة تحقيق كل أحلامهم لابعاد الناس نهائياً عن الإسلام، إذ لم يقدروا على ايجاد طريقة حاسمة لاستئصال شأفة هذا الدين من كل النفوس والقلوب.

بين عصمة وطهارة أهل البيت وانحراف الطلقاء

إننا نستطيع فهم أسباب العداء الذي يكنّه مَن لم ينتسبوا لهذا الدين، ولم يعلنوا ولاءهم العلني له وانتماءهم إليه، غير أننا لا نستطيع أن نفسر قيام من تسمّوا باسمه

---

(١) الروم: ٢٩.

(٢) محمد: ١٤.

(٣) .. لذلك كتب أمير المؤمنين إلى عبد الله بن العباس (لا تخاصمهم بالقرآن فإن القرآن حمالٌ ذو وجوه تقول ويقولون ولكن حاججهم بالسنة فإنهم لن يجدوا عنها محيصا) نهج البلاغة ٦٥١.

وانتسبوا إليه بتخريبه وحرفه، وربما لا نجد لذلك لا سبباً واحداً وهو إنهم لم يسلموا طواعية، ولم يستجيبوا إلا تحت وطأة الظروف وفي جو المد الإسلامي الذي اكتسحهم، فلم يروا مناصاً من احناء هاماتهم، وإلا ضاعوا إلى الأبد. وكانت المكاسب التي جنوها في غياب الشرعية والجو الصحي النقي أكبر مما حسبوا، إذ وظّفت (الخلافة) بالتالي لصالحهم، ولو علموا ذلك، منذ البداية، لكانوا أول المسلمين، وما كانوا من الطلقاء الذين أجبروا على اعتناق الإسلام، غير أن للحوادث مفآجاتها الغريبة دائماً.

ومهمات الإسلام لترسيخ قيم التوحيد والعبودية الخالصة لله وحده، اضطلع بها القرآن الكريم، والرسول العظيم ﷺ في وقت واحد، فكلام الله المنزل على عبده الكريم ﷺ، جسّده هذا العبد سيرة وضّاءة وسنته معدة للعمل بها على امتداد الزمان والأمكنة.. وإن ابتعدت الشقة، ونأت أطوال هذا الزمن وأبعاد الأمكنة عن الزمن الأول للرسالة، والمكان الأول الذي نزلت وترعرعت فيه.

ولا يحسبن أحد أن مهمة إمامة الأمة التي اضطلع بها الرسول ﷺ كانت ستنقضي أو تنقطع بعد موته مباشرة، بل لا بد للإمامة أن تستمر، وإن انقطعت الرسالة بموت الرسول ﷺ، كان لا بد لدور الإمامة أن يستمر حتى بعد وفاة النبي وابتعاده عن الساحة، لا بد من قيام من يستطيع فهم الإسلام، وتجسيد معطياته عملًا وسلوكاً بدور الإمامة، ولا بد لمن يضطلع بهذا الدور أن يمتلك بعض المؤهلات التي امتلكها الإمام الأول، وهو الرسول الكريم ﷺ.

لا بد من عصمة تقي هذا الإمام، كما وقت الرسول الكريم من غلبة الهوى والشهوة والسهو والنسيان وغيرها وغيرها، مما ينتاب الإنسان العادي، لا بد من تسديد إلهي لحمايته من مجمل الأخطاء البشرية التي يتعرض لها الناس في مسيرتهم الحياتية الطويلة[1].

(١) وقد شهد الله لنبيه ﷺ وآله عليهم السلام في كتابه العزيز بهذه الصفات النادرة التي منحهم إياها دون بقية البشر بقوله ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ وقد وردت هذه الآية كما جاء في كل الصحاح والآثار المعتبرة ـ بحق النبي (ص) وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام وسنتطرق إلى ذلك في مجال آخر بعون الله.

وهنا تكمن نقطة الخلاف الأولى، إذ لو فهم من تولى منصب الخلافة، طبيعة العمل الذي قام به بانتزاع هذا المنصب من (صاحبه) الشرعي ـ المعصوم ـ لكان قد تراجع عن ذلك منذ البداية، بعد أن تجرأ آخرون ـ فيما بعد ـ مع أنهم أبعد الناس عن الإسلام، على الوثوب على سدة الحكم متحدين الأمة كلها. وقد حدث ذلك خلال النصف الأول من القرن الأول نفسه الذي نزلت فيه الرسالة، ولما وجد سبباً يدعوه للاحتفاظ بمنصبه، ولو ليوم واحد، ولما فكر أصلاً بمنازعة صاحب الحق حقه، بل حق هذه الأمة التي كان لا بد لها ومن حقها وهي في بداية لقائها مع الإسلام وتعرفها عليه، وفي نشوة هذا اللقاء والفرح والخلاص من أوشاب الجاهلية وأقذارها ـ أن تزيد من التعرف عليه والسير على نهجه، في جو صحي نظيف، بظل قيادة واعية مؤهلة، تجسد بسلوكها وسيرتها، سلوك وسيرة رسول الله ﷺ نفسه، وتكمل مسيرته بشكل لايرى فيه المرء أي تناقض أو انحراف أو ابتعاد عن تلك المسيرة الشامخة.

فما دامت المعركة قائمة، وما دام الإسلام يتطلع، ليمتد في أرجاء المعمورة، رغم الطواغيت ودول الظلم، وما دام أعداء الإسلام يستعدون دائماً لضربه ومحوه، وما دامت الجاهلية لا تزال تعيش في كثير من النفوس التي لم تفهم الإسلام بعد، ولم تتشرب مبادئه وقيمه، ولم ترتو من منهله العذب الزلال. فإن القيادة أو الإمامة المسددة بالعناية الإلهية والمعصومة من الخطأ والزلل، كفيلة بجعل هذه المعركة تحقق النصر على كل أعداء الإسلام في الجزيرة العربية وخارجها على السواء.

وهنا ندرك أبعاد شن الحملة الظالمة، لا لنفي العصمة عمن اغتصبت منه الخلافة وحسب، بل ونفي أي نص على هذا الحق، صادر عن رسول الله ﷺ، أي نفي مضمون ومحتوى الإمامة، هذا الأصل المهم من أصول الدين، وإلغاء هذا الأصل المثبت والمقرر من قبل الله سبحانه. وهو أمر لا يملك تغييره إلا هو جل وعلا!.

بين عقلية أهل الوحي وأهل الجاهلية

وهنا ينبغي أن لا نقلب صفحات التاريخ بالشكل الذي يثير حفيظة بعضنا على بعض بخصوص (نشوء الخلاف) على الخلافة بالطريقة التي أتاحت لمعاوية نفسه في

النهاية أن يبرر جلوسه على كرسي الخلافة، ويجعل من نفسه (منافساً) لعلي عليه السلام، بل وأن يطمع فيها حتى عبيد الله بن زياد بن أبيه بعد وفاة يزيد[1]!.

إننا لا بد أن نستعرض ـ عند التطرق إلى هذه النقطة الحساسة المهمة ـ طبيعة العقلية القرشية التي استسلمت لسلطان الدين الجديد، بعد أن كان سلطانها هو المهيمن والمسيطر على الساحة، ولا نحسبنَّ أنها رأت في محمد صلى الله عليه وآله منافساً لها وهو ابنها، بل أنها ربما فكرت في كيفية الإفادة منه وتوظيف دينه الجديد لمصلحتها، واستثمار علاقتها به. وهي التي اشتهرت بعقليتها التجارية وحساباتها المالية الدقيقة، لكي توسع من نفوذها وتجارتها وكسبها! لكنها لمست اتجاهاً في هذا الدين يمكن أن يعصف بكل قيمها وكياناتها الجاهلية (العريقة)؛ رأت فيه تعرضاً سافراً وقوياً لنمط حياتها المتحجِّر والقائم على عبادة الأصنام الحجرية والبشرية على السواء، ولم تلمس من ابنها النبي القرشي أي استعداد للمساومة في أداء رسالته ـ وقد عرضت عليه الملك والجاه والمال ليتخلى عنها، وربما عن الجزء الذي يمس مصالحها ـ ولم تلمس منه أي تحيز إلى جانب قيمها الموروثة، وهي عشيرته وقومه.

كان نبض الرسالة القوي لا يتماشى مع دمائهم الراكدة الثقيلة. إن نبضه الدافق المتحفز الحي سيعصف بدمائهم الخاملة الضعيفة، ومن هنا خافوا الموت، وخافوا أن يساويهم الضعفاء من الناس بعد أن حسبوا أن الدنيا لم تكن لتستقيم دونهم ودون مالهم وتجارتهم وقوامتهم على البيت الحرام وسقاية الحجيج وغيرها من مظاهر العظمة والنفوذ والجاه التي التمسوها لأنفسهم وأضافوها لرصيدهم في النسب القرشي العالي!.

إن العقلية الجاهلية في الجزيرة العربية، التي نشأت نتيجة تراكمات شعورية وسلوكية امتدت لمئات السنين، رغم بعض الاشعاعات التي أطلَّت منها في بعض

(١) فقد ذكر الطبري أن عبيدالله بن زياد حين مات يزيد بن معاوية، قام خطيباً في أهل البصرة وحاول استمالتهم بقوله (فوالله لتجدنَّ مُهاجر والدي ومولدي فيكم، وداري.. وإن أمير المؤمنين يزيد بن معاوية قد توفي، وقد اختلف أهل الشام.. وأنتم اليوم أكثر الناس عددا.. فاختاروا لأنفسكم رجلاً ترتضونه لدينكم وجماعتكم..)... ثم (..بسط يده فبايعوه، ثم انصرفوا بعد البيعة وهم يقولون: لا يظن ابن مرجانة أنّا نستقاد له في الجماعة والفرقة، كذَبَ والله! ثم وثبوا عليه.) الطبري م ٣ ـ ٣٦٤ - ٣٦٥.

الأحيان، ورغم بعض مظاهر السلوك الإيجابي المتمثل بالكرم والشجاعة والنجدة والفروسية وغيرها.. لم تكن تستطيع هضم الإسلام كله، بعد أن جاءه بنظرة وتصور جديدين للحياة، تنسفان كل التصورات السابقة وتضعانها في زوايا النسيان.. مع أن طريقة الإسلام لترسيخ تصوراته الجديدة اعتمدت الصعود التدريجي بالإنسان إلى قيم الإسلام، وتعاملت مع الواقعية البشرية، ولم تكن فيها أية لمسة يرفضها العقل البشري أو لا ينسجم معها.

إن أول العقليات التي رفضت التصورات والقيم الجاهلية، جملة وتفصيلاً، هي عقلية الرسول ﷺ نفسه، حتى قبل أن تنزل عليه الرسالة، ثم بعد أن أنزلت عليه، وتيقنها وعلمها بشكل ثابت وأكيد، جعل سلوكه وكل مظاهر حياته تنسجم معها وتكون تكملة لها... ولا بد أنه يحتاج إلى من يؤازره في هذا الأمر، ويملك نفس يقينه، أو يقيناً ثابتاً على الأقل، مبنياً على القناعة والتصديق التام به وبرسالته ليكمل مسيرته إذا ما توفي واختفى من الساحة.

ومن هنا كان اعداده الخاص لمن أراد أن يتولى المسؤولية بعده، ومن هنا أيضاً كان التصاقه به منذ الطفولة وحتى وفاته ﷺ... (ولم يكن ذلك دون سبب أن تفتحت عينا علي على دنيا محمد ﷺ، وكانت مهمة النبي ﷺ تشمل قيامه باعداد الجماعة المؤمنة الأولى المتيقنة المتحمسة لهذا الدين، لتكون طليعة للناس ورائدة، غير أن مستوياتها لا بد أن تختلف طبقاً للفروق الفردية بينها أولاً، وللاعمار والمدد السابقة التي عاشتها في زمن الجاهلية قبل أن تدخل الإسلام، فهذه لها أثرها في تعزيز القيم الجاهلية ويكون من الصعب انتزاعها أو استئصالها إلا بعد مرور مدة طويلة، كما أن الأمر بالنسبة للشيوخ والكبار يكون أصعب منه بالنسبة لصغار السن والشباب.

ومهما أردنا أن نقول عن طبيعة الصلة الوثيقة بين الرسول ﷺ ووصيه عليه السلام، فإن أول سبب موضوعي لذلك يعود إلى الانسجام بين طبيعتيهما ونستطيع الوصول إلى ذلك بدراسة الشخصيتين الكريمتين دراسة موضوعية غير متحيزة، وبعرضهما على القرآن الكريم، نجد أنهما شريكا القرآن حقاً، وأن سلوكهما وعملهما، يشكل طريقاً ممتداً متكاملاً معه.

إن الدراسة الواعية المبنية على أعلى الدرجات من الفهم والتعمق، واستعراض مختلف جوانب الشخصيتين الكريمتين، تبين لنا أن اختيار الوصي لم يكن عبثاً، ولم يكن بدافع من عاطفة قرابة حميمة أو رحم قريب، وإلا فقد كان للنبي أقرباء عديدون،

إن لم يصلوا إلى مستوى علي عليه السلام، فهم كانوا يتفوقون على غيرهم، ممن جلس على كرسي الخلافة فيما بعد بكل المواصفات والمؤهلات المطلوبة. فلماذا لم يختر أحدهم للمهمة التي اختار لها علياً وقربه منه، وأخذ على عاتقه مهمة تربيته واعداده ليكون نموذجاً مشابهاً له ونسخة منه؟.

كلنا على الحق لو توخيناه حقاً

إن هذه المسألة، عندما تناقش هنا، لا ينبغي أن يمر عليها مروراً عابراً، لأن كل اختلاف وفرقة نشأ عنها. ومناقشتها بموضوعية، ينبغي أن لا تتم بالشكل الذي يحرك الأحقاد ويزيد العداوات، إن تلك الحوادث قد انتهت، ووقع ما وقع.. وعلينا أن نجمع شتات أمرنا مرة أخرى، مستنيرين بنبع الضوء الأصيل، كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، لنعالج كل مشاكلنا المعاصرة، ونصحح تصوراتنا وأفكارنا، ونعيد تقييم حوادث التاريخ الخاصة بهذا الدين، ومسيرته، ومواقف صنّاعِهِ المختلفة، ونعيد تقييم الرجال وإعادة النظر بالمثل الأصيلة، ونشذب هذا الدين من كل ما لحق به من تلفيقات وأباطيل، وتحريفات وتأويل.

ما ضرنا لو أعدنا حق واعتبار، مَن غُبن وحُرم حقه، ولو بعد هذه المدة الطويلة، انه لم يكن ليستفيد منها الآن فائدة شخصية، بعد مرور قرون عديدة على وفاته، غير أن المستفيد منها نحن. إن من شأن ذلك أن يصحح مسيرتنا وتوجهاتنا ويوحد خط الشروع وتوحد هذه المسيرة. إن أمثال هذه المسائل التاريخية عندما تثار، ينبغي أن لا تكون باعثاً لمزيد من الفرقة والاختلاف، وإنما على العكس تقريبنا وجمعنا على طريق انجاز المهمة التي كلفنا بها جميعاً، وهي تحكيم دين الله الحق في حياتنا.

وكم ستكون هذه المهمة ميسرة وممتعة، لو توحدت القلوب والمشاعر على طريق هذا العمل الإلهي العظيم الذي لا يتاح إلا لمن ارتضى الله وهدى قلبه للإيمان والخير والصلاح، ونذر نفسه لخدمة الله، لا يهمه إلاّ رضاه وهداه. فعلام نجعل من مسائل (الخلاف) حول أمثال هذه الأمور مسائل شخصية بحتة، مع أنها مسائل عامة، تهم الجميع. وإن التحيز إلى أحد الطرفين دون وجه حق يعني التجني على هذا الطرف نفسه، إضافة إلى أنه تجنٍ على الطرف الآخر، وإن الأمور متى عرفت بشكل واضح، فإن من شأن ذلك أن لا يلحق الأذى بأي طرف، فقد يكون التصرف نابعاً

من (اجتهاد) أو رغبة أو ميل خاص أو نتيجة ظروف معينة، وليس من دافع خالص للشر مثلما يحاول البعض تصويره.

وإعادة الأمور إلى نصابها ـ ولو بعد فترة متأخرة، وبنظرنا ومن يجيء بعدنا وحسب، لن تضر أو تنفع من يقف الآن بين يدي الخالق العادل الرحيم الذي يجازي ويثيب ويتصرف بخلقه كما يشاء ويريد..! وهل نملك أن نغير ـ نحن ـ من الأمر شيئاً؟.

يهلك فيّ رجلان

لا شك أن غبشاً أو ضباباً قد أحاط بجو المسألة كلّها؛ مسألة استخلاف أبي بكر وعمر بعد رسول الله ﷺ دون علي، ثم استخلاف عثمان بعد ذلك من قبل مجلس للشورى رشح أعضاءه عمر، فمما لا شك فيه أن التاريخ لم يقص علينا إلا الذي سمعه وسجله، أو الذي أريد اسماعه أو تسجيله بعد ذلك! إما ما لم يسمعه، ودار خلف الكواليس بعيداً عن سمعه وبصره ـ وهي أمور لا بد أن تحصل؛ إذ لا يمكن أن يفصح كل إنسان عن نواياه ودوافعه دائماً بشكل علني، فلم يكن التاريخ معنياً بتسجيلها، إذ أنها أمور لا يعلمها إلا أصحابها، ويعلمها الله وحده. وإذا فإن مسائل الجزم بخصوص النوايا والأفعال، لا يمكن أن تجعلنا نأخذ بها على أساس التصور المجرد لحسن الظن أو سوء الظن بمن قام بها استناداً إلى مواقف مسبقة متبناة، ومتأثرة بمواقف قديمة للآباء والأجداد، هذه هي المسألة ببساطة.

وهي مسألة دعا الإمام علي عليه السلام نفسه إلى عدم تبنيها أو الأخذ بها، والتحيز بدون وجه حق، ودون تدبر وتأمل:

(يهلك فيَّ رجلان: محبٌ مفرط وباهت مفتر)[1].

(هلك فيَّ رجلان: محبٌ غالٍ ومبغض قالٍ)[2].

(.. وسيهلك فيَّ صنفان: محب مفرط يذهب به الحق إلى غير الحق، ومبغض مفرط يذهب به البغض إلى غير الحق.. وخيرُ الناس فيَّ حالًا النمط الأوسط فالزموه..)[3].

---

(١) نهج البلاغة ص ٧٦٥ و ٦٨٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق: ٢٩٦.

وقد روي عن الشعبي أنه قال (كان علي بن أبي طالب عليه السلام في هذه الأمة مثل المسيح بن مريم في بني إسرائيل: أحبه قوم فكفروا في حبه، وأبغضه قوم فكفروا في بغضه)[1].

فالموقفان المتطرفان المتناقضان، لا يخدمان حتى القضية التي يدعيان تبنِّيها والانحياز إليها وهي قضية الإسلام.

إن الانحياز لعلي عليه السلام هكذا دون معرفته ودون فهم سيرته ومواقفه، أو الانحياز ضده، دون معرفة السبب الذي يدعو لذلك، لهو في الحالتين تجنٍ صارخ عليه، إنه عليه السلام يدعونا جميعاً إلى فهمه، وفهم مواقفه وسيرته وموقعه الحقيقي من رسول الله صلى الله عليه وآله، وأسباب احتلاله هذا الموقع. وحينذاك سيدرك الجميع أن سيرته لم تختلف عن سيرة الرسول الكريم، بل هي مشابهة ومكمِّلة لها، هي سيرة الإسلام نفسه.

إن هذه المعرفة لا تنال بالتمني وبمجرد الرغبة في ذلك، بل لا بد من البحث والدرس والاطلاع، وهو أمر لا بد أن نأخذ أنفسنا عليه، ما دمنا طلاباً للحقيقة أما تبني مواقف الآباء الذين هم شيعة لعلي يحبونه ويوالونه ـ ولا بد أن العديدين منهم قد درسوا جوانب كثيرة من حياته وسيرته، أو أنهم كانوا من الذين نصبوا له العداوة، وربما لم يعرفوا إلا القليل عنه، وربما القليل المشوه المزوّر، فهذا أمر نلمسه في واقعنا، ونرى أنه هو الذي يعمل على تشتيت أمرنا وافتراقنا وتثبيت سوء النوايا فيما بيننا.. والأمر نفسه ينبغي أن يكون مع كل شخصية إسلامية برزت على ساحة الأحداث. لا بد من دراسة وبحث دقيقين عن المواقف والأعمال والتصرفات، ولا بد من البحث عن الخلفيات التي كمنت خلفها، فبدون ذلك لا يمكن أن نلتقي، وسيبقى فراقنا دائمياً، وستبقى معارك الجدل، وربما السيف، بيننا سجالًا وأوارها مشتعلًا، وستظل الأمور والمواقف غير محسومة وغامضة وضبابية، وسيجد من يريد تأجيج الخلاف وتعميقه مجالًا رحباً، لا للنيل ممن يتبنون مختلف المذاهب

(١) العقد الفريد. ابن عبد ربه الأندلسي. مكتبة الرياض الحديثة/ دار الفكر/ تحقيق محمد سعيد العريان. ج ٥ ص ٥٩. وقد أخرج الحاكم ص ١٢٢ ج ٣ من المستدرك عن رسول الله صلى الله عليه وآله (يا علي إن فيك من عيسى مثلاً أبغضته اليهود حتى بهتوا أمه، وأحبه النصارى حتى أنزلوا بالمنزلة التي ليس بها) المراجعات: ٢٠٨.

والمواقف، بل والنيل من الإسلام وكل المسلمين أنفسهم، والأمثلة أمامنا أكثر من أن تعد أو تحصى. وقد شكلت إحدى مشاكلنا الدائمية (المستعصية).

إن الخاسر الوحيد هم المسلمون، وإنهم في عصر المواجهة هذا الذي يتقنع العدو فيه بأقنعة العلم والموضوعية والحداثة والتطور، وكأن هذه الأمور هي الغريبة فعلًا عن الإسلام، وكأنها تتقاطع وتتعارض مع قيمه وتطلعاته الدائمية لقيادة الحياة وحل مشكلاتها وتناقضاتها المفتعلة. إنهم في عصر المواجهة هذا الذي تتصارع فيه المصالح والقيم، والذي يسفر فيه الأعداء عن وجهِهِم القبيح ونواياهم المدمرة، بحاجة إلى توجه موحد، أساسه الإسلام وكتابه العظيم، دون التحسس الدائم (بالعقد القديمة) و (الخلافات العقائدية...!) بخصوص بعض الأفكار وبعض مسائل التاريخ التي لم يتم الحوار فيها بجدية، إن لم يكن بتصور مسبق، أخذ طابع التعصب المذهبي البغيض رغم وضوح العديد من الأمور والشواهد.

انسياق مع تضليلات معاوية

ولنستعرض وجهاً محدداً للمسألة، لا نخلط فيه أوراق معاوية مع أوراق أبي بكر وعمر وعثمان، كما أراد هو نفسه وسعى إليه كإحدى التبريرات التي حاول أن يستند عليها لاثبات (أحقيته) في الخلافة دون علي، واضعاً نفسه في ركب من سبقوه رغم الجميع، كما يفعل البعض الآن حينما تنطلي عليهم حيلة معاوية الماكرة جداً فيضعوه في ركب الخلفاء السابقين، فمعاوية ليس بالإنسان الساذج الذي يقدم على مصارعة علي دون أن يعد للأمر عدته، ويشهر السلاح المناسب من المكر والدهاء والسياسة!.

ولا نريد لهذه المسألة أن تأخذ حيزاً كبيراً من هذا الكتاب، مع أننا لا نريد اهمالها لأن لها مساساً كبيراً بهذه الدراسة، ولأنها مسألة كبيرة، والتفرغ لها، ودراستها، على أساس علمي موضوعي بعيد عن التحيز والعاطفة المجردة والتصورات المسبقة، أمر يستدعي قيام عدد من المتخصصين المعنيين لهذه المهمة التي يبدو أنها لم تنته لحد الآن وربما تستمر لبعض الوقت على طريقة الجدل البيزنطي الذي لا يؤدي إلى نتيجة بأي حال من الأحوال.

فالبحث إذاً يتخذ وجهتين في هذا المجال، وهو مجال (التنافس) على خلافة المسلمين بعد وفاة رسول الله ﷺ.

الوجهة الأولى: (المنافسة) بين أبي بكر وعمر وعثمان من جهة وبين علي من جهة أخرى.

الوجهة الثانية: (المنافسة) بين معاوية وعلي بعد ذلك.

ولكل من هاتين الوجهتين خصوصياتها وأسبابها ودوافعها. ولا يجب بأي حال من الأحوال ـ ومن باب الأمانة التاريخية على الأقل ـ دمجهما كمرحلة واحدة تتخذ نفس الاتجاه ولها نفس الأسباب والدوافع، وإلا كان ذلك جناية كبيرة على الحقائق والوقائع التاريخية وعلى من تشملهم هذه الدراسة جميعاً.

إن معاوية عمل على اظهار كل (خلاف) معه وكل (منافسة) وكأنه خلاف ومنافسة مع من سبقوه وأنه كان (مظلوماً) و (مغبوناً) كما كان من سبقوه أيضاً. وأوحى بطريقة ماكرة بأنه يسير بسيرة الشيخين وأنه إلى صفهما، محاولًا استغلال هذه (المنزلة) التي وضع فيها نفسه بدهاء شديد خصوصاً وأنه يعلم أنهما يتمتعان بمنزلة واسعة لدى فئات عديدة من المسلمين، وأراد بذلك أن يستميل هؤلاء ويحصل على نفس المنزلة التي حصلا عليها الشيخان، ويضمن أن ينحاز إليه من انحاز إليهما ضد علي عليه السلام.

وهذا ما نجح فيه إلى حد كبير؛ لقد أراد معاوية تصوير علي عليه السلام وكأنه محتج دائمي ورافض لكل (خليفة) (يجمع عليه المسلمون ـ ابتداء من أبي بكر وحتى معاوية نفسه، وإن الدافع إلى ذلك (الحسد والبغي). وأراد تصوير المسألة لتبدو ـ حينما تمتد في المستقبل ـ وكأنها (حسد وبغي) من (أولاد وأحفاد) من حُرم الخلافة، لأولاد من أصبح (خليفة) وأصبحوا هم (خلفاء) بعده.

ولا نحسبن أن معاوية وقد مهد لحكم يزيد، وذلل له رقاب العرب على حد تعبيره، كان سيغفل عن بعض التفاصيل المحتملة مثل رفض الحسين عليه السلام وغيره له، وقد بدا وكأنه كان يحتمل هذه المسائل على ضوء معرفته بالحسين عليه السلام ويزيد على السواء. وقد أخبرتنا وقائع التاريخ ـ كما سنرى فيما بعد ـ أنه أعدَّ للأمر عدته حتى بعد وفاته، وأوصى مولاه أن يظهر عهداً مكتوباً لعبيد الله بن زياد على ولاية الكوفة إذا ما سار الحسين إليها.

كما أراد معاوية أن يصور علياً كإنسان خيالي غير واقعي أو (مثالي)، بمعنى ابتعاده عن القيم (البشرية) العادية والمتدنية، وأن ما يطمح إليه لا يدخل ضمن الأمور

التي يمكن تحقيقها، وأنه قليل الحيلة والدهاء، وأراد توظيف القيم المتدنية ـ بمختلف الحجج والذرائع ـ ليحارب بها (القيم المثالية) التي دعا لها الإمام، وهي على أي حال قيم الإسلام نفسها، وهي ليست (مثالية) إلا لأنها قيم عليا أراد الإسلام رفع جميع الناس إليها، ولم يرد لها أن تهبط إلى المستوى البهيمي المنحط، لتأخذ بيد البشرية منذ البداية إلى الطريق الإلهي المعد من قبل الخالق القدير اعداداً متقناً منسجماً بشكل تام مع الطبيعة البشرية السويّة.

وسنتطرق ـ إن شاء الله ـ إلى بعض الخطوات والأساليب التي لجأ إليها معاوية بهذا الخصوص، وواظب عليها بجد وحماس للوصول إلى غايته النهائية، وهي اخضاع الأمة كلها وجعلها تمتثل له امتثالًا تاماً، وجعل نفسه في مصاف أبي بكر وعمر وعثمان ـ مع أنه اعترف في بعض المناسبات بأنه لا يمكن أن يصل حتى إلى مستوى عثمان. .[1] واظهار نفسه كمنافس مساوٍ لعلي عليه السلام، بل ومتفوقاً عليه في بعض الأمور مثل السياسة والدهاء، وتحميله مسؤولية قتل عثمان والسكوت عن قتلته، مع أن معاوية نفسه، كان أحد الذين مهدوا لقتل عثمان وكان أحد الأسباب التي مهدت لقتله ـ كما سنرى بشكل لا يدعو للشك أبداً ـ فيما بعد.

وهذه مسألة تنطوي على كثير من المكر، وعلى الجميع أن ينتبهوا إليها، فمعاوية ـ علىّ أي حال، ليس كأبي بكر وعمر، وحتى ليس كعثمان ـ كما اعترف هو بذلك أنه معاوية فقط، مزيج خاص من عبقرية مدمرة انتهازية، لا ترى إلا مصالحها ولا ترى سوى هذه الدنيا أمامها، وليس في عمله ما يدل على أنه يحسب حساباً لله أو للآخرة والمعاد ويوم الجزاء. إن توجهه أرضي بحت، لا يهتم بأية قيم سماوية أو دين قويم، حتى ولو كان هو الإسلام نفسه، الذي اتخذه ذريعة وغطاء يجمّل ويزين به عرشه المزركش بشعارات الشرعية والجماعة ووحدة الأمة.

وقد يهول هذ الكلام بعض الناس، وقد يعتبرونه قذفاً بحق شخصية (إسلامية) واجهت الروم ووقفت بوجوههم. . ! وعملت على توسيع (الفتوحات الإسلامية)، وحاربت الخوارج، وأرست دعائم الدولة العربية.

---

(١) فقد روي أن معاوية قال ليزيد (كيف تراك فاعلاً إنْ وُلّيت؟ قالَ: كنت والله يا ابه عاملاً فيهم عمل عمر بن الخطاب. فقال معاوية: سبحان الله يا بني. والله لقد جهدت على سيرة عثمان بن عفان فما أطقتها. فكيف بك وسيرة عمر؟) البداية والنهاية ٨ - ٢٣٣.

أما ما قامت به هذه (الشخصية) فعلًا وماذا كانت الدوافع لبعض اجراءاتها وتصرفاتها، فهذا الذي يعطيه هؤلاء أهمية ثانوية، ونرى نحن ضرورة توضيحه. فهذه مباحث عديدة ليس من اليسير الإجابة عن التساؤلات التي قد ترد بشأنها، في صفحات معدودات. فهل نحن نتكلم عن وحدة عربية بمفهوم حزب قومي مثلًا لنقول إن معاوية قد انتصر للعرب وعزز الوحدة العربية، أم أننا نتكلم عن (زعيم) للدولة الاسلامية الوحيدة في العالم؟.

وعلى أي حال، إن العودة إلى هذه النقاط ستتيح لنا التحدث عنها باسهاب ووضوح، غير أننا سنتحدث بايجاز ـ كما قلنا ـ عن الأمر الأول الذي لم يكن معاوية طرفاً مباشراً فيه، وهي مسألة الخلاف بين علي عليه السلام ومن سبقوه على لخلافة.

عليّ معدّ للخلافة

انتقل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى، بعد أن أدى رسالته إلى الناس كافة، غير أن هذه الرسالة كانت تحتاج لمن يحملها كما حملها الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، تحتاج لمن يستمر في توضيحها ونشرها، ويقف على رأس الدولة الإسلامية الوليدة والناشئة في خضم الجاهليات العديدة، ليخرج بها من معارك متوقعة ـ بل واقعة فعلًا ـ منتصرة على كل تلك الجاهليات، فهي رسالة إلى الناس كافة، في مشارق الأرض ومغاربها، تحكم الناس في هذه المشارق والمغارب، وتوجه حياتهم، بل وتقودها، وتكون المصدر الوحيد لكل توجهاتها وتطلعاتها، وأصل كل قيمها وحضاراتها ومناهج حياتها، لا لأمدٍ محدود، وإنما إلى الأبد، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وهي مهمة ضخمة جداً وحساسة جداً، ينبغي أن يتصدى لها قائد كالرسول صلى الله عليه وآله وسلم نفسه، أو رجل تلقى عنه ـ مباشرة ـ رسالته، ويؤديها أداءً واعياً كأدائه، رجل يفهم هذه الرسالة حق الفهم، ويؤمن بها كل الإيمان، وقد خلا من كل نزعة أو سابقة أو نظرة جاهلية قديمة، رجل لم يعش حياة الجاهلية لضمان سلامته من أمراضها الظاهرة والكامنة.

يفهم رسالة الإسلام حق الفهم، ويعي كل مهماتها وأسرارها، ويكون بسلوكه الحياتي اليومي وجهاً من وجوهها ورمزاً من رموزها. لا بد لمن يعد لمثل هذه المهمة الإلهية الدقيقة أن يكون على أعلى قدر من الوعي بالمهمات المرتقبة، ولا بد أن يكون متمتّعاً بأعلى القدرات التي تؤهله للنجاح في هذه المهمات الصعبة والدقيقة (بعد

غياب رسول الله ووفاته ﷺ، ومعداً بشكل خاص على يدي الرسول الكريم ﷺ نفسه، يتلقى عنه بشكل مباشر، وينشأ ويتربى على يديه الكريمتين. اضافة إلى سابقة في الدخول إلى هذا الدين، وأصل طاهر منزه شريف لا يقل عن أصل رسول الله ﷺ الطاهر المنزه الشريف نفسه.

وحتى المراحل العمرية ـ منذ بدايتها ـ والتي أمضيت مع رسول الله ﷺ وأريد لبقيتها أن تكون امتداداً لعمره الشريف نفسه ﷺ، كانت تبدو وكأنها أمر مقصود ومدبر من قبل العناية الإلهية، لكي يعيش الناس في ظل الرسول ﷺ حتى بعد وفاته[1].

وقد يقول قائل: أهي مواصفات (يضعها) من يضعها.. لتبرير الانحياز لعلي عليه السلام، لكي يشغل هذه المهمة؟ وهي متوفرة فيه فعلًا.

ولماذا التشدُّد بهذه الشروط؟ لماذا يكون على رأس الدولة الإسلامية الوليدة أن يكون متمتعاً بهذه الشروط؟ والجواب: لأنه رأس الدولة الإسلامية، التي ينبغي أن ترى فيه رسول الله ﷺ نفسه ذلك الرجل الذي اقتنع به الجميع وآمن به الجميع ولم يختلف عليه اثنان.

فهو ليس رأس الدولة الرومانية أو الفارسية أو غيرهما، إنه رمز للإسلام نفسه.

---

(١) ويمكن أن نفهم ـ على هذا الأساس ـ لماذا كان الإمام علي عليه السلام يشير دائماً إلى قربه من النبي ﷺ وإلى علاقتهما الحميمية منذ بداية حياته عليه السلام وحتى وفاته ﷺ، فلم تكن تلك الفترة الطويلة لتمر بينهما دون أن يقطع بطبعه ويكون مثله ويفهم الإسلام كما فهمه ـ ويمكن مراجعة الإشارات العديدة التي أشار بها الإمام عليه السلام إلى ذلك ومنها هذه الإشارة الواضحة (وقد علمتم موضعي من رسول الله ﷺ بالقرابة القريبة، والمنزلة الخصيصة. وضعني في حجره وأنا ولدٌ، يضمني إلى صدره، ويكنفني في فراشه، ويُمسني جسده، ويشمني عرفه، وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه، وما وجد لي كذبة في قول، ولا خطلة في فعل... ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل اثر أمه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً، ويأمرني بالاقتداء به، ولقد كان يجاورني كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري. ولم يجمع بين واحد يومئذٍ في الإسلام غير رسول الله ﷺ وخديجة وأنا ثالثهما. أرى نور الوحي والرسالة، واشم ريح النبوة، ولقد سمعت رنة الشيطان حتى نزل الوحي عليه ﷺ، فقلنا يا رسول الله ما هذه الرنة، قال: هذا الشيطان قد أيس من عبادته. إنك تسمع ما أسمع، وترى ما أرى إلا أنك لست بنبي، ولكنك لوزير وأنك لعلى خير» نهج البلاغة ـ تحقيق وضبط د. صبحي الصالح ـ دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ط ٢ ١٩٨٢م ص ٣٠٠ - ٣٠١.

وقد يقول قائل: ومن أراده لهذه المهمة؟ ومن أعدَّه لها؟ ونجيب أيضاً: الرسول الكريم ﷺ أراده لها. وربما يتساءل: هل نص على ذلك وأراده كرغبة إلهية موحى بها أم كرغبة وهوى شخصي.

وهنا قد نلمح أول شرخ في جدار الإلفة والوحدة والاخوة الإسلامية، فهل نبيح لأنفسنا أن نعتقد أن الرسول ﷺ ينطق عن الهوى، وأن رغباته الشخصية وعواطفه نحو ابن عمه الأثير، بل أخيه وزوج ابنته وربيبه، تغلب على رغباته في رفع الإسلام ونشره واعلاء شأنه؟ وهل تتقاطع تلك مع هذه؟ ألم يكن الإسلام يستحوذ على كل مشاعره ورغباته بل ووجوده؟ فهل كان سيميل بدافع العاطفة المجردة بحق هذه الأخ الأصغر العزيز الذي محضه حبه، وينسى مهمته الكبرى التي كرس لها كل لحظة من حياته الشريفة، ولم ينسها أبداً؟.

إذا ما اعتقد أحد بذلك، ومال إلى الظن به، وتشكك برسول الله ﷺ وأمانته وحرصه على تبليغ الرسالة بشكل تام، فإنه يشكك بحقيقة التنزيل نفسه وبصحة الرسالة نفسها، وكيف يؤمن إنسان بأمر تراوده حوله الشكوك؟.

رغبة الرسول ﷺ لم تكن رغبة شخصية بحتة؛ فهو بعد أن أعدَّ أخاه وربيبه لهذه المهمة الدقيقة طوال حياته الشريفة، ليكمل مشواره الطويل، بما امتلك من مؤهلات نادرة غير متاحة لبشر عادي (كالقوة الخارقة في الجسم والعقل)، لم ينس، قبل أن يعرب عن ذلك صراحة في حجة الوداع عند (غدير خم)[1] أن يشير اشارات

---

(١) أخرج الطبراني وغيره بسند مجمع على صحته (صرح بصحته غير واحد من الأعلام) عن زيد بن أرقم قال: خطب رسول الله ﷺ، بغدير خم تحت شجرات، فقال: أيها الناس، يوشك أن ادعى فأجب، وإني مسؤول، وأنكم مسؤولون، فماذا أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وجاهدت ونصحت، فجزاك الله خيراً، فقال: أليس تشهدون أن لا إله إلا الله، وإن محمداً عبده ورسوله، وإن جنته حق، وأن ناره حق، وإن الموت حق، وإن البعث بعد الموت حق، وان الساعة آتية لا ريب فيها، وان الله يبعث من في القبور؟؟ قالوا: بلى نشهد بذلك، قال: اللهم اشهد. ثم قال: يا أيها الناس، إن الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه، فهذا مولاه، يعني علياً، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، ثم قال: يا أيها الناس إني فرطكم، وإنكم واردون عليَّ الحوض، حوض أعرض مما بين بصري إلى صنعاء، فيه عدد النجوم قد حان من فضه، وإني سائلكم حين تردون عليَّ عن الثقلين، كيف تخلفوني فيهما، الثقل الأكبر، كتاب الله عز وجل، سبب طرفه بيد الله=

موحية واضحة إلى موقع علي من الإسلام ومنه ﷺ خاصة، وأن يقول للناس، من

=تعالى، وطرفه بأيديكم، فاستمسكوا به، لا تضلوا ولا تبدلوا، وعترتي أهل بيتي، فإنه قد نبأني اللطيف الخبير أنهما لن ينقضيا، حتى يردا عليَّ الحوض. اهـ (هذا لفظ الحديث عند الطبراني وابن جرير، والحكيم الترمذي عن زيد بن أرقم، وقد نقله ابن حجر عن الطبراني وغيره باللفظ الذي سمعته، وأرسل صحته ارسال المسلمات فراجع ص ٢٥/ من الصواعق) ـ المراجعات ـ الإمام عبد الحسين شرف الدين الموسوي/ دار التعارف للمطبوعات/ بيروت/ لبنان/ ط ١٨ ١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨ م ص ٢١٥ - ٢١٦ وقد علق الإمام عبد الحسين شرف الدين تعليقات لطيفة على فحوى خطاب الغدير فقال (إنما نعى إليهم نفسه الزكية تنبيهاً إلى أن الوقت قد استوجب تبليغ عهده واقتضى الإذن بتعيين خليفة من بعده أو أنه لا يسعه تأخير ذلك مخافة أن يدعى فيجيب قبل إحكام هذه المهمة التي لا بد له من احكامها، ولا غنى لأمته عن اتمامها) ص ٢١٥ وقال (لما كان عهده إلى أخيه ثقيلاً على أهل التنافس والحسد والشحناء والنفاق، أراد ﷺ ـ قبل أن ينادي بذلك ـ أن يتقدم في الاعتذار إليهم تأليفاً لقلوبهم واشفاقاً من معرة أقوالهم وأفعالهم، فقال: وإني مسؤول، ليعلموا أنه مأمور بذلك ومسؤول عنه، فلا سبيل له إلى تركه. وقد أخرج الإمام الواحدي في كتابه أسباب النزول بالاسناد إلى أبي سعيد الخدري، قال: نزلت هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ المائدة ٦٧، يوم غدير خم في علي بن أبي طالب) ص ٢١٦ وقال (لعله أشار بقوله (ص): وأنكم مسؤولون، إلى ما أخرجه الديلمي وغيره، كما في الصواعق وغيرها ـ عن ابن سعيد، أن النبي ﷺ قال ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ الصافات: ٢٤ عن ولاية علي. وقال الإمام الواحدي: إنهم مسؤولون عن ولاية علي وأهل البيت، فيكون الغرض من قوله: وإنكم مسؤولون، تهديد أهل الخلاف لوصيه ووليه.) ص ٢١٦ وقال (تدبر هذه الخطبة من تدبرها، وأعطى التأمل فيها حقه، فعلم أنها ترمي إلى أن ولاية علي من أصول الدين كما عليه الإمامية حيث سألها أولاً، فقال: أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله؟ إلى أن قال: وإن الساعة آتية لا ريب فيها، وإن الله يبعث من في القبور، ثم عقب ذلك بذكر الولاية ليعلم أنها على حد تلك الأمور التي سألهم عنها فأقروا بها، وهذا ظاهر لكل من عرف أساليب الكلام ومغازيه من أولي الأفهام) ص ٢١٦ وقال (قوله: وأنا المولى، قرنية لفظية، على أن المراد من المولى إنما هو الأولى فيكون بالمعنى: إن الله أولى بي من نفسي، وأنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، ومن كنت أولى به من نفسه، فعلي أولى به من نفسه) ص ٢١٦ وقد أخرج هذا الحديث بصيغ وألفاظ أخرى مشابهة النسائي عن زيد بن أرقم ص ٢١ من الخصائص العلوية، وأخرجه الإمام أحمد من حديث البراء بن عازب من طريقين.. وأخرجه النسائي عن عائشة بنت سعد، وأخرجه مسلم من باب فضائل علي من صحيحه (ص ٣٢٥ ج٢). والسنن في هذا كثيرة لا تحاط ولا تضبط وهي نصوص صريحة بأنه ولي عهده، وصاحب الأمر من بعده).

هو علي، وإن يدلهم عليه، مع أنهم يعرفونه جيداً كقائد موعود مرتقب للأمة الإسلامية.

وفي خضم الخلاف والصراع ـ الذي نشأ فيما بعد ـ راح كثيرون يدّعون أن تصريحات الرسول وإشاراته إلى علي عليه السلام لم تكن خاصة به، وأنه صلى الله عليه وآله أشار إشارات أخرى مشابهة إلى غيره من الصحابة، ألمح فيها إلى أهميتهم وصلاحيتهم للصعب من الأمور! ولكننا نسأل هؤلاء: هل إن إشارات الرسول إلى علي عليه السلام كانت مجرد إشارات عابرة، أم أنها كانت تريد اعداد هذه الأمة للالتفاف حول هذا القائد المرتقب والمعد والمربى من قبل الرسول نفسه صلى الله عليه وآله، وكذلك من يأتي بعده من سلالته الشريفة؟.

وهل كانت الآيات القرآنية الكريمة النازلة بحق علي(١) تعبر عن الإشارة المجردة من قبل الذات الإلهية بهذا الرجل، لا لشيء أو لهدف معين خاص، رغم كثرتها ووضوحها؟ وهل كانت الأحاديث الشريفة(٢) تعبر عن مجرد الايضاح عن

---

(١) . . (قال ابن عباس: ما نزلت في أحد من كتاب الله ما نزل في علي (أخرجه ابن عساكر وغير واحد من أصحاب السنن). . وقال مرة أخرى: (نزل في علي ثلاث مائة آية من كتاب الله عز وجل) ـ (من حديث أخرجه ابن عساكر أيضاً) وقال مرة ثالثة (ما أنزل الله: يا أيها الذين آمنوا، إلا وعلي أميرها وشريفها، ولقد عاتب الله أصحاب محمد صلى الله عليه وآله في غير مكان من كتابه العزيز وما ذكر علياً إلا بخير. اهـ) من حديث أخرجه الطبراني وابن أبي حاتم وغير واحد من أصحاب السنن ونقله ابن حجر، ونقل الأحاديث الثلاثة التي قبله في الفصل ٣ من الباب ٩ ص ٧٦ من صواعقه. . وقد نزلت فيه آية الولاية وهي قوله تعالى ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَٰلِبُونَ﴾ المائدة: ٥٥ - ٥٦ كما ورد عن ابن عباس، وراجع مسندي ابن مردوية وأبي الشيخ وكنز العمال (الحديث ٦١٣٧) ص ٤٠٥ ج ٦ وقد نقل اجماع المفسرين أنها في علي غير واحد من أهل السنة. . وفي الباب ١٨ من غاية المرام ٢٤ حديثاً من طريق الجمهور في نزولها بما قلناه راجع ـ المراجعات ص ١٩٠ - ١٩١ حيث نجد العديد من الأحاديث الصحيحة بهذا الصدد. ولا يسعنا في هذه العجالة ذكر كل ما نزل فيه عليه السلام. . فذلك أمر أفردت له مصنفات وكتب عديدة.

(٢) الأحاديث الشريفة في علي فاق عددها ما قاله الرسول حول العديد من الأمور، ولعلنا سنتطرق إلى ذكر بعضها عند الكلام عن بعض جوانب شخصيته عليه السلام، وهي أحاديث أجمعت كتب الحديث المعتبرة عند أهل السنة وغيرهم باعتبارها صحيحة عن طريق الأسانيد المعتبرة لديهم. =

الصلات والعلاقات الحميمة بين الرجلين، تنتهي وينتهي مفعولها وأهميتها بمجرد الاعراب عنها؟ هذا إذا كلف بعضنا أنفسهم بالاطلاع على هذه الآيات والأحاديث وموقف النبي ﷺ الواضح منه عليه السلام، وعرفوا سبب نزول هذه الآيات في حقه وهي واضحة لا لبس فيها ولا خلاف؟.

بين ثقافة الاسلام وثقافة السبّ الاموية

لقد كرست حملة شرسة، بعد مضي سنين على نزول القرآن ووفاة الرسول ﷺ، لتحريف بعض الأحاديث النبوية، ووضع غيرها، ونسبتها إليه ﷺ، وتأويل النصوص القرآنية، وشرحها بما يلائم أغراض تلك الحملة المشؤومة[1] التي

= ولو أردنا التطرق إلى هذه الأحاديث وأسانيدها لاستدعى ذلك مجلدات عديدة. وقد تصدى بعض العلماء الأفاضل لذكر بعضها مثل العلامة عبد الحسين شرف الدين الموسوي في والمراجعات وغيره ويهمنا أن نشير إلى أننا لم نكرس هذه الدراسة للحديث عن أمير المؤمنين (ع)، بشكل خاص، إلا أن الدراسة تقتضي الإشارة لذلك إشارات سريعة، لنبين الخلفية والأسباب التي أدت إلى وقوع الأحداث اللاحقة وأسباب قيام ثورة الحسين عليه السلام بوجه الطخمة الأموية المنحرفة... ومع ذلك سنشير ـ بعون الله ـ ما اقتضى الأمر ذلك ـ إلى بعض الآيات القرآنية والأحاديث التي تدل على فضل آل البيت وحقهم في الخلافة والولاية.

(١) عن الجاحظ (أن معاوية ما اكتفى بسب علي حتى وضع قوماً من الصحابة وقوماً من التابعين على رواية أخبار قبيحة في علي تقتضي الطعن فيه والبراءة منه وجعل لهم جعلاً يرغب في مثله فاختلقوا ما أرضاه..) (وقد بذل معاوية لسمرة بن جندب أربعمائة ألف حتى يروي أن هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَ..﴾ البقرة: ٢٠٤ - ٢٠٥ وإن الآية التالية نزلت في ابن ملجم وهي: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ البقرة - ٢٠٧ (وظهرت أحاديثهم الكاذبة، ونشأ عليها الصبيان يتعلمون ذلك. وكان أشد الناس في ذلك الشعراء المراؤون والمتصنعون الذين يظهرون الخشوع والورع، فكذبوا وانتحلوا الأديث وولدوها، فيحظون بذلك عند الولادة والقضاة ويدنون مجالسهم ويصيبون بذلك الأموال والقطايع والمنازل، حتى صارت أحاديثهم ورواياتهم عندهم حقاً وصدقاً. فرووها وقبلوها وتعلموها وعلموها وأحبوا عليها وأبغضوا من ردها وشك فيها، فاجتمعت على ذلك جماعتهم وصارت في يد المنتسكين والمتدينين.. فقبلوها وهم يرون أنها حق، ولو علموا بطلانها وتيقنوا أنها مفتعلة لأعرضوا عن روايتها، ولم يدينوا بها، ولم يرفضوا من خالفها، فصار الحق في ذلك الزمان عندهم باطلاً والباطل حقاً والكذب صدقاً والصدق كذباً) شجرة طوبى ـ محمد مهدي المازندراني الحائري/ المطبعة العلمية/ النجف ١٣٦٩ هـ ص ٨٤ - ٩٠.

لا نزال نعيش آثارها حتى اليوم، بعد أن نجحت بتنفيذ العديد من خططها وأهدافها، والتي استهدفت في البداية توطيد الحكم الأموي الذي لم يدم طويلًا رغم أن نمطه وأسلوبه وفلسفته قد دامت طويلًا، وقد وجدت النماذج المشابهة له على مر التاريخ الإسلامي.

ومع ذلك، فلا خلاف في أن الكثير مما قيل في شأن علي وآل البيت عليهم السلام قد سلم من تلك التشويهات والتحريفات، فقد كانوا أقوى من أن تمحوهم أو تشوه صورهم الدعايات الأموية المضللة، إلا أن الموقف منهم ظلّ من قبل العديدين موقفاً سلبياً وبارداً، ولا عجب، فقدرات الدولة الأموية التي عاشت قرابة ألف شهر، كانت كلها مكرسة لطمس فضائل علي وآل البيت، وإذ لم تنجح في ذلك في بعض الأحيان، فإنها وقفت موقفاً صارماً حيال من كان يميل إليهم أو يتولاهم أو يرى رأيهم. وقد لجأت إلى أساليب الشتم والقذف والافتراء بحقهم، وخصوصاً علي عليه السلام، كما لجأت إلى أقسى الأساليب لصد الناس عنهم ومنعهم من موالاتهم. فقد روى الجاحظ (إن معاوية كان يقول في آخر خطبة الجمعة. «اللهم إن أبا تراب ألحد في دينك، وصد عن سبيلك، فالعنه لعناً وبيلًا وعذبه عذاباً أليماً». . وكتب بذلك إلا الآفاق، فكانت هذه الكلمات يشار بها على المنابر، إلى خلافة عمر بن عبد العزيز) وقال الجاحظ (إن قوماً من بني أمية.

قالوا لمعاوية: إنك قد بلغت أملك، فلو كففت عن لعن هذا الرجل، فقال: لا والله حتى يربو عليه الصغير ويهرم عليه الكبير ولا يذكر له فضلاً). وكتب معاوية إلى جميع عماله في جميع الأمصار: أن لا تجيزوا لأحد من شيعة علي وأهل بيته شهادة.

وكتب زياد بن أبيه إليه في حق الحضرميين أنهم على دين علي وعلى رأيه، فكتب إليه معاوية، اقتل كل من كان على دين علي وعلى رأيه. فقتلهم ومثّل بهم.

وكتب معاوية إلى جميع البلدان: أنظروا من قامت عليه البينة أنه يحب علياً وأهل بيته فامحوه من الديوان.

كان الرجل يرمى بالزندقة والكفر، كان يكرم ويعظم ولا يتعرض له بمكروه، والرجل من الشيعة لا يأمن على نفسه في بلد من البلدان، لا سيما البصرة والكوفة. .)[١].

---

(١) شجرة طوبى ٨٤ - ٨٩.

لقد حاول أبناء أولئك الذين أرادوا صد الإسلام عن الانتشار أول أمره، تشويه صورة الذين نشروا ووقفوا حياتهم في سبيل ذلك، بعد أن احتلوا هم مواقعهم وجعلوا من أنفسهم (حماة) للإسلام وحكاماً باسمه.

هذه إحدى الفجوات الكبيرة، التي ضاع في غمرتها، ما أراد الرسول الكريم ﷺ ايصاله إلينا، بخصوص هذه الشخصية العظيمة التي أرادها أن تكمل مسيرته بنفس الوعي والعزيمة والصدق الذي حمله ﷺ، ومع ذلك فإن ما وصل إلينا وسلم من الافتراء والطمس، يكفينا لكي نفهم أن علياً كان الشخص الوحيد الذي يحمل المؤهلات الكافية لقيادة الأمة الإسلامية على خطى الرسول الكريم ﷺ.

ولن يسع المجال لكي نتحدث عن الإمام علي عليه السلام هنا، فنلم بشخصيته إلماماً كافياً، غير أننا يمكن أن نلقي الضوء على بعض جوانبها بالشكل الذي يتاح لنا، ولن يكون ذلك في مجال المقارنة بينه وبين معاوية، عند التطرق إلى الخلاف بينهما على العديد من الأمور، وخصوصاً (الخلافة) التي ادعاها معاوية لنفسه وسبب ذلك صدعاً في الإسلام، وثلمة كبيرة في بنيانه العظيم، وسيبدو لنا البون شاسعاً بين الشخصيتين، حيث سنرى ضآلة شخصية (العاهل الأموي) أمام الشخصية الشبيهة بشخصية الرسول ﷺ، وربما إذا ما فعلنا ذلك وفق المقاييس البشرية، فإن الأمر ربما يكون غير جائز لنا وفق المقاييس الإلهية، إذ هل يجوز أن نقارن معاوية برسول الله ﷺ نفسه؟ وإذاً: كيف يجوز أن نقارنه بعلي وهو أخ الرسول ووصيه وزوج ابنته البتول؟ إنه هو نفسه، غير أنه ليس بنبي، ولم ينزل عليه وحي.

الخلافة كالنبوة مهمة الهية

لقد بدا لنا واضحاً، إن دور الإمامة يندمج مع دور النبوة في مرحلة نزول الرسالة، ثم يستمر بعد وفاة الرسول، فمهمات الإمام هي كمهمات الرسول، وكل الدلائل التي وصلتنا كانت تدل على نوعية المهمات الدقيقة والكبيرة التي كان النبي يعد لها الإمام والوصي من بغده، وطبيعة التربية والعلاقة الوثيقة الدائمية بينهما، بحيث تتيح له فرصة التلقي المستمر عنه. وكما كان الشعور العالي بالمسؤولية يسيطر على كل كيان النبي وكل مشاعره وأحاسيسه، عمل ﷺ على أن يكون الأمر كذلك مع وصيه عليه السلام، وقد رأينا فعلاً، كيف كان نفس هذا الشعور بالمسؤولية يستولي على كل كيان الإمام، فلا يرى أمامه إلا الله والإسلام الذي أراد سبحانه من الجميع أن

يتحملوا مسؤولية نشره وتوضيحه، ووضعه على طريق البشر منهجاً حياتياً متكاملًا نفيلًا بحل كل اشكالاتها وعقدها.

وكانت المؤهلات العلمية والقيادية التي تمتع بها الإمام عليه السلام، قد جعلت منه مدرسة لعلماء الإسلام، فأي علم من علوم الإسلام لم يكن هو مؤسسه وباعثه؟.

كما كان بصفاته الشخصية الفريدة ـ محط أنظار الأمة كلها، هذا أمر مؤكد وواقع وإلا فهل كان أحد يستطيع أن يؤدي مهمة القيادة ـ بالشكل الذي أداها به الإمام عليه السلام دون هذا الشعور بالمسؤولية الذي تمتع به، ودون هذا الزخم الهائل من العلم والمعرفة، وهذه الشحنة العظيمة من الإيمان والوعي بحقائق الإسلام ومبادئه وقيمه التي حملها؟

هذه المهمة الضخمة التي كان على الإمام أن يستمر بها بعد اختفاء النبي من الساحة، هي التي تستدعي أن يكون متمتعاً بهذه الصفات القيادية البارزة، خصوصاً وإن معركة الإسلام مع أعدائه لم تنقطع، ولم يكن محتملًا لها أن تنقطع، ما دامت قوى الشر والظلام والمصالح والشهوات تستولي على مساحات كبيرة من العالم.

وما دام الإمام هو الذي ينبغي أن يقود المعركة، فلا بد لدور الإمامة أن يستمر طالما ظلت هذه المعركة قائمة بين الإسلام وخصومه.

فهذه الصلة الربانية التي تمثلت بالنبوة أولًا ثم بالإمامة، يجسدها الأنبياء وأوصياؤهم، ومع أن أوصياء بعض الأنبياء السابقين، كانوا أنبياء بدورهم، إلا أن النبوة في الإسلام، اختص بها الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وحده، ولا مجال لأي ادعاء أو افتراء، بأن الوحي قد نزل على غيره، وإلا فهي ادّعاءات باطلة يهدف منها تشويه سمعة أولئك الذين قيل إنه نزل عليهم لا غير!!.

ولم يرد الله ـ سبحانه ـ لعملية الخلافة أن تكون عشوائية، ومبنية على تصورات الإنسان وحده، لم يكن يريدها من خلق هذا الإنسان، وإنما أرادها أن تكون مبنية على إرادته وتصميمه هو، وهكذا بعث بسلسلة الرسل (البشر)، يحملون رسالته ومنهجه الذي أراده على هذه الأرض، لتنظيم عملية الاستخلاف. ومن هنا كان ثبات الرسل، واصرارهم على تبليغ رسالات ربهم، مهما كانت الصعوبات والمشاكل فعلمهم علم يقيني لا لبس فيه ولا غموض، وهكذا صمدوا أمام كل الهجمات الشرسة لأعدائهم، ولم يتراجعوا ولم ينكلوا.. وهكذا كانوا من أصلب الثوار على

الساحة البشرية التي لم يصمد فيها كل الثوار الآخرين. فعصمة الأنبياء كانت بمشيئة الإلهية جعلت منهم لا يرون أمامهم إلا الذي بعثهم برسالته وإلا طريقه ومنهجه.

ولا بد لمن يتولون مسؤولية قيادة نفس المعارك التي يخوضها هؤلاء الرسل، ويؤدون نفس الأدوار التي أدوها، أن يملكوا نفس الشعور العالي بالمسؤولية الذي امتلكوه، ولا بد أن يكونوا على درجة من العصمة تقيهم السقوط في زحمة المشاعر والتصرفات الإنسانية المتضاربة، ولا يرون أمامهم إلا المثل الأعلى الذي رآه أولئك الرسل، المثل الأعلى العالي، الذي لا ينبع عن التصورات البشرية الأرضية المجردة، المثل الذي ينفصل عن هذه التصورات ويتفوق عليها بقدرته وواقعيته، والذي تجلى وحيه للأنبياء كحقيقة واقعة مرئية واضحة، لا يرون أمامهم إلا الله، ولا يتجهون إلا إليه وحده، ولا يتعرفون إلا بوحيه، وإن كان هذا الوحي لم ينزل على الوصي، لكنه قد أتيحت له فرصة الاتصال بالنبي المرسل اتصالاً واعياً واسعاً لا يتاح لأي بشر عادي، وتزوده بكل ما زود هذا النبي من تسديد إلهي يقيه العصمة ويمنعه من السقوط والانحراف، وبقدر من العلم الإلهي يجعله يدرك الأمور وينظر إليها بمستوى عال من الادراك والوعي لا يتسنى للإنسان العادي الذي تغمره همومه العادية اليومية والذي لا تشكل (التطلعات) أو (التوجهات) الإلهية، إلا بعض تلك الهموم أو الهواجس اليومية العادية، وقد ينسى في غمرة الصراع على الصالح وربما على الحياة، تلك التطلعات أو التوجهات، وقد تكون مجرد أمور دينية متلقاة، قد يقوم هو برسم بعض أشكالها وفق مصالحه وظروف حياته، ويبرر كل خروج أو انحراف عنها بمبررات عديدة لا تمت إلى الإسلام بأية صلة.

أما (المعصوم) فلا يرى أمامه سوى الله وسوى الإسلام! سوى الشعور العالي بالمسؤولية الذي يتملكه والقيادة التي أوكلت إليه والطريق الذي رسم له، كما أن له من الوعي والفهم والمعرفة، ما يتيح له انتهاج الطريق الذي رسم له بدقة تامة، وعدم الخروج عنها مهما كانت الظروف والأحوال، ومهما كانت الضغوط والاغراءات التي قد يتعرض لها. ومن هذا المنطلق، ومن هذا الفهم لشخصية المعصوم ينبغي لنا فهم كلمات الإمام علي عليه السلام لنجد أنها لم تكن من باب زج المديح لذاته ـ وما كان بحاجة لذلك وقد مدحه وزكاه الله ورسوله ـ ولكنها كانت من باب التعريف بنفسه، ولم ير بأساً من القيام بهذا التعريف طالما أنه كان لا يخرج عن نطاق الحقيقة، وطالما كان ذلك ضرورياً لنا، لنعرف مع من نتعامل وعمن نتكلم.

(.. وإني لعلى بيّنة من ربي ومنهاج نبيّي وإني لعلى الطريق الواضح ألقطه لقطاً..)[1].

(.. إني للمحق الذي يُتّبعَ وإن الكتاب لمعي ما فارقته مذ صحبته)[2].

(.. إن معي لبصيرتي، ما لبست ولا لبس عليَّ)[3].

(.. إنما مثلي بينكم مثل السراج في الظلمة يستضيء به من ولجها)[4].

(.. فلأنا بطرق السماء أعلم مني بطرق الأرض)[5].

(.. وأنا من رسول الله كالصنو من الصنو والذراع من العضد)[6].

(... ما شككت في الحق مذ أريته)[7].

(إني ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله معه، وقبله، وبعده، وفيه...).

﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾[8].

(ما كُذِّبت ولا كَذبت ولا ضللت ولا ضل بي)[9].

إن هذه الحقائق تتيح لنا أن نفهم سلوك المعصوم، وعدم استعداده للمساومة والانحراف، وربما رأى بعضنا، بتصوراتهم الأرضية المتدنية، أن لا بأس على المعصوم من بعض (التنازلات) و (المناورات)، ثم يحقق بعد ذلك ما يريد بعد أن يتمكن، وقد فكر بعضنا بذلك، وحاول أن ينظّر ويفلسف الأمور ويفسرها، ويتمنى لو كان حاضراً بنفسه مع الإمام ليشير) عليه ببعض آرائه بخصوص العديد من الأمور التي عرضت له.

---

(١) نهج البلاغة: ٢٤١.
(٢) المصدر نفسه: ٢٨٦.
(٣) المصدر نفسه: ٣٠٧.
(٤) المصدر نفسه: ٤٠٩.
(٥) المصدر نفسه: ٤١١.
(٦) المصدر نفسه: ٥٨٩.
(٧) المصدر نفسه: ٦٩٩
(٨) الأنعام: ٩١.
(٩) نهج البلاغة: ٧٠٠.

إمام من دون مساومة ـ ان شر الناس عند الله امام جائر

وقد نظر بعض المعاصرين للإمام، نفس هذه النظرات (المعاصرة) لنا فعرضوا على الإمام أن يتنازل لمعاوية عن بعض الأمور ـ مثل ولاية الشام، ويستجيب لبعض طلباته، ويقره على مكانه، ريثما تستتب له الأمور، فقد أشار عليه المغيرة بن شعبة ـ بقوله ـ بعدما بويع له بالخلافة. . (. . أرسل إلى عبد الله بن عامر وإلى معاوية وإلى عمال عثمان بعهودهم، تقرهم على أعمالهم، ويبايعون لك الناس، فإنهم يهدّئون البلاد ويسكنون الناس. .)[1] وقد رفض الإمام ذلك بالطبع.

كما أشار عليه شبث بن ربعي التميمي، عندما أرسله الإمام مع آخرين إلى معاوية ليدعوه إلى الله وإلى الطاعة والجماعة ـ على حد تعبير الإمام عليه السلام، قال شَبَث: (إلا تطعمه في سلطان تولّيه إياه، ومنزلة يكون له بها أثره عندك إن هو بايعك؟)[2].

غير أن الإمام لم يرد إلا تثبيت دعائم الإسلام، لا دعائم عرشه هو أو خلافته! فهو لم يكن ليقبل بهذه الخلافة، إلا أن يقيم حقاً أو يمنع باطلًا، هذه هي مهمته كما يراها، وكما أعد لها، وكما يراها الإسلام، ومن أولى منه بالعمل على هدى الإسلام، فإذا ما داور وناور وساوم على حساب مبادئه، فهل كنا نتوقع من قائد آخر يأتي من بعده ـ مهما كانت منزلته ومكانته، أن يسير على هدى الإسلام ومبادئه فقط؟ وهكذا رفض تلك العروض التي بدت مغرية في ظاهرها، إلا أنها كانت تنطوي على شر عظيم ومخاطر عديدة قد تلحق بالإسلام في عاجل الأمر أو في آجله.

إن الإمام علياً عليه السلام، في سعيه لتوطيد دعائم الدولة الإسلامية، لم يلجأ إلى ما لجأ إليه غيره من أساليب مقطوعة الجذور عن الإسلام وبعيدة عنه، وإنما أراد تثبيت هذه الدولة الإسلامية بالإسلام نفسه. . وكان بذلك ممثّلًا أميناً لرسول الله صلى الله عليه وآله نفسه. ذلك الباني والمؤسس الأول لهذه الدولة. وقد حاول في مناسبات عديدة أن يوضح أن مهمة الإمامة أو الخلافة ليست مكسباً شخصياً يمنح لفرد من هذه الأمة، بقدر ما هي مسؤولية ثقيلة تترتب عليها واجبات عديدة، يشكل الخروج عليها جوراً وخروجاً عن الإسلام.

(١) الطبري ٢ - ٧٠٣ وراجع ص ٢٣٠ مقدمة ابن خلدون.

(٢) المصدر السابق م ٣ ص ٧٦ - ٧٧.

(.. إنَّ أفضل عباد الله عند الله إمامٌ عادل، هُديَ وهدى، فأقام سنة معلومة وأمات بِدعة مجهولة)[1].

(.. إنَّ شرَّ الناسِ عند اللهِ إمامٌ جائر ضلَّ وضُلَّ، فأمات سنة مأخوذة، وأحيا بدعة متروكة. وإني سمعتُ رسول الله ﷺ. يقول: يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر، فيلقى في نار جهنم، فيدور فيها كما تدور الرحى، ثم يرتبط في قعرها..)[2].

(إن أحق الناس بهذا الأمر أقواهم عليه، وأعلمهم بأمر اللهِ فيه)[3].

(.. أنه لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم والأحكام وإمامة المسلمين البخيل فتكون في أموالهم نَهمته ولا الجاهل فيضلهم بجهله ولا الجافي فيقطعهم بجفائه ولا الحائف للدول فيتخذَ قوماً دون قوم، ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق، ويقف بها دون المقاطع، ولا المعطل للسنة فيهلك الأمة)[4].

(الذليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له، والقوي عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه)[5].

علي قاتل على تأويله وتنزيله

إنه يستلهم في كل أقواله وتصرفاته قيم الإسلام، ولا يرى إلا مثله الأعلى الوحيد، كما أنه يتمتع بقدر من الإيمان والمعرفة يتيح له أن يزود الأمة كلها بعطائه وعلمه ومعرفته، كما كان رسول الله ﷺ بالضبط.

إن الآية التالية (صريحة في لزوم العصمة في الإمام لمن تدبرها جيداً، وأن

(١) نهج البلاغة ٢٣٤ - ٢٣٥ والعقد الفريد ٥٥.

(٢) نفس المصدر: ص ٢٣٥ والعقد الفريد ص ٥٥.

(٣) نفس المصدر: ٢٤٧ - ٢٤٨.

(٤) نفس المصدر: ص ١٨٩.

(٥) نفس المصدر: ص ٨١ وقد روى عبد الله بن العباس قال: دخلت على أمير المؤمنين عليه السلام بذي قار وهو يخصف نعله قال: ما قيمة هذا النعل؟ فقلت: لا قيمة لها. فقال عليه السلام: والله لهي أحب إليَّ من امرتكم، إلا أن أقيم حقاً أو أدفع باطلاً. ص ١٣٤ النهج.

يكون أفضل أهل زمانه في كل فضيلة، وأعلمهم بكل علم، لأن الغرض منه تكميل البشر وتزكية النفوس وتهذيبها بالعلم والعمل الصالح ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1] والناقص لا يكون مكملًا والفاقد لا يكون معطياً. فالإمام في الكمالات دون النبي وفوق البشر)[2].

العصمة ضمانة

ولهذا السبب كانت عصمة الرسول ﷺ هي التي جعلت إمامته وقيادته للأمة الإسلامية مضمونة العواقب في النصر الأكيد والفوز الحاسم، لأنهم كانوا يقتبسون منه قناعة وإيماناً بالله لا يتزعزعان، فكأنهم يبصرون بعينيه ويسمعون ما يسمعه. ومن هنا كان مسيرهم غير المتحفظ وراءه مدركين أنه لا بد أن يقودهم إلى الطريق السوي، ومن هنا كانت استماتتهم في الدفاع عن دينهم، وهم قلة، ووقوفهم بوجه قوى الشر الملتحمة المتحدة المصرة على ابادتهم ومحوهم.

إن الروايات المتواترة الصحيحة ـ ورواتها الثقاة يعدون بالمئات ـ تؤكد رغبة رسول الله ﷺ في أن يكون علياً وصيه ووزيره من بعده ـ كما رأينا في خطبة الغدير السابقة، وهي رغبة لا يمكن اعتبارها شخصية نابعة عن هوى خاص في أخيه وابن عمه، بل لا بد أن تكون موحاة من قبل الله وموصى بها منه سبحانه. لقد طلب منه ﷺ، وأقر بطلبه ذاك حقيقة واقعة وهي أنه عليه السلام من النبي ﷺ بمنزلة هارون النبي من موسى النبي ـ وكان هارون خليفة موسى على قومه إذا غاب عنهم ـ إلا أنه عليه السلام ليس بنبي، إذ أن الرسالة انقطعت، غير أن الإمامة، كما يؤكد الرسول ﷺ لم تنقطع، أراد منه أن يكمل مشوار القيادة الطويل لهذه الأمة، ويأخذ على عاتقه اخراجها منتصرة أمام كل التحديات التي تواجهها على كل الساحات، ساحات النفس البشرية، وساحة المنافسة على المصالح والامتيازات، ساحة الطواغيت التي تحكم العالم وتحيط بالجزيرة من أخطارها.

---

(١) الجمعة: ٢.

(٢) أصل الشيعة وأصولها ص ١٠٣.

هذه الأحاديث والروايات العديدة[١] لا غبار عليها، ولا اختلاف عليها عند جميع أبناء الأمة الإسلامية، أما كيف يتداولونها وكيف يفهمونها، فهنا سر (الخلاف) الكبير، وسر المسألة كلها، وهو الذي يجعلنا نتساءل عن سبب السكوت والتراخي عن هذه الأحاديث التي لا تحتمل التأويل، وعن سبب السكوت عن تأويل بعض نصوص القرآن الكريم أيضاً، وهو أمر محير ومثير للعجب، إذ يمرون عليها مروراً عابراً ولا يتدبرون معانيها جيداً، وقد يفعلون بالقرآن الكريم ما فعلوه معها، فكأنهم بذلك التأويل الخاطىء المتعمد، يقرأون قرآناً آخر، لم يملكوا أن يغيروا مبانيه وألفاظه وعباراته فغيروا معانيه ومضامينه، وهذا أمر في غاية الخطورة، يستدعي أن تقوم الأمة كلها بوجه فاعليه وتردهم عن ذلك بمختلف الوسائل المناسبة.. (عن أبي سعيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن منكم من يقاتل على تأويل القرآن، كما قاتلت على تنزيله»... وشخص إلى الإمام علي بعينه، بقوله: «ولكنه خاصف النعل..» وكان قد أعطى علياً نعلًا يخصفه)[٢] وكان معاوية نفسه يتزعم أكبر حملة لتأويل القرآن ووضع الأحاديث وقد خاطبه الإمام عليه السلام في إحدى رسائله قائلًا: (.. فعدوت على طلب الدنيا بتأويل القرآن)[٣].

---

(١) راجع (المراجعات ـ للإمام عبد الحسين شرف الدين الموسوي، عليه رضوان الله، ففيه تقص دقيق لأهم هذه الروايات، مما يزيل كل شك وارتياب من الأذهان التي ربما لم تطلع ولم تعلم بما قيل في حق علي وآل بيته عليهم السلام، في غمرة الحملة المنظمة والمقصودة لطمس حقهم في الولاية، والاكتفاء بتناول بعض فضائلهم العامة التي يتساوون فيها مع الناس العاديين الآخرين من الصحابة والتابعين وغيرهم.. لذر الرماد في العيون.

(٢) البداية والنهاية ٨ - ٣٧٥ وانظر المراجعات، ٢٠٩ - ٢١٠ قوله عليه السلام (إن منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله، فاستشرف لها القوم وفيهم أبو بكر وعمر. قال أبو بكر: أنا هو؟ قال لا. قال عمر: أنا هو؟ قال: لا. ولكن خاصف النعل يعني علياً. (أخرجه الحاكم ص ١٢٢ ج ٣ من المستدرك وأخرجه الإمام أحمد والبيهقي وسعيد بن منصور وأبو نعيم وأبو يعلى..) الخ.
وعن أبي ذر/ إذ قال: «قال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده إن فيكم لرجلاً يقاتل الناس من بعدي على تأويل القرآن كما قاتلت المشركين على تنزيله» فيما أخرجه الديلمي كما في ص ١٥٥ ج ٦ من الكنز.

(٣) نهج البلاغة: ٦٢٧.

لقد استمعنا إلى حديث الغدير، وهو من الأحاديث المشهورة المتواترة التي نصت على إمامة علي عليه السلام والذي استمعت فيه جمهرة كبيرة من المسلمين لرسول الله صلى الله عليه وآله بعد منصرفه من حجة الوداع عائداً إلى المدينة المنورة.

وقد كان الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وهو ابن الجزيرة العربية وابن قريش، والذي يتمتع بأعلى درجة من الوعي والادراك الصادق ورهافة الحس، يدرك أن اجتماع الفضل في بيته، النبوة والإمامة معاً، سيثير فئات كبيرة من الناس، لم تزل بعد تنظر بمقاييس الجاهلية، ولعلها تنفّس على النبي الكريم وأخيه وصهره هذا الشرف الكبير، الذي لا بد أن تضمحل وتتلاشى معه كل أمجادهم وشرفهم وفخرهم. إن هؤلاء ـ وإن انضموا إلى الإسلام وأصبحوا تحت لوائه ـ لا بد وأنهم ليسوا على مستوى واحد من الفهم والشعور بالمسؤولية، وإن كثيرين منهم ربما يعتبرون موقف النبي صلى الله عليه وآله بدعوة الناس إلى اتخاذ علي عليه السلام إماماً من بعده نابعاً عن هوى شخصي، وأنهم إن لم يتسن لهم الاعراب عن رأيهم هذا صراحة ورسول الله صلى الله عليه وآله فيهم، فربما أعربوا عنه فيما بعد، عند وفاة الرسول صلى الله عليه وآله، والإسلام لا يزال في أول مراحله لم ينتشر في الجزيرة العربية كلها، ولم يتمكن من النفوس كلها، والمعركة لا تزال قائمة بينه وبين أعدائه المعلنين وفي ذلك ما فيه من احتمال مرجح لردة كبيرة قد تقضي عليه قضاء نهائياً.

لقد تردد رسول الله صلى الله عليه وآله في اعلان وصيته التي ستثير في أغلب الظن حفيظة الكثيرين وربما سببت ضرراً كبيراً للإسلام نفسه، هذه الرسالة التي كرس لها صلى الله عليه وآله كل لحظة من حياته وشعوره. وحينها جاءه التأكيد الإلهي واضحاً وحاسماً، فالله أعلم بكل شيء وبكل ما سيحدث، لقد أوحى إليه ـ سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[1] (فلم يجد بدا من الامتثال بعد هذا الانذار الشديد، فخطب الناس عند منصرفه من حجة الوداع في غدير خم، فنادى، وجلهم يسمعون: «ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟» فقالوا: اللهم نعم. فقال: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه، وعادِ من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله» ثم أكد ذلك في مواطن أخرى

(١) المائدة: ٦٧.

تلويحاً وتصريحاً وإشارةً ونصاً، حتى أدى الوظيفة وبلغ عند الله المعذرة..)[١]
وهكذا نزل قوله تعالى: ﴿.. ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[٢].

وبغض النظر عن النصوص الواردة، فإن المتتبع لسيرة الإمام عليه السلام، يرى أن الصفات المطلوبة لقيادةِ الأمة على نهج الإسلام، كانت متوفرة فيه بشكل لا يمكن لأحد منافسته فيه بأي حال من الأحوال. ولقد شهد له بذلك حتى من سبقه من الخلفاء، وحتى من جاء بعده، ومنهم خصوم ألداء له وفي مقدمتهم معاوية نفسه[٣] (قال ابن حجر في صواعقه: أخرج أحمد أن رجلًا سأل معاوية عن مسأله، فقال: سل عنها علياً فهو أعلم، قال: جوابك فيها أحب إلي من جواب علي. ! قال: بئس ما قلت! لقد كرهت رجلًا كان رسول الله يغره بالعلم غرا، ولقد قال له: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي» وكان عمر إذا أشكل عليه شيء أخذ منه، إلى آخر كلامه)[٤].

لماذا ترك علي حقّه

ويطرح سؤال: إذا كان الأمر كذلك، وقد رأى عليه السلام، أنه قد أبعد عن المهمة التي أعد لها، وهو يعلم بحقه فيها، فلماذا سكت ولم يتقدم للجلوس على كرسي الخلافة ولو بالقوة؟ وهو سؤال مهم، والإجابة عنه سهلة لمن درس شخصية الإمام عليه السلام دراسة واعية متعمقة، وتفاعل مع بعض جوانب نفسه الكبيرة، ونظر إلى الأمور من الزاوية التي شملتها عقليته الإسلامية الواسعة، وتصوره الإسلامي الصحيح. ولا بد لنا من استطلاع رأيه ـ هو أولًا ـ حول هذه المسألة، لنجد أنه لم

(١) أصل الشيعة وأصولها ص ١٠٨ والمراجعات ففيه توضيح كافٍ عن مسألة الوصية لا تدع مجالاً لشك أو ارتياب.
(٢) المائدة: ٣.
(٣) أثناء المقصد الخامس من المقاصد التي أوردها في الآية الرابعة عشر من الباب ١١ ص ١٠٧ من الصواعق.
(٤) حيث قال وأخرجه آخرون (قال) ولكن زاد بعضهم: قم لا أقام الله رجليك ومحى اسمه من الديوان إلى آخر ما نقله في ص ١٠٧ من صواعقه، مما يدل على أن جماعة من المحدثين غير أحمد أخرجوا حديث المنزلة بالإسناد إلى معاوية (المراجعات ص ١٦٥).

يصرح أو يشير ـ ولو إشارة عابرة ـ بعدم وجود حق له في هذا الأمر، بل على العكس، فهو يؤكد هذا الحق دائماً، حتى وهو لا يعمد إلى المطالبة به وارجاعه.

إن المبررات التي طرحها عليه السلام والتي أوضح فيها سبب سكوته، مبررات مقنعة جديرة بأن تجعلنا جميعاً ندرك دوافع هذا السكوت، إذا ما فهمنا طبيعة نظرته للأمور وإذا ما فهمنا طبيعة المرحلة الدقيقة التي كان يمر بها الإسلام وهو يواجه معركته الكبرى الحاسمة بمواجهة الشرك والجاهلية، فليس من المعقول أن يشغل الإمام المسلمين بمعركة جانبية أخرى بينهم، قد تكون سبباً لخسارة المعركة الكبرى مع أعدائه الرئيسيين، وهي معركته هو أيضاً على أي حال.

إنه يتقبل الأمر الواقع على أمل نجاح تلك المعركة الكبرى في النهاية، ويتناسى حقه ويهمله في غمرة الشعور الكبير بالمسؤولية الملقاة على عاتقه، مع أنه لم يرد من وراء اعلان هذا الحق في الخلافة ـ كلما أتيحت له الفرصة (والجميع يعلمون بذلك وقد علموه أكثر فيما بعد وبيَّنته لهم الوقائع)، الحصول على مكاسب أو امتيازات شخصية ليقول عنه من قد يقول: إنه كان متهالكاً على كرسي الخلافة، وأنه كان يبث ظلامته ممن غصبه حقه كلما أتيحت له الفرصة.

نعم. كان يعلن حقه ويبث ظلامته كلما وجد ذلك مناسباً، لكنه لم يكن يتظلم لنفسه، ولم يكن (يبكي) على (مغانم) أخذت منه وعلى ملكٍ عريض ضاع في أيدي الآخرين، ولكنه كان يتظلم للإسلام الذي أعيقت مسيرته بغياب قائده الحقيقي، ولم ينتشر انتشاره الطبيعي كما لو كان ذلك القائد يتقدم المسيرة، ولوصل إلى أبعد مدى كان يمكن أن يصله في تلك الحقبة من الزمن التي بدت وكأنها زمناً مقطوعاً عن زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وليست امتداداً طبيعياً صحيحاً له.

لقد علمتم أني احق الناس بها

وكلنا يعرف طبيعة الظروف والأحداث التي جرت بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مباشرة، وهي أحداث بحاجة إلى توضيح أكثر ودراسات جدية عديدة، لا تكون نتيجتها الإساءة إلى المسلمين وإنما وحدتهم وجمعهم تحت المنظور الإسلامي الموحد الشامل في الحكم والحياة.

(لقد علمتم أني أحق الناس بها من غيري. ووالله لأسلمنَّ ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن فيها جورٌ إلا عليَّ خاصة التماساً لأجر ذلك وفضله، وزهداً فيما

تنافستموه من زخرفةِ وزبرجة)[1] (اللهم إنك تعلم إنه لم يكن منّا منافسة في سلطان ولا التماس شيء من فضول الحطام ولكن لنرد المعالم من دينك ونظهر الاصلاح في بلادك فيأمن المظلومون من عبادك وتقام المعطلة من حدودك)[2].

(أما الاستبداد علينا بهذا المقام ونحن الأعلون نسباً والأشدّون برسول الله ﷺ نوطاً، فإنها كانت أَثَرَه، شحت عليها نفوس قوم وسخت عنها نفوس آخرين. والحكم الله، والمَعوُدُ إليه القيامة. . . ودع عنك نهباً صحيح في حجراته)[3].

(. . . فنظرت فأنا ليس لي رافد ولا ذاب ولا مساعد إلا أهل بيتي فضننت بهم عن المنية فاغضيت على القذى، وجرعت ريقي على الشجى وصبرت على كظم الغيض على أمرّ من العلقم. وألم للقلب من حزِّ الشفار. .)[4].

(. . أما والله لقد تقمصها (فلان) وأنه ليعلم أن محلي منها محل القطب من الرَّحى. . . فسدلت دونها ثوباً وطويت عنها كشحاً، وطفقت ارتأي بين أن أصول بيد جذاء أو أصبر على طخيةٍ عمياء. . فرأيت أن الصبر على هاتا أحجى، فصبرت وفي العين قذىً وفي الحلق شجى أرى تراثي نهباً. . . فصبرت على طول المدة وشدة المحنة. . .)[5].

(. . وقد كان أبوك (أبو سفيان) أتاني حين قبض رسول الله ﷺ فقال: ابسط يدك أبايعك فأنت أحق الناس بهذا الأمر، فكنت أنا الذي أبيت عليه مخافة الفرقة بين المسلمين لقرب عهد الناس بالكفر. .)[6].

كانت بيعتهما فلتة

ويبدو أن الخليفتين الأولين رأيا أن بيعتهما كانت فلتة وقى الله المسلمين شرها. فقد روي عن أبي بكر قوله (فإني وددت اني سألت رسول الله ﷺ لمن الأمر من بعده

---

(١) نهج البلاغة ص ١٧٨.

(٢) المصدر السابق ص ٣٠١.

(٣) نفس المصدر ص ٣٤٩.

(٤) نفس المصدر ٤٨٠.

(٥) نفس المصدر ص ٨٦ - ٨٨.

(٦) العقد الفريد ص ٦٥.

لا ينازعه أحد)[١] وعن عمر قوله قبل أن يموت من طعنة أبي لؤلؤة، وقد وضع خده على الأرض (ويل لعمر ولأم عمر إن لم يعف الله عنه)[٢] ولما قيل له: لو أنك عهدت إلى عبدالله قال: بحسب آل الخطاب أن يحاسب منهم رجل واحد عن أمة محمد ﷺ ولوددت أني نجوت من هذا الأمر كفافاً لا لي ولا علي)[٣].

وعندما قيل له أيضاً (لو عهدت.. فقال: قد كنت أجمعت بعد مقالتي لكم أن أوليّ رجلًا أمركم، أرجو أن يحملكم على الحق وأشار إلى علي)[٤].

كان هذا موقفه من خلافة من تولى الأمر قبله، عبر عنه بصراحة ولم يخف حتى أحاسيسه ومشاعره الشخصية، لقد وقف منهم وقفته المبدئية المشهورة التي كانت تستهدف دائماً الحفاظ على الإسلام واعلاء شأنه، ولا شيء غير ذلك.

ورب قائل يقول: أما كان الأحرى به أن يقف من معاوية نفس موقفه القديم الأول.. لنفس الأسباب التي أوردها عليه السلام؟ وهذا سؤال مهم وحساس، سنجيب عنه، بل سيجيب عنه هو عليه السلام عند استعراض قضيته مع معاوية، بل ابتلائه فيه.

ونكرر هنا أننا لم نرد استعراض مسألة الخلافة لنثير بعض كوامن النفوس بل لنؤكد إنها ما كان ينبغي أن تلقي بظلال سوداء على علاقتنا مع بعضنا، وإنها ينبغي أن لا تكون دافعاً لمزيد من الفرقة والخلاف، وعلينا ـ وهذا هو الأمر المهم ـ أن لا نخلط أوراق معاوية ـ كما أراد هو ـ مع أوراق أبي بكر وعمر وعثمان.. وإذا كان الإمام عليه السلام قد سكت عن حقه في الخلافة للأسباب التي بينها في بعض كلماته وخطبه، فإن سكوته عن معاوية يعني أنه تخلى عن الإسلام نهائياً وترك الساحة لمعاوية، وهذا ما لم يكن ليفعله بأي حال من الأحوال.

نظر اتباع أهل البيت إلى الخلافة

أما كيف ينظر المسلمون إلى المسألة، وخصوصاً (الشيعة الجعفرية الإمامية)، ـ وهم غير العديد من (الفرق) التي نسبت إليهم خطأ ـ وكيف فهموها، وهل نظروا

(١) العقد الفريد ص ٢٠-٢٥.
(٢) نفس المصدر.
(٣) نفس المصدر.
(٤) نفس المصدر.

إليها نفس النظرة المبدئية التي نظر بها الإمام عليه السلام، وهل وعوها كما وعاها، متأثرين به على الأقل؟ لا بدافع (التقية) التي يصمهم بها البعض على أنها ستار لاخفاء النوايا والمشاعر الحقيقية، وإنها نوع من النفاق الناتج عن مخاوف أو أطماع أو محاذير معينة. . . ! كيف نظروا إلى تاريخ هذه المسألة الحساسة من قضايا التاريخ الإسلامي، وكيف تناولوها؟ هل راحوا يتباكون على (الكرسي) الذي اغتصب؟ وهل راحوا يلعنون ويسبون من فعل ذلك كما يدعى عليهم. . !؟ وهل صمتوا ونسوا هذا الحق في غمرة تسامحهم في هذا الأمر؟ كيف لامرىء أن يعرف حقيقة مواقفهم فلا يشك فيها وفي صدقها؟.

وهنا آثرت نقل ثلاثة نصوص كاملة لثلاثة مراجع من مراجع الشيعة وزعماء مرموقين مسموعي الكلمة، مطاعين بل و (مقَلَّدين) من قبل جماهير واسعة منهم، لمعرفة رأيهم الواضح فيها.

وأول هؤلاء فهو الإمام عبد الحسين شرف الدين الموسوي، كتب رأيه عام ١٣٣٠هـ أي قبل أكثر من ثمانين عاماً في مراجعاته مع سماحة المرحوم الشيخ سليم البشري ـ شيخ الجامع الأزهر، في وقت لم يكن فيه الوعي الإسلامي لدى فئات كبيرة من المسلمين قد بلغ ما بلغه اليوم من عمق وشمول، وكانت المواجهة مع القوى المعادية للإسلام لا تتسم بما تتسم به اليوم من وضوح وتجسُّد، بل كانت (خصومات) المسلمين تنصب فيما بينهم على هذه القضية بالذات، وعلى بعض الأمور الجانبية والفرعية الأخرى، والتي جعلوا من الخلاف فيها سبباً للتناحر الشديد فيما بينهم والنيل من بعضهم.

وثاني هؤلاء هو الإمام المرحوم الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء، فقد جاء رأيه قبل أكثر من ستين عاماً ١٣٥٠هـ في كتابه (أصل الشيعة وأصولها) المطبوع في النجف الأشرف).

أما ثالثهم فهو الإمام الشهيد محمد باقر الصدر، الذي أوضح رأيه بخصوص هذه المسألة في آخر محاضرة له قبيل استشهاده على يد جلاد العراق عام ١٣٩٩هـ، وأمام مجموعة من كبار العلماء في الحوزة العلمية في النجف الأشرف نفسها.

ومن الطبيعي أن هؤلاء المراجع الذين عبروا بوضوح عن رأي اخوانهم العلماء الآخرين لم يكونوا في وضع يخشون معه التعبير عن آرائهم بصراحة تامة، وما قالوه لم يكن إلا رأي الشيعة بأجمعهم، وهو نفس رأي الإمام علي عليه السلام.

وتبني موقف الإمام عليه السلام ورأيه، لا بد أنه يمثل الطريق الأسلم والأصح، لحل الاشكالات والخلافات الخاصة بهذه القضية التي يقف فيها الكثيرون مواقف متجنية على الإمام نفسه وعلى الآخرين بنفس الوقت، وهو أمر له جذوره وأسبابه المتحدِّرة من الموقف الأموي المصطنع، والمتشنج والمعادي للإمام، والذي يعلن الميل الظاهري لمن سبقه من الخلفاء ـ لا حباً بهم ـ بل من باب الكره للإمام. كما أنها ناتجة عن التصديق بالدور الماكر الذي لعبه معاوية في هذه النقطة الحساسة والوقوع في الفخ الذي نصبه واستدرج الجميع إليه ليسبب العداوة بين الجميع، حتى تنسى قضيته، ولا تعود إلا كإحدى القضايا الكثيرة المطروحة على الساحة، وكأنما كان (نزاعه) مع علي مجرد واحد من النزاعات الأخرى المتكررة التي أثيرت معه عليه السلام.

فلنستمع إلى رأي الإمام المغفور له السيد عبد الحسين شرف الدين في المراجعة ٥٢ في ١٥ محرم سنة ١٣٣٠هـ (نحن نؤمن بفضائل أهل السوابق من المهاجرين والأنصار كافة رضي الله عنهم ورضوا عنه، وفضائلهم لا تحصى ولا تستقصى، وحسبهم ما جاء في ذلك من آيات الكتاب وصحاح السنة، وقد تدبرناه فما وجدناه ـ كما يعلم الله عز وجل ـ معارضاً لنصوص علي، ولا صالحاً لمعارضة شيء من سائر خصائصه. نعم، ينفرد خصومنا برواية أحاديث في الفضائل لم تثبت عندنا، فمعارضتهم إيانا بها مصادره لا تنتظر من غير مكابر متحكم، إذ لا يسعنا اعتبارها بوجه من الوجوه، مهما كانت معتبرة عند الخصم. ألا ترى أنا لا نعارض خصومنا بما انفردنا بروايته، ولا يحتج عليهم إلا بما جاء من طريقهم، كحديث الغدير ونحوه، على أنا تتبعنا ما انفرد به القوم من أحاديث الفضائل فما وجدنا فيه شيئاً من المعارضة، ولا فيه أي دلالة على الخلافة، ولذلك لم يستند إليه ـ في خلافة الخلفاء الثلاثة ـ أحد)[1].

ولنطالع هذه الفقرات للمرجع كاشف الغطاء عليه رحمة الله (ثم لما ارتحل الرسول من هذه الدار إلى دار القرار، ورأى جمع من الصحابة أن لا تكون الخلافة لعلي عليه السلام، إما لصغر سنه، أو لأن قريشاً كرهت أن تجتمع النبوة والخلافة لبني هاشم، زعماً منهم أن النبوة والخلافة إليهم، يضعونها حيث شاءوا، أو لأمور أخرى

(١) المراجعات ص ٢١٤ - ٢١٥.

لسنا بصدد البحث عنها، ولكنه باتفاق الفريقين امتنع أولّا عن البيعة ـ بل في صحيح البخاري في باب غزوة خيبر ـ أنه لم يبايع إلا بعد ستة أشهر وتبعه على ذلك جماعة من عيون أصحابه كالزبير وعمار والمقداد وآخرين.

ثم لما رأى أن تخلفه يوجب فتقاً في الإسلام لا يرتق وكسراً لا يجبر، وكل أحد يعلم أن علياً ما كان يطلب الخلافة رغبة في الأمر ولا حرصاً على الملك والغلبة والاثرة، وحديثه مع ابن عباس في ذي قار مشهور، وإنما يريد تقوية الإسلام وتوسيع نطاقه ومد رواقه وإقامة الحق وإماتة الباطل، وحين رأى أن المتخلفين، أعني الخليفة الأول والثاني بذلا أقصى الجهد في نشر كلمة التوحيد، وتجهيز الجنود وتوسيع الفتوح، ولم يستأثروا ولم يستبدوا، بل بايع وسالم وأغضى عما يراه حقاً له، محافظاً على الإسلام أن تصدع وحدته، وتتفرق كلمته، ويعود الناس إلى جاهليتهم، وبقي شيعته منضوين تحت جناحه ومستنيرين بمصباحه ولم يكن للشيعة والتشيع يومئذٍ مجال للظهور، لأن الإسلام كان يجري على مناهجه القويمة...

ثم لا يذهبن عنك أنه ليس معنى هذا أنا نريد أن ننكر ما لأولئك الخلفاء من الحسنات وبعض الخدمات للإسلام، التي لا يمجدها الأكابر، ولسنا بحمد الله من المكابرين ولا سبابين ولا شتامين بل ممن يشكر الحسنة ويغض عن السيئة ونقول ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾[1] وحسابهم على الله، فإن عفا فبفضله، وإن عاقب فبعدله...

.. ولكن كبار المسلمين بعد النبي ﷺ تأولوا تلك النصوص (الخاصة بحق علي في الخلافة) نظراً منهم لصالح الإسلام حسب اجتهادهم، فقدموا وأخروا وقالوا: الأمر يحدث بعده الأمر، وامتنع علي وجماعة من عظماء الصحابة عن البيعة أولّا، ثم رأى امتناعه عن الموافقة والمسالمة ضرراً كبيراً على الإسلام، بل ربما ينهار من أساسه وهو بعد في أول نشوئه وترعرعه. وأنت تعلم أن الإسلام عند أمير المؤمنين عليه السلام من العزة والكرامة والحرص عليه والغيرة بالمقام الذي يضحي له بنفسه، وأنفس ما لديه، وكم قذف بنفسه في لهوات المنايا تضحية للإسلام. وزد على ذلك أنه رأى الرجل الذي تخلف على المسلمين قد نصح للإسلام وصار يبذل جهوده في قوته واعزازه وبسط رايته على البسيطة. وهذا أقصى ما يتوخاه أمير المؤمنين من

(١) البقرة: ١٤١.

الخلافة والأمرة، فمن ذلك كله تابع وبايع حيث رأى أنَّ بذلك مصلحة الإسلام وهو على منصبه الإلهي من الإمامة وإن سلم لغيره التصرف والرئاسة العامة فإن ذلك المقام مما يمتنع التنازل عنه بحال من الأحوال)[1].

ولنقرأ ـ أيضاً ـ هذه الفقرات المطولة للشهيد الصدر رضوان الله عليه:

(.. حب الله هو الذي جعل علياً عليه الصلاة والسلام دائماً يقف مواقف الشجاعة، مواقف البطولة، هذه الشجاعة، شجاعة علي عليه السلام ليست شجاعة السباع، ليست شجاعة الأسود وإنما هي شجاعة الإيمان وحب الله، لماذا؟ لأن هذه الشجاعة لم تكن فقط شجاعة البراز في ميدان الحرب، بل كانت أحياناً شجاعة الرفض، أحياناً شجاعة الصبر. علي بن أبي طالب ضرب المثل الأعلى في شجاعة المبارزة في ميدان الحرب، شد حزامه وهو ناهز الستين من عمره الشريف وهجم على الخوارج وحده فقاتل أربعة آلاف إنسان. هذه قمة الشجاعة في ميدان المبارزة، لأن حب الله أسكره، فلم يجعله يلتفت أن هؤلاء أربعة آلاف وهو واحد. وضرب قمة الشجاعة في الصبر، في السكوت عن الحق حينما فرض عليه الإسلام أن يصبر عن حقِّه وهو في قمة شبابه، لم يكن في شيخوخته، وكان في قمة شبابه، كانت حرارة الشباب ملء وجدانه ولكن الإسلام قال له اسكت، اصبر عن حقك حفاظاً على بيضة الدين، ما دام هؤلاء يتحملون حفظ الشعائر الظاهرية للإسلام والدين.. سكت ما دام هؤلاء كانوا يتحفظون على الظواهر والشعائر الظاهرية للإسلام والدين، وكان هذا قمة الشجاعة في الصبر أيضاً هذه ليست شجاعة الأسود، هذه شجاعة المؤمن الذي أسكره حب الله، وكان قمة الشجاعة في الرفض وفي الإباء حينما طرح عليه ذلك الرجل أن يبايعه على شروط تخالف كتاب الله وسنة رسوله بعد مقتل الخليفة الثاني، ماذا صنع هذا الرجل العظيم؟ هذا الرجل العظيم الذي كان يحترق لأن الخلافة ذهبت من يده، يحترق من أجل الله، لا من أجل نفسه، يقول «ولقد تقمصها ابن أبي قحافة وهو يعلم أن محلي منها محل القطب من الرحى» هذا الرجل الذي كان يحترق لأن الخلافة خرجت من يده. لو أن إنساناً يقرأ هذه العبارة وحدها لقال: ما أكثر شهوة هذا الرجل إلى السلطان وإلى الخلافة، لكن هذا الرجل نفسه، هذا الرجل بذاته عرضت عليه الخلافة عرضت عليه رئاسة الدنيا فرفضها لا لشيء إلا لأنها شرطت بشرط

(١) أصل الشيعة وأصولها. ص ٩٠، ٩١، ١٠٠، ١٠٨.

يخالف كتاب الله وسنة رسوله من هنا نعرف أن ذلك الاحتراق لم يكن من أجل ذاته، وإنما كان من أجل الله سبحانه وتعالى. إذاً هذه الشجاعة، شجاعة البراز في يوم البراز وشجاعة الصبر في يوم الصبر، وشجاعة الرفض في يوم الرفض، هذه الشجاعة خلقها في قلب علي حبه لله لاعتقاده بوجود الله..)[١].

لقد كان الشهيد الصدر يعرب عن آرائه هذه في مجتمع من العلماء الكبار في الحوزة العلمية في النجف الأشرف كما قلنا ـ وكلهم من الشيعة الإمامية ـ أي في مجتمع مقفل للشيعة، فكان يقول قوله هذا دون تحفظ ولم يرد منه أن يكون مجرد قول يسمعه الآخرون ثم لا يهتمون به، بل الاقتداء بمواقف الإمام عليه السلام في هذا الجانب وفي غيره من الجوانب الأخرى.. (إننا ندعي أننا ورثة الأنبياء وورثة الأئمة والأولياء، إننا السائرون على طريق محمد صلى الله عليه وآله وعلي والحسن والحسين عليهم السلام.. ألسنا نحاول أن نعيش شرف هذه النسبة، وهذه النسبة تجعل موقفنا أدق من مواقف الآخرين، لأننا نحن حملة أقوال هؤلاء وأفعال هؤلاء، أعرف الناس بأقوالهم واعرف الناس بأفعالهم. ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وآله «إننا معاشر الأنبياء لا نورث ذهباً ولا فضة ولا عقاراً، إنما نورث العلم والحكمة، ألم يقل علي بن أبي طالب عليه السلام: إن إمارتكم هذه أو خلافتكم لا تساوي عندي شيئاً إلا أن أقيم حقاً أو أدحض باطلًا. علي بن أبي طالب عليه السلام كان يعمل لله سبحانه وتعالى، لم يكن يعمل لدنياه لو كان علي يعمل لدنياه، لكان أشقى الناس وأتعس الناس، لأن علياً حمل دمه على يده منذ طفولته، منذ صباه، يذب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وعن دين الله وعن رسالة الله لم يتردد لحظة في أن يقدم، لم يكن يحسب للموت حساباً، لم يكن يحسب للحياة حساباً، كان دمه دائماً على يده، كان أطوع الناس لرسول الله في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وكان أطوع الناس لرسول الله بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، كان أكثر الناس عملًا في سبيل الدين ومعاناة من أجل الإسلام..)[٢].

ربما توقع كثيرون أن يقال غير هذا القول، وربما حاول آخرون أن يقال غير هذا القول. أما لماذا، ولمصلحة من؟ فهذا ما يتكشف لنا أمره الآن بشكل واضح. إنه جزء من مهمات الدوائر التبشيرية التي جعلت من عدائها للإسلام وتحطيمه أكبر هدف

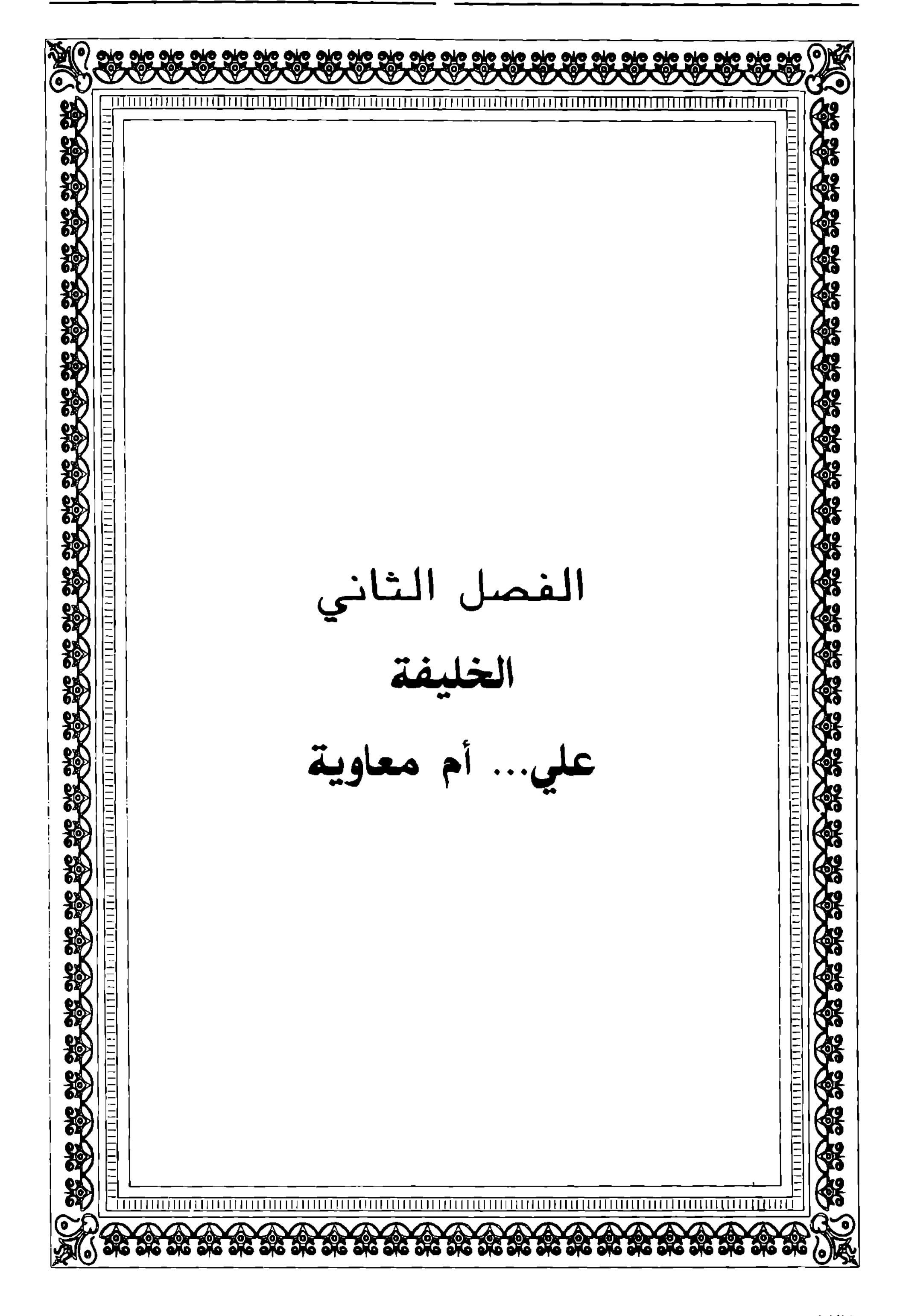
(١) المدرسة القرآنية ٢٤٩ - ٢٥١.

(٢) المصدر السابق ص ٢٥٣ - ٢٥٤.

لها، وطبيعي أن شق وحدة المسلمين وتعميق خلافاتهم وابراز ما كان مندثراً منها، عامل أساس لانجاز هذه المهمة على الوجه الأكمل، إضافة لما تقوم به من مهمات أخرى، غرضها ابعاد المسلمين عن دينهم بعد أن لم يتسنَّ لها كسبهم إلى صفها، و بعد أن لم تنجح باقناع المسلمين لتبني قيمهم الغربية ومثلهم العليا المشوهة.

ولكن إذا لم ير المسلم أمامه إلا الله، كما رآه الإمام علي عليه السلام، ولم يروا إلا مصلحة هذا الدين وطريقه القويم، وإذا ما اعتمدوا نظرته وطريقه لمعالجة كل حالة حياتية معاصرة والنظر إلى كل حادث من حوادث التاريخ الإسلامي وغيره، لا يجد أمامه في هذه الحالة إلا أن يغلب مصلحة الإسلام على مصالحه ونظراته الذاتية التي قد تنحدر به إلى نفس الطريق التي انحدرت إليها النفوس التي لم تعرف الإسلام ولم تعيه!.

وفي هذا دروس بليغة لنا، لكي ننظر بانصاف ووعي ودون تحيز إلى كل أمورنا وحياتنا وتاريخنا، ونعالج كل قضايا الإسلام المعاصرة وحوادثه الماضية على أساس مصلحة هذا الدين وهذه الأمة، وإلا كنا قد انسقنا وراء ما يريده لنا أعداؤنا من فرقة وخصام، وحققنا كل أهدافه وأمانيه.



الفصل الثاني

الخليفة

علي... أم معاوية

الخليفة

علي.. أم معاوية..

المؤرخون بين السيرة الوضاءة لرسول الله ﷺ... والانحراف المعلن لمغتصبي السلطة

في غمرة (الاستسلام) لوقائع التاريخ، وتقبلها كأمر واقع، والتطبع معها، ـ كما هو الحال عند الاستسلام لبعض أشكال الواقع المعاش وتقبلها والتطبع معها أيضاً كأمور واقعة و(حقيقية) معاشة، يبرر العديد من (المفكرين) ومحترفي التاريخ! لكثير من الوقائع، وينسون في غمرة التحيز وتبني الأفكار و (النظريات) المسبقة، العديد من الأمور المهمة التي أثرت في مجرى التاريخ الإسلامي، وعملت على هدم الإسلام وتقويضه وجعله مجرد شعارات ولافتات تجمل وتزين بها بعض واجهات العروش التي تحكم باسمه لكي ترضي جماهير الأمة الإسلامية التي قدر لها أن تظل مغلوبة ومخدوعة في أغلب الأحيان.

وأول ما ينساه هؤلاء المؤرخون هو السلوك المشين لبعض (الخلفاء) (وأمراء المؤمنين) والملوك والولاة، والذي يتناقض تناقضاً بيّناً مع أبسط المقومات والمعايير السلوكية الإسلامية المطلوبة من المسلم العادي المجرد من المسؤوليات الرسمية العليا، ناهيك من امرئٍ يتولى أمر المسلمين ويشخص أمامهم كقدوة أو مثل أعلى.

والأمر الآخر الذي ينساه هؤلاء المؤرخون، وربما يتناسونه عن عمد، هو: إن على مدعي الخلافة وإمرة المؤمنين ومن يحكمون باسم الإسلام، مسؤوليات إضافية كبيرة، تتجاوز مسؤوليات الفرد العادي أيضاً، يترتب عليها أنماط من التصرفات النموذجية، تأخذ عن الإسلام، وتعتمد القرآن والسنة وكل (أخلاقيات الإسلام) ومناهجه وممارساته التعبدية العملية التي لا تكتفي بالطابع الكلامي المجرد واداء بعض الشعائر والطقوس، وإنما تكيف الحياة بأكملها للتعامل وفق منهج الإسلام بأجمعه، وعدم نبذ أو ترك أي جانب منه تحت أية ذريعة أو حجة أو سبب يتأثر بهم

الآخرون من أبناء الأمة المسلمة ويتخذون منهم نموذجاً واقعاً ملاحظاً للسلوك الإسلامي المطلوب، يسيرون عليه وهم يرونه أمامهم شاخصاً على ساحة الحياة.

ويتناسى العديدون منهم، في غمرة الاعجاب بالانجازات (الحضارية) لهؤلاء الخلفاء مظاهر سلوكهم الشخصية، التي ينبغي أن تكون مثالًا للإسلام نفسه، ما داموا يحكمون باسمه ويدعون تمثيله ويحتجون به لاثبات شرعية حكمهم، كما يتناسون المظاهر العامة لسلوك الدولة ككل، ويتغاضون عن كل خرق كبير من هؤلاء وعن كل تجاوز فاضح معلن أمام الجميع، حتى أن عدداً كبيراً من هؤلاء (الخلفاء) لم يكلفوا أنفسهم عناء (التستر) واخفاء السلوك الفاضح الذي يصدر منهم أو من حاشيتهم، غير حاسبين أي حساب للإسلام أو المسلمين على حد سواء. إن بعضهم، وقد ورث (الخلافة) عن أبيه وأجداده، ورآها حقاً له ولورثته ـ فيما بعد ـ تناسى نهائياً في غمرة الزمن الطويل، الذي وجد أهله ونفسه فيه خلفاء مطاعين! إن هناك ديناً يرتب عليه العديد من الالتزامات الحياتية، وأنه، أي (الخليفة)، مطالب أن لا يبتعد عن مظاهر السلوك المنكرة والبعيدة عن منهج الإسلام وحسب، بل وأن يكون نموذجاً جيداً للآخرين من (رعيته) و (محكوميه...)!.

وفي معرض الحديث عن تاريخ العديد من (الخلفاء)، يلتقط بعض المؤرخين أنفاسهم، مبهورين معجبين، من (لقطة) يظهر فيها أحد الخلفاء وهو يبكي بين يدي أحد الوعاظ، أو يوصي ابنه بايقاع حد الجلد على نفسه، لأنه نظر إلى جارية مغنية من جواري أبيه وغمز لها بعينيه فأخجلها، أو أنه خطب فحمد الله، أو صلى فأطال في صلاته، وكأن هذه (الغرائب) من السلوك، لم يتمتع بها إلا هؤلاء الخلفاء الذين كلفوا أنفسهم هذه المشاق، فبكوا بين يدي وعاظ ذكروهم الموت، ثم نسوا المواعظ بين أحضان الجواري وكؤوس الخمر! أليس من حقهم أن ينسوا الدنيا وهموم الحياة وأن يتمتعوا كغيرهم! وكأن ما أباحوه لغيرهم مثل ما أباحوه لأنفسهم.

كما أن بعض المؤرخين، يلتقطون بعض (الومضات واللفتات) الذهنية لبعض هؤلاء الخلفاء! و (حسن) تصرفهم في بعض المواقف وسرعة بديهتهم وخواطرهم ومظاهر نجابتهم وذكائهم التي كانت غالباً ما تلوح منذ الصغر إلى غير ذلك من الأمور، فيروحون يروجون المقولات والنظريات ويؤلفون الكتب المطولة، حول صلاحيتهم ومؤهلاتهم (هم فقط) للمناصب العليا، التي تقلدوها فعلاً فيما بعد، ولم

يكن يصلح لها إلا هم، وقد منَّ الله على الأمة واستجاب لها دعاءها ـ الذي دعت به حتماً ـ وجعل منهم (خلفاء) له عليها.

وقبل أن ننقاش وقائع التاريخ الذي نحن بصدده، وقبل أن نطلب من (المفكرين) والمؤرخين الذين يتعاملون مع التاريخ الإسلامي ومعطياته وأحداثه أن يعطونا مبرراً لسكوتهم عن الخرق الفاضح لقواعد الإسلام وقيمه ومبادئه من قبل هؤلاء.

إعادة كتابة التاريخ الإسلامي

وفق أي تصور، وعلى أي أساس نناقش أمور التاريخ الإسلامي؟ هل نناقشها وفق تصور (الأساتذة) الذين غالباً ما يكونون من المستشرقين الغربيين، الغربيين عن الإسلام، وتلامذتهم ومتلقيهم والمبهورين بمناهجهم في البحث والدراسة. .؟ أم وفق تصور إسلامي بحت يضع القيم والمعايير والمقاييس والمبادى الإسلامية أمامه، عند مناقشة أية قضية إسلامية؟.

لا بد أن يكون الشق الثاني من السؤال هو الجواب، إننا ينبغي (أن نعيد كتابة التاريخ البشري، ليتناسق مع الرؤية الإسلامية المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فتكون لنا وحدة في التصور، تتناسب مع كوننا مسلمين. .)[١].

ومن هنا نفهم سر (الصرامة) التي يبدو عليها المؤرخون، أو التي ينبغي أن يبدون بها عند تناول سلوك الخلفاء، وندرك سبب النقمة الشعبية على هؤلاء الخلفاء، إذا ما تجاوزوا حدود السلوك المطلوب، والسلوك المطلوب هو السلوك الإسلامي، وكما قلنا، فإن هذا السلوك لا يتجسد في المظاهر الأخلاقية الاستعراضية، وبعض المواهب في الدهاء والحيلة والمكر وسياسة الرعية! وإنما بتجسيد كل قيم الإسلام، فالجماهير تفترض أن (الخليفة) أو (أمير المؤمنين)، كما يدعو بعضهم نفسه، يلتزم أكثر من غيره بسلوك من يدعي خلافته ويحكم باسمه هو رسول الله ﷺ. إنهم لا يكتفون من هذا الخليفة ـ حتى لو ألزم هو نفسه شخصياً بالحدود المطلوبة من الأداء الإسلامي الحياتي السلوكي ـ أن يكون كأحدهم، وإنما يريدون منه أن يكون أفضلهم. . فتغمرهم مظاهر عدله ورحمته وأمانته واستقامته ووفائه.

---

(١) كيف نكتب التاريخ الإسلامي ص ٩.

الخلافة: امتداد لدور النبوّة

لقد توصلنا في الفصل السابق إلى أن منصب (الإمامة) أو (الخلافة)، هو منصب إلهي، وهو امتداد لدور النبوة، ومندمج معه، خلافة الإنسان على الأرض اقتضت أن تكون هذه الخلافة كما يريد هو ـ سبحانه ـ لا كما تزين للإنسان نظرته الخاصة وطموحاته وتصوراته الأرضية البحتة. لذلك أرسل إلى الأنبياء يبشرهم برسالاته، التي هي رسالة واحدة ممتدة في واقع الأمر، وإن لم تكن بالصورة الكاملة التي ظهرت بها في الإسلام، خاتم الديانات والمنهج الكامل للحياة على امتداد الأزمان والأمكنة.

إن الشعور بالمسؤولية لدى الرسل، والذي عمقه علمهم التام بحقيقة الربوبية لا بد أن يحمله من يحمل رسالتهم بعد اختفائهم من الساحة وموتهم، لا بد أن ينتقل ذلك الادراك العميق والعلم الأكيد إلى صفوة يختارها هؤلاء الرسل، بعد أن يتوسموا فيها المؤهلات لقيادة الأمة وتسنم دور الإمامة أو الخلافة بعدهم. وهكذا كان لكل نبي حواريون وصحابة يتلقون عنه، ويتمتعون بقدر عالٍ من المسؤولية يحتمه عليهم ما يتمتعون به من ادراك عميق ولده الاتصال الحميم بحامل الرسالة والفهم الواعي للرسالة.

ثم إن في المسألة تسديداً ربَّانياً يجعل من الوصي والخليفة يقف عند حدود مسؤولياته تجاه خالقه على وجه الخصومة، ويتحمل دوره بشكل دقيق لا يدعه يخرج خروجاً ولو بسيطاً عن الرسالة التي آمن بها وحملها، وإلا فإذا كان معرضاً للأخطاء والسقطات مثل غيره، وهو في هذا المنصب، فإن احتمال تعريض الأمة إلى أخطار بالغة، أمر وارد. فالإمامة مكملة لدور النبوة المنقطع والمندمج بها، إلا أن الإمام ليس بنبي مع أن النبي إمام بنفس الوقت.

ولم يكن اختيار الإمام الوصي نابعاً عن هوى شخصي أو ميل خاص لدى النبي ﷺ خص به ابن عمه عليه السلام دون سبب وجيه ودون تسديد إلهي، وإلا كان هذا النبي ﷺ ـ وحاشاه ـ مثل غيره من البشر غير معصوم عن فلتات الهوى واللسان، ولما قرأنا الشهادة الإلهية المبنية بحقه بأنه منزه ومسدد ولا ينطق إلا عن وحي ومشيئة ربانية.

لقد أكدت لنا كتب الحديث والسيرة، كما أكدت لنا الوقائع كلها، إن الإمامة كانت بوصية وعهد من رسول الله ﷺ، وقبلها كانت بعهدٍ عهده الله إلى رسوله ﷺ.

ولو تتبعنا صحاح الأخبار والأحاديث لوجدنا أن هذه حقيقة أكيدة، غير أن وصية الرسول ﷺ قد أهملت ـ كما ذكرنا ـ وكما توصل إلى ذلك كبار علماء المسلمين ومؤرخيهم وباحثيهم، وقبلها ـ حسم الإمام عليه السلام نفسه تلك القضية بموقفه الواضح المتسامح الحريص على الإسلام. وإذاً فهل علينا أن نثور نحن إذ سكت الإمام ونطالب بحق سكت هو عنه ونثير الضغائن والأحقاد عن طريق المطالبة الآن بحقوقه المغتصبة، ونترك مشاكلنا الحالية، وما نواجهه من أخطار خارجية حادة، قد تؤثر على مصائرنا جميعاً وتهدد وجودنا وكياننا الإسلامي الواحد؟ فهل يوجد من يدعي الحرص على الإسلام ويثير الضغائن والأحقاد وحزازات النفوس والخلافات بخصوص أمور قد انتهت منذ عهد بعيد، وأعطي فيها القول الفصل وانتهى أمر النقاش فيها، ويقيم جدله على غير الأسس الطبيعية الصحيحة عند تناول قضايانا التاريخية المهمة، بل كل قضية تهم هذه الأمة المسلمة؟ وإذا ما أثار المسألة من يعتقد بمظلومية الإمام ـ الذي سكت هو عن حقه مع أنه أوضحه ـ لهان الخطب ـ فكيف إذا كان من يثيرها لا ينتسب إلى الإسلام مكية، ويدعي الانتصار لأحد الفريقين بحجة تثبيت الحق لأهله، مع أن هؤلاء قد حكموا وانتهوا وماتوا ووفدوا على رب كريم عادل بيده الأمر والحساب وكل شيء. إن من يثير خلاف علي من سبقوه من الخلفاء ينبغي أن لا يكون بدافع اثارة خلاف جديد وينبغي أن يتم بأسلوب علمي هادىء لا يستند إلا إلى الوقائع والحقائق، ويتم في معرض استعراض قضية إسلامية عامة، لا بد من الرجوع فيها إلى مسألة الخلافة لعرضها بأسلوب هادف مفيد.

ابحث عن «معاوية».. برنامج مدروس للانحراف

على أنَّ خروج معاوية على علي عليه السلام هي المسألة التي ينبغي أن تستعرض بالتفصيل والوضوح المناسب وتعرض على جماهير المسلمين بدقة ودون تحيُّز مسبق لأن بداية الانحراف الحقيقي المتعمد عن الإسلام قد بدأت مع معاوية، مع أن بعض الأخطاء والانحرافات الأخرى قد ظهرت قبله وخصوصاً في عهد عثمان، وربما حدث بعضها بدوافع غير مقصودة وغير متعمَّدة.

أَمر معاوية يجب أن يدقق ويمحص جيداً، وإلا فإن هذه الحلقة المهمة من حلقات تاريخنا الإسلامي ستظل ضائعة، مع أنها تشير لبداية انفصال الحلقات الأخيرة عن الحلقات الأولى التي لم تشوه ذلك التشويه الكبير بالانحرافات والأخطاء الكبيرة

المتعمدة والخروج الفاضح عن الإسلام كما حدث أيام معاوية وبعدها. إن البحث عنها أساسي ومهم.

ولا بد أن نحكم الرؤية الإسلامية المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ عند النظر إلى هذه المسألة بالخصوص، كما هو شأننا عندما ننظر إلى كافة المسائل الإسلامية الحساسة المتداولة وخصوصاً تلك التي تحصل خلافات مستمرة بشأنها ولم تحسم من قبل العديدين لغياب التصور الإسلامي والرؤية الإسلامية الصحيحة غير المتحيزة، والواضحة.

وفي مقدمة هذه القضايا قضية معاوية مع علي أو خلافه أو نزاعه معه كما يسميه البعض أو (الفتنة) التي حدثت (بينهما).

إن بعض المؤرخين ـ بمقتضى الأمانة العلمية ـ حاولوا نقل ما وصل إلى أسماعهم من أحداث وروايات، وما قرأوه عنها، وتركوا لنا مهمة فحصها وتمحيصها؛ فهذا الطبري، (شيخ المؤرخين العرب المسلمين) يورد لنا ملاحظة مهمة بهذا الخصوص (... فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه، من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة، ولا معنى في الحقيقة، فليعلم أنه لم يؤت ذلك من قبلنا، وإنما أتي من قبل ناقليه إلينا، وإننا إنما أدينا ذلك على نحو ما أُدّيَ إلينا..)[1].

إلا أننا ينبغي أن لا نعتقد أن كل هؤلاء المؤرخين لزموا نفس النظرة الحيادية التي ربما كان عدد كبير منهم قد اتخذوها عند استعراض وقائع التاريخ وأحداثه المهمة. فلا بد أن بعضهم قد انحاز إلى جهة ما بفعل عوامل عديدة، واختار ما يلائم ذوقه وميوله، عند اختيار الوقائع والحوادث التي يسجلها في (تاريخه). إننا نجد تفاوتاً من حيث الطول والمساحة التي يستغرقها خبر ما عند استعراض نفس الحادثة في مختلف الكتب التاريخية، فربما يكرس بعض المؤرخين اهتمامهم لبعض الأحداث يرونها مهمة وجديرة بأن يستطردوا في رواية الكثير مما سمعوه عنها، ولا يكادون يتطرقون إلى أحداث أخرى ربما لا تقل عنها أهمية، بل ربما تزيد عليها في الأهمية، لكنهم لا يرون ذلك، وربما لا يريدون أن يروا ذلك لأمر ما، قد يكون ناتجاً

---

(١) تاريخ الطبري/ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار المعارف ١/٨ ط ٤.

عن فهم المؤرخ الخاص أو طبيعة نظرته للأمور، وتحليله لها وامكانية تأثيرها سلباً أو ايجاباً على بعض ما يتبناه من المواقف المسبقة، وهذا مما يجانب الأمانة العلمية التي ينبغي أن يتصف بها هؤلاء المسجلون الأمناء للتاريخ.

وإذا كان الطبري قد بين لنا أنه قد سلك هذا المنهج من الأمانة ـ وحتى ذلك قد يكون أيضاً خاضعاً للتمحيص والنظر ـ فإن آخرين لم يتحرجوا من التحيز الواضح، في التركيز على الأخبار والحوادث التي تخدم اتجاهاً معيناً أو جهة معينة يميل إليها هذا المؤرخ، ويهمل الأخبار الأخرى التي لا تتناسب مع ميوله واتجاهاته، وفي هذا ما فيه من حيف وغبن وابتعاد عن الأمانة العلمية التي يتطلبها الخوض بأمثال هذه الأمور.

لقد بدأ اعداد الموسوعات التاريخية الكبيرة في بداية العصر العباسي، ونقلت الأخبار عن الرواة والقصاصين الذين أخذوها بدورهم ممن سبقوهم والذين عاشوا في العصر الأموي وظلت تتواتر وتتداول وربما سجل لكثير منها في كتب متفرقة.

وينبغي أن لا يغيب عن الظن أن اللمسات الأموية المتأثرة بالريشة الساحرة الموحية لمعاوية لم تكن تغيب عن الأقلام التي تناولت التاريخ الإسلامي، حتى فيما بعد. ومهما حاول الكثيرون من المؤرخين أن ينظفوا أقلامهم من مداد تلك الريشة الساحرة، فإن أثاراً عديدة ظلت على تلك الأقلام بتأثير ذلك.

إن معاوية تدخل تدخلاً مباشراً في توجيه القصاصين والمحدثين ورواة الأخبار، حيث كان يلتقي مع بعضهم بشكل مباشر، ضمن برنامجه العملي اليومي، لا ليستمع منهم فقط وإنما يوجههم كما يشاء. وكان اطلاعه اليومي المستمر على حوادث التاريخ الغريبة، ودهاؤه وقابلياته وخياله، يتيح له النجاح في هذا المضمار للتحكم في أكبر وسيلة اعلامية كانت متاحة في ذلك الوقت.. وهي حلقات القصاصين والمحدثين، وتوظيفها لتثبيت ركائز الحكم الأموي. (كان إذا صلى الفجر جلس للقاص حتى يفرغ من قصصه... وفي الليل يستمر إلى ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها، والعجم وملوكها وسياستها لرئيسها وسير ملوك الأمم وحروبها ومكايدها وسياستها لرعيتها وغير ذلك من أخبار الأمم السابقة... ثم يقوم فيقعد فيحضر دفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد فيقرأ ذلك عليه غلمان له

مرتبون وقد وكلوا بحفظها وقراءتها فتمر بسمعه كل ليلة جملة من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات)[1].

لقد استطاع معاوية من خلال عمليات مستمرة دؤوبة استمرت طيلة حكمه، أن يستفيد من أكبر التجارب البشرية المتاحة في مجال الحكم والسياسة، والتي كانت بطبيعتها جاهلية غريبة عن الإسلام، كما استطاع بما يمتلك من مقدرات فائقة في فن الحكم المبنية على تجارب وخبرات تلك الأنظمة الجاهلية الغريبة، وبما يمتلك من قدرات في الدهاء والتحمل والصبر والسكوت عن بعض الاهانات والتجاوزات على شخصه ـ وفي عملية التمهيد لخلافة يزيد من بعده وربما لأبناء يزيد بعد ذلك ـ أن يقوم بأكبر عملية غسيل للأدمغة أجريت حتى اليوم، وذلك بتوجيه أجهزة الاعلام المؤلف من جيش من المحدثين والقصاصين ورواة الأخبار وفقهاء الدولة ووعاظ السلاطين، وذلك بأسلوب مركز متناسق دؤوب يومي مستمر مركزاً في جانب من حملته الدعائية التي استهدفت. الغض من شأن علي وآل البيت عليهم السلام، على أن (الخلاف) أو المعركة قائمة حول الخلافة بين بني عبد مناف، الذين كان ينتسب إليهم هو أيضاً، مثلما ينتسب إليهم الرسول صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام أيضاً.

(محمد صلى الله عليه وآله بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف).

(علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف).

(معاوية بن أبي سفيان بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف).

فمسألة الخلاف إذاً مسألة خلاف عائلية بين بني الأعمام لا يحق لأحد غريب عنهم أن يتدخل فيها..! كما صورت من قبل بأنها مسألة تخص قريشاً وحدهم ولا حق لأحد من غير قريش التدخل فيها.

كما حاول في مرحلة أخرى تصوير (المعركة) وكأنها بين (أهل الحجاز) و (أهل الشام)، و (أهل العراق) و (أهل الشام)...

لقد كانت خطة ماكرة لابعاد جماهير المسلمين ـ الذين كانوا سيتحيزون إلى صف علي وآله عليهم السلام حتماً ـ عن الصراع الذي أثاره، لقد أراد أن يقول أن لا شأن

---

(١) مروج الذهب ومعادن الجواهر ـ علي بن الحسين المسعودي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت شرح وتقديم د. مفيد محمد قميحة ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م ج ٣ ص ٣٨.

لأي (غريب) عن العائلة بأمورها الخاصة، ولا يحق له التدخل بين أبناء الأعمام هؤلاء، فهم أهل، وما معاوية إلا ابن عم علي، والحسين ابن عم يزيد، وإن الخلافة إذا ما أصبحت بيد هذا البيت من بني عبد مناف أو ذاك، فإن هذا هو شأنهم وحدهم ينقلونها حيث شاءوا وهي أمر خاص بهم، وإن معاوية أو يزيد ربما فاقا أبا بكر وعمر نفسيهما، بنسبهما السامي هذا وربما ببعض الفضائل الأخرى (التي ركز عليها بعض المؤرخين والمحدثين)، وإذا ما أراد أحد أن ينسب فضلًا لأبي بكر وعمر دون معاوية، فما ذاك إلا لأنهما قد سبقاه في الدخول في الإسلام، ومعاوية قد دخله مؤخراً وانتهى الأمر وأصبح مسلماً، وماذا يريد الآخرون الذين قد يفكرون بالطعن فيه ـ أكثر من ذلك.. ليبايعوه كما بايعوا أولئك، خليفة وأميراً للمؤمنين.

المضحكات المبكيات.. كيف أصبح (الطليق) هادياً مهديًا!

فلنستمع إلى هذه (الأحاديث) المضحكة التي وضعت على لسان رسول الله ﷺ بخصوص معاوية، روى أكثرها ابن عساكر ـ غفر الله له ـ وذكرها أبو الفداء الحافظ ابن كثير في كتابه ـ البداية والنهاية ـ مستغرباً كيف صدرت عن ابن عساكر ولم يترو فيها عندما تحمل مسؤولية روايتها مع أن الكذب فيها واضح... (أتى جبريل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد أقرئ معاوية السلام واستوص به خيراً فإنه أمين الله على كتابه ووحيه ونعم الأمين)[1].

(إن رسول الله ﷺ استشار جبريل في استكتابه معاوية فقال: استكتبه فإنه أمين)[2].

(.. لما كان يوم أم حبيبة من النبي ﷺ دق الباب داق فقال النبي ﷺ: انظروا من هذا، قالوا: معاوية. قال: ائذنوا له، فدخل وعلى اذنه قلم يخط به، فقال: ما هذا القلم على اذنك يا معاوية؟ قال: قلم أعددته لله ولرسوله. فقال له: جزاك الله عن نبيّك خيراً. والله ما استكتبتك إلا بوحي من الله. وما أفعل من صغيرة أو كبيرة إلا بوحي من الله. كيف بك لو قمصك الله قميصاً؟ ـ يعني الخلافة ـ فقامت أم حبيبة

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير م ٤ ج ٨ ص ١٢٣ - ١٢٥.
(٢) نفس المصدر.

فجلست بين يديه وقالت: يا رسول الله وإن الله مقمصه قميصاً؟ قال: نعم، ولكن فيه هنات وهنات (أشياء) فقالت: يا رسول الله فادع له.. فقال: اللهم اهده بالهدى وجنّبه الردى واغفر له في الآخرة والأولى..)[1].

قال ابن كثير: (... وقد أورد ابن عساكر بعد هذا أحاديث كثيرة موضوعة، والعجب أنه مع حفظه واطلاعه كيف لا ينبه عليها وعلى نكارتها وضعف رجالها)[2].

كما تروى أحاديث مثل هذه عنه ﷺ بشأن معاوية:

(الأمناء ثلاثة. جبريل وأنا ومعاوية)[3].

(الأمناء سبعة: القلم واللوح وإسرافيل وميكائيل وجبرائيل وأنا ومعاوية)[4].

(اللهم علم معاوية الكتاب والحساب وقه العذاب)[5].

(اللهم اجعله هادياً مهديا واهده واهد به)[6].

(اللهم اجعله هادياً مهدياً واهد به)[7].

(اللهم علمه العلم واجعله هادياً مهدياً واهده واهد به)[8].

(اللهم علمه الكتاب ومكنه في البلاد وقه العذاب)[9].

(اللهم اجعله هادياً مهدياً واهده)[10].

حتى أن هذه الأحاديث الموضوعة المكذوبة استفزت ابن كثير، وهو لم يكن ممن يعادون معاوية ـ حتى بدت المرارة والسخرية واضحة في كلامه حين قال متهكماً (.. وقد عني ابن عساكر بهذا الحديث وأطنبَ وأطيبَ وأطرب وأجاد وأفاد وأحسن الانتقاد فرحمه الله كم له من موطن قد تبرز فيه على غيره من الحفاظ...)[11] فكأنه بذلك يبكي ابن عساكر وصدق ابن عساكر ورواية ابن عساكر، ويترحم عليها وعليه، ويترحم على الزمان الذي مات فيه الصدق وأصبح الناس لا يستحيون فيه من الكذب والافتراء.

ولنستمع إلى المزيد من الأحاديث والروايات والقصص الملفقة على لسان رسول الله ﷺ وبعض الصحابة وغيرهم أيضاً.

---

(١) - (١١) البداية والنهاية ـ ابن كثير م ٤ ج ٨ ص ١٢٣ - ١٢٥.

(عن عمر بن الخطاب: لا تذكروا معاوية إلا بخير، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللهم اهد به»)[1].

(وعنه ﷺ: أحضروه أمركم واشهدوه أمركم فإنه قوي أمين. وزاد بعضهم: وحمّلوه أمركم)[2].

(وقيل لابن عباس: هل لك في أمير المؤمنين معاوية؟ ما أوتر إلا بواحدة. قال: أصاب انه فقيه)[3].

(قال له ﷺ: يا معاوية، إن وليت أمراً فاتق الله واعدل. قال معاوية: فما زلت أظن أني سأبتلى العمل لقول النبي ﷺ حتى ابتليت)[4].

(وعن معاوية قال: صببت يوماً على رسول الله ﷺ وضوءه، فرفع رأسه إليَّ فقال: أما أنك ستلي أمر أمتي بعدي، فإذا كان كذلك فاقبل من محسنهم وتجاوز عن مسيئهم. وقال: فما زلت أرجو حتى قمت مقامي هذا..)[5].

(وقال معاوية: والله ما حملني على الخلافة إلا قول رسول الله ﷺ: إن ملكت فأحسن)[6].

وروى ابن عساكر عن عوف بن مالك الأشجعي قال: (بينما أنا راقد في كنيسة يوحنا، وهي يومئذٍ مسجد يصلى فيها، إذ انتبهت من نومي، فإذا أنا بأسد يمشي بين يدي، فوثبت إلى سلاحي، فقال الأسد: مه، إنما أرسلت إليك برسالة لتبلغها. قلت ومن أرسلك؟ قال: الله أرسلني إليك لتبلغ معاوية السلام وتعلمه أنه من أهل الجنة. فقلت له: ومن معاوية؟ قال: معاوية بن أبي سفيان..)[7].

وقال معاوية ـ الذي أسلم عام الفتح مع الطلقاء (ولولا هواي في يزيد لأبصرت رشدي)[8].

ورووا عن ابن عباس أنه قال: (كنت ألعب مع الغلمان، فإذا رسول الله ﷺ قد جاء. فقلت ما جاء إلا إلي، فاختبأت على باب، فجاءني فخطاني خطاة أو خطاتين، ثم قال: اذهب فادع لي معاوية. وكان يكتب الوحي، قال فذهبت إليه فدعوته له، فقيل: إنه يأكل. فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: إنه يأكل. فقال: اذهب فأدعه، فأتيته الثانية، فقيل: إنه يأكل فأخبرته. فقال في الثالثة: لا أشبع الله بطنه. قال: فما شبع بعدها. وقد انتفع معاوية بهذه الدعوة، دنياه وآخرته، أما في دنياه، فإنه لما صار إلى

(١) - (٨) المصدر السابق ص ١٢٠ - ١٢٦.

الشام أميراً، كان يأكل في اليوم سبع مرات. يجاء بقصعة فيها لحم كثير وبصل فيأكل منها، ويأكل في اليوم سبع أكلات بلحم، ومن الحلوى والفاكهة شيئاً كثيراً ويقول: والله ما أشبع وإنما أعيا. وهذه نعمة ومعدة يرغب فيها كل الملوك، وأما في الآخرة فقد اتبع مسلم هذا الحديث، بالحديث الذي رواه البخاري وغيره من غير وجه عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم إنما أنا بشر، فأيما عبد سببته أو جلدته أو دعوت عليه وليس لذلك أهلًا، فاجعل ذلك كفارة وقربة تقربه بها عندك يوم القيامة»... ! فركب مسلم من الحديث الأول وهذا الحديث فضيلة لمعاوية ولم يورد له غير ذلك..)[1].

من المعتدي.. رسول الله ﷺ أم معاوية!

لماذا الدعوة لالغاء عصمة الرسول ﷺ؟

كم هي مضحكة هذه المبكيات، فقد بدا رسول الله ﷺ في هذه (الأحاديث) الملفقة وكأنه يبشر الناس بمعاوية، وأنه حتى هو ﷺ نفسه ـ إذا ما تمعنا جيداً بمضمونها ـ لم يكن شيئاً أمام هذا الإنسان المختار من الله ـ سبحانه. ونستغفر الله أن ذهب بنا الأمر إلى ذلك، ولكن ليس هذا ما يريد معاوية أن يقوله للناس بالضبط، وهو بنفسه قد روى لنا بعض هذه (الأحاديث)؟ وأكمل الأخرى ابن عساكر وآخرون؟ فمعاوية هنا هو أمين الله على وحيه، وما استكتبه النبي ﷺ إلا بوحي من الله، وإنه مهدي بدعاء الرسول ومغفور له، وإنه يعادل جبريل محمداً في الأمانة، وهو نظيرهما، بل هو نظير اللوح والقلم وإسرافيل وميكائيل أيضاً، وإنه العالم الهادي المهدي، بدعاء من الرسول ﷺ أيضاً، وإنه الولي بعده وخليفته وإنه مبشر بهذه الخلافة منه ﷺ! أما هذا الأسد الذي رآه الأشجعي يبلغه السلام من الله ـ دون خلق الله جميعاً، فمن ذا يستطيع أن لا يصدق أقواله ويكذبه، وهو أسد مرسل في المنام لتحية سيد الأنام..!! أليس هذا ما يراد منا أن نفهمه..؟.

لماذا وضعت هذه (الأحاديث)؟ أليست (ردود فعل) مضحكة على الأحاديث والآيات الشريفة الواردة في فضل علي عليه السلام والمسندة عن طرق صحيحة لا غبار عليها، ولا لبس فيها ولا اختلاف بشأنها؟.

---

(١) نفس المصدر: ١٢٣.

ولمن وضعت هذه (الأحاديث)؟ هل وضعت لجيل الصحابة والتابعين الذين تتبعوا كل صغيرة وكبيرة من سيرة وأحاديث رسول الله ﷺ فوعوها ودرسوها وفهموها؟ أم وضعت لأهل المدينة الذين عاش الرسول ﷺ بين ظهرانيهم، أم لأهل مكة أهله وعشيرته؟ أم لأهل الكوفة أو البصرة وفيهم العلماء والقرّاء والمحدثون.. أم أنها وضعت لأهل الشام الذين انحازوا بجملتهم إلى معاوية وتأثروا به وأفاض عليهم من عطائه وانتجبهم اخواناً وأهلاً وعشيرة. أولئك الذين لا يميزون بين الناقة والجمل، والذين ثار بهم على علي وافتخر بهم وبجهلهم وانقيادهم وراءه دون سؤاله عن أي أمر هو فاعله؟!.

ترى، لو رويت لهم هذه (الأحاديث) والأقاصيص، مثل قصة الأسد وقصة ذهاب معاوية إلى النبي في بيته ليصب الماء على يديه الشريفتين، أما كانوا يصدقونها؟ وعندما تمضي السنون، وتتعاقب الأجيال، وتنتهي أجيال الصحابة والتابعين، وتابعيهم، وعندما (يُسجل) التاريخ وتسجل الحوادث، الا يريد معاوية لأجيال تأتي بعده بمائة عام أو مائتين، يحكم فيها أحد أحفاده أو أحفاد أحفاده، أن تؤمن بمضمون هذه الأحاديث إيمانها بالقرآن الكريم المنزل نفسه، وتؤمن (بحقوق) إلهية لآل معاوية بالخلافة! ألم يمهد معاوية الأمر لخلافة يزيد ويبذل من أجلها الكثير، مع أنه لو صح عنه ما قال: «لولا هواي في يزيد لأبصرت رشدي»، لما أصر على هذا الهوى وهو يعرف أنه هوى، ولما مهد له ليكون خليفة من بعده وليكون أحفاده من بعده وأحفاد أحفاده، ولما أرادها أن تظل أموية يزيدية، إنه يعترف أن هذه هي نقطة الضعف الوحيدة فيه وأنها غلطة العمر الكبيرة، ولكن هل يبدو في ثنايا قوله ومن مجمل تصرفاته أنه يريد أن يتخلى عن هذه الغلطة، ولا يولي يزيداً بعده؟.

إن معاوية كامل، ولكن فيه هنات وهنات!.

وإن نقطة الضعف الوحيدة فيه حبه ليزيد!.

وقد يكون معذوراً. وأنه ليحب الأكل حباً جماً، وهي نعمة من الله لأنه ملك، والأكل الوفير أمنية كل الملوك! أن يأكلوا فيعيوا من المضغ والقضم والبلع والهضم دون أن يشبعوا، وإلا فلماذا يخلق الملوك إن لم يكن لذلك؟.

ولو تتبعنا هذه النقائص، لرأينا أنها يسيرة تجاه ما نسبه إلى الرسول الكريم ﷺ من أنه بشر كسائر الناس، تعبث به النزوات فيغضب، وقد يلعن الآخرين ويضربهم

ويدعو عليهم دون وجه حق في ذلك، مع أنهم قد لا يستحقونها، وكأن من شأن الرسول الكريم ﷺ أن يكون شتاماً لعاناً طعاناً، وعلى من؟ على الذين لا يستحقون ذلك أمثال معاوية، ثم يستغفر ربه لأنه أساء إليهم بوحي من نزوات بشرية عادية تنتابه كسائر الناس العاديين، ويستدرك ذلك فيدعو لهم تعويضاً عما لحقهم من أذى على يديه الكريمتين كفارة لذنوبهم، يقربهم بها الله إليه يوم القيامة. أليس هذا ما أريد لنا أن نفهمه؟ أله معنى آخر؟ هل بلغ أعداء النبي ﷺ مناهم في أذاه، كما بلغ واضعو هذا (الحديث) المفترى وغيره من الأحاديث المكذبة والمزورة؟.

الاعلام الأموي: معاوية فاق حتى من كان قبله من (الخلفاء)

إنك لتعجب حينما يطالعك الآن من يردد هذه الأقاصيص التي رواها معاوية وأوصى برواياتها وكأنها أمر حقيقي واقع، لماذا لم يرو النبي ﷺ أمثال هذه الأحاديث بحق أبي بكر وعمر وعثمان على الأقل.. وقد كانوا خلفاء قبل معاوية..؟.

لقد وجد معاوية أمامه قطعان أهل الشام الذين (أحسنَ) تربيتهم على الجهل بالإسلام وجعلهم يرونه بمنظاره، فدفع إليهم من قام يردد أمامهم أمثال هذه الترهات والتلفيقات، كما نجد اليوم من يصدق بها وبمثيلاتها، وينكر على من يتناول هذه (الشخصية) الانتهازية المدمرة التي عبثت بالإسلام ولعبت أكبر دور تخريجي على مر العصور واستهزأت بكل قيمة ومثله، بحجة ضرورة عدم المساس بوحدة المسلمين والتعرض لالفتهم وتضامنهم، كأن آصرة هذه الوحدة ووشيجتها معاوية ويزيد وآل أمية.

أما آن لنا أن نستيقظ أخيراً لنعالج قضايانا بجد وفاعلية لنصل إلى بر الأمان بعد أن نتخلص من كل أمراضنا المزمنة القديمة؟ حتى وإن آلمتنا الحقائق لحين من الزمن. لكننا نكون قد تخلصنا من الوهم، وقضينا نهائياً على الأمراض الخبيثة التي تعيث في أذهاننا وعقولنا؟.

لقد كانت هذه (الأحاديث) وعشرات من القصص غيرها، تشكل أحد الأساليب التي اتبعها معاوية، وبث جيوش القصاصين والمحدثين ورواة الأخبار والسير، ليحتلوا أماكن بارزة في المساجد والأماكن العامة، يبثون فيها مفترياتهم وأكاذيبهم للناس الذين ما كانوا كلهم معنيين على أي حال، بتمحيص ما يسمعونه.. وهم على الأغلب قد أعلنوا انحيازهم لهذا البيت الأموي (الرفيع) الذي تعاملوا معه

وشهدوا خيره وعطاياه وكرمه. . وكان معظمهم يحسب أنه يتقرب إلى الله وإلى رسوله ﷺ إذا ما تقرب إليهم وساندهم وأطاعهم. . . !.

لندرس تاريخنا بأدواتنا ولغتنا. . حذار من الآراء الغربية

إن المسألة التي ينبغي أن نلتفت إليها هي ملاحظة أن نقوم نحن المسلمين بالتحري عن سلامة وصحة وقائع تاريخنا الإسلامي، وعرض مفرداته ووقائعه وحتى حوادثه الصغيرة، على أجيالنا بشكل منصف متزن، ولا نترك للغرباء من المستشرقين الذين لا يمتون إلى الإسلام بصلة بل هم من أعدائه، وتلامذتهم واتباعهم المبهورين بهم والمتأثرين بعلميتهم وموضوعيتهم وواقعيتهم! أن يخوضوا كيفما شاءوا في أمورنا وفي تاريخنا وحتى في خصوصياتنا، ليتلقى منهم أبناؤنا بدل أن يتلقوا منا ونلتفت إلى نقطة أخرى مهمة وهي إذا كان هؤلاء الغرباء أو بعضهم قد انحاز إلى جهة معينة، ربما نكون قد انحزنا لها نحن أيضاً، فإن ذلك ينبغي أن لا يشعرنا بالسعادة، إذ أن انحيازهم لجهة مسلمة على حساب جهة مسلمة أخرى لا يمكن أن يستهدف مصلحة الإسلام على الاطلاق؛ ولا بد أنه ـ على العكس من ذلك ـ يستهدف توسيع شقة الخلاف بين الفئات والمذاهب الإسلامية المختلفة، التي تمتلك من الأسباب والروابط التي تجمع بينها أكثر من تلك التي كانت سبباً لفرقتها واختلافها، وربما كانت مسائل (الخلاف) ليست من المسائل المهمة التي تستدعي القطيعة والبغضاء، وما عمل أولئك (الباحثين) من المستشرقين وتلامذتهم واتباعهم المغرر بهم أو السائرين وراءهم عن عمد إلا لتأكيد تلك المسائل، وتغذية نار العداوة والبغضاء من خلال عرضها بشكل مشوش مرتبك يثير كوامن الغيض وعوامل الكره.

إننا ينبغي أن لا نعتقد أن أولئك الأغراب، وجلهم من المعادين لمسيرة الإسلام يريدون (بموضوعيتهم وعلميتهم وحيادهم وواقعيتهم)! تقويم مسيرة تاريخنا الإسلامي تقويماً صحيحاً، لغرض كشف حقائقه ووقائعه هكذا فقط لوجه الله وحباً في الحقيقة والعلم، فلا بد أن وراءهم أهدافاً غير معلنة، وربما معلنة أحياناً، وهي نفس أهداف أسلافهم الصليبيين، وإن اختلفت الأساليب والوسائل والصيغ، فبينما كان هجوم أولئك الأسلاف، يتم بصورة مباشرة، حرباً دموية مدمرة على المسلمين، وحملات مضللة مسعورة لتشويه تاريخهم وشخصياتهم وفي المقدمة شخصية الرسول الكريم ﷺ بشكل فج مفضوح، يتم هذا الهجوم الآن بشكل مبطن ماكر خبيث، لا

تعلن فيه النوايا والأهداف صراحة، ويبتعد عن الأساليب المباشرة القديمة التي فات وقتها الآن، والتي لم تعد تنفع أمام وعي الناس ويقظتهم.

إن شحذ القلم هنا، ليقوم بمهمة السيف والقلم على السواء، هو الذي يحسب أعداء الإسلام أنه يسهل مهمة شن الحرب على الإسلام وتخريبه، بعد تخريب نفوس أبنائه، وهي مهمة لن يظن ذو عقل أنهم سيتخلون عنها في يوم من الأيام، خصوصاً بعد اتساع مصالحهم ومطامعهم لتمتد حتى إلى الكنوز التي لم تستثمر أو تكتشف بعد في أعماق أرضنا، والتي لا نستأهلها في نظرهم حقاً! ولا بد لهم من الحصول عليها، وترك فضلات صغيرة لنا منها، إضافة إلى مئات الأغراض الجانبية التي لم يعلنوا عنها صراحة، وتكتمها أروقة أجهزتهم السرية ودوائرهم الخاصة، ولا يعتقد أن أحداً أن هؤلاء الأعداء يتخذون أسلوباً واحداً في حربهم معنا؛ فأساليبهم أكثر من أن تعد أو تحصى.

وصحيح أنهم، عندما يستعرضون تاريخنا بأساليبهم الماكرة المضللة، المقصودة وكلماتهم وتلويحاتهم المنتقاة بعناية فائقة، فإنهم يحاولون، ـ وكأن الأمر يأتي عرضاً ـ تنفير قارئيهم المسلمين وابعادهم عن أسلافهم (صناع هذا التاريخ وشخصياته). وهذا يرتب علينا مسؤولية القيام بتمحيص هذا التاريخ بأنفسنا غير معتمدين على آراء الغرباء وأدواتهم بشكل تام ـ وحتى بشكل جزئي في بعض الأحيان. وأن نشخص العلل والأمراض والأسقام، وكل مواطن الخلل والضعف التي تلوح في ثنايا هذا التاريخ، وكل مواطن القوة والسمو والارتفاع أيضاً لنصل إلى فهم واقعي استخلصناه نحن بأنفسنا ولم نتلقَّه عن غيرنا، لنكون قد أنصفنا من عاش قبلنا من الأسلاف، وأصبح (رمزاً) وعلماً مؤثراً في حياتنا ومسيرتنا، سلباً أو إيجاباً.

مبالغات أم حقائق.. لماذا (الخجل) من ذكر الانحرافات؟

(ومما لا شك فيه أن التاريخ السياسي للمسلمين هو أسوأ ما في تاريخهم كله، فبصرف النظر عن المبالغات التي نشأت عن الخلافات المذهبية، وتلوينها لوقائع التاريخ ككتابات الشيعة عن تاريخ أهل السنة مثلًا.. فما لا شك فيه أنه قد وقعت انحرافات كبيرة في المجال السياسي عن الخط الإسلامي الأصيل، وإن هذه الانحرافات قد وقعت في وقت مبكر من تاريخ الإسلام لم يكن ينبغي أن تقع فيه. ولكن على الرغم من أن هذه الانحرافات حقيقة واقعة (مع اسقاط المبالغات

المتعمدة)، فإن الاقتصار عليها في عرض التاريخ يعطي صورة غير دقيقة لذلك التاريخ، صوره مشوهة ممسوخة..)[١].

ونتساءل: لماذا الفصل بين الجانب السياسي وجوانب الحياة الأخرى؟ مع أن هذا الجانب هو الذي يعمل على توجيه مجالات الحياة الأخرى والتأثير فيها سلباً أو ايجاباً وفقاً لتصرفات السياسيين، وهم هنا عادة (الخلفاء) و (أمراء المؤمنين) واتباعهم والمقرَّبون منهم. ولماذا هذا الحياء والخجل عند التعرض لهذه النقطة في تشخيص بداية الانحراف عن خط الإسلام..؟ ألم يكن هذا الانحراف، مع قرب عهد الناس بالإسلام، ووجود عدد كبير من الصحابة والتابعين والمعاصرين لرسول الله ﷺ بداية الانحرافات أكبر وأوسع؟ ثم: ألم يصبح (سنة) يعمل بها إلى الآن، ويتحمل وزرها من سنها؟ بغض النظر عن دوافعه الحقيقية..؟[٢].

أنتغاضى عن ذلك الانحراف الأساس، ولا نتناول أشكاله وأسبابه بشكل مستفيض، يجنبنا المزيد منه في المستقبل، وندعي ـ بعد ذلك ـ أننا ندرس التاريخ بجد وموضوعية، لنتناول الأحداث الأخرى التالية ونقطع أسبابها وصلاتها مع الأحداث الأولى التي تشكل أساساً لها؟.. ألا يكون العمل مبتوراً وناقصاً ومقطوعاً عن سببه الأول؟ لماذا لا نشخص البدايات الأولى لهذا الانحراف، ونحدد زواياه ودرجاته التي اتخذها على امتداد السنين؟.

ولماذا لا نقول صراحة أن الأمويين هم أول من تجرأ على اعلان هذا الانحراف؟.

ولماذا لا نشخص الكيفية التي قاموا بها لتوظيف كل الامكانات والقدرات التي أتيحت لهم ـ وهي امكانات وقدرات هائلة ـ لضمان مصالحهم وتثبيت دعائم ملكهم على أسس (سياسية) بحتة بعيدة عن الإسلام وعن (قيوده وقواعده والتزاماته)؟.

ترى لو وقع ذلك الانحراف في عهد الإمام علي بن أبي طالب أو من أحد عماله أو منه أو من أحد من آل الرسول ﷺ ـ وحاشاهم ذلك ـ أكان ذلك (الحياء

---

(١) كيف نكتب التاريخ ص ١٣.

(٢) وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام بهذا الخصوص (ما أحدثت بِدعة إلا ترك بها سُنّة فاتقوا البدع والزموا المهيع. إن عوازم الأمور أفضلها وإن محدثاتها شرارها) نهج البلاغة ٣١٥.

والخجل) من التطرق إلى هذه النقطة بوضوح سيظل نفسه؟ أم أن الحمية ستتصاعد في رؤوس البعض للدعوة إلى كشف المنحرفين وفضحهم، وتشخيص جوانب انحرافهم وعدم ترك صغيرة أو كبيرة منه دون اعلانها على رؤوس الأشهاد والوقوف من المسألة كلها موقفاً حاسماً ليس الآن وحسب، وإنما منذ زمنٍ بعيد. .؟!!.

لن يتم التقارب إلا على أساس الحقائق

إن وصف كل دعوة للتقارب وتوضيح الأمور على أساس من الحقيقة ومعرفة الأسباب والظروف القائمة وراء الأحداث بأنها إما من بنات أفكار المستشرقين أو الشيعة الحاقدين ولا شك أمر يدعو للعجب حقاً، فمن هم هؤلاء الشيعة الذين لا يريدون التقارب أساساً والذين يحقدون على بقية المسلمين، ومن أي مذهب؟ هذا أمر لم يتضح إلى الآن ويحتاج إلى مزيد من البيان.

ولماذا نجعل الأمر أمر خلاف أبدي بين فريقين من المسلمين، أهل الشيعة وأهل السنة فقط، وهل أهل الشيعة (ومن ضم إليهم) أهل مذهب واحد؟ وهل أهل السنة أهل مذهب واحد أيضاً؟ ألا يحتمل أن يندس بين هؤلاء وهؤلاء أناس غرباء عن الطرفين وعن الإسلام كله؟ وعندما تم هذا التصنيف إلى من أضفنا معاوية؟ هل إلى أهل السنة! هكذا، لأنه لم يكن من أهل الشيعة؟ أم أن له يا ترى شأناً آخر؟ هل معاوية كأبي بكر أو عمر؟ هل يستطيع أحد أن يقول أنه كان معهم على خط واحد؟.

إن مسألة الشيعة هذه ينبغي النظر إليها مجدداً، وتشخيص من هم الشيعة أولاً، أي الذين يشكلون ثقلًا كبيراً ونسبة كبيرة من هذه الفئة الإسلامية، هل هم كل الذين ادعوا الولاء لهذا أو لذاك من سلالة آل البيت عليهم السلام، أم هم من تبنوا الموقف الإمامي الجعفري الاثني عشري، أم هم من ألصقوا ظلماً وزوراً وألحقوا بالشيعة أو ألحقوا الشيعة بهم كعبد الله ابن سبأ، تلك الشخصية الخيالية الخرافية مثلًا؟ (والتاريخ أمانة، وشهادة تؤدي الله، لا يؤثر على أدائها حب أو كره ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[1] ولنفترض جدلًا أن ما نسب إلى المنحرفين في المجال السياسي صحيح. . . ولم تدخل فيه المبالغات الناشئة عن

(١) المائدة: ٨.

الصدامات الحزبية والمذهبية التي يشنع فيها كل فريق على خصمه بما يشاء، ولا المبالغات الروائية التي جعلت من هارون الرشيد، الذي كان يحج عاماً ويغزو عاماً ـ بطلًا من أبطال ألف ليلة وليلة... فخلاصة الأمر أن نسلم جدلًا أن التاريخ السياسي للمسلمين كان خطأً أسود! وليكن كذلك، ولكنه خط أسود في صفحة يغلب عليها البياض! فإذا أنت غطيت على بياض الصفحة كله، وأبرزت الخط الأسود وحده، أتكون قد قلت الحقيقة؟ أتكون قد أعطيت صورة صحيحة لهذا التاريخ؟)[1].

إنه لأمر يثير الدهشة أن يصدر هذا الرأي عن كاتب إسلامي قدير، يرى ويدعو دائماً لتحكيم الإسلام في كل أمور الحياة، ويرى أن قيادته لها تمتلك كل مقومات التكامل والقوة. وإن علينا أن لا نهمل أي جانب من رسالة الإسلام مهما بدا للبعض بسيطاً أو قليل الأهمية، عجيب أن يصدر هذا الرأي المخالف عن كاتب يتبنى أمور الإسلام ويتحمس لها ويدعو للأخذ بها ـ في كل كتبه ومحاضراته ـ وهو رأي غريب مخالف للإسلام ونظريته في الحكم والحياة يحمل نفس التصور والعقلية التي يحملها الكتاب الغريبون عن الإسلام، بل الرافضون له، والذين يرون في فصل الدين عن السياسة وعن أمور الدولة كلها، هو الاجراء الأصوب والصحيح للحفاظ على الدين والدولة كليهما! وهذا ما تتبناه كل المناهج الغربية المسيحية (وكاتبنا هو من أهم الذين لفتوا نظرنا إلى هذه الحقائق).

مصلحة الأمة... بين (طبيعة الملك) وطبيعة (الاستخلاف الإلهي)

وإذ أنهم قد نجحوا بابعاد (دينهم) المحرف أصلًا، عن مسائل الحياة والدولة، وأرادوا إبعاد ديننا الحق ـ بنفس الحجج والأساليب التي تذرعوا بها ولجأوا إليها لابعاد دينهم ـ الذي جرد من كل محتوى عملي وأصبح لا يصلح لقيادة الحياة فعلًا. فإن على أبسطنا وأقلنا معرفة أن ينتبه لذلك، ويعرف أننا إذا ما أقدمنا على محاولة وضع ديننا على الرفوف ليكون مجرد طقوس وشعائر، وابعدناه عن حياتنا وواقعنا، فنكون قد خرجنا عن هذا الدين أصلًا.

إن (السياسة) ينبغي أن لا تفهم من قبلنا، كما فهمها غيرنا، بأنها من الحيلة والخداع والغدر والمماطلة، قد تكون السياسة فن استشراف المستقبل وقراءته، على

(١) كيف نكتب التاريخ ص ١٤.

ضوء الأحداث الراهنة والخبرات السابقة، وقد تكون حسن النظر والتدبر بأمور الناس من قبل ولاتهم وحكامهم. أما أن تعني الحيلة والخداع والغدر والكذب، فهذه أمور تؤهلها المسميات أخرى. ومن التجني على ديننا أن ننسب إليه مثل هذه الأمور أو نلصق به بعضها بحجة الضرورات السياسية، فهو دين مستقيم قوي ليس بحاجة إلى أي لون من المناورات الباطلة أو الكذب أو الغش والمكر.

كيف يمكن أن نفسّر عدم قبولنا انحرافاً بسيطاً من إنسان عادي بسيط ينتسب للإسلام، مع أنه قد لا يتحمل أية مسؤولية (سياسية) أو قيادية في الدولة أو المجتمع، ولا نسكت عنه ونتبهه ـ إلى حد التقريع ـ إنْ أخطأ أو انحرف، ونسكت عن (خليفة المسلمين) و (أمير المؤمنين) ونقول عنه: إن كل خطئه أنه انحرف في المجال السياسي وحده لا غير، وكان غرضه من ذلك تثبيت عرشه، وربما كان لا يريد إلا تحقيق مصالح المسلمين! أما في بقية الأمور، فهو مثل الآخرين، ومثلنا نحن الآن، الذين تشابكت علينا المفاهيم وتشابهت ولم نعد نرى الإسلام في أذهاننا وقلوبنا إلا من خلال نظرات حكامنا، وإلا من خلال الغبش والضباب والغبار المتصاعد والمثار من قبل أولئك (المشوشين) الذين يحاولون دائماً أن يفلسفوا ويبرروا سلوك من بدأوا الانحراف عن الإسلام، وفي مقدمتهم السلالة الأموية على امتداد تاريخها، ومن تبعها وتشبه بها، ورأى في سلوكها (السياسي) وغيره، الخط (الشرعي) الصحيح، الذي ينبغي عليهم السير وفقه، طالما أن جمهرة كبير من علماء المسلمين وكتابهم ومفكريهم قد ارتضته وقبلت به وبررته بمختلف الذرائع والحجج المفتعلة[1].

ولا يزال بيننا لحد الآن من يرى أن الدولة النموذجية المثالية هي التي أقامها آل أمية في الشام ومنذ بداية عهد معاوية، ولا يزال يوجد من يحاول أن يتشبه بهم ويسير على نفس خطاهم، معتمداً نفس الأسس والمبررات التي أقيمت عليها تلك الدولة

---

(١) فهذا ابن خلدون يحذر من الظن بمعاوية أنه عرف من أمر يزيد ما عرف ثم ولاه (.. فإياك أن تظن بمعاوية رضي الله عنه أنه علم ذلك من يزيد، فإنه أعدل من ذلك وأفضل، بل كان يعذله أيام حياته في سماع الغناء وينهاه عنه. .) مع أن ابن خلدون يعترف. . . (. . وأما أن يكون القصد بالعهد حفظ التراث على الأبناء فليس من المقاصد الدينية إذ هو أمر من الله يخص به من يشاء من عباده ينبغي أن تحسَّن فيه النية ما أمكن خوفاً من العبث بالمناصب الدينية والملك لله يؤتيه من يشاء). مقدمة ابن خلدون ص ٢٣٤.

ونفس السياسات والأساليب المتعسفة التي لجأ إليها معاوية ويزيد وعبد الملك والرشيد وغيرهم لتثبيت الملك. (اقتضت طبيعة الملك الانفراد بالمجد واستئثار الواحد به ولم يكن لمعاوية أن يدفع عن نفسه وقومه فهو أمر طبيعي ساقته العصبية بطبيعتها واستشعرته بنو أمية)[1]. ولا شك أنهم لا يزالون يجدون بيننا من يضفون شرعية تاريخية ودينية على تصرفاتهم ويسكتون عن بعض انحرافاتهم السياسية! كما زعموها، كما سكتوا عن بعض الانحرافات السياسية لأولئك الذين سبقوا، معللين بأن الغرض من ذلك هو المحافظة على وحدة المسلمين ومنع المرج، إلى غير ذلك من المبررات.

ولا شك أن هؤلاء الحكام يجدون في هؤلاء المنظرين المتساهلين الهيّنين الليّنين على مر العصور، سنداً وصوتاً اعلامياً مؤثراً، يُسكت كل صوت آخر يدعو إلى كلمة الحق واتباعها. فلا عجب أن نرى تلك الازدواجية الكبيرة التي تطبع تصرفات وأقوال بعض الكتاب الإسلاميين (والعجيب في الأمر أنهم واعون بشكل مدهش)، أمثال كاتبنا الكبير (محمد قطب)، الذين يدعون إلى تحكيم الدين في الحياة، وهو ما تكشف عنه مؤلفاتهم، ثم هم يسكتون سكوتاً مقصوداً فاضحاً عن أهم الانحرافات التي حدثت وتحدث مثيلاتها الآن عبر مسيرة التاريخ الإسلامي، مبررين سكوتهم وتسامحهم بأن الانحراف لم يحدث إلا في الجانب السياسي لا غير، وكأن هذا الجانب هو الوحيد الذي يستطاع الخروج فيه عن أحكام الإسلام وقيمه ومناهجه.

الانحراف في الجانب السياسي.. هل كان مقطوعاً عن المنهج العام للانحراف؟

إننا ينبغي أن لا نخاف أو نخجل إلى هذه الدرجة الكبيرة، ونحن نستعرض (أخطاءنا) و (هفواتنا) على مر التاريخ، إننا إذا ما استعرضناها، ودرسنا الأسباب الكامنة وراءها، أصبح بمقدورنا التوصل إلى علاج الحالات الراهنة المشابهة لتلك الأولى التي أصبحت بنظر الكثيرين ـ لأن ذلك في صالحهم ـ (سنة) طبيعية (شرعية) مقبولة، طالما أنها صدرت عن (خلفاء) (شرعيين) مقبولين من جماهير المسلمين..!! وقد اعتدنا ذلك وتطبعنا عليه حتى حسبناه أمراً طبيعياً، وحتى أن صورته (تحجرت) في أذهاننا وبدت أنها الصورة الطبيعية الوحيدة المقبولة.

---

(١) المصدر السابق ص ٢٢٧.

إن أعداء الإسلام، عندما ركزوا على (تجريد التاريخ الإسلامي من محتواه الشامل، وحصره في النزاعات السياسية)[1] وجدوا في هذه (النزاعات) مادة خصبة، إذ وجدوا أن اهتمامنا نحن بتلك النزاعات القديمة يتصاعد وينمو، كأننا نعيش الآن في غمرة تلك النزاعات، وأننا ننحاز بشكل متعصب إلى هذا الطرف أو ذاك، مع أن أولئك الأوائل، أو أَن قسماً منهم قد عالجوا خلافاتهم بالطرق المناسبة التي رأوها، وبقينا نحن، كأننا ورثتهم المباشرون والقيمون عليهم، نبدي حرصنا عليهم وعلى الدين أكثر من (حرص) أولئك المتنافسين الأولين..!!.

لقد وجد أعداؤنا من المستشرقين وغيرهم، اهتمامنا بمواضيع الخلاف هذه كبيراً، فعملوا على أن يكون أكبر، ووجدوا اختلافنا بمسائل الرأي والنظر كبيراً أيضاً، فحاولوا أن لا يجعلوا منه مجرد اختلاف في الرأي، بل خصومة وتناحر وعداوة مستمرة.

وأحرى بنا أن نتنبه ـ نحن ـ إلى ذلك، ولا نترك الأمر لهؤلاء الأعداء الغرباء وتابعيهم الحائرين، لكي ينبهونا على طريقتهم الخاصة، تلك الطريقة الماكرة الخبيثة الموظفة لتحقيق مصالحهم على المديين القريب والبعيد على السواء.

إن الخطر لا يكمن في تقسيم التاريخ الإسلامي بحسب الأسر الحاكمة؛ ولم يأتنا عندما قمنا بكتابة التاريخ، كما يقول الأستاذ محمد قطب في كتابه القيم[2]، بل أن سببه هم (صانعو التاريخ) أنفسهم، الذين أرادوا لأسرهم أن تظل هي الأسر الحاكمة من بعدهم، فلا ينقطع مجدهم وعزهم الذي بنوه بمجرد موتهم. ويجب أن نحدد: لماذا يتسامح معظم المؤرخين في عرض بعض الأمور، بالشكل الصحيح الذي تمليه عليهم طبيعة الوقائع والحقائق؟ هل سبب هذه التغطية على الانحرافات التي وقعت هو الميول المسبقة إلى جانب بعض فئات هؤلاء الحكام؟ هل هو بحجة الحفاظ على وحدة المسلمين ولعدم افساح المجال لمزيد من الخلافات بينهم؟ (وكيف بهم إذا نشبت هذه الخلافات فيما بعد لنفس الأسباب التي يسكتون عنها الآن؟) هل هو لاسترضاء فئات معينة لا ترى في عمل أولئك السابقين أي خطأ أو انحراف..؟ والذين ربما ينهجون نهجهم ويتجاوزون بانحرافهم انحراف أولئك

(١) كيف نكتب التاريخ ص ١٥.

(٢) المصدر السابق ص ١٦.

السابقين..؟ وإلا ألم يكن الحكم في مراحل كثيرة من العصور الإسلامية، حكم بيوتات وعوائل فعلًا، كرس فيه الآباء الحكم لأبنائهم من بعدهم ولأحفادهم وعوائلهم...؟ لماذا لا نتحدث بشكل واضح صريح ونخشى من كشف كل الحقائق ووضع كل النقاط على كل الحروف؟ هل ـ فقط ـ لكي لا يشمت الأعداء بنا، ويسلطوا الأضواء على أخطائنا ويجسموا ويعظموا هذه الأخطاء فيما بعد؟ لو استعرضنا نحن بأنفسنا ـ ودون معونة من أحد ـ تلك الأخطاء، ألا نكون أول المستفيدين، إذا ما شخصنا أسبابها ونتائجها وعملنا على دراستها وتمحيصها وغربلتها بجد وعناية؟ لماذا نجعل أول شيء نفكر فيه هو شماتة الأعداء والحساد.. مع أن هؤلاء أخذوا يشمتون بنا منذ زمن بعيد..؟ لماذا لا نقطع ألسنتهم بتشخيص عللنا وأمراضنا ونعالجها بأنفسنا ونجد لدينا القدرة والشجاعة ما يمكننا من مواجهتها وتحديثها والتغلب عليها؟.

غسيل قذر.. ولكن لاحياء في الدين

إننا ينبغي أن لا نخشى من نشر غسيلنا القذر أمام أنظار العالم مخافة نظراتهم المستهزئة وابتساماتهم الخبيثة.. إذ، ما جدوى أن نخفي ذلك ونحن نتحمل مسؤولية دعوة عالمية إلى الله، وهو دعوة الإسلام الشامخة القوية المتحدية، التي تتعامل مع الإنسان كوحدة متكاملة، بكل ما فيه من عوامل القوة والضعف والاستقامة والانحراف، وتدعوه لتقويم كل ما فيه من عوامل هذا الانحراف وضعف على طريق الاستقامة التي يريدها الله لهذا الإنسان؟ وتحاول انتشاله دائماً من كل عوامل الخمول والتأخر والانحدار، على أساس مبادئه وقيمه المعروضة المعلنة في كتاب الله والسنة الكريمة المشرفة.

لقد أصبحت شرائح كبيرة من المسلمين على درجة كبيرة من الوعي والمعرفة وسعة الاطلاع، لكي ندرك أن الذنب لم يكن ذنب الإسلام ـ وأن الضعف لم يكن كامناً فيه ـ عندما لم يحكم، وعندما تخلى عنه (قادة المسلمين) من (خلفاء) و (أمراء للمؤمنين) في وقت مبكر، ولم يحكموه في حياتهم بشكل تام، غير مبتور ولا ناقص، وفصلوا الكثير من أموره وحلقاته عن أمور هذه الحياة.

وإذا لم تقم حكومة إسلامية على غرار الحكومة الإسلامية الأولى التي أقامها الرسول الكريم ﷺ، واستمرت لفترة قصيرة بعده، فإننا ينبغي أن نعرف السبب

الحقيقي لذلك ونستشفه من خلال سطور التاريخ وحوادثه المتعددة الكثيرة، وربط هذه الحوادث مع بعضها ومع مسبباتها، وعلينا أن لا نهمل هذه الأسباب، مهما بدت لنا بسيطة وعادية، إذا ما أردنا أن نصل إلى أجوبة شافية لهذه (الأحجيات) التي أبدت لنا الإسلام وكأنه غير قادر على حكم الحياة، ولا يتطابق مع (واقعيتها ومتغيراتها) ولا يمكن أن يتعايش معها. . ! وقد يرى بعضنا أن الإسلام لا يستطيع ذلك إلا إذا تنازل عن بعض قيمه العليا في ظل دولة (تتساهل) ببعض الجوانب مثل الدولة الأموية أو العباسية. وإلا فإن الإسلام بما فيه من (المحافظة) و (الانغلاق) (والتحجر!)، لا يمكن أن يتعايش مع الحياة دون هذا التساهل، وسيظل نمطاً أفلاطونياً لا يعيش إلا في الخيال.

وسنرى على ضوء تتبعنا لوقائع التاريخ، أية حروب شرسة عنيفة شنت عليه منذ البداية لابعاده عن الحياة أو التحكم فيها ولجعله يعيش عى هامشها. وبدون تتبع هذه الوقائع والأحداث بدقة، فإننا سنظل نخبط خبط عشواء ـ كما يقول أسلافنا العرب، إذا ما حاولنا اهمال بعض حلقات التاريخ الإسلامي أو حوادثه (الصغيرة)، وأهملنا التركيز على (شخوصه المهمة) التي كان لها أثر بعيد في اتخاذ الأحداث مجراها الذي اتخذته فيما بعد.

إن التاريخ الإسلامي كان ينبغي أن يكون تاريخ الشعوب الإسلامية لا الخلفاء والملوك وحسب، وكان ينبغي أن يكون تاريخ الإسلام نفسه، هذا الإسلام الذي أرسل للناس كافة ليسود ويحكم، لا ليقبع في بطون الصحف، ويبرز أمامنا شعائر وممارسات (تعبدية طقوسية) مجردة لا صلة لها بالحياة، والحديث عن (أمة إسلامية) هنا وفي ظل حكام كهؤلاء، ليس سوى مغالطة كبيرة، عندما لا ترى هذه الأمة من الإسلام إلا اسمه وعنوانه وشعاراته الظاهرية فقط التي لا تمس بسيادة الحاكمين أو نفوذهم أو سلطتهم.

مغالطات ما هكذا تورد يا سعدُ الابل...

ولنستمع إلى كاتبنا الكبير محمد قطب (إن أبرز ما يميز هذه الأمة أنها هي «الأمة الإسلامية» وأبرز ما يجب أن يميز تاريخها، إنه «تاريخ الأمة الإسلامية». إنه بأمجاده وانتكاساته، بارتفاعاته وانخفاضاته، بقممه ووهداته، بمده وجزره،

بمكامن القوة فيه ومواضع الضعف، هو تاريخ هذه الأمة بالذات وليس أي تاريخ لأي بشر على الأرض»[1].

لقد كان ينبغي أن يكون هذا التاريخ، هو التاريخ القمة، التاريخ النموذج وكان ينبغي أن تكون هذه الأمة (ذات وضع معين في التاريخ)[2] كما يقول كاتبنا الكبير، إذا ما حمل (صانعوه) الرسالة الخاتمة حقاً، وإذا ما حملت هذه الأمة هذه الرسالة وأخذت بها، وأخذت على عاتقها نشرها واعلاء شأنها، وإلا فإنها ستظل مجرد أمة من أمم الأرض، تحفل بكل عوامل القوة والضعف كما حفلت تلك الأمم، وكان تاريخها تاريخ سائر البشر الآخرين على الأرض.. وقد تخلت عن جزء كبير من رسالتها لأنها ـ ونحتج بكلام الكاتب نفسه (أمة الرسالة الخاتمة، التي حملت رسالة الرسول الخاتم ﷺ الذي أرسل إلى البشرية كافة، وإلى قيام الساعة، وهي بهذه الصفة خير أمة أخرجت للناس)[3] ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[4]. ولكن خيريتها ليست ذاتية ولا عرقية ولا قومية)[5] ولا يزال الكلام هنا للكاتب نفسه (إنما هي خيرية مستمدة من الرسالة التي أخرجت من أجلها ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[6] ومن ثم تتحقق لها صفة الخيرية طالما كانت قائمة برسالتها، وتزول الصفة عنها كلما فرطت في أداء الرسالة)[7].

كيف نفرط بالأساس وندّعي الحرص على سلامة البناء

وكيف تقوم هذه الأمة بالرسالة، وقد فرطت باحد أهم أركانها العملية الحياتية وقدمت صورة مشوهة لخليفة رسول الله ﷺ الذي كان ينبغي أن يحكم باسم الإسلام لا باسمه ووفق هواه...؟ وكيف تحكم وقد أراد لها الإسلام أن تتمثل خلال (قوة حاكمة)، كسلطة مخولة ومؤهلة لحمل رسالته تمتلك كل قابليات الفهم والاستدلال

(١) نفس المصدر ص ١٦.
(٢) نفس المصدر ص ١٦.
(٣) نفس المصدر ص ١٦.
(٤) آل عمران: ١١٠.
(٥) كيف نكتب التاريخ ص ١٧.
(٦) آل عمران: ١١٠.
(٧) كيف نكتب التاريخ ص ١٧.

والنظر والحكم والتوجيه، سلطة خلاقة لا ترى أمامها إلا الإسلام، وتطبيق شريعته، كما نزل بها القرآن الكريم وطبقها الرسول الكريم ﷺ.

إن استبعاد (النموذج) المعد والمؤهل لتطبيق رسالة (الإسلام حقاً وصدقاً وعلى الوجه الأكمل ونشرها في تخوم الأرض، واستبداله بنموذج عادي غير مؤهل لتنظيم حياته وشؤونه الخاصة، هو أول شرخ كبير في جدار الإسلام، وهو أول انحراف بدأ بهذه الخطوة (السياسية)، ثم بدأت بعده بقية الانحرافات. . وإلا، فإن الحديث عبث عن خير أمة أخرجت للناس وهي لا تؤدي مهمتها، ولا تأمر بالمعروف ولا تنهى عن المنكر، وتتساهل بأكثر أمور الدين علاقة وقرباً من الحياة الواقعية العملية لعموم المسلمين.

ولا يتحرجن أحد من القول: أن هذه الأمة قد أجبرت على التخلي عن رسالتها، عندما سلمت زمام الأمور من (استلبوها) منها ومن أصحابها الشرعيين، واستسلمت لمعاوية ولمن جاء بعده، وإلى يومنا هذا، واستكانت وخضعت ونامت كأنَّ ما جرى لها كان قدراً محتوماً لا قدرة لها على تغييره، ولم تشهد إلا ثورات وانتفاضات قليلة يتيمة بوجه السلطات (الإسلامية الحاكمة) لا تتناسب وعدد السنين التي عاشتها في (ظلها). وقد لا يكون أسباب العديد منها، مجرد الانتصار لدين الله الحق، وقد يكون الدافع لبعضها الشعور بالظلم الفادح الذي ألحقه هؤلاء الحكام، مما لم يمكن تحمله وإلا: ألم يعرض علينا التاريخ الإسلامي، على أنه تاريخ النزاعات والحروب في سبيل السلطة والتوسع؟ فكيف بدا لنا المتنازعون على هذه السلطة. .؟ وما هي حججهم لهذا النزاع. .؟ لقد أرادوا أن يرونا أنفسهم وكأنهم لا يريدون إلا الانتصار للإسلام ونشر رسالته رغم أعدائه، الذين هم أعداؤهم بالطبع، وإن حربهم مع أولئك (الأعداء) إنما هي من أجل ذلك الهدف السامي!.

لا خوف من الحقيقة وإن شمت منا الأعداء

إن تاريخنا معروض في (فاترينات) ورفوف المكتبات، ومن شاء أن يطلع عليه فله ذلك، وليس علينا نحن أن نخشى من هذا الأمر، وليس علينا أن نخاف ممن يريد تشويه الحقائق وتزويرها، بل إن خوفنا يجب أن يكون من بقائنا نائمين متكاسلين، فلا نتعامل مع هذا التاريخ ووقائعه واحداثه بعيون مفتوحة وأذهان يقظة، كما يفعل أعداؤنا اليقظون الجادون الذين يتصيدون الهنات والأخطاء فيجسموها ويبدوها على

أنها السمة المميزة لنا نحن المسلمين، وإنما ينبغي أن نتناول نحن هذه الحوادث ـ مهما كانت طبيعتها، لنبحث في عوامل الخلل التي أدت إلى أن تتخذ المجرى الذي اتخذته، ونتجاوز كل عوامل الضعف والخمول واللامبالاة ونشخصها بأنفسنا ونعالج نتائجها السلبية بأنفسنا أيضاً، ولا نخجلنَّ من ذلك، فتاريخ أعدائنا أسود ملطخ، وحسبهم أن يعالجوا أخطاءهم الفادحة قبل التطرق إلى أخطائنا التي لا ننكر أن الكثير منها فادح أيضاً.

إن خوفنا من أولئك الأعداء، ينبغي أن لا يغلف كل نظرتنا للأمور، ولا ينبغي أن تطبع كل تصرفاتنا ردود فعل عصبية تتحكم فيها عقدة الخوف أو الخشية من أولئك الأعداء وشماتتهم المحتملة، فليشمتوا ما شاءت لهم الشماتة، وماذا يضرنا من شماتتهم تلك، أليست هذه عقدة عربية أو بشرية قديمة: وتجلدي للشامتين أريهم أني لخطب الدهر لا أتضعضع، كما قال معاوية قبيل موته، لقد تجلد قليلًا ثم مات، وقد ضحك الشامتون ثم ماتوا بدورهم ولو بعد حين.

(... وتاريخها هو هذا: امجادها، وارتفاعاتها وقممها وقوتها، هي التي تكون فيها مؤدية لرسالتها، وبالقدر الذي تكون فيه مؤدية لرسالتها، وبالقدر الذي تكون فيه مؤدية للرسالة، وانتكاساتها وانخفاضاتها ووهداتها وفترات ضعفها، هي التي تكون فيها ناكلة عن رسالتها، وبالقدر الذي تكون فيه ناكلة عن الرسالة)(١).

هذا ما أكد عليه كاتبنا الكبير، وأؤكد عليه هنا، لأنه نموذج لكتاب عديدين من الكتاب الإسلاميين الذين يتساهلون في بعض الأمور رغم فطنتهم وادراكهم وحساسيتهم الفائقة للعديد من الأمور.

إن الأحكام والأقوال العمومية التي وردت في الكتاب مثل (إن تاريخ الأمة هو هذا، أمجادها، ارتفاعها وقممها وقوتها، هي التي تكون فيها مؤدية لرسالتها) متى كان ذلك..؟ في الصدر الأول للإسلام، وهذا ما يتفق فيه المؤلف معنا.. ومتى نكلت عن الرسالة؟ وما المؤشرات على ذلك؟ المؤشرات. على حد تعبير الكاتب ـ انتكاساتها وانخفاضاتها ووهدتها وفترات ضعفها.

ومتى حدث أن كانت الأمة الإسلامية أمة إسلامية حقاً قوية متلاحمة؟ ومتى

(١) المصدر السابق ص ١٣.

حدث إن كانت ضعيفة؟ رغم مظاهر القوة التي نتحدث عنها باستمرار ونتفاخر بها على الدوام؟.

الخوف الحقيقي من كل منافق الجنان عالم اللسان

إننا لا نختلف على أنها وصلت القمة في العصر الإسلامي الأول لاحتفاظها بزخم الإيمان العالي الذي وضعه لها وزودها به القرآن الكريم والرسول العظيم ﷺ وعدم قدرة أي شخص أو فئة للخروج السافر العلني لقربه من عهد الرسول الكريم ﷺ ووضوحه لدى المسلمين وعدم غياب التصور الإسلامي الواضح الذي رسمه رسول الله ﷺ، ثم إنَّ الانحدار والضعف (رغم القوة الظاهرية للدولة)، برز حينما طمع أناس بخلافة رسول الله ﷺ لإمامة المسلمين وقيادتهم، وما كان لهم إلا أن يكونوا الأخيرين الذين يدلون بدلوهم في هذا المضمار ويتقدّمون إلى هذا الميدان لاحتلال المنصب الخطير، لأنهم يفتقرون إلى أقل المؤهلات التي تمكنهم من القيام بواجباته وأدائها وإدارتها ولو بالقدر الذي أداه به الخليفتان الأولان بعد رسول الله ﷺ، وهذا ما رأينا أنه يطلب من كل من يتقدم إلى منصب الخلافة (أن يحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وسيرة الشيخين أبي بكر وعمر).

هل كان يكفي المسلمين أن تفتح لهم الفتوح والبلدان وتتوسع (ممالكهم) لنقول عن (الخليفة) الذي فتح الفتوح ووسع البلدان أنه قد أدى مهمته حق أدائها؟ ونروح نتساءل: ماذا يريد المسلمون منه أكثر من ذلك؟

فهذا الخليفة يحج عاماً ويفتح البلدان عاماً آخر، ولا يهم الباقي، ويتعجب الكاتب وغيره إذا ما راح آخرون يتناولون كل الجوانب الأخرى لحكم وحياة هذا الخليفة، ويشتد عجبه حينما ينتقدون جوانب هذه الحياة، ويرى في ذلك جرأة على الإسلام نفسه وانتقاصاً منه.

كل مظاهر القوة التي يتحدث عنها الكاتب وعديدون غيره من الكتاب الإسلاميين تتمثل بتوسع الفتوحات (التوسع الأفقي إذا جاز التعبير) واهمال البنية العمودية الأساسية ـ وهي الإسلام نفسه ـ وكذلك بمظاهر القوة والعظمة التي يحيط بها الحكام أنفسهم.

ألا يجوز أن يفسر التوسع في الفتوح بأنه محاولة للتوسع في الملك، والحصول على الغنائم الذي يذهب معظمها إلى جيب الخليفة نفسه وجيوب أعوانه وأصحابه؟

ـ كما فسر ذلك بالفعل، وإن الخليفة (الفاتح) يفتح عالماً ساقطاً متهاوياً ومنهزماً من الأساس، ويقيم دولة على أعقاب دول وحضارات قد استهلكت وانتهى دورها من خارطة الممالك والدول القوية؟ ولماذا ننزعج من أعدائنا، حينما يطرحون تصوراتهم في هذا الاتجاه، ونروح ننحاز إلى جانب الخليفة المسلم، ونتعصب له إذ أنه أهون وأفضل! من العدو الخارجي المبين، صريح العداوة، ولا نرى أنه الذي يقوم بتخريب الدين من الداخل وهو من (أهله) وإن عمله هذا لا يقل بشاعة عن عمل المخرب الخارجي الذي يعلن عداوته ويسن أضراسه ويشهر سيفه وحقده؟ مع أننا قد نستعد للعدو الخارجي بما يلزم من السلاح، ويفوتنا أن نستعد لعدونا المتستر المتخفي وهو منا وبين ظهرانينا، وحسبنا أن نستذكر هنا قول رسول الله ﷺ للإمام علي عليه السلام: (إني لا أخاف على أمتي مؤمناً ولا مشركاً. أما المؤمن فيمنعه الله بإيمانه، وأما المشرك فيقمعه الله بشركه، ولكني أخاف عليكم كل منافق الجنان، عالم اللسان، يقول ما تعرفون ويفعل ما تنكرون)[1] ونعلم أن هذا العدو المتستر بالإسلام، والذي يبطن غير ما يظهر، وينافق ويداور ويحاور ويجادل ويحارب في سبيل غاياته وأطماعه وأغراضه خاصة، هو أخطر من كل أعداء الأمة الصريحين المكشوفين.

إن تاريخ الأمة لا يمكن أن يدرس بمعزل عن تاريخ (قادتها وزعمائها)، بل إن منحنيات هذا التاريخ ومساراته وخطوطه لا بد أن تتأثر أكبر التأثر ـ سلباً أو ايجاباً ـ بهؤلاء القادة والزعماء، ومستوياتهم وأمزجتهم، بل وحتى نزواتهم وأهوائهم ورغباتهم الشخصية.

والأمة الإسلامية كغيرها من الأمم، لم تكن مجرد كتلة هلامية ضبابية غير واضحة الشكل، لا تعرف أسس وجودها ومقوماتها، وإنما هي ـ كما تعرّف هويتها ـ تلك الجموع التي تلتف حول الإسلام، أو التي ينبغي أن تفعل ذلك وتجعل منه أساس وجودها وتحركاتها وفعالياتها. فهي الأمة التي تعيش بالإسلام وتنظر بمنظار الإسلام.

إن الاصرة التي أضعفت، بل محت الأواصر القومية والجذور العرقية والنزعات القبلية والعشائرية، وجعلت هذه الجموع تبدو كأمة إسلامية واحدة لا كأمة عربية أو فارسية أو هندية أو غيرها، ينبغي أن تبرز بشكل واضح، لا من خلال شعارات مرفوعة، وإنما من خلال معطيات وممارسات وأداءات حياتية واضحة.

---

(١) نهج البلاغة ٥٤٥.

وإننا حين ننفي تأثير الأسر الحاكمة في الأمم التي حكمتها ومنها أمتنا الإسلامية، فإننا نرتكب بذلك غلطة تاريخية شنيعة تدخلنا في متاهة وحيرة، وتبعدنا عن الفهم الصحيح لمجريات الأحداث ومسيرتها. فهذا أمر واقع ـ تأثير الأسر الحاكمة ـ ولا يمكن انكاره بأي حال من الأحوال. لذلك فلا بد لنا من الاطلاع على سيرة بعض صنّاع تاريخنا الإسلامي، كيف حكموا، كيف فكروا، كيف عاشوا، كيف نظروا إلى الأمور. لنحكم على الحوادث التي وقعت فيما بعد، وكان لها أكبر الأثر في أحداث ثورة الحسين عليه السلام الدامية.

وأول من يهمنا الاطلاع على سيرتهم وحياتهم في هذا المجال، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ومعاوية بن أبي سفيان.

الإمام علي بن أبي طالب
أمير المؤمنين عليه السلام

عصمة الرسول ﷺ ضمانة لوصول الرسالة كاملة

ليس الحديث عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بالأمر الهين اليسير، الذي يقدر عليه شخص واحد، ولن يتاح الدارس يدرس جوانب شخصيته، أن يفهمه بمعزل عن الإسلام، فما لم يمتلك الدارس فهماً صحيحاً للإسلام وما لم يحمل تصوراً إسلامياً واضحاً، وما لم يتخل عن أية نظرة مسبقة متحيزة، فلن يتاح له أن يفهم هذه الشخصية الكبيرة، مثلما أنه لا يتاح تناول شخصية الرسول الكريم ﷺ نفسه بمعزل عن هذا التصور.

فالرسول الكريم ﷺ، عرض الإسلام عرضاً عملياً سلوكياً، بأقواله وفعله واقراراته، ووضعه على ساحة الحياة بشكل يتيح لكل امرئ الأخذ عنه والاقتداء به، ولا يختلف اثنان على سلامة مواقف الرسول وعصمته ﷺ وحصانته من التصرفات البشرية الأرضية المتدنية. إذ أن أي شك بذلك يعني أن الشاك إما أنه لم يقرأ كتاب الله العزيز وشهادته الحاسمة الواضحة بخصوص رسوله الكريم وعصمته من كل نوازع الهوى والتصرفات البشرية القابلة للانحراف والخطأ، وما أخبر به هو نفسه عن الله سبحانه وتعالى بهذا الخصوص وما دل عليه سلوكه وسيرته طيلة عمره الشريف ﷺ، وإما أن هذا الشاك يكابر بخصوص هذا الأمر، ولا يعترف بعصمة أيّ امرئٍ، حتى ولو كان هو الرسول ﷺ، ولو كان المخبر هو الله ﷻ، لا لشيء إلا لأنه يرى أن بقية البشر لا يتمتعون بهذه العصمة التي يتحدث عنها الله سبحانه وتعالى وخص بها رسوله ﷺ وأولياءه عليهم السلام، وفي هذا خروج سافر عن الإسلام نفسه، لأن من شأن الناس أن لا تطمئن على سلامة الرسالة ووصولها كاملة، ما لم تطمئن لأمانة الرسول ﷺ وقدراته الخاصة غير العادية التي حفظته من كل ما يمكن أن يهبط بالإنسان العادي الذي يتعرض للسهو والنسيان والخطأ والطمع والغضب وكافة الأهواء والنزعات الأرضية المتدنية، إذ كيف يمكن من الناحية العملية أن نقبل دون

تحفظ كل ما ينقله ﷺ إلينا عن الله، وكيف نضمن عدم اندفاعه وراء ميل أو هوى أو سورة من غضب أو حماس، ونتلقى منه المنهج الإلهي الكامل الذي ينظم حياة مِئات الملايين من البشر على مر السنين، ما لم نكن واثقين ـ وبأدلة مدعمة من العليم الخبير ـ بعصمة هذا الرسول الذي حمل أكمل الرسالات السماوية وخاتمتها؟ ورغم أن بعض المنافقين وأعداء الرسالة الإسلامية، حاولوا منذ البداية الطعن في هذه الشخصية الكريمة التي تحمل وتشارك القرآن في عرض هذا الدين عرضاً واقعياً جميلًا، فقد خرست أصوات هؤلاء عندما جاء التأكيد الإلهي الجازم البيّن على عصمته، ولم تعد ترتفع إلا أصوات المنافقين والمعاندين الجدد، أما من أسلم، وتيقن بصدق الرسالة وصحة نبوة الرسول الكريم ﷺ، فليس يداخل نفسه أي شك بهذه العصمة التي استلزمتها طبيعة هذه الرسالة الإلهية التي حملها، وحملها رسل من قبله، تمتعوا بمثل ما تمتع به من العصمة... وهكذا كان علمهم اليقيني ومعرفتهم التامة بالله وشعورهم العالي بالمسؤولية تجاهه، كاف لجعلهم من أصلب الثوار على الساحة التاريخية، يقفون في وجه كل الفراعنة والطواغيت على مر التاريخ، دون تردد أو وجل، بينما انهزم ثوار الساحات الأرضية في مراحل كثيرة من مراحل الصراع التي شهدتها هذه الأرض. إذ أن الشعور بالمسؤولية، مسؤولية حمل الرسالة ونقلها وتطبيقها، والذي يتجسَّد في كيانهم وعواطفهم ومشاعرهم وأفكارهم، بحيث لا يرون أمامهم إلا من أرسلهم بهذه الرسالة، ووحده فقط، ويرون كل الطواغيت تتضاءل أمام هذا الخالق الجبار، الذي لا يرون سواه في كل لحظة من لحظات حياتهم، ويجعلهم معصومين عن أي انحراف أو زلل..(١).

الإمام المعصوم هو المؤهل الوحيد

ولسنا هنا بصدد الحديث المسهب عن عصمة الرسول الكريم ﷺ، فهذا أمر لا يختلف عليه اثنان من المسلمين، وحتى أنهم يأخذونه أمراً مسلماً تقبله فطرتهم قبل أن تناقشه عقولهم، إذ يرون فيه الضمانة الوحيدة لصدق الرسالة التي آمنوا بها دون تحفظ أو تردد.

غير أن الأمر هنا يتعلق بالإمام عليه السلام الذي نص عليه الرسول ﷺ ليتولى القيادة

---

(١) راجع بالتفصيل المدرسة القرآنية ص ١٨٧ وما بعدها.

من بعده، ويكمل المشوار، والذي يستطيع بمؤهلاته، ضمان المعركة التي لم تنته ـ دون شك ـ بعد اختفاء الرسول الكريم من الساحة بوفاته ﷺ، وكذلك بالأئمة الآخرين عليهم السلام، الذين كان ينبغي أن يتسلموا زمام القيادة بعد الإمام الأول.

إن دور الإمامة المكمل لدور النبوة، والذي كان يندمج معه في حياة الرسول ﷺ، استمر بعد انقطاع دور النبوة وكان لا بد للإمام أن لا يرى أمامه إلا نفس المسؤوليات الكبيرة التي حملها الرسول ﷺ، وإلا نفس الشعور بالمسؤولية لكي تضمن الأمة سلامة وصحة مسيرتها وعدم انحرافها، وتسير بثقة مطلقة خلف هذا الإمام الذي يقودها في معاركها التي لا بد أنها لن تنتهي بوقت قصير ـ كما دلت على ذلك الأحداث فعلًا ـ أمام الملوك والأكاسرة والقياصرة الذين سخروا الناس لخدمتهم وعبادتهم وتنفيذ رغباتهم ودعم عروشهم، وأمام كل الأصنام البشرية والحجرية، وأصنام الهوى والضلالة والانحراف. وقد رأينا في الفصل الأول من هذا الكتاب كيف أن العصمة لا بد لها أن تكون في الإمام لضمان صحة المسيرة المسددة بالعناية الإلهية والتوفيق الرباني.

وإذا لم تتح للأئمة ممارسة أدوارهم القيادية بشكل تام ومباشر، وأولت النصوص الخاصة بخلافتهم وإمامتهم ووضعت على الرفوف ولعبت الظروف السياسية والاجتماعية والنزعات والرغبات دورها في إبعادهم عن منازلهم التي رتبهم الله فيها. . (وقد تكلمنا عن بعض هذه النصوص وعن الموضوع بصورة عامة وأعطينا رأي بعض أكابر علماء المسلمين الشيعة فيه، في (الفصل الأول من هذا الكتاب)، وأوضحنا كيف ينبغي أن تكون ردود فعلنا حولها وخصوصاً على ضوء الموقف المبدئي للإمام علي عليه السلام من الخليفتين الأول والثاني ثم من الخليفة الثالث بعد ذلك. وهذا ما سنشير إليه باختصار أيضاً مرة ثانية إن شاء الله.

غير أننا سنوضح موقفه الحازم من معاوية الذي حاول القفز على كرسي الخلافة بدوره مع وجود الإمام عليه السلام نفسه على الساحة، ورغم مبايعة الأمة كلها له، وحاول الخروج عليه والاصرار على عدم مبايعته، ثم منافسته ومحاربته لانتزاع الأمر منه بقوة السلاح وبكافة الطرق المتاحة.

وقد نتساءل: لماذا كان الخلاف على عصمة علي ومن جاء بعده من الأئمة المعصومين؟ والجواب لا بد أن يحمل طابعاً سياسياً، ولا بد أن يكون هو نفس السبب الذي اختلف عليه بصدد الخلافة نفسها.

لماذا الاختلاف على عصمة الإمام

لماذا كان الاختلاف والنصوص واضحة، والناس قريبو عهد بالرسول ﷺ؟ وصورته لم تكد تغيب عن خيالهم؟ ونجيب: إن الإسلام كان قريب عهد بالنفوس أيضاً، لم تعرفه إلا قبل سنوات، وربما لم يعرفه قسم منها إلا قبل بضعة أشهر من وفاته، كما هو الحال مع الطلقاء عند فتح مكة مثل أبي سفيان وابنه معاوية وغيرهم[1] فهل كان لهذه النفوس المتحجرة التي أبت الاستسلام لدين الله إلا تحت وطأة السيف، ورأت مركز النبوة الرفيع يمتص كل عزها ومجدها ومكانتها وسكتت على مضض وهي ترى هذا المركز عند النبي الهاشمي ﷺ الذي تسنم ذراه، وأصبح دينه محط آمال الناس بدلًا من آلهتهم وأحجارهم ومصالحهم التي حطمها، ورأت فيه وجهاً جديداً (لعرش إلهي جديد) أوشك فيه محمد ﷺ وآله عليهم السلام أن يستأثروا به إلى الأبد دونها، هل كانت هذه النفوس تسكت وهي ترى فرصتها السانحة عند وفاة النبي ﷺ وانشغال آله (وفي مقدمتهم الإمام علي عليه السلام) بأمور تجهيزه ودفنه، ولا تسارع لانتزاع الأمر منهم وإلا ظل فيهم، وحرمت قريش منه نهائياً...؟.

لقد أبت قريش أن تجتمع النبوة والإمامة لهذا البيت من هاشم فتحرم هي منها، وهي التي اعتادت أن يكون لها نصيب بكل شيء... (قال ابن عباس: ماشيت

---

(١) من المعلوم أن أبا سفيان (أسلَم) خلال فتح مكة، بعد انذار العباس له عندما قال له: (والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك).. وعندما أخذه إلى رسول الله (ص)، أراد عمر ضرب عنقه وقال له (أبو سفيان عدو الله! الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد) إلا أن العباس منعه وأخبر الرسول (ص) أنه أجاره... وقد حاول أبو سفيان التملص من الاعتراف بنبوة الرسول (ص) عندما قال له (ص): (ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟ قال: أما هذه فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً. فقال له العباس: ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك (فشهد شهادة الحق، فأسلم)...! وعندما مرَّت أمامه كتائب جيش الرسول في طريقها إلى مكة ومنها الكتيبة الخضراء وفيها المهاجرون والأنصار لا يرى منهم إلا الحدق من الجديد قال أبو سفيان (ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة. والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً قال (العباس) قلت: (يا أبا سفيان إنها النبوة) قال: فنعم إذاً) وعندما دخل الرسول (ص) مكة قال) (يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء) ابن هشام/ السيرة النبوية/ مؤسسة علوم القرآن ج ٣/ ٤ ق ٢ ص ٤٠٢ - ٤١٢.

عمر بن الخطاب يوماً فقال لي: يا ابن عباس ما يمنع قومكم منكم وأنتم أهل البيت خاصة؟ قلت: لا أدري. قال: لكني أدري. أنكم فضلتموهم بالنبوة، فقالوا: إن فضلوا بالخلافة مع النبوة، لم يبقوا لنا شيئاً، وإن أفضل النصيبين بأيديكم، بل ما أخالها إلا مجتمعة لكم وإن نزلت على رغم قريش)[١].

وهنا نقول: كيف يرى من يحاول تجريد الإمام من منصبه في قيادة الأمة، وانكار أحقيته في الخلافة، هذا الإمام معصوماً كرسول الله ﷺ نفسه؟ إذ لو أعلن ذلك لكان أول من أدان نفسه واعترف بخطئه، وهذه نقطة حساسة لا بد من الالتفات إليها عند الحديث عن عصمة الأئمة عليهم السلام، كان لا بد من التغاضي عن ذلك واعلان عدم عصمة الإمام ليسهل منازعته الأمر وابرازه كمنافس عادي وامرئٍ حافل بالعيوب والأخطاء، كما فعل الأمويون فيما بعد بإيعاز مباشر من معاوية نفسه.

حياة الأئمة.. وحدة في المواقف.. واختلاف في التعبير

إن شخصية الإمام علي عليه السلام لا يمكن أن تدرس بمعزل عن شخصية وحياة الرسول ﷺ نفسه، كما أن شخصية أي إمام بعدهما لا يمكن أن تدرس أو تفهم بمعزل عن شخصيتهما، إذ أن الفصل عند دراسة شخصية كل إمام على حدة، منقطعاً عمن جاء قبله أو بعده، من شأنه أن يثير الكثير من الارتباك في الأذهان، وربما رأى البعض ـ إذا ما قام بدراسات منقطعة منفصلة لحياة وشخصية كل إمام ـ تناقضاً في سلوكهم، لا يستطيع تبريره أو فهمه، خصوصاً إذا لم يكن متمتعاً بالتصور الإسلامي الصحيح الذي يتيح له فهم التوجهات السلوكية القيادية للأئمة عليهم السلام في كل مراحل حياتهم، إن هذا الدارس ربما سيرى فيها (اختلافاً في الحالات وتبايناً في السلوك وتناقضاً من الناحية الشكلية بين الأدوار التي مارسها الأئمة عليهم السلام فالحسن عليه السلام هادن معاوية بينما حارب الحسين عليه السلام يزيداً حتى قتل، وحياة السجّاد عليه السلام طافحة بالدعاء بينما كانت حياة الباقر عليه السلام طافحة بالحديث والفقه)[٢].

وإذا ما اعتبرنا حياة الأئمة عليهم السلام، التي هي امتداد لحياة الرسول ﷺ، كلّاً واحداً، غير أنه يقع على مراحل، واعتبرنا أن لكل واحد منهم دوراً يؤديه وفق

---

(١) العقد الفريد ص ٣٠ - ٣١ ج ٥ (نفس الطبعة التي أشرنا إليها سابقاً).
(٢) الشهيد الصدر ـ دور الأئمة في الحياة الإسلامية ص ٥.

مقتضيات الظروف التي يمر بها وتعيشها معه الأمة الإسلامية، فإننا سنجد أنه لا يمكن أن يناقض إمامٌ إماماً بتصرفاته، وسنرى اختفاء التناقض الذي قد يلوح لنا، إذا ما درسنا حياة كل منهم بمعزل عن الآخرين وبمعزل عن المهمة الواحدة لتي يحملونها جميعاً، وكأن لا أحد يمت إلى الآخر بصلة، ولم يربِّ إمامٌ الإمام الذي سيليه على نهجه وخطه اللذين هما نهج وخط رسول الله ﷺ نفسه، وكأن مناهجهم وتصوراتهم وفهمهم للإسلام ومناحي سلوكهم الأخرى تختلف عندهم وتتباين ولا تتطابق وتتماثل في أقل الحالات.

أما إذا درسناهم على أساس النظرة الكلية إليهم جميعاً (فسوف تزول كل تلك الاختلافات والتناقضات، لأنها تبدو على هذا المستوى، مجرد تعابير مختلفة عن حقيقة واحدة، وإنما اختلف التعبير عنها، وفقاً لاختلاف الظروف والملابسات التي مر بها كل إمام وعاشتها القضية الإسلامية والشيعية في عصره، عن الظروف والملابسات التي مرت بالرسالة في عهد إمام آخر)[1].

إن أحد الأسباب المهمة التي جعلت الكثيرين ينكرون عصمة أمير المؤمنين عليه السلام هو نفس السبب الذي دعاهم لانكار إمامته، وهو الذي دعاهم بالتالي أيضاً إلى انكار عصمة وأحقية الأئمة الآخرين من أهل البيت عليهم السلام، وهذا السبب نفسه الذي دعا أحد السلاطين الذين حكموا في أواخر الدولة العباسية نيابة عن الخليفة إلى التراجع عن فكرة تنصيب أحد السادة العلويين خليفة، عندما قال له أحد اتباعه: إنك لن تحكم في هذه الحالة وستكون ملزماً بطاعته واتباع كل ما يأمر به، لأنك أنت أول من اعترف بشرعية وجوده.

وعندما تولى أمير المؤمنين مسؤولية الخلافة بعد موت عثمان، فإن ما أثير حوله من شكوك وأقاويل، فاق كل ما أثير قبل جلوسه على كرسي الخلافة إذ أنه تنازل عن حقه ببساطة ـ مع أنه كان يعرف ذلك الحق بوضوح ـ في سبيل الحفاظ على وحدة الأمة الوليدة الناشئة المترعرعة في ظل الإسلام، الذي لم تعرفه إلا منذ فترة وجيزة ولم تتعرف عليه كما يجب في ظل ظروف صحية صحيحة، وكان الكثيرون ممن اعتنقوه إسمياً وبدوافع مختلفة، على استعداد للخروج عليه والوقوف ضده، عند ظهور أول بادرة للخلاف أو الحرب.

---

(١) المصدر السابق.

وتقبل أولئك الذين رفضوا بادئ ذي بدء، جلوسه على كرسي الخلافة، هذا الأمر على مضض، وحاولوا اعتباره غير متفوق على من سبقه، بل وطلبوا منه في بعض المراحل أن يسير سيرتهم كشرط لجلوسه على هذا الكرسيّ، إذا اعتبروا أن من سبقه كان أفضل منه لا حباً بأولئك السابقين وإنما لتعزيز بعض مظاهر الانحراف التي برزت في عهدهم، وجعلها تبدو أصولاً متبعة ومقرة من قبل المجتمع الإسلامي كله.

لقد جوبه عليه السلام في مطلع خلافته بالتحدي السافر من قبل من وقفوا منه بعض المواقف العدائية غير المعلنة في السابق، وبحرب معلنة من قبل طلحة والزبير وعائشة وجموع قريش، ثم من قبل معاوية وأهل الشام وفئات كثيرة من الانتهازيين والنفعيين والحاقدين انضمت إليهم بدوافع مختلفة. وقد حاولت هذه الفئات المحاربة له في النهاية وبعد وفاته، وبعد صلح الإمام الحسن عليه السلام مباشرة، أن تنال منه وتشوّه تاريخه وسمعته إلى أبعد حد ممكن. ووصل العداء الصريح والبغض الشديد له والسعار الحانق إلى حد سبّه سبّاً مقذعاً علنياً من على منابر المسلمين، وكأنه أحد الخوارج الذين عادوا الإسلام وحاولوا النيل منه، وكأنه لم يمت إلى الرسول والإسلام بأية صلة، لقد كان أحرى بتلك الحرب أن تشن على أعداء الإسلام الحقيقيين وهم نفسهم الذين أصبحوا في مراكز القيادة والأمرة والتوجيه فيما بعد!!.

سلوك المعصوم ـ الاستقامة التامة

إن فهم شخصية الإمام علي عليه السلام، وقبل ذلك شخصية رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه وشخصيات الأئمة عليهم السلام. يحتاج إلى عقلية تمتلك تصوراً إسلامياً واضحاً، غير مشوش ولا مضطرب. وكما سبق أن قلت في الفصل الأول من هذا الكتاب، إننا ينبغي أن لا ننظر إلى هذه الشخصية الفريدة، من خلال نظراتنا إلى الشخصيات البشرية العادية غير الكاملة، والتي نشكل نحن جزءاً منها، والتي قد تتعايش وتنسجم مع النظرات الأرضية البحتة وربما المتدنية، إذا ما رأت أن مصالحها تكمن في ذلك، وقد تبرر بعض سلوكها وفعالياتها على أساس الخروج الموقت عن المبادئ لاقتضاء المصلحة والسياسة!.

إننا قد نساوم، وقد نهادن وقد ننحرف أو ننجرف بمختلف الحجج أو الذرائع، لأننا ـ كبشر ـ معرضون للضعف وعدم القدرة الدائمية على الصمود أمام كل المغريات والمباهج والمواجهات الحياتية المختلفة، غير أن المعصوم الذي لا يرى

شيئاً إلا ويرى الله معه وقبله وبعده وفيه ـ كما قال أمير المؤمنين عليه السلام واصفاً نفسه ـ لا يرى أي مجال لمساومة أو تنازل أو خروج ولو بسيط عن أي مبدأ أساسي من مبادى الإسلام أو حتى عن أي شكل مظهري من أشكال ممارساته.

إن الأساليب و (الحيل) البشرية والممارسات التي قد نلجأ إليها أحياناً بحجة الوصول إلى غاية سامية شريفة. . ! أو للتخلص من شر أو خطر محتمل، لا تخطر ببال المعصوم، ولا حتى من يجعل من الإسلام هدفه الأخير ويحكمه في كل جوانب حياته، إن هدف المعصوم هو تكريس المبادئ الإسلامية في النفوس، وتكريس التعامل على أساس هذه الأهداف فقط، فكيف يخرج هو عنها بحجة الدعوة إليها، وكيف يتمكن من دعوتنا إلى عدم الخروج عنها أيضاً تحت أي ظرف إذا ما فعل هو ذلك؟.

وهكذا وَجَد مَن دعا أمير المؤمنين عليه السلام إلى اقرار معاوية والياً على الشام من قبله واقرار بعض الولاة الآخرين الذين عينهم عثمان، إلى أن تستتب له الأمور ويتغلب على الصعوبات التي وضعها أعداء الإسلام في وجهه. . وجد في رفض الإمام القاطع لهذا الأمر شيئاً محيراً. . فقد (قال المغيرة بن شعبة لعلي عليه السلام: أقرر معاوية وابن عامر وعمال عثمان على أعمالهم حتى تأتيك بيعتهم ويسكن الناس، ثم اعزل من شئت، فأجابه علي عليه السلام وقال: لا أداهن في ديني ولا أعطي في الدنيّةِ أمري)[1].

(وقال المغيرة لعلي عليه السلام: فإن كنت أبيت عليَّ فانزع من شئت واترك معاوية فإنه في معاوية جرأة، وهو في أهل الشام يستمع منه ولك حجة في اثباته؛ كان عمر بن الخطاب قد ولاه الشام. . فقال له: لا والله، لا أستعمل معاوية يومين)[2].

وقال ابن عباس للإمام عليه السلام في تحليل قول المغيرة وترجيحه اقرار معاوية على الولاية من قبل الإمام عليه السلام لمدة من الزمن، يعزله بعدها متى استتبت له الأمور (لأن معاوية وأصحابه أهل دنيا، فمتى ثبتهم، لا يبالون من ولي هذا الأمر، ومتى تعزلهم، يقولون: أَخذ هذا الأمر بغير شورى، وهو قَتَل صاحبنا، ويؤلبون عليك، فتنقض عليك الشام وأهل العراق، مع أنّي لا آمن طلحة والزبير أن يكرا عليك، وأنا

(١) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ م ٣ ص ٨٦ - ٨٧.
(٢) المصدر السابق.

أشير عليك أن تثبت معاوية، فإن بايع لك فعليّ أن أقلعه من منزله. وقال علي عليه السلام: والله لا أعطيه إلا السيف.)[1] فقال له ابن عباس، يستحثه على اقرار معاوية ومن كانوا ولاة لعثمان (.. أنت رجل شجاع، لست صاحب رأي في الحرب، أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: الحرب خدعة؟ فقال: بلى، فقلت (والقول لابن عباس): أما والله لئن أطعتني لأصدرنّهم بعد ورد ولأتركنّهم ينظرون في دبر الأمور لا يعرفون ما كان وجهها في غير نقصان عليك، ولا اثم لك. فقال: يا بن عباس لستُ من هَنَّاتِك ولا من هَنَّات معاوية في شيء..)[2] إن له تفكيراً خاصاً، يختلف عن تفكير غيره، تفكيراً، لا يسع رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه ـ لو كان حياً ـ إلا الأخذ به، لأنه يمثل استقامة الإسلام.. إنه لا يأخذ الأمور وكأنها نزاع بحت على كرسي السلطة، ولا تهم الأساليب المتبعة مهما كانت... الأسلوب لا ينفصل عن الغاية عند الإمام، ولا يبرر نبل الغاية وضاعة الأساليب وانحطاطها. لقد قال النبي صلى الله عليه وآله له في مناسبة سابقة: (يا علي ما عرف الله إلا أنا وأنت، وما عرفني إلا الله وأنت، وما عرفك إلا الله وأنا..).. إنهما ينسجمان ويتقاربان في مسيرتهما الموحدة على الدرب الإلهية الواضحة المستقيمة، ومن هنا كان عدم تناقضهما وفهمهما المشترك الموحد للحقيقة الإلهية وللرسالة السامية. لذلك فإن الإمام يحسم الأمر، ويواجه ابن عباس كما واجه المغيرة وغيره ممن دعوه إلى المساومة بقوله (تشير عليَّ وأرى، فإذا عصيتُك فأطعني)[3] ولم ييأس ابن عباس فعاد يشير على الإمام عليه السلام: (.. اكتب إلى معاوية فمنّه وعده، فقال: لا والله لا كان هذا أبداً..)[4] فلم يكن الإمام يعوزه القول الفصل أو الرأي المصيب (كان عمر يقول: أعوذ بالله من معضلة ولا أبو حسن لها)[5].

الانحياز المطلق للحق

إن الإمام عليه السلام ـ بموقفه هذا ـ يؤكد انحيازه المطلق للحق، ويؤكد عصمته حينما لا يرى أمامه إلا طريقاً واحداً مسموحاً بسلوكه. وفي الوقت الذي يستمع فيه

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق ص ٨٧.
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق.
(٥) البداية والنهاية ج ٧ ص ٣٧٣.

لمشيريه، فإنه يستعرض آراءهم وأقوالهم، فإذا وافقت الإسلام أخذ بها وإن لم توافِقْهُ رفضها ونبذها. . . وليس للإمام أن يطيع أحداً طاعة مطلقة ويأخذ بكل ما يجيئان به، سوى الله ورسوله، أما الآخرون، فهم ملزمون بطاعته هو بعد طاعة الله ورسوله.

لقد كانت عدم استجابته لاقرار معاوية وبقية عمال عثمان على وظائفهم، يدل ـ إضافة لدلالته على مبدئية واستقامة الإمام المطلقة ـ على بعد نظر ثاقب، إذ أن من شأن ذلك ـ إذا ما أقر الإمام معاوية مثلًا ـ أن يضفي الشرعية على بقائه بينما يستطيع هو بنفس الوقت في محاولته المستميتة المتشبثة للبقاء، انكار شرعية خلافة الإمام عليه السلام، ولم يكن معاوية ليعترف بهذه الشرعية تحت أي ظرف لأن ذلك يهدده هو شخصياً ويعرضه للسقوط التام، لأن أساس وجوده كان يقوم على ادعاءاته الباطلة بعدم شرعية خلافة أمير المؤمنين عليه السلام إن معاوية الذي يعلم حق العلم موقف أمير المؤمنين منه ورأيه فيه، ما كان يفوته الأمر لو أن الإمام عليه السلام أخذ برأي المغيرة أو ابن عباس، ولانتبه من أول وهلة أن إبقاءه ليس سوى مكيدة، وهكذا سيعلن أمام المسلمين قائلًا: (انظروا. . إن علياً اعترف بي والياً لأني أستحق ذلك. . أما أنا فلا أعترف به خليفة لأنه لا يستحق ذلك). . وكان اعلانه ذلك سيكون متقبلًا من فئات عديدة من المسلمين إضافة لاتباعه من أهل الشام والانتهازيين والمنافقين والنفعيين.

وهكذا راح الإمام يدعو معاوية وجماعته دعوة صريحة إلى الإسلام وقيمه ومبادئه (. . . ألا أني أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيّه وإماتة الباطل واحياء الحق ومعالم الدين. .)[1]. . هذه الدعوة المستمرة التي كرس لها حياته ومات من أجلها، وفرح بذلك الموت الذي تيقن أنه سيجعله في أعلى مراتب الشهداء والصدّيقين، وعبر عن ذلك بمقولته الشهيرة عندما ضربه ابن ملجم «فزت وربِّ الكعبة». . فبأي شيء فاز، وحلف على ذلك متيقناً برب الكعبة، إن لم يكن بالجنة. . ؟.

صحيح أن الأمور لم تستقم له، وخرج عليه كثيرون وكانت حياته حافلة بالخطوب والمحن، إلا أنه خرج بمحصلة أكيدة وهي استقامته وسيره الحثيث على درب رسول الله صلى الله عليه وآله وعدم الانحراف عنه قيد أنملة وهكذا تيقن بالفوز، وهكذا أرادنا أن نتيقن من عصمته وصحة منهجه.

(١) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ٣ ـ ١٧٤.

هل كان الذنب ذنبه أن خرج عليه كثيرون رأوا أن مصالحهم ستتحطم على صخرة صموده وصلابته في ذات الله؟ كيف سيكون رد فعل من أتيحت لهم جمع الأموال الطائلة وفتحت لهم أبواب النفوذ والامتيازات الواسعة، لو استقامت الأمور لهذا الإمام، وعمل بما يراه لازماً على ضوء كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ؟.

إنهم يعلمون رأيه بالأموال التي (اكتسبوها) قبل حكمه وقوله (واللهِ لو وجدتُه قد تُزُوِّجَ به النساء، ومُلِكَ به الإماءُ، لرددتُه، فإن في العدل سَعَةً. ومن ضاق عليه العدلُ، فالجورُ عليه أضيقُ)[1].

(.. وأيم اللهِ، لأبقرنَّ الباطل حتى أخرج الحق من خاصرته)[2].

(.. لو كان المال لي لسوّيت بينهم، فكيف وإنما المالُ مال الله، إلا وإن إعطاء المال في غير حقه تبذيرٌ واسراف، وهو يرفع صاحبه في الدنيا ويضعه في الآخرة)[3].

لماذا رفضوا أمير المؤمنين عليه السلام

هل كان سيقبل هؤلاء، وهم أهل دنيا ومصالح وامتيازات وثروات أسطورية هائلة، بالتخلي عن كل ما حصلوا عليه وغنموه، في سبيل مبادئ وقيم، لم يتبنوها في الظاهر إلا لأنها جلبت لهم هذا النعيم وهذا الخير..!؟.

هل كان مروان، الحاكم والمتنفذ الفعلي في زمن عثمان، والذي أقطع فدك، ووهب خمس فيء أفريقيا يرضى بذلك ويسلّم للإمام ليأخذ منه كل شيء؟.

وهل كان طلحة، وقد وجدوا في تركته ثلثمائة بهار من ذهب وفضة (والبهار مزود من جلد عجل[4]، أو الزبير الذي بلغت تركته عندما أحصيت فيما بعد مائة ألف ألف وسبعمائة ألف ألف[5] ومعاوية الذي ملك الشام، وعمرو بن العاص الذي خلف من العين ثلثمائة ألف دينار وخمسة وعشرين ألف دينار، ومن الورق ألف ألف درهم وغلة مائتي ألف دينار بمصر وضيعته المعروفة بمصر بالوهط قيمتها عشرة آلاف

(١) نهج البلاغة ـ تحقيق د. صبحي الصالح ـ دار الكتاب اللبناني ط ٢ ـ ٨٢ ـ بيروت ص ٥٧.
(٢) المصدر السابق ص ١٥٠.
(٣) نفس المصدر ص ١٨٣.
(٤) العقد الفريد ص ٦٧ - ٦٩.
(٥) المصدر السابق.

ألف درهم[1] [2]. وغيرهم كثيرون، هل كانوا سيقبلون التسليم لهذا الإمام الذي جاء يقلب الموازين التي ألفوها، ويقوّم الانحراف الذي درجوا عليه وعاشوا في ظله، ويعيدهم إلى عهد رسول الله ﷺ وعطاء رسول الله ﷺ الذي يتساوون فيه مع غيرهم...؟ هذا الرسول الذي كان (يأكل على الأرض ويقعد القرفصاء، ويتوسد يده، ويلعق أصابعه، ويقضي من نفسه، ولا يأكل متكئاً)[3]...؟!.

هل كانوا سيستسلمون لهذا الإمام شبيه الرسول ﷺ الذي كان (يقيم ببيت المال في كل جمعة حتى لا يبقي منه شيئاً ثم يفرش له ويقيل فيه)[4] والذي صمد أمام كل الاغراءات التي يمكن أن يتعرض لها بشر، فلم يضعف أمامها ولم ينهزم ولم يبال، حتى أنه كان يتوسد التراب أحياناً عند منامه غير مبال بشيء، حتى سماه أخوه وابن عمه الرسول الكريم ﷺ وهو يمسح التراب عن وجهه عندما وجده نائماً في أحد المساجد: أبا تراب؟.

ومن الطريف أن معاوية وبني أمية من بعده أرادوا جعل هذا الاسم سبة وعاراً على الإمام وأخذوا يلعنون صاحبه أمير المؤمنين عليه السلام من على منابر المسلمين طيلة

---

(١) مروج الذهب ص ٢٩.

(٢) وقد نقل ابن خلدون عن المسعودي قوله: (في أيام عثمان اقتنى الصحابة الضياع والمال فكان له يوم قتل عند خازنه خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما مائتا ألف دينار وخلف ابلاً وخيلاً كثيرة. وبلغ الثمن الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار وخلف ألف فرس وألف أمة، وكانت غلة من العراق ألف دينار كل يوم، ومن ناحية السراة أكثر من ذلك وكان على مربط عبد الرحمن بن عوف ألف فرس وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته أربعة وثمانين ألفاً وخلف زيد بن ثابت من الفضة والذهب ما كان يكسر بالفؤوس غير ما خلف من الأموال والضياع بمائة ألف دينار وبنى الزبير داره بالبصرة وكذلك بنى بمصر والكوفة والاسكندرية وكذلك بنى طلحة داره بالكوفة وشيد داره بالمدينة وبناها بالجص والآجر والساج وبنى سعد بن أبي وقاص داره بالعقيق ورفع سمكها وأوسع فضاءها وجعل على أعلاها شرفات وبنى المقداد داره بالمدينة وجعلها مجصصة الظاهر والباطن. وخلف علي بن منبه خمسين ألف دينار وعقاراً وغير ذلك ما قيمته ثلاثمائة ألف درهم. مقدمة ابن خلدون ٢٦٦.

(٣) العقد الفريد ج ٥ ـ ص ٣.

(٤) نفس المصدر ص ٥٩.

حكمهم الجائر المنحرف.. فقد (لعن معاوية علياً على المنابر، وكتب إلى عماله أن يلعنوه على المنابر ففعلوا، فكتبت أم سلمة، زوج النبي ﷺ إلى معاوية: **إنكم تلعنون الله ورسوله على منابركم، وذلك أنكم تلعنون علي بن أبي طالب ومن أَحبَّه. وأنا أشهد أن الله أحبه ورسوله. فلم يلتفت إلى كلامها)**[١].

هل يستسلمون لهذا الرجل القوي الزاهد في كل عرض الدنيا والذي كان (إذا دخل بيت المال ونظر إلى ما فيه من الذهب والفضة، قال: ابيضّي واصفري وغرّي غيري. إني من الله بكل خير)[٢] والذي (لم يبن آجرة على آجرة ولا لبنة على لبنة، ولا قصبة على قصبة، وإن كان ليؤتى بحوب من المدينة في جراب، وقيل أنه أخرج سيفاً له إلى السوق، فباعه، وقال: لو كان عندي أربعة دراهم ثمن إزار لم أبعه، وكان يختم على الجراب الذي فيه دقيق الشعير الذي يأكل منه ويقول: لا أحب أن يدخل بطني إلا ما أعلم)[٣].

الخلاف... بين المبادىء والمصالح

إن بعض من يتناولون قضية خلاف معاوية لعلي عليه السلام، يتأثرون ببعض الأكاذيب والمغالطات التي حاول بها معاوية تبرير هذا (الخلاف) ومطالبته بالخلافة فيما بعد، وقد يؤخذون بتلك (القوة) أو (المهارة السياسية) التي أبداها في محاولة التصدي للإمام عليه السلام... فما دام قد استطاع الصمود أمامه كقوة مناهضة أو معارضة، ووجد من (المسلمين) من يؤيده في مواقفه وسلوكه، فلا بد أنه إذاً كان يتمتع بقدر من الشرعية أتاحت له هذه القوة أو (الشعبية) التي استطاع بها مواجهة الإمام ومقاومته وحربه، ولا بد أن كثيرين كانوا يرون أنه على حق خصوصاً وأنه استطاع في نهاية المطاف وبعد اغتيال الإمام عليه السلام استلام الحكم (كخليفة) للمسلمين. ومن تغيب عنهم وقائع التاريخ وتسلسل الأحداث ويعالجون ما مضى دون الرجوع إلى كل تلك الوقائع بدقة، قد يذهبون إلى أن حق معاوية بالخلافة ـ ويزيد من بعده أيضاً ـ حق إلهي شرعي. إذ لولا ذلك لما رضيت جماهير المسلمين بتوليته خليفة عليهم، ولعلهم اختلفوا بشأنه أقل مما اختلفوا بشأن أمير المؤمنين عليه السلام نفسه.

---

(١) نفس المصدر ص ١٠٨.

(٢) نفس المصدر ص ٥٩.

(٣) الكامل في التاريخ ـ ٢٦٦.

إن قسماً كبيراً من هؤلاء الذين يؤخذون وينبهرون بمظاهر القوة والجاه والسلطة التي أبداها معاوية، ويميلون معها، وقد استطاع (القضاء) على خصومه والتغلب عليهم، واستتب له الأمر في النهاية، يدعون إلى تبني (سياسة الأمر الواقع)، فما دام معاوية قد أصبح (خليفة)، فليس من المهم أن نناقش ذلك وكيف صار (خليفة)، فالمهم أنه (نجح) في مسعاه وانتهى الأمر.. و (نجاحه) يدل على أحقيّته وشرعيّته.

جبهة المصالح تواجه خط المبادئ

إن قريشاً التي استسهلت واستساغت، بل وعملت بجد ودأَب لكي يخرج الأمر عن أهله الشرعيين لمدة طويلة، ولم تر أن تجتمع النبوة والإمامة لهذا البيت من قريش، كما عبر عن ذلك عمر بن الخطاب، شارحاً المسألة لابن عباس وهو يماشيه، ربما وجدت، بعد استلام أمير المؤمنين الخلافة، انها قد أخطأت هذه المرة و (استسلمت) لعلي عليه السلام وأقرت له بحقه في نهاية المطاف، وربما بررت استسلامها بأنه كان اضطراراً في أعقاب الثورة القائمة ضد عثمان. لذلك فإن معاوية، ما كاد يخرج على عليّ، بعد أن خرج عليه آخرون يوم الجمل وغيره، حتى سارع لاستنفاد كل القوى الشريرة الانتهازية والمنافقة، للوقوف إلى صفه ضد هذا الذي يدعو إلى الرجوع رجوعاً تاماً إلى كتاب الله وسنة نبيّه، والذي يريد أن يميت الباطل إلى الأبد ويُحيي ما اندثر من معالم الدين ويمحو الامتيازات التي حصلت عليها الطبقة الطفيلية الغريبة التي نشأت وترعرعت بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله. وأثار معاوية نعرة عصبية ممقوتة بين أهل الشام تنادي بالولاء للبيت الأموي، وصور نفسه كأنه مغلوب على أمره أمام القوة الجماهيرية التي تريد بقاءه وصور هذا البقاء والوقوف ضد أمير المؤمنين وكأنه مطلب جماهيري كبير لا يملك إلا الاستجابة له، وقد (نجح) معاوية في مهمته هذه نجاحاً باهراً إلى حد أن (مفكرين) وكتاباً إسلاميين أمثال ابن خلدون (انخدعوا) بها ورأوا أن معاوية كان مجبراً فعلًا على استجابة للمطلب الشعبي الكبير! للتصدي لأمير المؤمنين عليه السلام.. (... اقتضت طبيعة الملك الانفراد بالمجد واستئثار الواحدِ به، ولم يكن لمعاويةَ أن يدفع عن نفسه وقومه، فهو أمر طبيعي، ساقته العصبية بطبيعتها واستشعرته بنو أمية ومَن لم يكن على طريقة معاوية في اقتفاء الحق من أتباعهم فاعصوصبوا عليه، واستماتوا دونه. ولو حملهم معاوية على غير تلك الطريقة وخالفهم في الانفراد بالأمر لوقوع في افتراق الكلمة التي كان جَمعَهَا وتأليفها أهم عليه من أمرٍ ليس وراءَه كبير مخالفة.. وكذلك عهد معاوية إلى

يزيد خوفاً من افتراق الكلمة بما كانت بنو أمية لم يرضوا تسليم الأمر إلى من سواهم، فلو قد عهد إلى غيره اختلفوا عليه، مع أن ظنهم به كان صالحاً، ولا يرتاب أحد في ذلك ولا يُظن بمعاوية غيره، فلم يكن ليعهد إليه وهو يعتقد ما كان عليه من الفسق، حاشا الله لمعاوية من ذلك)[١].

لم يكن الذنب ذنب علي عليه السلام عندما تخلى عنه المنافقون والنفعيون والانتهازيون وضعاف النفوس، فقد كان أولئك وأشباههم مستعدين للتخلي عن الرسول صلى الله عليه وآله نفسه لو كان يعيش ظروفاً مشابهة لتلك التي عاشها الإمام فيما بعد، وقد رأينا كيف تصدَّى آباؤهم للرسول وحاولوا النيل منه ومن الإسلام بكل طريقة متاحة، إلا أن الله قمعهم ونصر دينه. وهنا نستطيع أن ندرك مدى سخافة التبجح الفارغ لمعاوية عندما قال مفتخراً بذكائه وتدبيره (. . . أعنت على عليّ بأربعة، كنت أكتم سري، وكان رجلاً يظهره، وكنت في أصلح جند وأطوعه، وكان في أخبث جند وأعصاه، وتركته وأصحاب الجمل، وقلت إن ظفروا به، كانوا أهون عليَّ منه، وإن ظفر بهم اغتر بها في دينه! وكنت أحب إلى قريش منه، فيا لك من جامع إليَّ ومفرِّق عنه)[٢]. ورغم ما في هذا الكلام من الغرور والكذب وخصوصاً حول اغترار علي في دينه! فإنك تلمس فيه روحاً مغامرة طائشة عابثة، لا ترى للدين وقيمه السامية أي تأثير في توجهاتها وسلوكها وطموحها. فمن المؤكد أن ما يخفيه معاوية من مكر وحيل ومكائد لم يكن يشرف صاحبه إذا ما حاول اظهاره كله أمام الملأ وكشفه حتى أمام المقرَّبين منه، كان يريد بقوله هذا أن يظهر الإمام عليه السلام وكأنه ضالع معه في لعبه ومغامراته مع أنه لم يكن لدى الإمام ما يود اخفاءه، وكان يريد أن تكون المعركة معلنة أمام الملأ، وكان يريد الناس أن تنحاز إلى مواقفه ومثله لا إليه شخصياً لأنه أمير المؤمنين علي، بل تنحاز إلى الإسلام، الذي يمثله ويجسده، رغم العداوة المتأصلة في نفوس أبناء قريش المنكسرين المهزومين أمام الإسلام وابطال الإسلام وفي مقدمتهم هو نفسه. ورغم من تطلعوا إلى معاوية ليغدق عليهم من الأموال العامة أكثر مما يستحقون، على حساب البقية من أبناء الأمة لغرض استمالتهم وشراء ذممهم، فقد كان معاوية (أوّل من وضع شرف العطاء ألفين)[٣].

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٢٧ - ٢٢٨.

(٢) العقد الفريد ١٠٩.

(٣) المصدر السابق ص ١٠٥.

إن استثمار معاوية لكل ما من شأنه أن يوصله إلى غايته، وهي ابتزاز الخلافة، ينبغي أن لا يكون مستغرباً من قبل العديد منا متى علمنا من هو معاوية. وينبغي أن نذكر أنه بسبيل الوصول إلى هذه الغاية خاض أكبر عملية منظمة ودؤوبة للحط من منزلة الإمام والتقليل من شأنه، حتى أصبح معظم أهل الشام، يعتبرون سب الإمام من صلب عقيدتهم الإسلامية وأنه أمر لازم، وأن من يسبّونه، لم يكن سوى عدوّ من أعداء المجتمع وحتى أنهم لم يعرفوا من هو. فقد (ذكر بعض الإخباريين أنه قال لرجل من أهل الشام من زعمائهم، وأهل الرأي والعقل منهم: مَن أبو تراب هذا الذي يلعنه الإمام على المنبر؟ قال: أراه لصاً من لصوص الفتن)[1] فإذا كان هذا الزعيم من أهل الرأي والعقل من أهل الشام يقول هكذا، فكيف سيقول الآخرون من الجهلة والعوام والسذج؟.

طاعة تامة.. لا يفرقون بين الناقة والجمل

ولنا عودة إلى هذا الموضوع لنرَ كيف توصل معاوية إلى التعتيم على كل فضائل الإمام عليه السلام، وكيف استطاع (بناء) مجتمع في الشام أولًا، لا يعرف من الإسلام إلا بعض الطقوس ولا يعرف ممثلًا للإسلام إلا معاوية. إن مجتمع الشام هذا هو الذي افتخر معاوية أنه من نتاجه وتربيته وصنعه. وقد أوصى رجلًا عراقياً أن ينقل حال أهل الشام هذا إلى الإمام مفاخراً ومباهياً (... أبلغ علياً أني أقاتله بمائة ألف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل... وقد بلغ من أمرهم في طاعته أنه صلى بهم عند مسيرهم إلى صفين، الجمعة في يوم الأربعاء، وأعاروه رؤوسهم عند القتال وحملوه بها، وركنوا إلى قول عمر بن العاص أن علياً هو الذي قتل عمار بن ياسر حين أخرجه لنصرته ثم ارتقى بهم الأمر في طاعته إلى أن جعلوا لعن عليّ سنة ينشأ عليها الصغير ويهلك عليها الكبير)[2].

فإذا كان من باع دينه ونفسه عدواً لعلي، فهل الذنب في ذلك ذنبه؟ إذا ما نجح هذا العدو في جعل المجتمع الإسلامي في حالة أفرغت فيها أغلبيته من دينها، إذا صح التعبير، وأجريت له عملية واسعة (للتخلص) من كل التزاماته وقيمه؟!.

(١) مروج الذهب ٣٩ـ ٤٠.

(٢) المصدر السابق.

إنَّ ما أريد لأهل الشام، أريد لغيرهم أيضاً من أهل البصرة أو الكوفة أو المدينة أو مكة أو غيرها.

لم يكن علياً ـ حتى بعد وفاته ـ هو العقبة الوحيدة أمام الحكم الأموي لوضع وتثبيت أسس جديدة ومناهج جديدة في العمل والحكم، حتى وإن اتخذ في الظاهر اسم الخلافة واجهة وتسمية للملوك الجدد، بل كان الإسلام نفسه هو العقبة الكبيرة التي واجهته، الإسلام المحمدي الحق غير المزور أو المحرف، فكان الخطر الأكبر عليه، أن يعرف الناس دينهم معرفة حقيقية ويلتزموا به التزاماً تاماً ويحيطوا بكل تشريعاته وأحكامه وكل ما حلل لهم وحرّم عليهم. إذ أن ذلك سيعني في النهاية أن الناس ستدرك الهوّة التي انحدر إليها الأمويون بعيداً عن الإسلام وقممه الشاهقة المرتفعة.. (لقد أخبرنا الإمام الصادق عليه السلام بما معناه: «إن بني أمية أطلقوا للناس تعليم الإيمان ولم يطلقوا لهم تعليم الشرك أو الكفر، حتى إذا حملوهم عليه لم يعرفوه».

ممارسة التناقض في ظل دولة الظلم يهدد المجتمع بالانهيار

إن افراغ الإسلام من مضامينه الحقيقية وتشويش مسيرة الفرد المسلم المتطلع إلى المثل الأعلى المرتفع دائماً، وجعل همومه تنصب على المشاكل الأرضية الصغيرة وقطع كل اتصال له بالسماء أتاح للأمويين فرصة استمالة الناس واستدراجهم إلى صفهم، وفي خضم توزع الولاء بين (الله) و (الواقع الحياتي)، الذي يبدو فيه (الخليفة) الأموي كمسيّر حقيقي لهذا الواقع، راحوا يزينون للناس ضرورة الانغماس الكلي في هذا الواقع وممارسة حياتهم بعيداً عن الله ودينه، وإن أرادوا الأمر أن يبدو وكأنه غير مقصود وكأن (الخلافة الأموية) لم تكن تسعى إليه بنفسها. إن طبيعة الممارسات الأموية، ومنذ أيام عاهلها الأول معاوية، كانت تأخذ بهذا الاتجاه بشكل واضح... وقد وضعوا الناس بذلك أمام تناقض بارز، وضربوا لهم مثلاً سيئاً بسلوكهم الشخصي المعلن والمراقب من عموم المجتمع، بحكم المراكز المرموقة التي كانوا يتمتعون بها، لقد أرادوا بفعلهم وتصرفاتهم تلك جر الناس إلى واقعهم هم وقطعهم عن الإسلام، وهكذا (فإن المسلم الذي يعيش في ظل أنظمة تتعارض مع القرآن والإسلام، يجد نفسه في كثير من الأحيان مضطراً إلى ممارسة التناقض في حياته باستمرار، إذ يرفض في المسجد وبين يدي الله ما يمارسه في المتجر أو المعهد

أو المكتب ويرفض في حياته العملية ما يقدسه في المسجد ويعاهد الله على الوفاء به، ويظل في دوامة هذه الولاءات المتعارضة لا يجد حلّاً للتناقضات إلا بالتنازل عن المسجد فيقاسي فراغاً روحياً يهدده، وبالتالي يهدد المجتمع بالانهيار أو بالتنازل عن دوره في الحياة العامة، وبهذا يتحول إلى طاقة سلبية ويفقد المجتمع بالتدريج قدرات أطهر أبنائه وأنظف أفراده)[1].

وهكذا أصبحت مقدرات هذا الدين الذي وقف أول من وقف في طريقه أبو سفيان وآل أمية، وأعلن الحرب عليه منذ البداية وشن عليه أفظع الحملات الشرسة، ثم لم (ينضمّ) إليه بشكل معلن إلا بعد أن لم يجد مناصاً من ذلك كما أوضحنا، وبيَّنته كل كتب التاريخ، حتى تلك المتحيزة للأمويين، في يد ابنه معاوية، الذي دخل فيه مع أبيه خوفاً ونفاقاً. وهكذا حسمت الجولة لصالحهما، وأوقفت المسيرة المظفرة للإسلام بفعل متعمد لا يمكن تبرير دوافعه بأي حال من الأحوال، فلم يكن الأمر أمر خطأ واحد أو عدة أخطاء ارتكبت سهواً أو في حقبة معينة من الزمن، وإنما كان سلسلة من الفعل المتعمد (الخاطىء) المستمر المخطط، وهذا ما ينبغي أن يجعل الجرم بنظرنا كبيراً، ونحن نعالج هذه القضية الكبيرة من قضايا المسلمين والتي لا يزال البعض لحد الآن يقفون منها موقفاً متأرجحاً غامضاً رغم وضوح (صناعها وأصحابها) وتوظيفهم لها لصالحهم على حساب الأمة المسلمة على امتداد حياتها وإلى يومنا هذا.

لنعرف الإسلام حتى نعرف الإمام

إن فهم شخصية الإمام عليه السلام، يستدعي فهم الإسلام كله، وفهم شخصية رسول الله ﷺ التي تكتمل بها صورة الإسلام في ذهن الفرد المسلم. كما أن الوضوح والسطوع الخارقين لهذه الشخصية هو الذي يجعل الكثيرين يصابون بعمى شديد، يجعلهم في حالة تعثر مستمرة عند النظر إليها أو سلوك دربها الواضح المستقيم. وهكذا جاء قول الشعبي فيه مطابقاً لواقع الحال (إنه كان في هذه الأمة مثل المسيح عيسى بن مريم في بني إسرائيل أحبه قوم فكفروا في حبه وأبغضه قوم فكفروا في بغضه)[2].

---

(١) منابع القدرة في الدولة الإسلامية/ السيد محمد باقر الصدر/ ط ١ دار التعارف بيروت ص ٣٠ - ٣١.

(٢) العقد الفريد ٥٩/ج٥.

قيل فيه الكثير، وكتب عنه الكثير، غير أن الميدان لا يزال واسعاً بعد أمام من يريدون البحث عن جوانب شخصيته العظيمة، ولا تزال أمور عديدة بشأنه، لم يفهمها الكثيرون بعد.

إن فهم الإمام عليه السلام يعني فهم الإسلام كما قلنا، ومهما أرادوا أن يقللوا من شأنه، فإنهم مجبرون ـ بحكم الوقائع واجماع كل من تكلموا عن سيرته ـ على الإشادة باستقامته وعدله وصدقه وإيمانه وعلمه وشجاعته وصبره وأمانته، وهي صفات لم يختلف عليها اثنان من محبيه وأعدائه على السواء، حتى عدوه اللدود معاوية أشاد به مرغماً في عدة مناسبات. فهذه الأخلاق والروح الإلهية التي وضعها الله في البشر، حينما نفخ فيه من روحه، ورفعه من وهدة الوحل والطين، تجلت بكل عظمتها وروعتها وشموخها في الرسول الكريم صلى الله عليه وآله ثم في آل بيته الكرام وفي مقدمتهم أمير المؤمنين عليه السلام[1]...

فعلام الخلاف في شخصه إذاً...؟ هل يعود ذلك للأسباب التي أوردها الخوارج الذين دعوه للتحكيم أولًا، ثم تخلوا عنه بحجة قبوله لذلك التحكيم؟ أم للأسباب التي أوردها معاوية وجعلها مبرراً لسبه على منابر الأمويين طيلة حكمهم التعسفي الجائر؟.

أما مع الخلفاء الذين جاءوا قبله، فقد حسمت المسألة من قبله ومن قبلهم أيضاً. وقد رأينا أن الخلاف لم يصل إلى حد اعلان الحرب أو السباب أو التشهير أو غير ذلك من الأمور التي لجأ إليها معاوية فيما بعد والادعاءات والتخرصات التي اخترعها وافتراها للتقليل من شأن الإمام والحط من شخصيته وعرضه كمجرد إنسان عادي طامع في الخلافة متلهف إليها وكمنافس لا يختلف عن (المنافسين) الآخرين. وقد أوضح الإمام عليه السلام موقفه بصراحة متناهية وأوضح الأسباب الحقيقية وراء سكوته عن حقه (... وطفقت أرتئي بين أَن أصول بيد جذّاء أو أصبر على طخية

(١) (جاء رجل إلى معاوية فسأله عن مسألة، فقال: سل عنها علياً فهو أعلم. فقال: يا أمير المؤمنين جوابك فيها أحب إليّ من جواب علي. قال بئس ما قلت. لقد كرهت رجلاً كان رسول الله (ص) يغز بالعلم غزا ولقد قال له: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى. إلا أنه لا نبي بعدي») ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى. الحافظ محب الدين الطبري. مطبعة القدسي ومطبعة السعادة ص ٧٩.

عمياء، يهرم فيها الكبير، ويشيب فيها الصغير ويكدح فيها مؤمن حتى يلقى ربه. . . فرأيت أن الصبر على هاتا أحجى، فصبرت وفي العين قذى وفي الحلق شجا، أَرى تراثي نهباً. . . فصبرت على طول المدة وشدة المحنة. . . فنظرت فإذا ليس لي معين إلا أهل بيتي فضننتُ بهم عن الموت. . . فنظرت فإذا ليس لي رافد ولا ذابّ ولا مساعد، إلا أهل بيتي فضننت بهم عن المنيّة، فأغضيت على القذى، وجرعِتُ ريقي على الشجا، وصبرت من كظم الغيظ على أمرَّ من العلقم. . .)[1].

ولن يتاح لأحد فهم تفسير أمير المؤمنين لسكوته عن حقه بأنه نابع عن مخاوف خاصة على حياته وحياة أهل بيته، فمما لا شك فيه عند الجميع أنه لم يخف الموت في أي مرحلة من مراحل هذه الحياة، لأنه لم يخض معارك خاصة به وإنما كانت معاركه كلها في سبيل الإسلام وفي سبيل الذب عن وجه رسول الله ﷺ، ومن هنا كان حرصه على الشهادة واستهانته بكل ما يمكن أن يلحقه من آلام الموت. لقد كان موقفه دقيقاً مع أولئك الذين لم تنتزع المفاهيم والتصورات الجاهلية من أدمغتهم، وكان لا بد من عرض موقفه الدقيق ذاك على الأمة (فإن أقل يقولوا: حَرصَ على الملك، وإن أسكت يقولوا: جزع من الموت! هيهاتَ بعد اللتيّا والتي! والله لابنُ أبي طالب آنسُ بالموتِ من الطفلِ بثدي أمه، بل اندمجت على مكنون علمٍ لو بحتُ به لاضطربتم اضطراب الأرشية في الطويِّ البعيدة)[2].

استقامته أخافت مناوئيه

لقد خاف المنحرفون والجانحون عن الحق استقامته وشدته في الله، وخافوا عدله، ورأوا أنه قد يأخذهم على ما يكرهون إذا ما أقروا له بالخلافة وقد يفقدون جراء ذلك امتيازاتهم ومراكزهم وأموالهم. . . أما هو عليه السلام فقد علم ذلك حق العلم، وقال مقولته الشهيرة (ما ترك لي الحق من صديق).

لقد كانوا يعلمون أنه سيسلك بهم مسلكاً صعباً لا يقدرون عليه، غير أنه سيحقق للأغلبية المسلمة مصالحها ويضمن اختفاء كل المظاهر المرضية من جسم الأمة. . وهل تهم الأمة من لا يرى إلا نفسه ومصالحه. .؟.

---

(١) نهج البلاغة ص ٤٨، ٤٩، ٦٨، ٣٣٦.

(٢) المصدر السابق ص ٥٣.

لقد عبر أمير المؤمنين عليه السلام عن رؤيته للإيمان، بوضوح اعتمده أساساً لفعل حياتي مستمر يعزز نظرته الاعتقادية للإسلام، فقد قال عليه السلام (بني الإيمان على أربع دعائم: اليقين، والصبر، والجهاد، والعدل)[1] لقد أراد الجميع أن يتمتعوا باليقين الذي يتمتع به الأولياء الموقنون العارفون والأنبياء المرسلون، وإذ لم يصل عموم البشر إلى مرتبة الأنبياء الرفيعة، فإن عليهم أن يجربوا عكس يقين الرسل على أنفسهم، ويتأثروا بما آمنوا به بنفس القدر الذي يتأثر به أولئك الرسل، أما الصبر الذي قال عنه رسول الله صلى الله عليه وآله، إنه الإيمان نفسه، فقد سئل صلى الله عليه وآله عن الإيمان قال: هو الصبر لأنه أكثر أعماله وأشرفها. وسئل صلى الله عليه وآله عن الإيمان فقال: الصبر والسماحة، أما الجهاد، فجهادان، الأكبر، وهو جهاد النفس وتربيتها وتوجيهها لحب الله والسير في طريقه والأصغر وهو مقاتلة أعداء الله ورسوله كلما استدعى الأمر ذلك.. ثم إن العدل يمثل المنهج الحياتي المستقيم الذي يضمن به عدم الاعتداء وعدم الجور وعدم التطلع إلى أموال الغير وأعراضهم وحرياتهم ومصالحهم. إنه التجسيد العملي للرسالة الحقة، وعلى ذلك يؤكد الإمام دائماً. إن صوت العدالة الإلهية كان يهيب به دائماً ليعلن مواقفه الرافضة لكل ظلم، ظلم الانحراف عن المنهج الإلهي، ظلم الإنسان للإنسان، ظلم الإنسان لنفسه، وهكذا فإن الذين رأوا في الإسلام عائقاً أمام تطلعاتهم وطموحاتهم المتدنية ورغباتهم الشاذة، رأوا في الإمام الذي لم تأخذه في الله لومة لائم، ما رأوه في الإسلام نفسه، وإذ أنهم لم يستطيعوا اعلان حربهم وشنها على الإسلام صراحة بعدما سيطر وامتد أو على الرسول الكريم صلى الله عليه وآله الذي كان النيل منه يعني التشكيك بالرسالة كلها. فإنهم وجدوا فرصتهم السانحة بشخص أمير المؤمنين عليه السلام فعملوا على النيل منه والتعرض لشخصه زاعمين أنه لا يختلف عن أي شخص آخر طامح للخلافة والملك.

ومع ذلك فإنهم لم يستطيعوا أن يقولوا أكثر مما قالوه، مما بيّنا قسماً منه في سياق هذا الفصل، وهو ما لم يصح وما لم يقع قطعاً. ونظرة متأنية واعية عادلة تتطلع إلى الله وعدالته وعينه التي لا تغفل ولا تنام ستريهم أنهم على باطل، وأنهم كانوا يشتطون في حق هذا الإنسان العظيم، الذي كانت حياته صفحة من صفحات الإسلام وآية من آيات الله الناطقة المعجزة، وانعكاساً لحياة رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه.

---

(١) جامع السعادات ج ٢.

وقد آن لنا في هذا العصر الذي أتيحت للعديدين منا أدوات حديثة للنظر والعلم والمعرفة، أن لا ننظر إلى أمثال هذه الأمور المهمة التي تتعلق بديننا وعقيدتنا ومستقبلنا الأبدي، نظرة المقلد المتلقي الذي لا يرى إلا ما يراه غيره، وإلا ما رآه آباؤه وأجداده من قبل، حتى ولو كان هؤلاء الآباء والأجداء على خطأ واضح مبين، وحتى لو كان أكثرهم لا يفقهون شيئاً ولا يعلمون إلا أنهم نشأوا على أفكار وأطروحات مسبقة جاهزة تلقوها عن آباء جهلة لا يفقهون!.

أرادوا الطعن فيه، فطعنوا في شيعته ـ أحاديث عن الشيعة

في حملةٍ متأخرة عن عهد أمير المؤمنين عليه السلام، غلب عليها طابع التحامل والسعار والضغينة، ألصقت العديد من الفرق (الإسلامية) المنقرضة وغيرها، بالشيعة الذين انحازوا إلى علي عليه السلام ومواقفه المطابقة تماماً لموقف الرسول صلى الله عليه وآله، ثم أصبحوا بعد ذلك شيعة للأمة من ولده، بعد أن ظهرت المذاهب الإسلامية العديدة في وقت متأخر. وكان ظهور بعض هذه الفرق ونسبتها إلى الشيعة مثل الإسماعيلية والواقفية والفطمية وغيرها مثل الخطابية والغرابية والعلياوية والمخمسة والبزيعية والقرامطة التي غالت كثيرا وضلت، يراد منها بكل تأكيد النيل من الأئمة ووالدهم عليه السلام ثم النيل من النبي صلى الله عليه وآله والإسلام بعد ذلك. فمن المؤكد أن تلك الفرق التي ضلت وغالى بعضها بعد أن ادعوا (. . . أن الإمام هو الله سبحانه ظهوراً أو اتحاداً أو حلولاً مما يقول به كثير من متصوفة الإسلام ومشاهير مشائخ الطرق، وقد ينقل عن الحلاج بل والكيلاني والرفاعي والبدوي وأمثالهم من الكلمات «وإن شئت فسمها كما يقولون شطحات» ما يدل بظاهره على أن لهم منزلة فوق الربوبية وأن لهم مقاماً زائداً عن الألوهية (لو كان ثمة موضع لمزيد) وقريب من ذلك ما يقول به أرباب وحدة الوجود أو الموجود)[1].

إن تلك الفرق لا يمكن أن تنسب للشيعة أو لأحد الأئمة عليهم السلام، وهذا أمر ينبغي أن ينظر إليه بجدية وتنبذ كل نظرة لا مبالية أو خاطئة بشأنه. إذ أن من المؤسف أن مجاميع كبيرة من الناس لا زالت تفكر بعقليات قديمة لا تنسجم وروح التحقيق والعلم والانصاف والتدبر، رغم أن العقل البشري يقفز الآن في مجالات أخرى كالمجالات التقنية والعلوم التطبيقية والرياضيات قفزات هائلة لا تنسجم مع تخلفه في

---

(١) أصل الشيعة ص ٨٠.

أمور أخرى كأمور البحث العلمي في المجالات التاريخية والاجتماعية والإنسانية بشكل عام.

إن أول من حارب الغلاة هو أمير المؤمنين عليه السلام نفسه، بنفس القوة التي حارب بها المشركين والكفار ومن خرجوا عن الإسلام فيما بعد وابتعدوا عن مناهجه وأسسه الإيمانية الواضحة.

وإذ لم يعد الآن وجود لتلك الفرق البائدة المنقرضة وأشباهها، فإن علينا أن ندرك أن أحد أسباب ذلك، وأن الذين تصدوا لها، هم الشيعة الإمامية، (أتباع الإمام علي وأولاده عليهم السلام فيما بعد) أنفسهم، مِن مَن تصدى لهم من المسلمين الآخرين. وهكذا فإنه من الظلم الواضح والتجني الكبير أن ننسب أولئك إلى علي عليه السلام، ونروح نطعن فيه لمجرد أننا نرغب في ذلك كما رغب فيه معاوية من قبل وأراده.

إن الشيعة الإمامية ترى (.. إن تلك المقالات من أشنع الكفر والضلالات وليس دينهم إلا التوحيد المحض، وتنزيه الخالق عن كل مشابهة للمخلوق أو ملابسة لهم في صفة من صفات النقص والامكان والتغير والحدوث وما ينافي وجوب الوجود والقدم والأزلية، إلى غير ذلك من التنزيه والتقديس المشحونة مؤلفاتهم في الحكمة والكلام. أن الأعداد الغفيرة من الصحابة والتابعين التي ساندت الإمام ووقفت معه وخلفه، تدل على أنهم لمسوا فيه ما لمسه رسول الله صلى الله عليه وآله. فقد روى السيوطي ـ وهو من علماء أهل السنة، في كتابه (الدر المنثور في تفسير كتاب الله بالمأثور) في تفسير قوله تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ قال: أخرج ابن عساكر عن جابر بن عبد الله قال: كنا عند النبي صلى الله عليه وآله، فأقبل علي عليه السلام، فقال النبي صلى الله عليه وآله: والذي نفسي بيده، إن هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة. ونزلت ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾[1] ... وأخرج ابن عدي عن ابن عباس، قال: لما نزلت: إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام: «هو أنت وشيعتك يوم القيامة، راضين مرضيين. وأخرج ابن مردويه عنه عليه السلام، قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله: لم تسمع قول الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ هم أنت وشيعتك، وموعدي وموعدكم الحوض، إذا جاءت الأمم للحساب تدعون غراً محجّلين)[2].

---

(١) البيّنة (٧).

(٢) أصل الشيعة ص ٨٠ – ٨١، ٨٧ – ٨٨.

وهذا الحديث وأمثاله مروي أيضاً في (الصواعق المحرقة) لابن حجر والزمخشري في ربيع الأبرار ومسند الإمام أحمد بن حنبل وخصائص النسائي وغيرها، ولعل اقتداء مجاميع كبيرة من المسلمين بالإمام عليه السلام والمتابعة له والالتزام بهذه المتابعة، جعل اسم التشيُّع لعلي ملتصقاً بهم، وهذا ما يشرفهم على أي حال، ومهما يكن من أمر، فليس هناك من يستطيع الغض من قيمة الإمام علي عليه السلام، من خلال الغض من شيعته السائرين على طريقه والملتزمين بأفعاله وأقواله، كما التزموا بأفعال وأقوال الرسول صلى الله عليه وآله والقرآن الكريم، وهي جميعاً من مصدر واحد ولا تناقض بينها على الاطلاق.

ولا بأس من الرجوع هنا إلى بعض آراء الدكتور طه حسين ـ وهو من أبناء السنة أيضاً ـ بصدد نشوء مذهب التشيع للإمام عليه السلام، وفيها يؤيد بعض ما ذهبنا إليه بهذا الشأن. . . (. . والشيء الذي ليس فيه شك فيما أعتقد هو أن الشيعة، بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة عند الفقهاء والمتكلمين ومؤرخي الفرق، لم توجد في حياة علي، وإنما وجدت بعد موته بزمن غير طويل. . . وإنما كان معنى كلمة الشيعة أيام علي هو نفس معناها اللغوي القديم الذي جاء في القرآن في قول الله عز وجل من سورة القصص: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ﴾[1] وفي قول الله عز وجل من سورة الصافات ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾[2] فالشيعة في هاتين الآيتين وغيرها من الآيات معناها الفرقة من الأتباع والأنصار الذين يوافقون على الرأي والنهج ويشاركون فيهما.

فشيعة علي أثناء خلافته هم أصحابه الذين بايعوه واتبعوا رأيه، سواء منهم من قاتل معه ومن لم يقاتل. ولم يكن لفظ الشيعة أيام علي مقصوراً على أصحابه وحدهم وإنما كان لمعاوية شيعته أيضاً.

إن علياً لم تكن له شيعة ممتازة من الأمة قبل الفتنة، ولم تكن له شيعة بالمعنى الذي يعرفه الفقهاء والمتكلمون أثناء خلافته، وإنما كان له أنصار وأتباع وكانت كثرة المسلمين كلها له أنصاراً وأتباعاً.

(١) القصص: ١٥.
(٢) الصافات: ٨٣.

وقد قتل علي وليس له حزب منظم ولا شيعة مميزة، بل لم ينظم الحزب العلوي ولم توجد الشيعة المميزة إلا بعد أن تم اجتماع الأمر لمعاوية . .)[١] [٢].

ولم نر بدأً من الإشارة بشكل سريع إلى هذا الموضوع، إذ أنه يساعدنا على اكتشاف جانب من جوانب الحملة المنظمة ضد أمير المؤمنين عليه السلام وجماهير المسلمين التي تابعته وشايعته وانتهجت خطاه، سواء في عهده أم في العهود اللاحقة، وإلى يومنا هذا.

على أننا (لو محصنا التاريخ الإسلامي، وتبيّنا ما نشأ فيه من عقائد وآراء ونظريات، لعرفنا أن السبب الموجب لهذا الاختلاف إنما هو ثورة العقيدة، ودفاع عن نظرية أو تحزب لرأي؛ وإن أعظم خلاف وقع بين الأمة اختلافهم في الإمامة، فإنه ما سل سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سُل على الإمامة! فأمر الإمامة إذن من أكبر الأسباب المباشرة لهذا الاختلاف، وقد طبعت الأجيال المختلفة في الإمامة على حب هذه العصبية، وألفت هذه الحزبية؛ بدون تدبر وبدون روية، ولو أن كلا من الطائفتين نظرت في بينات الأخرى نظر التفاهم لا نظر الساخط المخاصم لحصحص الحق وظهر الصبح لذي عينين)[٣] . . . ولا بد أننا ـ لو تابعنا الأمر ـ لوجدنا أن البداية المنظمة للحملة المدروسة المعدة ضد الإمامة كانت على يد معاوية والدولة الاموية. . وإن تأثير تلك الحملة ولمساتها السوداء المضللة لا زالت تبدو في آراء وكتب العديدين من الكتاب والمفكرين والعلماء والباحثين إلى يومنا هذا!.

---

(١) الفتنة الكبرى ـ طه حسين ٢ س ١٧٤ - ١٧٥ دار المعارف.

(٢) وللتأكيد على المضمون اللغوي العام لهذه الكلمة نورد هنا بيتاً من الشعر قاله حسان بن ثابت رداً على الزبرقان بن بدر:

أكرم بقوم رسول الله شيعتهُم ... إذا تفرقتِ الأهواءُ والشيعُ

. . وقول أمير المؤمنين عليه السلام لعثمان يحذره عندما كلمه الناس في أمر الانحراف المتسع في عهده (. . . وإني أحذرك أن تكون إمام هذه الأمة المقتول، فإنه يقال: يقتل في هذه الأمة إمام، فيفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة، وتلبّس أمورها عليها، ويتركهم شيعاً، فلا يبصرون الحق لعلو الباطل، يموجون فيها موجاً، ويمرجون فيها مرجاً. .» تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ دار الباز ـ دار الكتب العلمية/ بيروت لبنان ط ١٩٨٧/١ ص ١٩٠ - ٦٤٥ م ٢.

(٣) المراجعات ـ الإمام عبد الحسين شرف الدين الموسوي ـ مؤسسة الوفاء ـ بيروت.

كفاءات فريدة اختص بها الإمام عليه السلام

ولا ندري كيف يفوت هؤلاء ما جاء في حق الإمام علي عليه السلام في القرآن الكريم، وهي آيات واضحات لا اختلاف حتى في تفسيرها وتأويلها ـ وسنتطرق إلى بعضها بعون الله، أو ما جاء على لسان النبي صلى الله عليه وآله أو حتى على لسان الصحابة أنفسهم من الذين نافسوه على منصب الخلافة وانتزعوه منه، وقد وثقت تلك الشهادات بعشرات من كتب الصحاح والسيرة والتاريخ، وبلغت حداً من الضخامة أن أولئك الذين تبنوا أفكاراً مسبقة معادية لم يروا أن يتحملوها ويقلبوا موازين حياتهم، وقد يكون ذلك بفعل الاتجاه الرسمي العام للحكام (المسلمين)، الذين يحقق لهم منهج معاوية في الحكم والحياة (ضمانة) لاستمرار حكمهم هم، آخذين من (الدين) ما أخذه معاوية واستغله لمصلحته ومن (الحياة) ما أخذه منها ومنها تجارب من سبقه من الملوك الذين أقاموا حكمهم وفق قواعد (الدهاء) و (سياسة الملك) والمكر والخديعة وغيرها، نابذين منهج الرسول صلى الله عليه وآله وحكومة الرسول ونظرته وتصوراته، وبالتالي كل منهج وحكومة وتصور ونظرة مماثلة، متجسدة بلا شك بتلك التي حملها الإمام عليه السلام.

وقد انبهر الخليفة عمر، وهو أحد الصحابة الذين تولوا عملياً منصب خلافة المسلمين، بما كان يتمتع به الإمام من قابليات نادرة أتاحت له انقاذ القيادة القائمة والأمّة من جملة من المآزق والمشاكل بحلول صائبة وأفكار رشيدة ما كان لها أن تصدر إلا عن رسول الله صلى الله عليه وآله أو عن وصيه.. (.. حتى قال عمر مرات عديدة «لولا علي لهلك عمر» وقال للإمام «أعوذ بالله أن أعيش في قوم لست فيهم يا أبا الحسن» وقال «كاد يهلك ابن الخطاب لولا علي» وقال «اللهم لا تبقني لمعضلة ليس فيها أبو الحسن»)[1]، ولم يستطع رغم منافسته للإمام على منصب الخلافة، ألا أن يقول ما

(١) السنن الكبرى ٧ ص ٤٤٢. مختصر جامع العلم ص ١٥٠. الرياض النضرة ٢ ص ١٩٤ - ١٩٧ ذخائر العقبى ص ٨٢ تفسير الرازي ٧ ص ٤٨٤. أربعين الرازي ص ٤٤٦ تفسير النيسابوري ٣ في سورة الأحقاف. كفاية الكنجي ص ١٠٥. مناقب الخوارزمي ص ٥٧. تذكرة السبط ص ٨٧. الدر المنثور ١ ص ٢٢٨ و ج ٦ ص ٤٠ نقلاً عن جمع من الحفاظ. صح كنز العمال ٣ ص ٩٦ نقلاً عن خمس من الحفاظ و ج ٣ ص ٢٢٨ نقلاً عن غير واحد من أئمة الحديث ومنتخب كنز العمال هامش مسند أحمد ٢ ص ٣٥٢، والحافظ الكنجي في الكفاية ص ٩٦ وابن الصباغ المالكي في الفصول المهمة ص ١٨ وتاريخ ابن عساكر=

عرفته الأمة كلها عنه وأن يشيد بمن أشاد به الله ورسوله... فعلام يتناسى البعض فضل الإمام عليه السلام وامتيازه وجدارته.. إلا ما ذكرناه من أسباب وفي مقدمتها تبني المواقف الرسمية المعلنة لبعض الحكام (المسلمين) الذين لا تتفق مصالحهم ومنهج الإمام بشكل عام، وعجز البعض عن تحمل مسؤولية البحث والدراسة وتبني الموقف الصائب أمام مجتمعات قد تكون دَرَجت على مفاهيم وأفكار مسبقة بشأن الإمام عليه السلام وشيعته بشكل عام، مما قد يعرضهم لحملات من (السخط) الشعبي المحلي لا يريدون هم أيضاً تحمل مسؤولية تغييره وانتشاله مما سقط فيه من أوهام وأضاليل.

القرآن الكريم.. مدح وتكريم لعلي وأهل بيت النبوة عليهم السلام ـ نصوص واضحة

ولو أننا رجعنا إلى كتاب الله العزيز لرأينا الكم الهائل من الآيات القرآنية الكريمة التي نزلت بحق علي وآل محمد عليهم السلام، والتي أجمعت كتب الصحاح والرواة الثقاة من كل المذاهب الإسلامية، على أنها كانت بحقهم عليهم السلام خاصة، ولم ينفرد رواة الحديث الشيعة وحدهم بذلك، ولو أردنا تقصي هذه الآيات ومعانيها، وكيف أنها نزلت بشأن علي وآل محمد عليهم السلام والأحاديث الواردة حول ذلك وأسانيدها والكتب التي وردت فيها، لما اتسع كتابنا لذلك، فموضوعه محدد منذ البداية ومكرس للحديث عن ثورة أحد هؤلاء الآل وهو الحسين عليه السلام.

وقد أورد العلامة عبد الحسين شرف الدين الموسوي ـ عليه رضوان الله ـ بعض تلك الآيات الكريمة في كتابه القيم (المراجعات)، وأسماء العديد من الكتب والمحدثين الثقاة الذين أوردوا الأحاديث الخاصة بنزول تلك الآيات، لا نرى بأساً لذكر بعضها في هذه العجالة وفق ما يتسع له المجال في هذا الكتاب المحدود، ولن نشير إلى كل المحدثين والأسانيد، وحسبنا أن نطلب ممن يريد الاطلاع عليها بشكل وافٍ الرجوع إلى (المراجعات) وإلى الأسماء التي أوردها الإمام عبد الحسين شرف الدين، ففي كتابه القيم هذا ما يشفي الغليل حقاً، ويدع كل امرىء ـ مهما كان مذهبه

=ـ ترجمة الإمام علي بن أبي طالب ـ دار التعارف ج ٣ رقم الحديث ١٠٧٣ ص ٤٠)ـ راجع (خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء ـ محمد باقر الصدر ـ ط ٢ ـ دار التعارف ـ بيروت ١٣٩٩ هـ وراجع ابن كثير/ البداية والنهاية ج ٧ ص ٣٧٣.

أو اتجاهه ـ مقتنعاً حقاً بجدارة وأحقية بيت النبوة بالفضل الذي اختصهم الله به ومنحهم إياه لزعامة الأمة المسلمة وقيادتها ما دامت هذه الأرض قائمة، وإلى أن يرثها الله ومن عليها. وسيجد أن الشيعة لم يكونوا مبالغين في انحيازهم إلى آل البيت عليهم السلام، بل إنهم ربما يكونون (عموماً) مقصرين تجاه أئمتهم، إذ لم يبذلوا جهودهم كاملة، لتقصّي خطاهم ومنهجهم الذي هو منهج رسول الله ﷺ نفسه، بشكل يتيح لعموم المسلمين المخدوعين المضللين منهم مركزهم ودورهم الحقيقي وما اختصهم الله سبحانه من كرامة وصفات نادرة جعلتهم بمستوى الثناء الإلهي عليهم.

ونؤكد أن ما سنذكره هنا من آيات نزلت بحق آل البيت عليهم السلام خاصة، وإن ذلك مروي عن رجال معروفين مثل ابن عباس وأبي سعيد الخدري وجابر وسلمان الفارسي وأبي هريرة وأنس بن مالك وأبي بكر وأبي ذر وسعيد بن جبير ورواه رجال معروفون بتقصي الدقة والثقة مثل الإمام الثعالبي والإمام الشافعي والحافظ أبو نعيم وموفق بن أحمد وابن حجر ومحمد بن يعقوب وابن مردويه والعياشي والثعلبي وأبي بريدة، ووكيع بن الجراح وسفيان الثوري والقوشجي والنسائي وثابت البناني والحارث بن يحيى والحاكم، وابن بابويه، والبحريني والأصفهاني الأموي والواحدي والحمويني الشافعي والأعمش والشبلنجي والحلبي والديلمي والنيسابوري والبرقي والطبرسي وابن المغازلي الشافعي وثقة الإسلام محمد بن يعقوب والشيخ، والدارقطني وابن السماك وعمرو بن ثابت وأبي إسحاق والبخاري ومجاهد والكلبي والفخر الرازي ومسلم والصدوق ومئات غيرهم، أورد العلامة المرحوم أسماءهم بتفصيل جميل دقيق في (المراجعات)، فإليه نلفت أنظار الباحثين والدارسين ممن لم يطلعوا عليه لحد الآن، فهو كتاب لا يستغنى عنه، وهو يغني عن مكتبة كاملة بهذا المجال.. غير أننا سننقل المراجعة (١٢) كاملة، دون ذكر معظم الهومش، مع التأكيد ثانية على أن ما ذكر من آيات كان بحق آل البيت عليهم السلام خاصة دون غيرهم، أشار إليه بشكل دقيق من ذكرناهم هذا، وآخرون ذكرهم العلامة الكبير في مراجعاته القيمة.

(المراجعة ١٢ حجج الكتاب:

إنكم ـ بحمد الله ـ ممن وسعوا الكتاب علماً، وأحاطوا بجليّه وخفيه خبراً، فهل نزل من آياته الباهرة في أحد ما نزل في العترة الطاهرة؟ هل حكمت محكمات

بذهاب الرجس عن غيرهم؟ [كما حكمت بذهابه عنهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1]..؟ وهل لأحد من العالمين كآية تطهيرهم؟ هل حكم بافتراض المودة لغيرهم محكم التنزيل؟ [كلا، بل اختصهم الله سبحانه بذلك تفضيلًا لهم على من سواهم، فقال ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ «وهي هنا مودتهم» ﴿نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ «لأهل مودتهم» ﴿شَكُورٌ﴾[2] «لهم على ذلك»)... وهل هبط بآية المباهلة بسواهم جبرئيل؟ [كلا، وإنما هبط بآية المباهلة بهم خاصة، فقال عز من قائل ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ...﴾[3] الآية.

هل أتى هل أتى بمدح سواهم لا ومولى بذكرهم حلاها

أليسوا حبل الله الذي قال: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ﴾[4].

والصادقين الذين قال: ﴿وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾[5] وصراط الله الذي قال: ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ﴾[6] وسبيله الذي قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾[7] وأولي الأمر الذين قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ﴾[8]، وأهل الذكر الذين قال: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[9] والمؤمنين الذين قال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ﴾[10] والهداة الذين قال ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[11]..؟ أليسوا من الذين أنعم الله عليهم، وأشار في السبع المثاني والقرآن العظيم إليهم، فقال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾[12]

---

(١) الأحزاب: ٣٣.
(٢) الشورى: ٢٣.
(٣) آل عمران: ٦١.
(٤) آل عمران: ١٠٣.
(٥) التوبة: ١١٩.
(٦) الأنعام: ١٥٣.
(٧) الأنعام: ١٥٣.
(٨) النساء: ٥٩.
(٩) النحل: ٤٣.
(١٠) النساء: ١١٥.
(١١) الرعد: ٧.
(١٢) الفاتحة: ٧.

وقال ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾(1).. ألم يجعل لهم الولاية العامة؟ ألم يقصرها بعد الرسول عليهم؟ فاقرأ ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾(2) ألم يجعل المغفرة لمن تاب وآمن وعمل صالحاً مشروطة بالاهتداء إلى ولايتهم إذ يقول: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾(3) ألم تكن ولايتهم من الأمانة التي قال الله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾(4).. ألم تكن من السلم الذي أمر الله بالدخول فيه فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾(5) أليست هي النعيم الذي قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾(6).. ألم يؤمر رسول الله ﷺ بتبليغها؟ ألم يضيّق عليه في ذلك بما يشبه التهديد من الله عز وجل حيث يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾(7)، ألم يصدع رسول الله ﷺ بتبليغها عن الله يوم الغدير حيث هضب خطابه، وعب عبابه، فأنزل الله يومئذٍ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾(8) ألم تر كيف فعل ربك يومئذٍ بمن جحد ولايتهم علانية، وصادر بها رسول الله جهرةً، فقال: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(9) فرماه الله بحجر من سجيل كما فعل من قبل بأصحاب الفيل، وأنزل في تلك الحال ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾(10). وسيسأل الناس عن ولايتهم يوم يبعثون كما جاء في تفسير قوله تعالى ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾(11)

---

(1) النساء: ٦٩.
(2) المائدة: ٥٥.
(3) طه: ٨٢.
(4) الأحزاب: ٧٢.
(5) البقرة: ٢٠٨.
(6) التكاثر: ٨.
(7) المائدة: ٦٧.
(8) المائدة: ٣.
(9) الأنفال: ٣٢.
(10) المعارج: ١.
(11) الصافات: ٢٤.

ولاغرو فإن ولايتهم لما بعث الله به الأنبياء وأقام عليه الحجج والأوصياء، كما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾[(١)] بل هي مما أخذ الله به العهد من عهد ألست بربكم كما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾[(٢)] وتلقى آدم من ربه كلمات التوسل فتاب عليه. وما كان الله ليعذبهم وهم أمان أهل الأرض ووسيلتهم إليه. فهم الناس المحسودون الذين قال الله فيهم: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ﴾[(٣)] وهو الراسخون في العلم الذين قال: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا﴾[(٤)]، وهم رجال الأعراف الذين قال: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ﴾[(٥)] ورجال الصدق الذين قال: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾[(٦)] ورجال التسبيح الذين قال الله تعالى ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾[(٧)] وبيوتهم التي ذكرها الله عز وجل فقال: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾[(٨)] وقد جعل الله مشكاتهم في آية النور مثلاً لنوره وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم، وهم السابقون السابقون أولئك المقربون، وهم الصديقون، والشهداء والصالحون، وفيهم وفي أوليائهم قال الله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾[(٩)] وقال في حزبهم وحزب أعدائهم: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾[(١٠)] وقال في الحزبين أيضاً: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾[(١١)] وقال فيهما أيضاً: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ

---

(١) الزخرف: ٤٥.
(٢) الأعراف: ١٧٢
(٣) النساء: ٤٥.
(٤) آل عمران: ٧.
(٥) الأعراف: ٤٦.
(٦) الأحزاب: ٢٣.
(٧) النور: ٣٦-٣٧.
(٨) النور ٣٦.
(٩) الأعراف: ١٨١.
(١٠) الحشر: ٢٠.
(١١) صۤ: ٢٨.

ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[1] وقال فيهم وفي شيعتهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾[2] وقال فيهم وفي خصومهم: ﴿هَـٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾[3] وفيهم وفي عدوهم نزل: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾[4] وفيهم وفي من فاخرهم بسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام أنزل الله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَجَـٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[5] وفي جميل بلائهم وجلال عنائهم قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[6] وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[7] ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[8] وقد صدقوا بالصدق، فشهد لهم الحق تبارك اسمه فقال: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[9] فهم رهط رسول الله المخلصون وعشيرته الأقربون الذين اختصهم الله

---

(١) الجاثية: ٢١.
(٢) البيّنة: ٧.
(٣) الحج: ١٩.
(٤) السجدة: ١٨.
(٥) التوبة: ١٩.
(٦) البقرة: ٢٠٧.
(٧) التوبة: ١١١ - ١١٢.
(٨) البقرة ٢٧٤.
(٩) الزمر: ٣٣.

بجميل رعايته وجليل عنايته فقال: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾(1) وهم أولو الأرحام، ﴿وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾(2) وهم المرتقون يوم القيامة إلى درجته الملحقون به في دار جنات النعيم بدليل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾(3) وهم ذوو الحق الذي صدع القرآن بإيتائه ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾(4) وذوو الخمس الذي لا تبرأ الذمة إلا بأدائه: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾(5) وأولوا الفيء: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾(6) وهم أهل البيت المخاطبون بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾(7)، وآل يسين الذين حياهم الله في الذكر الحكيم فقال: ﴿سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ﴾(8) وآل محمد الذين فرض الله على عباده الصلاة والسلام عليهم فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾(9) فقالوا: يا رسول الله أما السلام عليك فقد عرفناه، فكيف الصلاة عليك؟ قال: قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، الحديث؛ فعلم بذلك أن الصلاة عليهم جزء من الصلاة المأمور بها في هذه الآية، ولذا عدها العلماء من الآيات النازلة فيهم، حتى عدها ابن حجر في الباب ١١ من صواعقه في آياتهم. فطوبى لهم وحسن مآب، جنات عدن مفتحة لهم الأبواب.

من يباريهم وفي الشمس معنى مجهد متعب لمن باراها

فهم المصطفون من عباد الله، السابقون بالخيرات باذن الله، الوارثون كتاب الله، الذين قال الله فيهم: [﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ «وهو الذي لا يعرف الأئمة» ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ «وهو الموالي للأئمة»

---

(1) الشعراء: ٢١٤.
(2) الأحزاب: ٦.
(3) الطور: ٢١.
(4) الاسراء: ٢٦.
(5) الأنفال: ٤١.
(6) الحشر: ٧.
(7) الأحزاب: ٣٣.
(8) الصافات: ١٣٠.
(9) الأحزاب: ٥٦.

﴿وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ «وهو الإمام» ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾[1] وفي هذا القدر من آيات فضلهم كفاية، وقد قال ابن عباس: نزل في علي وحده ثلاث مئة آية. وقال غيره: نزل فيهم ربع القرآن. ولا غرو فإنهم وإياه الشقيقان لا يفترقان. فلنكتف الآن بما تلوناه آيات محكمات هن أم الكتاب، خذها في سراح ورواح؛ ينفجر منها عمود الصباح خذها رهواً سهواً، وعفواً صفواً؛ خذها من خبير عليه سقطت ولا ينبئك مثل خبير، والسلام)[2].

وضوح الشمس يمنع من رؤيتها

إن الوضوح الشديد في الآيات النازلة بحق آل البيت عليهم السلام والأحاديث الشريفة الكثيرة التي تشيد بفضلهم وتواردها بشكل لا يقبل الشك عن طريق مئات المسلمين الثقاة من الصحابة والتابعين ورواة الحديث ومؤرخي السير والحوادث وحتى من قبل أولئك الذين لا يعدون من (شيعتهم)... تجعل العديدين ممن يرون من ينكر عليهم مكانتهم وفضلهم يعجبون من قوة الحملة المناهضة لهم عليهم السلام واستمرارها لحد الآن، وعدم زوال الايحاء الأموي المزروع في عقول فئات عديدة من الأمة رغم مرور هذا الزمن الطويل منذ أن مهّد معاوية لهذه الحملة القوية المنظمة التي كرست لها كل امكانات (الدولة) الأموية... ثم كل امكانات (الدول) السائرة على النهج الأموي وإلى يومنا هذا.

إن العقلية الأموية، التي استمالت إلى جانبها العقلية القرشية الجاهلية المكسورة المنهزمة أمام المد الإسلامي، استطاعت بفعل متواصل مبرمج متواصل ومركز أن تصل بأغلبية الأمة إلى مرحلة العبثية واللامبالاة والنظر إلى الإسلام بمنظارها هي؛ منظار المصالح الأرضية المتدنية. إلى درجة رفض واهمال كل ما لا يحقق هذه المصالح حتى ولو كان القرآن الكريم أو الرسول العظيم صلى الله عليه وآله.

إنها العقلية الأرضية الدنيوية البحتة التي لا تريد أن تقترب من روح الله، ولا تعترف لها بأية قيمة، ولا تكاد تنزل كل شيء إلا وفق مفاهيمها ونظراتها المنحطة. لذلك فإذا ما تداخلت عوامل عديدة مع النظرة الأموية المعادية للإسلام، وعداء قريش

(١) فاطر: ٣٢.

(٢) المراجعات: ٣٣ - ٤٨.

القديم له، مثل مصالح الطواغيت والفراعنة الذين ادعوا لأنفسهم القيمومة على الدين القيّم ـ بعد أن لم يستطيعوا نزعه إلى الأبد من نفوس كل أبناء الأمة ـ فإننا لا نستغرب اعلان العداء الصريح لله ورسوله ﷺ عن طريق شن الحرب المعلنة الدائمية على القادة الحقيقيين من آله عليهم السلام، رغم وضوح ما أنزله الله في كتابه المجيد وما قاله الرسول ﷺ. فكتاب الله لا يعني عندهم إلا إحدى الأوراق التي تحقق مصالحهم، وكذلك أحاديث الرسول ﷺ، وإلا: فهل يحترم كلام الله من يفسره على هواه...؟!.

وهل يحترم الرسول من يضع أحاديث مكذوبة مفتراة عليه..؟!.

وهنا: ألا يكون من أشاد بهم القرآن والرسول ﷺ على السواء، عقبة في طريق هؤلاء الطامحين المتطلعين إلى الجاه والسلطان..؟.

إن الغرابة تبدو إذا ما انحرف أناس ملتزمون بخط الإسلام فعلًا، أما إذا ما انحرف عنه وشن الحرب عليه وعلى حَمَلَتِهِ من جعل إلٰهه هواه ومصالحه فليس في الأمر أية مدعاة للاستغراب، فلو كان رسول الله ﷺ في موقع الإمام علي عليه السلام، وكان معاوية في مركزه الذي حصل عليه بين أهل الشام وقريش، لما توانى معاوية لحظة في شن الحرب على رسول الله ﷺ وقتله لو أتيحت الفرصة لذلك ولاندفع بنفس القوة التي اندفع بها أبوه، أبو سفيان، والعائلة الأموية الحاقدة على الإسلام.

لم يجد معاوية القدرة على تغيير القرآن، فعمل على تأويله، غير أنه استطاع أن يدعو من يضع ويزور له أحاديث على لسان النبي ﷺ ففعل ذلك أيضاً، وكانت تلك من أشد الكوارث التي لحقت بالمسلمين حينما حرّف دينهم (خليفة المسلمين) وحاول ذلك بعده آخرون... والطامة الكبرى إن فئات كبيرة من المسلمين اقتنعت ولا تزال تقتنع بمعاوية وأشباهه، أكثر من قناعتها برسول الله ﷺ نفسه وخلفائه وآله عليهم السلام.

كل الصحاح تتحدث عن الفضائل العلوية.. وكتب التاريخ والسير أيضاً

إننا لن نعود دائماً إلى (المراجعات) لنعزز قناعتنا بالكم الهائل من الأحاديث النبوية الشريفة بحق علي وآله عليهم السلام، فقناعة من يتحرى الحق ويقصده يكفي أن تتعزز بالاطلاع النزيه على ما جاء بكتب السيرة والتاريخ حتى ولو كان يسيراً، فهذه الكتب

تعرضت كغيرها لتأثير السلطات الحاكمة ومع ذلك، فقد أجمعت على رواية فضائل أمير المؤمنين وآله عليه السلام بشكل لا يدع معه مجالًا لأي شك أو تردد.

لقد وردت روايات متواترة في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال لأمير المؤمنين (ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي). وقال عنه (لأعطين الراية رجلًا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله يفتح الله على يديه، ليس بفرار) وقال عنه عمر (لقد أعطي علي بن أبي طالب ثلاث خصال، لأن تكون لي خصلة منها أحب إليَّ من حمر النعم . . . تزويجه فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، وسكناه المسجد مع رسول الله صلى الله عليه وآله يحل له فيه ما يحل له. والراية يوم خيبر).

وعن زيد بن أرقم قال: (كان لنفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله أبواب شارعة في المسجد. . فقال يوماً: (سدوا هذه الأبواب إلا باب علي. . فتكلم في ذلك أناس فقام رسول الله صلى الله عليه وآله فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: (أما بعد، فإني أمرت بسد هذه الأبواب غير باب علي، فقال فيه قائلكم، وإني والله ما سددت شيئاً ولا فتحته، ولكن أمرت بشيء فاتبعته). . وفي رواية أخرى:

(ما أنا فتحته، ولكن الله فتحه).

وعن سعيد بن جبير وابن عباس: إن الرسول صلى الله عليه وآله قال: ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ فقلت: بلى يا رسول الله، فقال: (من كنت مولاه فعلي مولاه).

وقد سمع أناساً يطعنون بعلي عليه السلام فقال صلى الله عليه وآله: (دعوا علياً، دعوا علياً، دعوا علياً. إن علياً مني وأنا منه، وهو ولي كل مؤمن بعدي).

وقال صلى الله عليه وآله: (من آذى علياً فقد آذاني). وعن الإمام أحمد:

وقال صلى الله عليه وآله يوم غدير خم، وقد أخذ بيد علي عليه السلام: (أتعلمون أني أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: نعم، يا رسول الله، قال: (من كنت مولاه فهذا مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره واخذل من خذله).

وعن أم سلامة قالت: (سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: (من سب علياً فقد سبني) وورد من حديثها وحديث جابر وأبي سعيد، أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لعلي عليه السلام: (كذب من زعم أنه يحبني ويبغضك). .)[1].

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ج ٧ ص ٣٥٣ - ٣٦٧.

و (عن عائشة، أنها سئلت أي الناس كان أحب إلى رسول الله ﷺ؟ قالت: فاطمة. فقيل: من الرجال؟ قالت: زوجها، إن كان ما علمت صواماً قواماً.

أخرجه الترمذي وابن عبيد وزاد بعد قوله قواماً: جديراً بقول الحق)(١).

(وعن أبي ذر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لعلي عليه السلام: أنت الصديق الأكبر وأنت الفاروق الذي يفرق بين الحق والباطل وأنت يعسوب الدين)(٢).

(وكناه رسول الله ﷺ بأبي تراب.. وعن فاطمة عليها السلام قالت: ما كان اسم أحب إلى عليّ منه لأن ما سماه إياه إلا رسول الله ﷺ (٣).

(وكان يلقب بيضة البلد وبالأمين والشريف والهادي والمهتدي وذي الاذن الواعي)(٤) (وعن أبي الأسود محمد بن عبد الرحمن أنه بلغه أن علي بن أبي طالب قد أسلم وهو ابن ثمان سنين.. وقال ابن اسحق: أسلم علي بن أبي طالب وهو ابن عشر سنين)(٥).

و(عن زيد بن أرقم قال: كان أول من أسلم علي بن أبي طالب)(٦).

(وعن عمر قال: كنت أنا وأبو عبيدة وأبو بكر وجماعة إذ ضرب رسول الله ﷺ منكب علي بن أبي طالب، فقال: يا علي، أنت أول المؤمنين إيماناً، وأنت أول المسلمين إسلاماً وأنت مني بمنزلة هارون من موسى)(٧).

وعن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: ما اكتسب مكتسب مثل فضل علي يهدي صاحبه إلى الهدى ويرده عن الردى، أخرجه الطبراني)(٨).

(وعن ابن عباس أن علياً دخل على النبي ﷺ فقام إليه وعانقه وقبل بين عينيه، فقال له العباس: أتحب هذا يا رسول الله؟ قال: يا عم والله، لله أشد حباً له) أخرجه أبو الخير القزويني)(٩).

(وعن أنس بن مالك عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ما من نبي إلا وله نظير في أمته وعلي نظيري) أخرجه أبو الحسن الخلعي)(١٠).

(وعن أم سلمة قالت: أشهد أني سمعت رسول الله ﷺ يقول «من أحب علياً

---

(١) ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى/ الحافظ محب الدين الطبري مطبعة القدسي ومطبعة السعادة ص ٣٥، ٥٦، ٥٧، ٥٨.

(٢) المصدر السابق ص ٥٨، ٦٤، ٦٦، ٧١، ٧٨، ٧٩، ٨٢، ٨٣، ٨٩.

فقد أحبني ومن أحبني فقد أحب الله ومن أبغض علياً فقد أبغضني، ومن أبغضني فقد أبغض الله، ـ أخرجه المخلص الذهبي وأخرجه غيره عن حديث عمار بن ياسر وزاد فيه: (.. ومن تولاه فقد تولاني، ومن تولاني فقد تولى الله)(1).

(وعن ابن عباس قال (أشهد بالله لسمعته من رسول الله ﷺ يقول: من سب علياً فقد سبني ومن سبني فقد سب الله ومن سب الله عز وجل أكبه الله على منخريه) ـ أخرجه أبو عبد الله الخلافي)(2).

(عن قيس بن أبي خاذم قال: التقى أبو بكر وعلي بن أبي طالب فتبسم أبو بكر في وجه علي، فقال له: ما لك تبسمت؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يجوز أحد الصراط إلا من كتب له علي الجواز» أخرجه ابن السمان في كتاب الموافقة)(3).

(وعن ابن عباس قال: والله لقد أعطي علي تسعة أعشار العلم. وأيم الله لقد شارككم في العشر العاشر» أخرجه أبو عمر)(4).

(وعن عمر قال: «أقضانا علي» ـ أخرجه الحافظ السلفي)(5).

(وعن ابن عباس قال: ليس من آية في القرآن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ إلا وعلي رأسها وأميرها وشريفها. فلقد عاتب الله أصحاب محمد في القرآن وما ذكر علياً إلا بخير)، ذكره أحمد في المناقب)(6).

لقد كان (أول من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. وايثار علي عليه السلام غيره في جميع أوقات عمره مشهور وفي الكتب مسطور. ولقد آثر حياة رسول الله ﷺ ليلة المبيت، فباهى الله به الملائكة وأنزل فيه ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ..﴾(7) (8).

ومهما يكن من أمر فهل يمكن تناسي الآيات القرآنية الكريمة النازلة بحق علي وآل البيت عليهم السلام؟ (وهل يمكن لأحد أن ينكر حديث الغدير الذي روي في الصحيحين عن رسول الله ﷺ «علي مني بمنزلة هارون من موسى» ومثل «لا يحبك إلا مؤمن

(1) - (6) المصدر لسابق.
(7) البقرة: 207.
(8) العقد الفريد ص 59.

ولا يبغضك إلا منافق»، وفي حديث الطائر «اللهم ائتني بأحب خلقك إليك» ـ فدخل عليه علي ـ ومثل: «لأعطين الراية غداً رجلًا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله» ـ وأعطاها إلى علي ـ ومثل «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي» ومثل: «علي مع الحق، والحق مع علي».. إلى كثير من أمثالها)[1].

الكره الموروث.. حاجز أمام رؤية الحقيقة

إن هذه الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية الصحيحة المتواترة عن رواة ثقاة من أهل السنة ومن الشيعة أيضاً، تقلق بال أولئك الذين تبنوا أفكاراً مسبقة عن أمير المؤمنين عليه السلام، وحملوا كرهاً لا مبرر له، إلا أنه كره موروث حمله أجدادهم الغابرون، فهم في الوقت الذي لا يستطيعون فيه الطعن بهؤلاء الرواة الثقاة عند المسلمين جميعاً، فإنهم لا يقدرون على حمل أنفسهم على التسليم بما جاء في هذه الروايات التي لو روي عشر معشارها في غير علي عليه السلام لرفعوه ولتباهوا به أمام الخلائق كلها، لكن: أما وإن الأمر مع علي، فهو هنا يتخذ صورة أخرى ومنحى آخر. إن الحقد والعصبية والجهل وعدم التبصر يجعلهم يحقدون على النبي صلى الله عليه وآله نفسه، وإن لم يستطيعوا أن يعبروا عن ذلك بشكل مكشوف مفضوح، وربما برروا قول النبي صلى الله عليه وآله للأحاديث الواردة بشأن علي عليه السلام بأنه راجع لصفة القرابة الحميمة بينهما، ومعنى ذلك أنهم ينسبون إليه التحيز والانجراف وراء الرغبات والنزعات البشرية العادية التي عصمه الله منها.

أحاديث الرسول صلى الله عليه وآله بشأن علي عليه السلام ترسيخ للحقائق.. لا مبالغات

وقد يعتبر بعضهم كلام رسول الله صلى الله عليه وآله مبالغة وقد يحاولون تأويله كما حاولوا تأويل بعض آيات القرآن الكريم نفسها، ليقللوا من شأن الأحاديث الواردة بشأن علي وآل البيت عليهم السلام وقد عمد البعض إلى وضع أحاديث مقابلة بشأن بعض الصحابة، ربما بعد وفاة أولئك الصحابة أنفسهم وبعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، لكي يوحوا بعدم تفرد علي عليه السلام بما ورد بشأنه، وإن الآخرين لا يقلون عنه شأناً، ولم يكن ذلك بدافع الحب لهؤلاء الصحابة، بقدر ما كان الدافع إليه بغض علي عليه السلام الذي دمر أطماعهم

---

(١) أصل الشيعة ٨٩ – ٩٠.

ووقف عقبة في سبيل محو الدين وجعله أداة طيعة في أيديهم للتسلط والاستغلال والقمع.

فإذا ما أدركنا سمو المرتبة التي وضع الله فيها رسوله ﷺ، سيداً للخلق وبشيراً ونذيراً ورحمة للعالمين، لماذا نستغرب أن يضع الله سبحانه، وصي هذا النبي وخليفته وأخاه في مرتبة عليا مماثلة، مع أنه أحب خلق الله إليه وإلى رسوله؟.

لقد أحب الله محمداً ﷺ، وقرن اسمه مع اسمه ـ في شهادة الإسلام ـ لا كشريك، ولكن كعبد مطيع بلغ رسالة ربه حق أدائها ولم يترك منها صغيرة ولا كبيرة إلا بلّغها للناس، رغم المصاعب والوقوف الشرس لأعدائه المنزعجين من رسالته إلى أبلغ حد. وإذاً فإن أولئك الذين يدّعون إن أحاديث الرسول ﷺ كانت مبالغاً فيها، عليهم أن يدركوا أن الرسول ﷺ لم يرد عندما صرح بأن علياً كان أحب خلق الله إليه، حتى منه هو ﷺ، بل أحبهم إليه من بقية الخلق.. أما محمد ﷺ فله منزلة خاصة عند الله.

لقد تنوسيت المضامين العظيمة لهذه الأحاديث في غمرة المنازعات والتحزب والمنافسة على السلطة والعروش، ولو أن أولئك الذين سلبوا الخلافة من أصحابها الحقيقيين رأوا رسول الله ﷺ يتصدى لهم بنفسه لمنعهم من ذلك، لعمدوا إلى النيل منه بشكل مباشر وربما قتله، كما حاول آباؤهم المباشرون من قبل، ولو أنهم رأوا أن انكارهم العلني للخالق يوصلهم إلى أحلامهم، لعمدوا إلى ذلك ولم يتهيبوا أمام قوة الأطماع التي تجيش في صدورهم.

وإلا فماذا نرى من هذه الحملة المقصودة على أمير المؤمنين عليه السلام، أليست هي حملة على الإسلام وعلى رسول الله ﷺ وعلى الله سبحانه...؟ كان لا بد أن يتوفى الرسول ﷺ وأن يقود الأمة بعده حملة الرسالة الحقيقيون آل محمد عليهم السلام، وكان منعهم من أداء هذه المهمة، وشن حملة افتراء وأكاذيب مغرضة ضدهم يعني محاولة ايقاف مسيرة الإسلام بشكل متعمد مقصود.

إن على من يتبنّى الحملات الظالمة ضد آل البيت، أن يعرف الدوافع الحقيقية التي دعت أعداءهم منذ البداية لشن تلك الحملات، ومنها التهالك الواضح على السلطة، وينبغي أن لا تغيب عن ذهنه التبريرات والحجج الواهية التي طرحوها في خضم الحروب والمعارك السابقة، فماذا يجني من يتبنى أفكار معاوية غير آثام كآثامه؟

هل سيشاركه الملك أم أنه سيبقى مجرد مخدوع من مخدوعي أهل الشام ومغفليهم الذين انقادوا وراءه دون وعي أو إرادة ولم ينظروا إلى الإسلام إلا بنظارتيه الخادعتين..؟.

فضائل.. لا خلاف عليها

إن هذه مسألة دقيقة، ينبغي الالتفات إليها. ففضائل علي عليه السلام لا يختلف عليها اثنان، وهي من العظمة بحيث جعلت الكثيرين يغالون فيها وينسبونها إلى الله نفسه ـ سبحانه ـ ويؤلهون هذا الرجل العظيم، بل العبد المطيع الذي كان كيانه كله بكل شعرة وخلية في جسمه ومع كل نفس يتصاعد إلى صدره، ينطق بتوحيد الله، ويذوب حباً فيه وفي رسوله ودينه.

وإذا ما تلمسنا أحداث حياته عليه السلام بدقة ووعي، وجدنا أنه قد كرس هذه الحياة بشكل تام في سبيل الإسلام ورسول الإسلام صلى الله عليه وآله، لقد فداه بنفسه مرات عديدة ابتداء من ليلة الهجرة المباركة، عندما بات على فراشه وعرض نفسه للقتل على أيدي عتاة قريش وقتلتها، ووقوفه في كل معارك الإسلام درعاً للرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسيفاً أشهره على المشركين فقتل به المئات منهم، كان حرباً على الكفر والاستغلال والظلم، وكان صورة ناطقة للإسلام، حمله بكل جوارحه وفهمه ووعاه بشكل حقيقي تام كما فهمه ووعاه رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه.

إنها مهمة صعبة حقاً تناول سيرة هذا الرجل الكبير في مقال واحدٍ أو في كتاب واحد، وجانب واحد من جوانب هذه السيرة قد يكون عسيراً علينا، إذا ما حاولنا دراسته بوعي وفهم.. ولهذا فقد ضل فيه كثيرون بين غال وقال كما عبر هو بنفسه عليه السلام. إذ لم يدركوا وضوحه الخارق وبساطته المتناهية وفطرته المستقيمة التي عبرت عن فطرة الإسلام نفسه في طرحه لأمور الحياة المختلفة. إن هذا الوضوح الخارق هو الذي جعله يغمض عليهم، وهذه الاستقامة المفرطة والعدالة التامة والذوبان في ذات الله هي التي جعلت من ابتعدوا عنها يجدون أسباباً للنيل منه بعد أن لم يستطيعوا أخذ أنفسهم للسير على نهجه وطريقه، لأنهم وجدوه عسيراً، غير ممكن التطبيق، بنظرهم.

الشيعة.. المصلّون.. المواسون

ولا ندّعي أن كل من انتسب إليه بالاسم متشيّعاً أو مدعياً ذلك، هو من شيعته عليه السلام وشيعة رسول الله صلى الله عليه وآله حقاً، يسير على نفس طريقهما ومنهجهما، فكثير

من الشيعة أخذوا ذلك تقليداً عن أسلافهم ونشأوا عليه، إلا أنهم نشأوا على خطوط منحرفة خاطئة في حياتهم، شأنهم في ذلك شأن أبناء الإسلام الآخرين، من خلال حملات مقصودة أريد لهم فيها أن يبتعدوا جميعاً عن خط الإسلام.

وهنا: ينبغي أن لا تضاف نقائص هؤلاء وأخطاؤهم إلى علي عليه السلام أو الإسلام أو لمن جاء بعده من الأئمة الآخرين.

وينبغي أن نعلم أن علياً عليه السلام لم يكن متهالكاً على كسب شيعة خاصين له لتثبيت ملك وعرش وإنما كان حريصاً على كسب (شيعة) للإسلام، كما كان من جاء بعده من الأئمة عليهم السلام، حريصين على رص الناس على خط الإسلام وجعلوا ذلك شرطاً لمن يدعي ولايتهم والانتساب إليهم، ومن المناسب أن نورد هنا كلمات صريحة لهم بهذا الصدد.

فقد جاء (عن أمير المؤمنين عليه السلام: «اختبروا شيعتي بخصلتين، فإن كانتا فيهم، فهم شيعتي: محافظتهم على أوقات الصلاة، ومواساتهم مع اخوانهم المؤمنين بالمال، وإن لم تكونا فيهم، فاعزب ثم اعزب.

وفي الكافي وأمالي الصدوق عن جابر بن يزيد الجعفي قال: قال الباقر عليه السلام: يا جابر، أيكتفي من ينتحل التشيع أن يقول بمحبتنا أهل البيت. فوالله ما شيعتنا إلا من اتقى الله وأطاعه، وما كانوا يعرفون يا جابر إلا بالتواضع والتخشع والأمانة والانابة، وكثرة ذكر الله والصوم والصلاة، والبر بالوالدين والتعهد للجيران من الفقراء وأهل المسكنة والغارمين والأيتام وصدق الحديث وتلاوة القرآن وكف الألسن عن الناس. لا تذهبن بك المذاهب، حسب الرجل أن يقول أحب علياً وأتولاه، ثم لا يكون مع ذلك فعالًا. فلو قال: إني أحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خير من علي، صلى الله عليهما وعلى آلهما وسلم، ثم لا يتبع سيرته ولا يعمل بسنته، ما نفعه حبه شيئاً، فاتقوا، واعملوا لما عند الله. ليس بين الله وبين أحد قرابة. أحب العباد إلى الله عز وجل أتقاهم، وأعملهم بطاعته. يا جابر فوالله ما يتقرب إلى الله تبارك وتعالى إلا بالطاعة، وما معنا براءة من النار، وما لنا على الله من حجة. من كان لله مطيعاً فهو لنا وليّ، ومن كان لله عاصياً، فهو لنا عدو، وما تنال ولايتنا إلا بالعمل والورع.».

وعن الرضا عليه السلام.. «ولا يغيب عنا أحد من شيعتنا، أين كان من شرق

الأرض وغربها. شيعتنا الذين يقيمون الصلاة ويحجون البيت الحرام ويصومون شهر رمضان، ويوالون أهل البيت ويتبرؤون من أعدائهم.»)[1].

وإذاً، فماذا يمكن أن يقول عدو أو كاشح أو قال ـ مهما كان قوله ـ بحق رجل أحب الله ورسوله، وأحبه الله ورسوله ﷺ، وهو أحب الخلق إلى الله، والذي شهد له الرسول ﷺ بأنه مع الحق، وأن الحق معه، يدور حيث دار، وأنه من النبي بمنزلة هارون من موسى، وأن الله قد أذهب عنه الرجس كما أذهبه عن نبيّه وآله عليهم السلام وطهرهم تطهيرا.

إن هذه شهادات صريحة بعصمتهم وتزكيتهم واستعداداتهم لأداء دور الإمامة الذي بدأه الرسول الكريم ﷺ رسولًا وقائداً وإماماً، وأعدّ وصيه وخليفته لهذا الدور القيادي الخطير الذي يتوقف عليه مستقبل الأمة كلها، والمسدد بالعناية الإلهية، لأن الذي يحمله يتمتع بمؤهلات خاصة ممتازة لا تتاح لأي فرد آخر من أفراد الأمة.

مواقف الحكّام تأجيج العداوات

ويجب أن لا ننسى المواقف الرسمية لأغلب الحكومات (الإسلامية) من هذه الشخصية الكبيرة، ونحن نحاول التحدث عنها. . فمن المعلوم أن معظمها ـ على امتداد تاريخ الأمة الإسلامية ـ تبنت مواقف معادية للإمام عليه السلام، وبررت مواقفها أما على أساس انحيازها (للسنة والجماعة) التي انتهكها بشكل ساخر ومفضوح معاوية وأشباهه، أو عداءها (للشيعة)، الذين ضمت إليهم كل خارج عن الإسلام وكل من يحمل أفكاراً غريبة لا تمت إليه بصلة، لتمرير مخططاتها وسياساتها وتبرير المواقف العدائية المتخذة تجاههم. لقد علموا أن خط آل البيت هو الضمانة الوحيدة لانتشال المسلمين من غفلتهم وتخلفهم وابتعادهم عن الإسلام.

وإذا استثنينا (الخلفاء) الأمويين الذين أعلنوا عداءهم الصريح لعلي وشيعته وأبوا أن يتنازلوا حتى عن سبه من فوق منابرهم، فإن من جاء بعدهم من العباسيين وغيرهم قد وقفوا نفس المواقف المعادية، إذ أنهم وجدوا الدعوة لآل محمد ﷺ أو (العلويين) كما أسموهم تمييزاً لهم عن (العباسيين) الذين اعتبروا أنفسهم بنفس

---

(١) شجرة طوبى ـ محمد مهدي المازندراني الحائري ـ المطبعة العلمية ـ النجف ١٣٦٩ هـ ص ٣ - ٦.

منزلتهم، أمراً مناهضاً لدعوتهم وسلطانهم؛ رغم أنهم تذرعوا قبل استلامهم الحكم واعلانهم الحرب على الدولة الأموية المريضة، بمظلومية علي وآله عليهم السلام وابعادهم عن مراكزهم التي وضعهم الله فيها وما لاقوه من أذى على يد أعدائهم الأمويين، الذين قامت الدولة العباسية على أساس رفضها لهم باعتبارهم معتدين غاصبين، إلى أن تمكنت من طردهم واستئصالهم، فتنكرت لهؤلاء العلويين الذين احتجت بمظلوميتهم في بداية الأمر، وافتعلت مختلف الذرائع والأسباب للنيل منهم ومن قادتهم وهم بقية الأئمة المعصومين الذين عاشوا خلال فترة حكمهم، وما لقاه هؤلاء عليهم السلام منهم لا يكاد يقل، بل أنه ليزيد عما لقاه أسلافهم الذين عاشوا فترة الحكم الأموي.

ولقد برر كل من تسلم الحكم، ذلك السلوك المعادي للأئمة عليهم السلام والشيعة عموماً أنه لغرض الحفاظ على (الدولة الإسلامية) ووحدة الأمة واجماعها، وتجنيبها شرور الفرقة والنزاعات والمطامع الشخصية إلى غير ذلك من الذرائع الأخرى التي سبق للأمويين أن تذرعوا بها.

وقد كانت الشدة وأساليب القمع الدموي، التي أخذ بها الأمويون والعباسيون مناوئيهم وكل الذين ثاروا على سلطتهم ورفضوا حكمهم، سنة لمن جاء بعدهم من الحكام المسلمين الذين اعتبروا أن الصيغة الأموية أو العباسية للحكم هي الصيغة الإسلامية الشرعية الصحيحة الممكنة التطبيق، وجعلوا منها نموذجاً لمحاكاته والاقتداء به، وإن ما سبقه من حكم، بدأ منذ حكومة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله، وحتى نهاية حكم الإمام علي عليه السلام (مثالياً)، بمعنى أنه غير عملي، وغير ممكن التطبيق إلا في ظروف مشابهة لتلك الظروف التي عاشها المسلمون في العهد الإسلامي الأول قبل معاوية.

ورغم ما في هذا التفكير من خطر بالغ على الإسلام؛ إذ أنه ينفي قدرته على القيادة الحقيقية للحياة وفق تصورات رسول الله صلى الله عليه وآله وأوصيائه الكرام، ويولد حالة من اليأس والاحباط في نفوس الأغلبية المسلمة التي تتطلع إلى النموذج الإسلامي الأول في الحكم والحياة كأمل ماثل، إلا أنه نجح إلى حد بعيد ـ بمساعدة كل الملتفين حول أنظمة الحكم المؤيدة والمشابهة للنمطين الأموي والعباسي ـ بتشويه الصورة الأولى للحكم الإسلامي أو تشويهها من خلال تركيز الاعلام المعادي على شخصية الإمام علي عليه السلام وحكمه واظهاره كشخصية غير عملية وافتراء مختلف

المزاعم والأكاذيب عليه، بعد أن لم يستطيعوا أن ينالوا علناً ورسمياً من حكومة الرسول ﷺ، وبرروا إبعاد الإمام عليه السلام عن منصب الخلافة بعداء المجتمع القرشي وأعوانه، ذلك المجتمع الذي (نجح) في اقصاء الإمام وخلفائه عن هذا المنصب محققاً هذا (النصر) على الإسلام بعد أن انحنى أمامه بالإكراه وبعد أن لم يجد مناصاً من الالتحاق بركبه.

النموذج الإسلامي الأول للحاكم

إن النموذج الإسلامي الأول الذي لا يعتبر الحاكم صاحب امتيازات إضافية وحقوق تفوق ما للآخرين من الرعية، يغاير النموذج الذي وجد بعد ذلك وحياة البذخ التي تطلع إليها وعاشها بشكل فاضح من تسلموا الحكم باسم الإسلام، وقد حاول النموذج الأول أن يرسخ قواعد المساواة والعدالة بين الناس على أساس الانتماء للإسلام والارتباط به بشكل حقيقي، لا أساس عرقي أو طبقي أو غيرهما.

لقد عمل الإسلام على تهيئة الفرص لكل الناس بغض النظر عن أصولهم وانحدارهم الطبقي ومراكزهم الاجتماعية وثرواتهم ليأخذوا دورهم الإيجابي في بناء نفوسهم، وبناء المجتمع الإسلامي الصحيح المتكافل المتحاب المتراص المتطلع إلى نشر عدالة الإسلام ومبادئه وقيمه واعلاء رايته وترسيخ مبادئه، (واستطاع عدد كبير ممن كانوا عبيداً أو أشباه العبيد في مجتمعات الجاهلية، أن يكونوا من قادة البشرية، الأكفاء ونوابغها المبدعين في مختلف مجالات الحياة الفكرية والسياسية والعسكرية، وذلك لأن النمو الصالح للفرد في الدولة الإسلامية، لا يحدده أي اعتبار، سوى قدرات الفرد وقابلياته الخاصة)[1].

قال الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام لواليه على مصر (ثم اعرف لكل امرئٍ منهم ما أبلى، ولا تضمن بلاء امرئٍ إلى غيره، ولا تقصرن به دون غاية بلائه ولا يدعونك شرف امرئٍ إلى أن تعظم من بلائه ما كان صغيراً ولا ضعة امرئٍ إلى أن تستصغر من بلائه ما كان عظيماً..)[2].

إن الأنف القرشي، الشامخ الذي استطاع ثانية أن يتسنم السلطة والحكم والنفوذ

---

(١) منابع القدرة في الدولة الإسلامية ـ الشهيد الصدر ص ١٨٦.

(٢) نهج البلاغة ٣ - ص ٩٢.

في العهدين الأموي والعباسي، أضاف إلى (شموخه) واعتزازه (بالنسب العالي)، شموخ القوة والسلطان والنفوذ، فأصبح مثالًا سيئاً للحكام الآخرين، الذين جاءوا بعد ذلك، ورأوا أن أقل ما يفعلون ـ حتى وإن لم يكونوا قرشيين ـ هو أن يتشبهوا بأولئك الحكام القرشيين (المرموقين)، ويعوضوا النسب الناقص بالتمادي في مظاهر الأبهة والسلطان والبذخ والقسوة، بالقدر الذي يتاح لهم ليظهروا أنفسهم وكأن لا أحد يضاهيهم أو يساويهم أو يقدر على النيل منهم أو ابتزاز مراكزهم، وربما عمد بعضهم ـ وهو ما رأيناه في مختلف فصول التاريخ وإلى عهدنا الحالي ـ إلى وضع شجرة نسب مزيفة تعود به إلى آل البيت عليهم السلام أنفسهم، وبهذا أضاف شرف آل البيت إلى شرف قريش ثم ادعاه كله لنفسه ليفتخر على الآخرين.. ولا تفوتنا الأمثلة العديدة بهذا الصدد، ولعل القارىء المطلع لديه أمثلة أخرى كثيرة.

خليفة للرسول ﷺ أم لمن

ونعيد ما ألمحنا إليه: إن من جاءوا إلى (الخلافة) والحكم بعد الدولة الإسلامية الأولى، لو أقروا ما أقرته تلك الدولة ووضعته من مناهج وأنظمة، لكانوا هم أول (المتضررين) من فقدان الامتيازات التي أباحوها لأنفسهم، ولما استطاعوا جمع الأموال وبناء القصور وشراء العبيد، وابداء مظاهر الترف والبذخ في حياتهم. هل يستطيع أحد منهم أن يقول كما قال أمير المؤمنين عليه السلام وينفذ مقولته كما نفذها الإمام فعلًا (**أأقنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر، وأكون اسوة لهم في جشوبة العيش.**)[1].

(. والله الذي لا إله إلا هو ما زويت من مالكم قليلًا ولا كثيراً)[2].

(. إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا يحل للخليفة من مال الله إلا قصعتان، قصعة يأكلها هو وأهله، وقصعة يطعمها بين الناس)[3].

(ولم يخلف الإمام علي عليه السلام إلا ثلاثمائة درهم..)[4].

(١) نهج البلاغة ٣ ص ٧٢.
(٢) البداية والنهاية ـ ص ٣ ج ٨.
(٣) البداية والنهاية ـ ص ٣ ج ٨.
(٤) العقد الفريد ص ١٠٣.

(روي عن عمر بن عبد العزيز أنه قال فيه: «أزهد الناس في الدنيا علي بن أبي طالب)[1].

وكان مما جاء في وصيته: «الله الله في الفقراء والمساكين، فاشركوهم في معاشكم)[2].

عن أبي هاشم بن زاذان قال: «كان علي يمشي في الأسواق وحده وهو خليفة، يرشد الضال، ويعين الضعيف، ويمر بالبياع والبقال)[3].

وقال فيه الحسن بن أبي الحسن البصري في كلام كثير: «لم يكن بالنومة عن رسول الله، ولا الملولة في ذات الله، ولا السروقة لمال الله)[4].

(وكان أبو الحسن عليه السلام يعمل في أرض قد استنقعت قدماه في العرق فقيل له: «جعلت فداك، أين الرجال؟ فقال: وقد عمل باليد من هو خير مني في أرضه ومن أبي، فقيل: ومن هو؟ فقال: رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين، وآبائي كلهم كانوا قد عملوا بأيديهم، وهو من عمل النبيّين والمرسلين والأوصياء والصالحين)[5]. (ووضع أمير المؤمنين عليه السلام درهماً على كفه ثم قال: أما إنك ما لم تخرج عني لا تنفعني)[6].

وقال عليه السلام: «إن من أعون الأخلاق على الدين الزهد في الدنيا»[7].

وقال عليه السلام: «ابن آدم إن كنت تريد من الدنيا ما يكفيك فإن أيسر ما فيها يكفيك، وإن كنت إنما تريد ما لا يكفيك، فإن كل ما فيها لا يكفيك»[8].

فهل يستطيع أولئك أن يأخذوا أنفسهم بما أخذ به نفسه من العدل والشدة؟ هل يستطيع أحد منهم أن يتنازل فيتحاكم مع أحد رعيته إلى أحد قضائه..؟ اللهم إلا بدافع التظاهر والمباهاة.

---

(١) البداية والنهاية ج ٨ ص ٥.
(٢) المصدر السابق م ٤ ج ٧ ص ٣٤.
(٣) نفس المصدر ص ٥.
(٤) العقد الفريد ص ٦٠.
(٥) جامع السعادات ٢/ باب الاعتدال.
(٦) المصدر السابق ٢.
(٧) المصدر السابق.
(٨) نفس المصدر.

(يروي الزمخشري في كتابه (ربيع الأبرار) عن الشعبي أنه كان يقول: «ما لقينا من علي؟ إن أحببناه قُتِلنا، وإن أبغضناه هلكنا)[1].

(جاء جعدة بن هبيرة إلى علي فقال: يا أمير المؤمنين، يأتيك الرجلان، أنت أحب إلى أحدهما من أهله وماله، والآخر لو يستطيع أن يذبحك لذبحك، فتقضي لهذا على هذا. قال فلهزه علي وقال: إن هذا شيء لو كان لي فعلت، ولكن إنما ذا شيء لله)[2].

ثم إنه عليه السلام وقف أمام القضاء، حينما شكاه أحد الناس العاديين، بل المعادين للإسلام، ولم ير في ذلك ضيراً ولم ير أنه ينتقص من شخصه (وقد رفع يهودي مواطن في الدولة الإسلامية شكوى على الإمام إلى الخليفة في عهد عمر، فأحضر عمر اليهودي وابن عم رسول الله ﷺ، في مجلس القضاء. وحينما استمع إلى كلام كل منهما لاحظ على الإمام شيئاً من التأثر، وخيل له إن الإمام ساءه أن يحضر في مجلس القضاء مع مواطن يهودي. فقال الإمام: إني استأت لأنك لم تساو بيني وبينه، إذ كنيتني ولم تكنه)[3].

وحتى معاوية نفسه قال فيه، في خطاب محمد بن أبي بكر «.. قد كنا وأبوك فينا، نعرف فضل ابن أبي طالب، وحقه لازماً مبروراً علينا»[4].

وقال عنه عمرو بن العاص مخاطباً معاوية ومهدداً إياه بالتخلي عنه إنْ هو لم يشركه في ملكه (.. فإني أعلم أن علي بن أبي طالب على الحق وأنت على ضده)[5].

وقد جسد أمير المؤمنين عليه السلام فهمه للإسلام بالكلمات المختصرة التي قالها لولديه الحسن والحسين عليهما السلام: «أوصيكما بتقوى الله، ولا تبغيا الدنيا وإن بغتكما، ولا تبكيا على شيء ذوي عنكما. وقولا الحق، وارحما اليتيم، واعينا الضائع، واصنعا

(١) أصل الشيعة ص ٧٥.
(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير م ٨ ص ٥.
(٣) منابع القدرة في الدولة الإسلامية/ الشهيد الصدر ص ١٨٧.
(٤) مروج الذهب ص ١٧.
(٥) نفس المصدر ص ٢٦.

للآخرة، وكونا للظالم خصيماً، وللمظلوم ناصراً، واعملا بما في كتاب الله، ولا تأخذكما في الله لومة لائم»[1].

ولعل مقالة المقداد، وهو من خيرة الصحابة، فيه تدل أبلغ دلالة على حقيقته التي غمضت عنها عيون الكثيرين: «ما رأيت مثل ما أوتي أهل هذا البيت بعد نبيّهم، إني لأعجب من قريش، إنهم تركوا رجلًا، ما أقول أن أحداً أعلم منه ولا أقضى بالعدل ولا أعرف بالحق)[2].

وإذاً فهل يستطيع أولئك المتطلعون للحكم والجلوس على كرسي الخلافة أو الملك أو الرئاسة أن يتحملوا ما تحمله الإمام عليه السلام في ذات الله، حتى وهو في منصب القيادة الفعلية للأمة، ويأخذوا أنفسهم بما أخذ به نفسه من تقشف وشدة وزهد، وأن يقروا حقه وحتى أسلوبه في الحكم والحياة والذي هو أسلوب رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه، وهل يستطيعون الصمود أمام الامتيازات والاغراءات التي أتاحتها لهم السلطة والحكم (ويتنازلوا) إلى مراتب الناس الآخرين..؟.

إزدواجية في الموقف

إن الموقف (الرسمي الحكومي)، لا يزال هو نفسه من الإمام عليه السلام، موقفاً سلبياً فلو حصل أن (خليفة) أو ملكاً أقر له أو لأحد الأئمة المعصومين أو وكلائهم بحقوقهم لقيادة الأمة، لكان ملزماً أن يطيعه قبل الجميع في كل أمور حياته ولا يخرج عليه أمام المجتمع الذي يحكمه. إنه بذلك يحكم على نفسه، ويكون ملزماً حتى لو أقرَّه الإمام على حكمه أن يعيش عيشة تغاير عيشة الملوك والأباطرة والقياصرة.

إن كل من يريد أن يتقارب مع الإمام، أو يسير على خطه، يجد أن عليه أن يتخلى عن الامتيازات وعن كل ما تتيحه له الدنيا من مباهج ومغريات ولذائذ، وما دام يعلن انحيازه للإمام فلا بد أن يأخذ نفسه على ما أخذها الإمام به من عدل واستقامة.. على أنه ليس من الأكيد أن كل أحد يقدر على ذلك حتى لو أراده فعلًا، على أنه يستطيع أن يأخذ نفسه بحد معقول من منهج الإمام وسيرته.

---

(١) الكامل في التاريخ ص ٢٥٧.

(٢) العقد الفريد ص ٣٠ وقد (قال الإمام أحمد بن حنبل: ما ورد لأحد من أصحاب رسول الله (ص) من الفضائل ما ورد لعلي رضي الله عنه. أخرجه الحاكم تاريخ الخلفاء/ السيوطي/ دار الفكر/ بيروت ١٩٨٨ ص ١٥٧.

فكيف إذا ما كان هذا الموقف يشابه بعض المواقف الرسمية السابقة الأخرى، التي شنت حرباً على الإمام وخلفائه من بعده، ولم تر لهم أي حق في الخلافة، ورأت أن أي تطلع إلى كرسي الخلافة يعني خروجاً عن سلطتهم (الشرعية) واجماع الأمة.

إن هذا قد يحل بعض الالتباس الذي قد يكون موجوداً في أذهان الكثيرين عن سبب هذا العداء، إذ لو قد تساءلوا: إذا كان بعض من ولوا السلطة والحكم يعترفون بحق علي ودور علي عليه السلام وأولاده من بعده، في بعض مجالسهم وخلواتهم الخاصة، فلماذا لا يصرحون بذلك علناً أمام الجميع، ولماذا لا يتخلون عن الكرسي الذي علموا أنه اغتصب ظلماً، وأنهم هم الذين اغتصبوه؟.

وهل هذا أمر ممكن لكل النفوس..؟ ما لم تكن متمتعة بالقوة التي يتمتع بها الإمام عليه السلام نفسه أو أحد أولاده المعصومين، كيف: وهم باعترافهم العلني ذاك إنما يعترفون بظلمهم وتجاوزهم وسلبهم حقوق غيرهم، فيؤلبون بذلك الناس عليهم هم.

المأمون مثالاً

وهكذا: إذا نظرنا ـ على سبيل المثال ـ إلى موقف المأمون بن هارون الرشيد العباسي، وهو أحد رموز الحكم المعروفة، وقد وصل آباؤه إليه بدعوتهم إلى آل الرسول، ثم استأثروا بالحكم والسلطة التي توصلوا إليها بمختلف الطرق والأساليب ومعظمها أساليب أموية الشكل والمحتوى. نرى المأمون يعلن ـ في إحدى جلساته الخاصة ـ انحيازه المطلق إلى أمير المؤمنين علي عليه السلام، ومواقف أمير المؤمنين.. ويرى أنه أحق الناس بالخلافة والقيادة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.

ثم أننا نرى المأمون ـ بعد ذلك يرتكب جريمة كبيرة بحق الإمام الذي أقر له بالحق فيقدم على اغتيال إمام آخر من أحفاده أقر له بالحق أيضاً، فدس إليه السم بعد أن كتب له بولاية العهد من بعده، ربما لامتصاص النقمة الشعبية المتزايدة ضده وضد الحكم العباسي بشكل عام، وقد رأى أن استمراره بالاعتراف بهذا الحق للإمام (علي بن موسى الرضا عليه السلام قد يجرده نهائياً من (الحق) الذي ادعاه لنفسه كما ادعاه آباؤه من قبل.

ولنستمع إلى أقواله في أمير المؤمنين عليه السلام في مناظرة له مع بعض (العلماء) الذين جمعهم لهذا الغرض ونقتطف منها هذه الكلمات:

(إن أمير المؤمنين «يعني المأمون بذلك نفسه»، يدين الله على أن علي بن أبي طالب، خير خلق الله بعد رسوله ﷺ، وأولى الناس بالخلافة له..

قس بفضائل العشرة الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة، فإن وجدتها تشاكل فضائله، فقل إنهم أفضل منه.

فهل علمت أحداً سبق علياً إلى الإسلام؟.

فهل تجد لأحد من أصحاب رسول الله ﷺ ما تجد لعلي في الجهاد؟.

فهل سمعت الله وصف في كتابه أحداً بمثل ما وصف به علياً حين أنزل فيه ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ ﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾[1].

إن الله تبارك وتعالى أمر رسوله أن يأمر علياً بالنوم على فراشه، وأن يقي رسول الله ﷺ بنفسه.

قال رسول الله ﷺ بعد منصرفه من حجة الوداع: «من كنت مولاه فعلي مولاه. اللهم والِ من والاه وعاد من عاداه».

«أنت مني بمنزلة هارون من موسى..».

«فأنت مني يا علي بمنزلة هارون من موسى، وزيري من أهلي، وأخي، شد الله به ازري وأشركه في أمري، كي نسبح الله كثيراً ونذكره كثيراً..».

اللهم إني ـ والكلام للمأمون العباسي ـ قد أخرجت الأمر من عنقي، اللهم إني أدينك بالتقرب إليك بحب علي وولايته.)[2].

فلماذا نكّل المأمون عن أقواله وتراجع، بعد أن أخرج الأمر من عنقه ـ كما ادعى ـ وأوصى بولاية العهد للإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام..؟ ولماذا لم يستطع الثبات على أقواله؟ إنه لم يستطع ذلك لأنه ممثل السلطة الرسمية وخليفة المسلمين (الشرعي) وسليل (الخلفاء) الذين أقاموا حكمهم بحد السيف. إن معنى ثباته على موقفه وعدم تراجعه هو أن يقطع سلسلة الخلفاء العباسيين والخلافة

---

(١) الإنسان: ١ – ٥ – ٨.

(٢) العقد الفريد ص ٣١٨ – ٣٢٦ ـ في كلام كثير للمأمون قاله في معرض الإشارة لفضائل أمير المؤمنين عليه السلام...

العباسية، ويعترف لآل البيت بحقهم الشرعي، واعترافه هذا لا يتيح له حق الجلوس على كرسي الخلافة ولو يوماً واحداً، وسيجد من يدينه بأقواله ويقول له: ما دمت قد اعترفت لهم بحقهم لماذا لا تدعهم وشأنهم؟ ولماذا تظل عقبة في طريق وصولهم إلى هذا الحق؟ ولماذا تجعل الإمام ولي عهدك بعد موتك لا الآن وتبعد نفسك عن طريقه..؟.

وإذا فقد وجد نفسه أمام موقف صعب لا يتيح له إلا أمر واحد وهو التنازل حالاً لمن أقر لهم بالحق، فلا يؤجل ذلك إلى ما بعد وفاته.

وقد وجد من قال له ذلك فعلاً: (. لاحظوا قصة الهجوم الشعبي الهائل الذي تعرض له قصر المأمون، نتيجة لاغضابه الإمام الرضا عليه السلام، فلم يكن للمأمون مناص من الالتجاء إلى الإمام لحمايته من غضب الأمة. فقال له الإمام: «اتق الله في أمة محمد، وما ولاك من هذا الأمر وخصك به، فإنك قد ضيعت أمور المسلمين، وفوضت ذلك إلى غيرك يحكم فيها بغير حكم الله عز وجل)[1].

رأي الدولة أولًا

ولا شك أن الموقف الرسمي المتبنى من قبل (الدولة) يكون ـ عادةً ـ مدعماً بقوة هذه الدولة ونفوذها، وإن موقفها ليس أمراً قابلاً للرفض من قبل جماهير الأمة، أو أنه مجرد رأي يؤخذ به من يريد ذلك، ويرفضه من يريد ذلك أيضاً دون أن يخشى على نفسه أو على عرضه أو ماله. وإن موقفها ملزم للجميع، وهي عادة ما تهيّئ السبل للآخرين لكي يتبنوا آراءها أو بالأحرى تجبرهم على ذلك إذا ما لم يتم لها بالاقناع.

إن معظم الدول التي تسمي نفسها بالإسلامية، (وتتبنى) الإسلام ديناً رسمياً للدولة، ترى في بعض جوانب (التساهل في أمور الإسلام وأحكامه الأساسية) التي أبداها خلفاء الدولتين الأموية والعباسية، ومن جاء بعدهم، وتجد الانحراف الذي أباحه (خلفاء) الدولتين لأنفسهم ومظاهر الاباحية والبذخ الفاحش الذي درجوا عليه، مبرراً لقيام (خلفاء) العصر الجاهلي الحديث بما قام به أولئك، بل والتمادي على أساس من (الشرعية) و (الإسلام) نفسهما، اللذين ادعاهما أولئك الأوائل وسنّوا بذلك سنة سيئة عليهم وزرها ووزر من يعمل بها إلى يوم القيامة.

---

(١) دور الأئمة في الحياة الإسلامية ـ الشهيد الصدر ص ١٨.

إن الإسلام الأموي أو العباسي لا يزال يطلُّ برأسه، ولا يزال يقف ستاراً غليظاً لحجب الإسلام الحقيقي وكل الفضائل التي عرفت لنبي الإسلام ﷺ ووصيه وآله الكرام عليهم السلام ، وما تظن أولئك الذين ينهضون بوجه الجاهليات الحديثة التي يقف على رأسها نماذج مكررة ومعادة للحكام الأمويين والعباسيين، ينظرون نفس نظرة هؤلاء الحكام وأتباعهم ووعاظهم ومهرجيهم إلى ذلك الحكم البائد المسخ، ولا يرون إلا ما يراه هؤلاء، وما نظنهم ـ وهم أنصار حق قل فيه الأنصار ـ إلا أنهم سيعيدون النظر في كل الأمور التي عملت على حسر الإسلام وابعاده عن الحياة في وقت مبكر، حتى غدا ذلك أمراً مألوفاً. . وكأنه هو الواقع الذي لا يمكن ايجاد غيره لاقراره، وفي مقدمة تلك الأمور ـ الحكم الأموي الغريب ـ الذي أرسى دعائمه معاوية، تلك الدعائم التي لا تمت إلى الإسلام بصلة. . وهو أمر لا بد أن يمثل أمامنا على الدوام.

معاوية بن أبي سفيان
(الخليفة).. أم الملك..؟!!

شيطان.. يأتي المرء من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله

يمثل معاوية إحدى (عبقريات الشر) الفريدة التي أثرت على مجرى التاريخ الإسلامي، بل تاريخ العالم كله، والذي يشكل الأول جزءاً رئيسياً ومهماً منه. فقد قام بأكبر عملية نسخ وتزوير، حدثت عبر التاريخ كله، لإظهار الإسلام بالصورة التي أحب أن يرسمها هو، إسلاماً أموي الشكل والمضمون، كما قام بأكبر عملية (غسيل للأدمغة) للمجتمع الإسلامي قام بها إنسان ونجح فيها إلى حد بعيد.. إلى درجة فاقت كل ما قام به أعداء الإسلام العلنيون والمباشرون بهذا الشأن إلى يومنا هذا، ولعلهم لم ينجحوا في مسعاهم المعادي إلا بعد أن مهد لهم معاوية الأمر هذا التمهيد (الجريء).

إن جزءاً كبيراً من حياته يطل من وراء الكواليس والزوايا والحفر المظلمة التي حاك فيها مؤامراته البارعة! ضد الإسلام. ولعل هذا الدأب والنشاط والمثابرة من قبله للوصول إلى كرسي الحكم وتهديم الإسلام الذي أعلن انتماءه إليه في عام الفتح أي قبيل عدة أشهر فقط من وفاة الرسول الكريم ﷺ، كان امتداداً لعمل دؤوب آخر من قبل أسلافه ـ وخصوصاً أبي سفيان، والده ـ لمحاربة بني هاشم، ثم محمد ﷺ والإسلام الذي رأوا فيه تتويجاً نهائياً وأبدياً لأولئك المخصوصين بالنبوة والإمامة معاً، ومعولاً لتهديم كل أمجادهم الكاذبة، وطموحاتهم غير المشروعة.

فلا بد إذاً ـ عند دراسة معاوية ـ أن ندرك أبعاد هذه الشخصية القوية المعقدة، وأن لا ننظر إليه نظرة ساذجة كرجل انحرف بعض الانحراف عن الإسلام وحسب، وأنه إنما كان يفعل ذلك بسبب حرصه على وحدة المسلمين وكلمتهم، وإن معظم تصرفاته (عفوية)، وقد تكون رد فعل على تصرفات أعدائه الذين لم يقلوا عنه عزماً في شن حرب مقابلة عليه كما يفعل هو.!.

فلنكن مستعدين، ونحن نخوض غمار هذه التجربة، متيقظين أمامها، وأمام

هذا الرجل الذي امتلك (مؤهلات الصمود) بوجه أمير المؤمنين عليه السلام نفسه الذي اكتشف مجاهيل نفسيته العميقة، وحذر منه كما لو كان يحذر من الشيطان نفسه، فقد ورد في إحدى رسائله عليه السلام إلى زياد بن أبيه تحذير شديد وحاسم، عندما حاول معاوية الحاق نسبه بأبي سفيان والده، على أساس أنه زنى بسميه والدة زياد، وأنها ولدت له زياداً، ضارباً عرض الحائط بالتشريعات الإسلامية بهذا الخصوص (وسنتعرض لهذه القضية عند التطرق لشخصية زياد فيما بعد). قال أمير المؤمنين عليه السلام في تحذيره (إن معاوية يأتي الإنسان من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله. فاحذر ثم احذر..)[1].

الحقد الموروث عن الأهل.. اتخذ طابع القداسة لدى الأبناء

وقد امتدت الحرب الشرسة القديمة التي شنها أمية على هاشم، ثم أبو سفيان على محمد صلى الله عليه وآله ومعاوية على علي عليه السلام وآل أمية على آل هاشم بأجمعهم، لتتخذ أوجهاً متعددة اتسمت بالشراسة والوحشية والابتعاد عن كل قيم بشرية عليا، حتى وإن لم تكن قيم الإسلام نفسها، إلا أن المعارك الأولى من هذه الحرب حسمت في النهاية لصالح الإسلام وآله، محمد وآل بيته عليهم السلام وصحبه الكرام رضوان الله عليهم، وقد سقط في بعض هذه المعارك العديد من آل أمية قتلى بسيف علي وحمزة في معركة بدر أول معارك الإسلام الخالدة، وكان منهم جد معاوية لأمه وعمه وخاله، كما سقط فيها حمزة فيما بعد ـ في معركة أحد ـ وقد بلغ من حرص(هند) ـ والدة معاوية ـ على الأخذ بثأر ذويها المقتولين وبث نار الانتقام والحقد في صدور الأحياء منهم ومنهم معاوية نفسه وزوجها أبو سفيان، الذي لم تكن عوامل الانتقام في نفسه لتقل عن تلك التي في نفس زوجته، إنها سعت للغدر بحمزة عم الرسول صلى الله عليه وآله وقتله على يد أحد عبيدها (وحشي)، ثم اقتطعت جزءاً من كبده ولاكتها للتعبير عن المرارة والحقد اللذين جاشا في صدرها ضد قاتل ذويها، الذين كانوا في مقدمة من أعلن الحرب على الله ورسوله صلى الله عليه وآله وأخذوا على عواتقهم مهمة التصدي لهذا الدين الذي أنزل على سيد الأنبياء والرسل، والذي كان عدوهم التقليدي ـ بزعمهم ـ. وقد قرعت زوجها، أبا

---

(١) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير. دار الكتب العلمية ـ بيروت م ٣ ص ٣٠١. ومع ذلك (استلحقه معاوية وكان استلحاقه أول ما ردت به أحكام الشريعة علانية فإن رسول الله صلى الله عليه وآله قضى بالولد للفراش وللعاهر بالحجر) ص ٣٠١.

سفيان، عندما أعلن (إسلامه) تحت وطأة الخوف الذي ألَمَّ به عندما رأى قوة الجيش الإسلامي الذي كان يقوده رسول الله ﷺ لفتح مكة.. (فقامت إليه هند بنت عتبة، فأخذت بشاربه، فقالت: اقتلوا الحميت الدسم الأحمَس، قبح من طليعة قوم! قال: ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به..)[1].

وإذ حفلت كتب التاريخ والسير بالوقائع التي لا تقبل الشك، والتي يقر ويعترف بها الجميع حتى الأمويون أنفسهم، وقد أكدت هذه الوقائع الأكيدة، تأصُّل العداوة والحقد في نفوس آل أمية، والتي برزت، لا بمعارك كلامية أو ضغائن كانت في الصدور وحسب، وإنما تجسد بمعارك دموية (وحقد مقدّس) موروث في صدور أفراد العائلة الأموية على أعدائهم، أفراد العائلة الهاشمية، ثم العلوية فيما بعد، وعلى عميدها الإمام علي عليه السلام وأولاده وأحفاده وأتباعه. فإن علينا أن نتساءل: هل سكنت هذه الحرب فجأة بمجرَّد دخول النبي ﷺ مكة، قبل وفاته بعام، وعفوه عن الذين لم يسلموا بعد، ومنهم أبو سفيان وابنه معاوية، اللذان أعلنا إسلامهما بعد أن لم يجدا بداً من الدخول فيما دخل فيه الناس..؟ وهل انطفأت نار البغضاء والعداوة في صدور أولئك المغلوبين من آل أمية الذين اضطروا لاخفاء رؤوسهم أمام العاصفة الإسلامية والسير مع ريحها..؟ وهل حل الرضا، محل نوازع السخط والغضب والحسد التي اضطرمت في صدورهم طيلة عقود طويلة من الزمن؟.. هكذا فجأة دون مقدمات مع أن الحرب كانت تتصاعد وبلغت ذروتها قبيل اعلانهم الدخول في الدين الذي كان يعني أكبر انتكاسة حلت بمجدهم الموهوم الذي زعموه يفوق الأمجاد القرشية والعربية كلها؟ وهل محا الإسلام الذي لم يدخل تلك الصدور ولم يعمرها، ما تأصل فيها من كره لأعدائهم التقليديين من آل الرسول ﷺ، الذين هدموا آخر ما تبقى لهم من حصون العز والشرف المزعومة.

كيف لأحد أن يزعم ذلك، ويتجاهل ما صرحوا هم به ـ وبرز على ألسنتهم ومن خلال تصرفاتهم ـ حتى بعد انضمامهم العلني إلى حضيرة الإسلام..؟.

بين حقد أمية على هاشم وحقد آل أبي سفيان على آل محمد ﷺ

لقد كان معاوية نتاج الحقد الأموي القائم المدمر على بني هاشم، والذي ازداد بعد ظهور الإسلام وتشرف الناس جميعاً بالانتماء إليه وشهادتهم بعد (لا إله إلا الله أن

---

(١) ابن هشام/ السيرة النبوية/ ج ٤ م ٢ ص ٤٠٥.

محمداً رسول الله) إليهم وإلى البشرية جمعاء، وهل هم إلا كبقية الناس، وهل عليهم إلا أن يشهدوا كما شهد الناس جميعاً، ويعلنوا أن محمداً رسول الله كما أعلنت الناس مع أن زعيمهم أبا سفيان قد فعل ذلك عندما وصل السيف إلى رقبته وأوشك أن يطيح برأسه، كما رأينا، وقد حاول معاوية أن يوهم الناس بأن بني عبد مناف وفي مقدّمتهم هاشم وأمية، لم يكونوا مختلفين بالقدر الذي يوجب العداوة والحقد بينهم إلى الأبد، وإن هذه (العداوات البسيطة) أصبحت في ذمة التاريخ وأنه لم يكن يتصرف بوحي من ذلك الحقد الموروث والعداوة المتأصلة.

صحيح (.. إنما كان بنو عبد مناف أهل بيت واحد، شرفُ بعضهم لبعض شرفٌ، وفضل بعضهم لبعض فضل)[١] كما أوضح ابن هشام، إلا أن عداوات ظهرت بين قريش وبني عبد مناف أولًا، ثم بين هاشم وأمية ثانياً، أدت إلى أن يستثمر أمية الحقد القرشي على هاشم ويعلن انحيازه إلى قريش ثم ادعاء زعامتها بعد ذلك في محاولة لكسبها ضد الزعامة الهاشمية المتصاعدة والتي توجت بظهور نبي الرحمة ﷺ واعلان رسالته ونشرها بين العرب وعموم الناس.

لقد كانت الزعامة لهاشم، وقد ولي الرفادة والسقاية (وذلك أن عبد شمس كان رجلًا سفاراً قلما يقيم بمكة، وكان مقلًا ذا ولد، وكان هاشم موسراً، وأول من سنَّ الرحلتين لقريش: رحلتي الشتاء والصيف، وأول من أطعم الثريد بمكة، وإنما كان اسمه عمراً، فما سمي هاشماً إلا بهشمه الخبز بمكة لقومه.

ثم ولي عبد المطلب بن هاشم السقاية والرفادة بعد عمه المطلب، فأقامها للناس وأقام لقومه ما كان آباؤه يقيمون قبله لقومهم من أمرهم، وشرف في قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه، وأحبه قومه وعظم خطره فيهم..)[٢].

وبلغ قمة المجد حين ذهب ليحفر زمزم، وهنا بدأت أول بادرة من بوادر الخلاف بينه وبين قريش، حينما حاولت منعه من حفر البئر ثم مشاركته فيها عندما رأت عزمه على الاستمرار في ذلك، وقد خاب مسعاها في ذلك أيضاً (.. ثم إن عبد المطلب أقام سقاية زمزم للحجاج.. فعفّت زمزم على البتار التي كانت قبلها يسقى عليها الحاج، وانصرف الناس إليها لمكانها من المسجد الحرام، ولفضلها على ما

---

(١) السيرة النبوية ـ ابن هشام م ١ ص ١٥٠ وراجع ابن الأثير م ٢ والطبري م ٢.

(٢) المصدر السابق ص م ١ ص ١٣٥ - ١٣٦ ـ ١٤٢.

سواها من المياه، ولأنها بئر إسماعيل بن إبراهيم ﷺ، وافتخرت بها بنو عبد مناف على قريش كلها وعلى سائر العرب. .)[١] لأنهم كانوا ـ كما رأينا أهل بيت واحد، شرف بعضهم لبعض شرف، وفضل بعضهم لبعض فضل. .

وإلى هنا يبدو أن أمر العلاقات كان طبيعياً بين أفراد الأسرة القرشية الكبيرة، آل عبد مناف.

لقد بدأ الخلاف عندما دب الحسد في نفس حرب بن أمية على عبد المطلب، فحرض أناساً لقتل أحد ندمان عبد المطلب، وأجارهما عندما اكتشف هذا الأمر ولأمه وطلبهما منه. . (فأخفاهما فتغالظا في القول حتى تنافر إلى النجاشي ملك الحبشة فلم يدخل بينهما فجعلا بينهما نفيل بن عبد العزى جد عمر بن الخطاب. . الذي قال لحرب: يا أبا عمرو أتنافر رجلًا هو أطول منك قامه، وأوسم وسامه، وأعظم منك هامة، وأقل منك ملامة وأكثر منك ولداً، وأجزل منك صفدا، وأطول منك مددا؟ وإني لأقول هذا، وإنك لبعيد الغضب، رفيع الصوت في العرب، جلد المريرة لحبل العشيرة، ولكنك نافرت منفراً. .)[٢].

(وولي هاشم بعد أبيه عبد مناف ما كان إليه من السقاية والرفادة، فحسده أمية بن عبد شمس على رياسته واطعامه فتكلف أن يصنع ضيع هاشم فعجز عنه، فشمتت به ناس من قريش، فغضب ونال من هاشم ودعاه إلى المنافرة. .)[٣].

وكانت نتيجة ذلك إن خسر أمية (قضيته) أمام هاشم وغاب عن مكة بالشام عشر سنين (فكانت هذه أول عداوة وقعت بين هاشم وأمية)[٤].

كان أمية إذاً أقل امكانات من هاشم، وما كان يستطيع مجاراته في أي أمر حتى من ناحية المظهر والشكل، وكان لا بد أن يسعى لسد عقدة النقص فيه لمطاولة هاشم، إلا أن الادعاء والعجز كانت نتيجتها أن يسعى لإنزال هاشم عن مراتبه ومآثره ومواضعه في المجتمع ليكون بمستواه، وإلا كيف تتجلى عقدة النقص وكيف يتجلى الحسد، إن لم يكن بالنيل من الآخرين والسعي لتدمير المجتمع بأسره إن أمكن. . .

---

(١) نفس المصدر ١٤٧ - ١٥٠.

(٢) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ٣ ص ٥٥٢ - ٥٥٣ - ٥٥٤ وراجع الطبري ١-٥٠٤ وما بعدها.

(٣) المصدر السابق ٥٥٣.

(٤) نفس المصدر ص ٥٥٤.

ولا بد أن يكشف الإنسان نفسه أمام أهله والمقربين إليه، ولا بد أن ينحازوا إليه بدافع العلاقة الحميمة ويتبنوا أفكاره ومواقفه، وهكذا فإننا لا نستغرب امتداد العداوة والكره واتساعهما بين أفراد العائلة الأموية فيما بعد لتكون تقليداً وأمراً عائلياً تتبناه هذه العائلة بأجمعها، وكأن ما يجمع بينها ويوحد أواصرها هو الكره الذي اختصت به تجاه ذوي القربى من آل هاشم.

ونجد أن من الطبيعي أن تحاول التعبير عن سخطها بمختلف الأساليب، حتى وإن لم تكن مشروعة أو شريفة، فمن يحسب أنه قد تمرغ في الوحل لا يهمه بل يسره أن يتمرغ الآخرون معه.

قريش تتبنى الحقد الأموي على الرسول وأهل بيته ﷺ

ولا شك أن حقد كبار رجال قريش وعوائلها الكبيرة لم يكن يقل عن حقد آل أمية على آل هاشم، فهاشم كان ـ كما يبدو ـ قد استأثر بكل الأمجاد لنفسه وأولاده، وهذا كان ـ بنظرهم ـ عاملًا لتجريدهم من مراكز النفوذ والقوة والتأثير والمجد. ولا شك أنهم حاولوا تأليب أمية وآل أمية على آل هاشم وتأجيج عوامل الكره والبغضاء والتحاسد بينهم عندما شمت بأمية ناس من قريش، كما رأينا في كامل ابن الأثير قبل قليل.

ولا يهمنا أن نخوض في التفاصيل التي جعلت قريش تتفرق إلا بالمقدار الذي يفيدنا في هذه الدراسة ولعل سبب الفرقة يرجع إلى المنافسة على الرفادة والسقاية (فإن بني عبد مناف بن قصي، عبد شمس، وهاشم، والمطلب، ونوفل أجمعوا أن يأخذوها من بني عبد الدار لشرفهم عليهم وفضلهم، فتفرقت عند ذلك قريش، فكانت طائفة من بني عبد مناف، وطائفة مع بني عبد الدار)[١].

وقد تجلت عداوة قريش واضحة لسليل هاشم، محمد بن عبد الله ﷺ عندما أُمر باعلان دعوته ونشرها (.. واشتدت قريش على من في القبائل من الصحابة الذين أسلموا، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم، ومنح الله رسوله بعمه أبي طالب، وقام أبو طالب في بني هاشم، فدعاهم إلى منع رسول الله ﷺ، فأجابوا إلى ذلك، واجتمعوا إليه، إلا ما كان من أبي لهب..)[٢].

---

(١) المصدر السابق ص ٥٥٨.

(٢) نفس المصدر ص ٥٨٧ – ٥٥٨.

ومع أبي لهب كان أشد الناس عداوة للرسول ﷺ، الأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف والحارث السلمي والوليد بن المغيرة وأبو جهل وأمية وأبيّ ابنا خلف، وعُقبة بن أبي مُعَيط وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة والعاص بن وائل السهمي والد عمرو بن العاص والنضر بن الحارث بن عبد الدار، وأبو سفيان بن حرب، والحكم بن أبي العاص والد مروان وغيرهم، أسلم بعضهم عام الفتح. .[١].

وبلغ من حقد قريش على النبي أنها لم تكتف بأذاه في مكة وإنما حاولت النيل من أصحابه المهاجرين إلى الحبشة، عندما رأت (أن المهاجرين قد اطمأنوا بالحبشة وإن النجاشي قد أحسن صحبتهم، فبعثوا عمرو بن العاص وعبد الله بن أمية إليه وإلى أعيان أصحابه)[٢]، إلا أن مسعاهم فشل ورفض النجاشي تسليم أصحاب النبي ﷺ إليهم. (ولما رأت قريش الإسلام يفشو ويزيد، وأن المسلمين قووا. . ائتمروا في أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على أن لا ينكحوا بني هاشم وبني المطلب، ولا ينكحوا إليهم ولا يبيعوهم ولا يبتاعوا منهم شيئاً فكتبوا بذلك صحيفة بذلك صحيفة وتعاهدوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً لذلك الأمر على أنفسهم)[٣] وكان من المحرضين على هذا الحلف هند بنت عتبة والدة معاوية التي شجعت أبا لهب على موقفه المعادي من الرسول ﷺ وإذا حاولنا سرد الأحداث التي تصدت فيها قريش للرسول ﷺ لاحتاج الأمر منا كتاباً خاصاً. . . غير أنّ استسلام قريش في النهاية لهذا الدين على رغم أنفها، وكان الأمر كما خاطبهم رسول الله ﷺ قائلًا: (. . . وأما أنتم يا معشر قريش، فوالله لا يأتي عليكم غير كثير حتى تدخلوا فيما تنكرون وأنتم كارهون. فكان الأمر كذلك)[٤] وأسلموا عام الفتح ومنهم من كان من أشد الناس عداوة له ﷺ.

وكان أبو سفيان وزوجه هند بنت عتبة وابنهما معاوية ممن أسلموا ذلك العام كما أخبر الرسول الكريم ﷺ وهم كارهون.

(١) نفس المصدر ٥٩٢ - ٥٩٦.

(٢) نفس المصدر ٥٩٨ - ٥٩٩.

(٣) (ثم أن قريشاً اشتد أمرهم للشقاء الذي أصابهم في عداوة رسول الله (ص) ومن أسلم معه منهم، فأغروا برسول الله (ص) سفهاءهم، فكذبوه وآذوه، ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون. .) السيرة النبوية ص ٢٨٩.

(٤) نفس المصدر ص ٦٠٨.

أبو سفيان.. عداوة الرسول وأهل بيته ﷺ في مقدمة أولوياته دائماً

وما عسانا فاعلين في هذه الدراسة المخصصة لموضوع محدد، عندما نريد استعراض مواقف أبي سفيان وهند وآل أمية قبل دخولهم الصورة في الإسلام، فكتب التاريخ أسهبت في الحديث عن ذلك، وقد أجمعت على أن أبا سفيان كان حريصاً على منع النبي ﷺ من أداء رسالته وكان ضمن النفر من رؤساء قريش الذين أرسلوا إليه ﷺ يحثونه على التخلي عن رسالته ويمنونه الأماني، وكان أبو سفيان مصراً على عدم الدخول في الإسلام حتى وإن اقتنع به، وعاهد أبا جهل والأخنس الثقفي على أن لا يستمع للرسول ﷺ وهو يصلي ويتلو القرآن، وقال للأخنس عندما سأله عن رأيه فيما سمع (.. والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يُراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها..)[1] غير أن أبا جهل كان أكثر جرأة وصراحة من أبي سفيان، إذ لخص قضية عدائه للرسول ﷺ قائلًا للأخنس (... تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاذينا على الرُكبَ، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه، والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه..)[2].

هكذا فهم أبو جهل الأمر، فكأن الرسالة نزلت على بني عبد مناف كلهم، وهكذا فهم أبو سفيان الأمر، فكأن الرسالة نزلت على بني هاشم كلهم، وإنها لهم وحدهم دون سائر الناس، وكأن الناس ليسوا كلهم مدعووين للدخول في الإسلام لا فرق بينهم جميعاً مهما اختلفت ألوانهم وأجناسهم وقبائلهم.

كان الأمر أمر عصبية جاهلية رعناء لا ترى سوى العشيرة والأهل، وكأنه أمر حسد ألَمَّ ببعض النفوس المريضة فتصدت للإسلام بنفس الشراسة التي تصدى بها له أبو جهل وأبو سفيان وأضرابهما.

عداوة الله ورسوله ستار للحقد الموروث

كان أبو سفيان أحد الذين كانوا في مقدمة المحرِّضين على رسول الله وخصوصاً قبيل هجرته إلى المدينة وقد كان حاضراً اجتماع دار الندوة مع بعض

(١) السيرة النبوية ـ ابن هشام ١ ـ ٣١٦.

(٢) المصدر السابق ص ٣١٦.

أشراف قريش، وكان من حضروا من بني عبد شمس إضافة لأبي سفيان، عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، وقد انتهب دور بعض من هاجروا مع النبي.

وفي معركة بدر قتل حنظلة بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس وعتبة بن ربيعة بن شمس وشيبة بن ربيعة بن عبد شمس، قتلهم علي وحمزة، كما أسر عمرو بن أبي سفيان... وعتبة بن ربيعة هو أبو هند أم معاوية، وقد كان لقتله أثر كبير في نفسها، أسال أحزانها وأثار شجونها وأحقادها على من قتلوه. وقد رثته بقصائد عديدة تقطرمقتاً وحقداً وغضباً[١].

لقد كان رد فعل آل أمية على قتلاهم في بدر عنيفاً، وقد ازداد دورهم التحريضي على النبي ﷺ والإسلام (... فكان أبو سفيان.. حين رجع إلى مكة، ورجع فلُّ قريش من بدر، نذر أن لا يمس رأسه ماءٌ من جنابة، حتى يغزو محمداً ﷺ فخرج في مئتي راكب من قريش، فبعث رجالًا من قريش إلى المدينة، فأتوا ناحية منها... فحرقوا في أصوار من نخل بها، ووجدوا بها رجلًا من الأنصار وحليفاً له في حرث لهما، فقتلوهما، ثم انصرفوا راجعين، ونذِر بهم الناس، فخرج رسول الله ﷺ في طلبهم.. وقد فاته أبو سفيان وأصحابه..)[٢].

وقد استعد أبو سفيان وكفار قريش ممن أصيب آباؤهم واخوانهم وأبناؤهم يوم بدر مثل عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية لشنّ حرب كبيرة على المسلمين (فخرجت قريش بجدها وجدها وحديدها وأحابيشها ومن تابعها من بني كنانة، وأهل تهامة، وخرجوا معهم بالظُّعن (النساء في الهوادج)؟ التماس الحفيظة، ولا يغرو. فخرج أبو سفيان بن حرب، وهو قائد الناس، بهند بنت عتبة.

وكانت هند بنت عتبة كلما مرت بوحشي أو مر بها، قالت: ويَهاً (كلمة معناها الاغراء والتحضيض) أبا رسمة، اشف واستشف..

وقد قال أبو سفيان لأصحاب اللواء بني عبد الدار يحرضهم بذلك على القتال: يا بني عبد الدار، إنكم قد وليتم لواءنا يوم بدر، فأصابنا ما قد رأيتم، وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم، إذا زالت زالوا، فإما أن تكفونا لواءنا، وإما أن تخلوا بيننا

(١) راجع ابن هشام م ٢ ص ٣٨ - ٤٠.
(٢) المصدر السابق ٤٤ - ٤٥.

وبينه، فنكفيكموه، فهمّوا به وتواعدوه وقال: نحن نسلم إليك لواءنا، ستعلم غداً إذا التقينا كيف نصنع! وذلك أراد أبو سفيان.

فلما التقى الناس، ودنا بعضهم من بعض، قامت هند بنت عتبة في النسوة اللاتي معها، وأخذن الدفوف يضربن بها خلف الرجال، ويحرضنهم، فقالت هند فيما تقول:

ويها بني عبد الدار ويها حماة الأدبار
ضرباً بكل تبار

وتقول:

إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق
أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

ووقعت هند بنت عتبة، والنسوة اللاتي معها، يمثلن بالقتلى من أصحاب رسول الله ﷺ يجدعن الآذان والآنفُ، حتى اتخذت هند من آذان الرجال وآنفُهم خدماً (الخدم: الخلخال) وقلائد، وأعطت خدمها وقلائدها وقرطها وحشيا، غلام جبير بن مطعم، وبقرت عن كبد حمزة، فلاكتها، فلم تستطع أن تسيغها، فلفظتها، ثم علت على صخرة مشرفة فصرخت بأعلى صوتها فقالت:

نحن جزيناكم بيوم بدرِ والحرب بعد الحرب ذات سُعرِ
ما كان عن عتبة لي من صبر ولا أخي وعمه وبكري
شفيتُ نفسي وقضيتُ نذري شفيتَ وحشي غليل صدري
فشكر وحشيّ عليّ عمري حتى تَرمَّ أعظمي في قبري

وقالت:

شفيت من حمزة نفسي بأحد حتى بقرت بطنه عن الكبد
اذهب عني ذاك ما كنت أجد من لذعة الحزن الشديد المعتمد
والحرب تعلوكم بشؤبوب برد تقدم أقداماً عليكم كالأسد[1]

(١) وبلغ من أذاها للمسلمين في كل مراحل الدعوة حتى فتح مكة إن رسول الله ﷺ قد أباح دمها مع ثلاث نسوة أخريات (قال الواقدي: أمر رسول الله (ص) بقتل ستة نفر وأربع نسوة. . . ومن النساء هند بنت عتبة بن ربيعة. .) الطبري ٢ - ١٦١ إلا أنها أعلنت (إسلامها) وبايعت.

وقد كان الحليس بن زبّان. . قد مر بأبي سفيان، وهو يضرب في شدق حمزة بن عبد المطلب بزجّ الرمح ويقول: ذُق عقق؛ فقال الحليس: يا بني كنانة، هذا سيد قريش يصنع بابن عمه ما ترون لحماً.

ثم إن أبا سفيان بن حرب، حين أراد الانصراف، أشرف على الجبل، ثم صرخ بأعلى صوته فقال: أنعمت فعال، وإن الحرب سجال، يوم بيوم، اعلِ هبل.

وأراد الرجوع إلى المدينة، ليستأصل بقية أصحاب رسول الله ﷺ، فقال لهم صفوان بن أمية بن خلف: لا تفعلوا، فإن القوم قد حربوا، وقد خشينا أن يكون لهم قتال غير الذي كان، فارجعوا فرجعوا. .)[١].

وقد حاول أبو سفيان اعادة الكرة في شعبان سنة أربع، إلا أنه تراجع، وقد أرادت اليهود تحريض قريش على الرسول ﷺ وأصحابه فوفدوا إليهم من المدينة لهذا الغرض، إذ أرسلوا إليهم جماعة من زعمائهم وقد نجحوا في مسعاهم إذ استعدت (فخرجت قريش، وقائدها أبو سفيان بن حرب. وخرجت غطفان. .)[٢] لحرب الرسول ﷺ الذي استعد لهم استعداداً جيداً، وأمر بحفر الخندق، ورغم تحريض أبي سفيان الناس على منازلة الرسول ﷺ وحربه، إلا أنه تراجع في النهاية بعد أن لم تستطع قريش وحلفاؤها الاستمرار في الحصار تحت وطأة الظروف الجوية القاسية.

إسلام أم استسلام. . أبو سفيان يرى النبوة ملكاً

وقد ظل أبو سفيان يكيد لرسول الله ﷺ والمسلمين، حتى دخل مقهوراً فيمن دخل معه من قريش في الدين الجديد عام الفتح، وأعلن إسلامه بعد أن لم يكن من الأمر بد، وصدقت نبوءة رسول الله ﷺ فيهم (. . . فوالله لا يأتي عليكم غير كثير، حتى تدخلوا فيما تذكرون وأنتم كارهون. فكان الأمر كذلك. .).

لقد (أسلم) أبو سفيان، فكيف كان إسلامه. . . ؟.

ذهب في جيش المسلمين إلى حنين، ورسول الله ﷺ قائد ذلك الجيش، وكانت الكرة على المسلمين، والحرب كر وفر. . انهزم أناس كثيرون (ورأى من كان

---

(١) نفس المصدر ص ٦١ - ١٠٤ وراجع الطبري ـ م ٢ ص ٥٩ وما بعدها.

(٢) نفس المصدر ص ٢١٥ والطبري م ٢ ص ٩١ وما بعدها.

مع رسول الله ﷺ من جفاة أهل مكة الهزيمة، تكلم رجال منهم بما في أنفسهم من الضغن، فقال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر، وإن الأزلام لمعه في كنانته)[١].

وقبلها.. عند فتح مكة و (إسلامه) مقهوراً، خاطب العباس عم النبي ﷺ عندما حبسه بأحد المضايق لرؤية جيوش المسلمين التي كانت في طريقها لدخول مكة (.. والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً، قال (العباس)، قلت: يا أبا سفيان، إنها النبوة. قال: فنعم إذاً)[٢].

فهل كان أبو سفيان مقتنعاً بنبوة محمد ﷺ، وهو لم يعلن شهادته إلا بعد أن أنذر بشدة؟.

لقد رأى أن الأمر أمر منافسة على ملك وسلطان ورأى أنه قد خسر جولة الصراع مع محمد ﷺ، وربما سينجح بنوه في جولات لاحقة مع آل محمد عليهم السلام.

إن عقلية أبي سفيان لم تفهم الإسلام ولم تستوعبه أو تهضمه، ومن المؤكد أنه أنشأ أولاده وعائلته على نفس فهمه وتصوراته وقيمه (التجارية) المصلحية البحتة.. وهكذا نشأ معاوية على نفس تصوراته وقيمه ومثله.. (مهما يقل الناس في معاوية من ذلك، فقد كان معاوية هو ابن أبي سفيان قائد المشركين يوم أحد ويوم الخندق، وهو ابن هند التي أغرت بحمزة حتى قتل ثم بقرت بطنه ولاكت كبده، وكادت تدفع النبي نفسه ﷺ إلى الجزع على عمه الكريم... وكان المسلمون يسمون معاوية وأمثاله من الذين أسلموا بآخره، ومن الذين عفا النبي عنهم بعد الفتح، بالطلقاء، لقول النبي ﷺ لهم: اذهبوا فأنتم الطلقاء)[٣].

لقد كان خلق الإسلام هو الذي جعل رسول الله ﷺ يُبقي على من آذاه وآذى المسلمين من قريش وغيرها وأن يتألفهم، لأنه يعلم أنهم ليسوا بمستوى من آمن قبل الفتح... وكان موقفه من أبي سفيان (صاحب العير يوم بدر، وصاحب الجيش يوم أحد وفي يوم الخندق...)[٤] متسامحاً بعيداً عن روح الانتقام والحقد التي ما كان لها

(١) نفس المصدر ص ٤٤٣. والطبري م ٢ ص ١٦٨.
(٢) نفس المصدر ص ٤٠٤.
(٣) الفتنة الكبرى ـ طه حسين ٢ ـ دار المعارف ص ١٤.
(٤) المبرد الكامل في الأدب ـ دار الفكر ـ بيروت ج ١ ص ٢١٧-٢١٨ والعقد الفريد ٢، ١٤٧.

أن تكون في رسول المحبة والإنسانية؛ مع أن الأمر بلغ بالرسول ﷺ أنه رغب في قتله بعيد موقعة أحد وأرسل عمرو بن أمية الضيمري إلى مكة لهذا الغرض(١).

التقرب من مواقع النفوذ

ومع أنه أصبح شخصاً عادياً في ظل الدولة الإسلامية الجديدة، إلا أنه كان يقرب من الخلفاء بعد رسول الله ﷺ . . . فقد أقر له أبو بكر ـ بوصية من عمر ـ ما بيده من أموال الصدقة لئلا يعترض على خلافته بعد رسول الله ﷺ ويثير المشاكل ويحرض الناس، كما كان عمر بن الخطاب (يفرش فراشاً في بيته في وقت خلافته، فلا يجلس عليه إلا العباس بن عبد المطلب وأبو سفيان بن حرب ويقول: هذا عم رسول الله ﷺ وهذا شيخ قريش)(٢).

ولعل أبا سفيان كان يجد دعماً معنوياً كبيراً له بهذا التقريب، ويخطط لاستغلاله في المستقبل، بعد أن رأى منفذاً للدخول ثانية والصعود إلى (قمة) المجتمع القرشي الذي لم يكن بأجمعه متشبعاً بقيم الإسلام ومثله وتصوراته خصوصاً بعد أن كلف ابنه يزيد بولاية الشام. . ثم ابنه معاوية في عهد عمر ووفاة يزيد، وقد أصبح معاوية في عهد عثمان والياً على الشام كلها (سوريا والأردن وفلسطين ولبنان الآن).

إن صعود عثمان ـ وهو من آل أمية ـ إلى الخلافة ولّد طموحاً كبيراً في نفس معاوية الذي كان يحكم في مساحة شاسعة من الدولة الإسلامية ـ للحلول محله في المستقبل.

ومع أنه على قناعة تامة بأنه ليس أهلًا لمنافسة الإمام علي عليه السلام، إلا أنه رأى أن أناساً يقلون عن مستواه قد نافسوه فعلًا (وفازوا) عليه فعلًا واستأثروا بالخلافة دونه. وسنتكلم عن هذا الموضوع بعون الله فيما بعد.

معاوية.. الولد سر أبيه

ويبدو أن معاوية كان متأثراً بأبيه أبي سفيان إلى حد بعيد، فكان يشاوره في أموره كلها ويستمع إلى نصائحه وتوجيهاته، فليس أبو سفيان مما يستهان (بدهائه) وقدرته على كظم غيظه وغضبه. وذلك يتيح له التخلص من بعض المواقف الصعبة

(١) راجع الطبري ٢ ص ٧٩.
(٢) راجع المصدر هامش رقم (١) ص ٢١٧ والعقد الفريد ٢-١٤٧.

واجتيازها على حساب منافسيه أو أعدائه. لقد أخبر معاوية عمر، عندما أمره أن يقتص من عمرو بن العاص عند لطم هذا الأخير له (.. إن أبي أمرني ألا أقضي أمراً دونه. فأرسل عمر إلى أبي سفيان. فلما آتاه ألقى له وسادة وقال: قال رسول الله ﷺ «إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه» ثم قص عليه ما جرى بين عمرو ومعاوية فقال: لهذا بعثت إلي؟ أخوه وابن عمه؛ وقد أتى غير كبير، وقد وهبت ذلك له)[١].

لقد كانت خيانات أبي سفيان وعدم حفاظه على ما يؤتمن عليه معروفة، وقد عاقبه عمر على ذلك، ويبدو أن المال كان إلهه المعبود ونقطة الضعف الكبيرة فيه، وقد أورث ذلك بنيه فيما بعد..[٢] وقد عاقبه عمر عدة مرات على ذلك، ولم يكن يخجل من وقوفه على أبواب الملوك واستجدائه عطاياهم رغم ادعائه أنه سيد قومه[٣].

ومع كل دهاء أبي سفيان ومكره الذي أورثه ابنه معاوية، فإنه لم يكن يستطيع اخفاء بعض ما تجيش به نفسه من بغض للإسلام ومن قيم جاهلية مترسبة.. (القحذمي قال ضرب عمر رجلًا بالدرة فنادى: يا لقصي! فقال أبو سفيان: يا بن أخي، لو قبل اليوم تنادي قصياً لأتتك منها الغطاريف. فقال له عمر: اسكت لا أباً لك. قال أبو سفيان: ها، ووضع سبّابته على فيه)[٤].

إنه لم ينزعج من نهر عمر له وتقريعه إياه، كما لم ينزعج من عقوبات أخرى كان ينزلها به. فمسألة الكرامة لم تكن تبدو حساسة لديه إلا في الحالات التي يشعر بها ان مصالحه أصبحت مهددة، أما في غيرها فكان يغض النظر وينسى كل إهانة، ويعزو سكوته عنها أنه من باب الدهاء والحلم وسعة الصدر.

---

(١) العقد الفريد ـ ابن عبد ربه الأندلسي ـ تحقيق د. عبد المجيد الترحيني ـ دار الكتب العلمية لبنان ـ ١٤٠٤ - ١٩٨٣ ط ١ ج ١ ص ١٨.

(٢) راجع المصدر السابق ص ٤٦ - ٤٨.

(٣) فقد روي عنه أنه قال (أهديت لكسرى خيلاً وأدماً. فقبل الخيل ورد الأدم، وأدخلت عليه، فكأن وجهه وجهان من عِظَمه، فألقى إليَّ مخدة كانت عنده، فقلت واجوعاه! أهذه حظي من كسرى بن هرمز؟ قال: فخرجت من عنده، فما أمر على أحد من حشمه إلا أعظمها، حتى دُفعت إلى خازن له: فأخذها وأعطاني ثمانمائة اناء من فضة وذهب، نفس المصدر ص ٢٨٨.

(٤) نفس المصدر ص ٤٨.

مكر موروث.. إلبس لكل حالة لبوسها

لقد أراد رجل أن يغريه على عثمان عندما حجبه هذا عن بابه فقال له: (يا أبا سفيان ما كنت أرى أن تقف بباب مضري فيحجبك، فقال أبو سفيان: لا عدمت من قومي من أقف ببابه فيحجبني)[1]. وربما كان الذي حجبه غير عثمان لأزعجه ذلك وحاول النيل منه أو الطعن فيه.

لقد علم هذا الرجل أن الرياح أتت بما لم تشته سفنه وإن مجده الغابر في الجاهلية ما كان له أن يعود إلا إذا أبدى المزيد من التنازل وغض بصره عن كل الاهانات التي تلحق به، فربما استطاع العودة إلى مكانته القديمة إذا امتنع عن زج نفسه وعائلته في نزاعات وخصومات جانبية قد تطيح بهم إلى الأبد.. وإلّا هل يستطيع تناسي مكانته في قومه قبل الإسلام وعنجهيته وتكبره وغروره..؟.

(العتبي عن أبيه، قال: أهدى ملك اليمن عشر جزائر إلى مكة، وأمر أن ينحرها أعزُّ قرشي؛ فقدمت وأبو سفيان عروس بهند بنت عتبة، فقالت له: أيها الرجل لا يشغلنك النساء عن هذه المكرمة التي لعلها أن تفوتك. فقال لها: يا هذه، دعي زوجك وما يختاره لنفسه! والله ما نحرها غيري إلا نحرته! فكانت في عُقُلها حتى خرج أبو سفيان في اليوم السابع فنحرها)[2].

و (كانت عنده العقاب راية قريش..)[3].

من أين أتى هذا الهدوء وهذا البرود لهذا الرجل (المتضرر) من الإسلام والذي كانت حياته كلها حرباً عليه؟ وكانت كلها حرباً على الله ورسوله، لقد آذى رسول الله ﷺ وأراد قتله وقتل أصحابه وحرض قريش والعرب عليه وهجاه إلى درجة ألمته وآذته ﷺ وقد قال عليه وعلى آله صلوات الله: اللهم إنه هجاني وإني لا أقول الشعر، فاهجه عني)[4].

لقد أفرغ أبو سفيان جعبته واستعمل كل ما بها لضرب الإسلام ورسوله ﷺ غير أنه هزم في النهاية، وطويت آخر صفحة من المجد المزعوم القائم على الباطل وعلى

---

(١) نفس المصدر ص ٦٧.
(٢) نفس المصدر م ٢ ص ٧١ م ٣ ٢٦٧.
(٣) نفس المصدر.
(٤) نفس المصدر م ٦ ص ١٤٥.

القيم الجاهلية المتدنية. فهل كان هذا التاجر القرشي المقامر الذي ألف المغامرة والاستجداء والتسكع على أعتاب الملوك سيقنع بوصفه في ظل الإسلام أم أنه سيستغل كل فرصة سانحة للوثوب والنيل من هذا الدين الذي (نال) منه وأعاده إنساناً عادياً بسيطاً؟.

شرف النبوة فاق كل شرف!

وهنا سيضاف الحسد وشعور الهزيمة والذل إلى بقية المشاعر المريضة التي حملها آل أبي سفيان بشكل خاص. وإذ أنهم كانوا مضطرين إلى اخفاء هذه المشاعر أمام كل المسلمين، والناس كلهم قد أعلنوا إسلامهم في المحيط الذي عاشوا فيه، فإن المرارة ستفيض هنا ولن يستطيع الكبت أن يخفف منها أو من أي شعور بالهزيمة والخذلان، إلا أن الادعاء والتعالي يبرز حالما يجد إلى ذلك سبيلًا (قيل لمعاوية: أيكم كان أشرف أنتم أو بنو هاشم؟ قال: كنا أكثر اشرافاً، وكانوا هم أشرف. فيهم واحد، لم يكن في عبد مناف مثل هاشم. فلما هلك كنا أكثر عدداً وأكثر اشرافاً. وكان فيهم عبد المطلب، لم يكن فينا مثله. فلما مات صرنا أكثر عدداً وأكثر اشرافاً ولم يكن فيهم واحد كواحدنا. فلم يكن إلا كقرار العين، حتى قالوا: منا نبي. فجاء نبي لم يسمع الأولون والآخرون بمثله، محمد ﷺ فمن يدرك هذه الفضيلة وهذا الشرف..؟)[1] وغم ما في هذه الأقوال من مغالطات مفضوحة، فإن معاوية لم يستطع ـ رغم رغبته الأكيدة في ذلك ـ اخفاء شرف شخصيات بارزة من بني هاشم، مثل هاشم نفسه أو عبد المطلب ابنه، إذ أن ذلك أمر لم يكن قادراً عليه مهما فعل.. فاعترف به علانية.. لكنه لم يستطع منع نفسه من ادعاء الشرف لآله الكثيرين (الذين كانوا أشرافاً بحكم انتمائهم لعبد مناف وحسب لا لفضائل خاصة مذكورة لهم، ولو كانت لذكرها معاوية) لكنه تبجح بأنهم أكثر عدداً، وهذه هي الفضيلة الوحيدة! ولم ير معاوية أمام اجماع الأمة على حب محمد ﷺ، إلا الاستسلام نهائياً عند ذكره، مع أنه رأى أنه ﷺ الشرف الوحيد المتبقي لآل هاشم، وقد ذهب.. ويريد أن يوحي بذلك أن البقية من آل محمد هم كمجموع بني أمية في الشرف، وربما أراد أن يقول: أن علياً كمعاوية والحسين كيزيد...!! فملاحظات معاوية ما كان لها أن تؤخذ ببساطة من قبلنا، فإيحاءاته مؤثرة مضللة، وسنجد أنه سيعمد إلى الكثير منها لفعل

(١) البداية والنهاية ج ٨ ص ١٤٠ - ١٤١.

المزيد من التأثير والتضليل الذي يريد، حتى أنه راح في مناسبات عديدة يدعي لأبيه كل شرف وسيادة عبد مناف. فقد قال في إحدى المناسبات (وقد عرفت قريش أن أبا سفيان كان أكرمها وابن أكرمها، إلا ما جعل الله لنبيه ﷺ فإن انتخبه وأكرمه)[1] وهكذا كانت شهادته لأبيه، وربما لنفسه أو لولده كذلك؛ فلم يكن يريد أحداً أن يظن أن هناك من هو أكرم منه.

الحسد يؤجج نار الحقد والعداوة

ولا ينبغي أن تنسى كل هذه العوامل مجتمعة، مع ما أضيف إليها من عوامل أخرى اقتضتها طبيعة الأحداث المتلاحقة فيما بعد، وتمسح من خارطة العلاقات الأموية الهاشمية، ولا ينبغي أن تنسى مواقف أبي سفيان وآله المتشنجة تجاه دعوة الإسلام حال ظهورها وتسامع الناس بها، ولكي يدعي مدّع إن كل ذلك قد اختفى نهائياً بمجرد انتساب أبي سفيان وأهله إلى الإسلام مضطرين مكرهين بعد ان لم يجدوا بداً من ذلك. وإن كان بعضهم لا يبيح لنفسه التفكير في ذلك ـ أي الانتساب الأموي القهري للإسلام ـ باعتبار أننا كمسلمين مؤمنين ينبغي أن ننظر إلى الجانب الحسن من الأمور ولا نشكك بأي امرىء يعلن شهادة الحق (أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله). حتى لو كان أبو سفيان نفسه أو معاوية ابنه.

كان يمكن أن يكون هذا الأمر صحيحاً مع الآخرين الذين أسلموا وحسن إسلامهم، ولم يسجل عليهم أي موقف معادٍ للإسلام فيما بعد. أما مع هؤلاء الأعداء الدائمين للإسلام، والذين وقفوا في مقدمة المعادين لآل بيت النبوة، واتخذ هجومهم (تكتيكاً) جديداً، لم يكن بنفس الاتجاه المباشر الذي كان من قبل، واستهدف تدمير الإسلام من الداخل بعد أن استعصى عليهم تدميره من الخارج، من خلال إثاره النوازع المتدنية والتي كانت منتشرة قبل الإسلام في مجتمع الجاهلية، في مجتمع الإسلام نفسه الذي احتوى الجميع وأراد تربية الجميع على مبادئه وقيمه. . .

---

(١) الكامل في التاريخ م ٣ ص ٣٤ ومن العجيب أنه كان يفخر بكفر أبيه وحربه على النبي ﷺ ويعتبر أن ذلك كانت أموراً تحصل داخل العائلة الواحدة، وهذا أحد ايحاءاته المضللة (. . فما ساد قريشاً وقادهم إلا أبو سفيان بن حرب، فكانت الفئتان تلتقيان ورئيس الهدى منا ورئيس الضلالة منا، فمهديكم تحت راية مهدينا وضالكم تحت راية ضالنا. .) العقد الفريد ٤ - ١٠١.

ولعلنا ندرك هنا أن الغربلة أو التصفية النهائية لكل جذور الجاهلية وبذورها، ما كانت تتم في سنوات قليلة، ولا بد من مرور جيل على الأقل، تختفي التجربة الجاهلية معه وتنسى نهائياً، لإعداد الجيل التالي والأجيال اللاحقة، على مثل الإسلام وقيمه، ليكونوا قد وعوا ونشأوا عليها منذ البداية. وكان ينبغي لمثل هذه العملية الانقلابية الضخمة أن تتم في ظروف وبيئة صحيحة ممتازة، على يد صحابة الرسول ﷺ وأقربهم منه، يقومون كلهم مجتمعين بهذه المهمة ويعملون باتجاه واحد ويحملون نظرة واحدة وتصوراً واحداً وأسلوباً واحداً قد تتعدد أوجهته لكنه يتشابه في محتواه الأساسي.

إن الإسلام يدرك أن معركته لن تنتهي بمجرد الانضمام العلني لأهل الجزيرة إليه، مع أنهم لم ينضموا إليه جميعاً، وإن امتداده الأفقي وانتشاره بمختلف بقاع الأرض، يجب أن يرافقه امتداد عمودي إذا صحَّ التعبير، بنفوس أولئك الذين ينتمون إليه، لتتصاعد وتائر الأداء الإسلامي بتلك النفوس على أساس الفهم الواعي لكل ما بهذا الدين من قيم جديدة عليا، أساسها الإيمان بالله سبحانه وتعالى وتوحيده والانحياز إليه بل وحبه وطلب وجهه ورضاه. كما أنه يدرك أن هذه المعركة ستستمر ما دام الشرك والأصنام الحجرية والبشرية تطل بوجوهها البشعة على مناطق واسعة من العالم.

بين عقلية الرسالي وعقلية التاجر

لقد أدرك الأمويون أنهم في مجتمع لم يتخلص من رواسب الجاهلية وشوائبها بشكل تام ونهائي، يستطيعون فعل الكثير واستثماره لصالحهم، وكانت عقلياتهم التجارية المتحفزة اليقظة المتحسبة، ترصد كل الفرص والامكانات التي تتاح لهم في هذا السبيل.

وهكذا سعى أبو سفيان، الذي كان غائباً عند وفاة الرسول ﷺ ، وبلغته بيعة أبي بكر عند سقيفة بني ساعدة، لاستغلال هذه الفرصة لاحداث انشقاق بين بني هاشم آل النبي ﷺ والآخرين، تكون نتيجته وبالًا على الجميع فقد توفي رسول الله ﷺ وأبو سفيان غائب... فلما انصرف لقي رجلًا في بعض طريقه مقبلًا من المدينة، فقال له: مات محمد؟ قال: نعم. قال: فمن قام مقامه؟ قال: أبو بكر. قال: فما فعل المستضعفان، علي والعباس؟ قال: جالسين. قال: أما والله لئن بقيت

لهما لأرفعن من أعقابهما، ثم قال: إني أرى غبرة لا يطفئها إلا دم. فلما قدم المدينة جعل يطوف في أزقتها ويقول:

بني هاشم لا تطمع الناس فيكم ... ولا سيما تيم بن مرة أو عدي
فما الأمر إلا فيكم وإليكمُ ... وليس لها إلا أبو حسن علي

فقال عمر لأبي بكر: إن هذا قَدِم. وهو فاعل شراً. وقد كان النبي ﷺ يتألفه على الإسلام، فدع له ما بيده من الصدقة. ففعل فرضي أبو سفيان وبايعه. وقد روى الطبري بخصوص هذه الحادثة (. . . أقبل أبو سفيان وهو يقول: والله إني لأرى عجاجة لا يطفئها إلا دم! يا آل عبد مناف فيم أبو بكر من أموركم! أين المستضعفان! أين الأذلان علي والعباس! وقال: أبا حسن! ابسط يدك حتى أبايعك. فأبى علي عليه، فجعل يتمثل بشعر المتلمس:

ولن يقيم على خسف يراد به ... إلا الأذلان عير الحي والوتدُ
هذا على الخسف معكوس برمته ... وذا يشج فلا يبكي له أحد

فزجره علي، وقال: إنك والله ما أردت بهذا إلا الفتنة، وإنك والله طالما بغيت الإسلام شراً! لا حاجة لنا في نصيحتك. . وقال أبو سفيان لعلي: ما بال هذا الأمر في أقل حي من قريش! والله لئن شئت لأملأنها عليه خيلًا ورجالًا! قال: فقال علي: يا أبا سفيان، طالما عاديت الإسلام وأهله فلم تضره بذاك شيئاً. .)(1).

لقد أراد أبو سفيان استغلال أول فرصة تسنح له، عندما رأى أن بإمكانه أن يفرق بين المسلمين ويهدم الإسلام بعد وفاة رسول الله ﷺ مباشرة، وكان يريد أن يثبت لمن تولوا الخلافة أنه لا يزال يتمتع بقدر كبير من الجاه والنفوذ والقوة تمكنه من التأثير على الناس.

ومع قناعة الإمام علي عليه السلام بأحقيته في الخلافة، إلا أنه يعرف الآثار المترتبة على المطالبة بها، ويعلم أن النزاعات سيتبعها الدم، وسيكون الإسلام هو المتضرر الأول والأمة الإسلامية هي المتضررة جراء ذلك، فآثر مصلحة الإسلام والمسلمين على حقه والمطالبة به، وكان رده على أبي سفيان وعلى كل من دعوه إلى مناهضة من سبقه من الخلفاء بالقوة رداً واحداً قوياً مفخماً، وإن كان قد جاء بأساليب متعددة.

---

(1) العقد الفريد. ص ١٠ والطبري ٢ - ٢٣٧.

(هذا ماء آجن ولقمة يغص بها آكلها، ومجتني الثمرة لغير وقت ايناعها كالزارع بغير أرضه. فإن أقل يقولوا حرص على الملك، وإن أسكت يقولوا جزع من الموت. هيهات بعد اللتيا والتي. والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمه. بل اندمجت على مكنون علم لو بحت به لاضطربتم اضطراب الأرشية في الطوى البعيدة)[1].

وإلى هذه الحادثة نفسها أشار أمير المؤمنين عليه السلام في أحد كتبه إلى معاوية، عندما خرج عليه هذا الأخير بعد مقتل عثمان، فقد كتب، فيما كتب إليه: (.. وقد كان أبوك، أبو سفيان، أتاني حين قبض رسول الله ﷺ، فقال: ابسط يدك أبايعك فأنت أحق الناس بهذا الأمر، فكنت أنا الذي أبيت عليه، مخافة الفرقة بين المسلمين لقرب عهد الناس بالكفر، فأبوك كان أعلم بحقي منك. فإن تعرف من حقي ما كان أبوك يعرفه تصب رشدك، وإلا فنستعين الله عليك..)[2].

وقد كانت هذه الرسالة من باب الاحتجاج على معاوية وأضرابه من المعاندين الخارجين، فالإمام عليه السلام كان أول الناس إدراكاً، إن استجابته لأبي سفيان، ستسبب الفرقة بين المسلمين، لقرب عهد الناس بالكفر، كما أنه يعلم أن أبا سفيان كان يعلم بذلك أيضاً، وأنه إنما سعى إليه لهذا السبب نفسه، غير أنه باعترافه العلني بأحقية أمير المؤمنين[3] شهد على نفسه بذلك إن اعتراف معاوية بهذا الحق الذي اعترف به أبوه سيصحح مسيرته ويُصيب به رشده وأنى لمعاوية أن يفعل ذلك، وهو قد أوشك أن يحقق أمنياته بعد أن مهد لقتل عثمان، ونجح في شق وحدة المسلمين وأوشك على الوصول إلى ما لم يكن يطمح إليه حتى أبوه وأجداده، من ملك عريض وجاه اعرض.

لقد كان رسول الله ﷺ يتألف أبا سفيان على الإسلام، لأنه يعلم أنه لم يزل متمتعاً بقدر من النفوذ بين الناس، وأنه لو استقام لكان داعياً لاستقامة الكثيرين وأنه قادر على احداث ثغرات كبيرة في المجتمع الإسلامي إذا ما أهمل أو أهين، لقرب عهد الناس بالإسلام، على أن رسول الله ﷺ لم يمنحه أية امتيازات إضافية على

---

(١) نهج البلاغة ٩٣ - ٩٤.
(٢) العقد الفريد ص ٨٠.
(٣) تاريخ الطبري ٢ ص ٢٣٧.

حساب الناس، وكان أسلوبه لتأليف بعض الناس على الإسلام ربما اقتضته مرحلته الزمنية وربما لم يعد أحد بحاجة إلى ذلك الأسلوب بعد رسول الله ﷺ.

لقد أدرك أبو بكر وعمر ما يمكن أن يسببه أبو سفيان لهما من مشكلات وصعوبات إن لم يحصل على رشوة ضخمة يسدان بها فمه، وكان تركا له ما بيده من الصدقة وقربا ولديه يزيد ومعاوية واستعملاهما على أجزاء مهمة من الدولة الإسلامية رغم ما في ذلك من مخاطر جسيمة على هذه الدولة. إذْ أن العادة لم تجر باستعمال من أسلم بعد الفتحات بمهات خطيرة كهذه وتأميرهم على الدول والجيوش.

كانا يعلمان أن طموحه لن يقف عند حد الاكتفاء ببعض المكاسب البسيطة، وأنه إن سكت أمام عزة الإسلام وغلبته، وأمام الرسول الكريم ﷺ ومركزه ونفوذه، فإنه لا بد أن يتصدى لغيره مهما كان مركزه، خصوصاً وأنه يعد نفسه متفوقاً على الجميع ـ وعلى أقل الحالات نداً لهم، عدا رسول الله ﷺ..!.

موقفان متناقضان في لحظة واحدة

ووسائله متنوعة وأمره مشهور بالمكر والدهاء الذي كان وسيلته لخوض كل معاركه ضد الإسلام.. وهكذا روى لنا الطبري، قال (لما استخلف أبو بكر قال أبو سفيان: ما لنا ولأبي فصيل: إنما هي بنو عبد مناف! فقيل له: إنه قد ولى ابنك، قال: وصلته رحم)[1] لقد تنازل رأساً عن دعاواه ومواقفه طالما استطاع تحقيق بعض المكاسب ومنها حصوله على ما بيده من أموال الصدقة وتولية ابنه، فأصبح أبو بكر أقرب إليه من علي.. مع أن مصالحه أقرب إليه من كليهما.

نداء المصلحة الشخصية أهم من كل شيء

إن نداء المصلحة الشخصية أقوى عنده من أي نداء آخر، ولا يهم هذا الرجل إلا التطلع لمستقبل محدود على هذه الأرض وحسب.

لقد اطمأن أبو سفيان وارتاح لعمر حين ولى (على دمشق يزيد بن أبي سفيان وعلى الأردن عمر)[2] (ومات يزيد بن أبي سفيان، فجعل عمر مكانه معاوية ونعاه لأبي سفيان، فقال: من جعلت على عمله يا أمير المؤمنين؟ فقال: معاوية، فقال:

---

(١) تاريخ الطبري ٢ ص ٢٣٧.
(٢) تاريخ الطبري ٢/ ٤٩١.

وصلتك رحم، فاجتمعت لمعاوية الأردن ودمشق، ومات عمر، ومعاوية على دمشق والأردن)[١].

إنه لم يحزن على يزيد بقدر ما فرح لمعاوية، فما دامت ولاية يزيد لم تذهب وأصبحت لمعاوية بعده، فإن أبا سفيان لم يعد نفسه خاسراً بفقدان ابنه، فلقد حسب أبو سفيان أنه حقق كل أمنياته، وكان ذلك في السنة التي مات فيها وهي سنة ٣١ هـ وعمره ثمان وثمانون سنة... ففي هذه السنة اجتمعت لمعاوية الشام كلها (دمشق والأردن وحمص وقنسرين وفلسطين).. وعندها حسب أبو سفيان أن حياته قد انتهت بنجاح منقطع النظير، ذلك لأن تصوراته أرضية بحتة لا تحسب حساباً لأية قيم إلهية عليا.

التمهيد لمعاوية، حصة في سلطة الدولة الإسلامية «هذا كسرى العرب»

لقد قرَّب عمر معاوية أكثر عندما جعله عاملًا له على دمشق إضافة للأردن، غير أنه كان يأخذه بالشدة في بعض الأحيان ويوبخه على ما كان يبديه من مظاهر البذخ والترف ويعلم أنه لا يتمتع بذلك القدر من الأمانة التي ينبغي أن يكون عليها الوالي في ظل الدولة الإسلامية، وكان معاوية يبدو حذراً من عمر ويدرك أنه يراقبه ويرصد تصرفاته التي يبدو أنها كانت غير خافية عليه، فقد قال له عمر في إحدى المرات (... سأحدثك ما بك إلا الطافك نفسك بأطيب الطعام، وتصبحك فتى تضرب الشمس وذوو الحاجات وراء الباب، فقال: يا أمير المؤمنين علمني أمتثل)[٢].

(وكان عمر بن الخطاب إذا رأى معاوية قال: هذا كسرى العرب)[٣].

وقد كان معاوية من الدهاء وقوة الحيلة بحيث أنه لم يكن يجرؤ على اغضاب عمر الذي كان سريع الغضب أمام كل ما يستفزه ويثيره، وكان يعامل ولاته بغلظة ولا يتسامح معهم (قال يزيد: حدثني أبي أن عمر بن الخطاب لما قدم الشام، قدم على حمار ومعه عبد الرحمن بن عوف على حمار، فتلقاهما معاوية في موكب ثقيل، فجاوز عمر معاوية حتى أخبر به فرجع إليه. فلما قرب منه نزل إليه، فأعرض عنه، فجعل يمشي إلى جنبه راجلًا. فقال له عبد الرحمن بن عوف: أتعبت الرجل. فأقبل

---

(١) نفس المصدر ص ٦١٨.

(٢) البداية والنهاية ج م ص ١٢٨.

(٣) المصدر السابق ص ١٢٨ وتاريخ الخلفاء، السيوطي، دار الفكر ١٩٨٨ ص ١٨٢.

عليه عمر فقال: يا معاوية، أنت صاحب الموكب آنفاً مع ما بلغني من وقوف ذوي الحاجات ببابك؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. قال: ولم ذاك؟ قال: لأنا في بلد لا نمتنع فيها من جواسيس العدو ولا بد لهم مما يرهبهم من هيبة السلطان! فإن أمرتني بذلك أقمت عليه، وأن نهيتني عنه انتهيت. فقال: لئن كان الذي تقول حقاً فإنه رأي أريب! وإن كان باطلًا خدعة أديب، وما آمرك به ولا أنهاك عنه. فقال عبد الرحمن بن عوف: لحسنٌ ما صدر هذا الفتى عما أوردته فيه! فقال لحسن موارده جشّمناه ما جشمناه)[١].

لماذا قربه عمر؟ «دعوا فتى قريش وابن سيدها»

ولا ندرك الغرض الحقيقي من وراء تعيين عمر إياه على الأردن والشام، فلا شك أن عمر غير مقتنع بنزاهته أو بتفرده بكفاءة مثلى، كما أنه يعلم أنه من الطلقاء، ربما أراد بذلك اسكات أبي سفيان ومن يشايعه من قريش التي نصبت العداوة لآل النبي ﷺ منذ البداية وظلت على عدائها وكرهها لهم، فمع أن عمر يشتد على معاوية إلا أنه يلين معه وربما لم يره إلا قسوة رؤوفة، قسوة أب حانٍ محب لابنه، يريد صلاحه ولا يريد انزلاقه في الغواية. قد ينظر إليه غيظاً وقد تفيض نفسه عليه حباً، وقد استبدل عمر معظم ولاته إلا معاوية فإنه وسع ولايته (الأردن) وأضاف إليها (الشام) بعد وفاة يزيد.

(ذكر معاوية عند عمر فقال: دعوا فتى قريش وابن سيدها، أنه لمن يضحك في الغضب. لا ينال منه إلا على الرضا، ومن لا يأخذ من فوق رأسه إلا من تحت قدميه)[٢].

ويبدو أن معاوية على اتصال دائم بأبويه الحاذقين الماكرين، يتزود من نصائحهما الأبوية الغالية ليضيف إلى خبرته المتنامية في (فن السياسة والحكم) خبرات جاهزة في فن الحياة... (لما قدم معاوية من الشام، وكان عمر قد استعمله عليها، دخل على أمه هند؛ فقالت له: يا بني، إنه قلما ولدت حرة مثلك، وقد استعملك هذا الرجل، فاعمل بما وافقه أحببت ذلك أم كرهته. ثم دخل على أبيه

(١) العقد الفريد ١ - ١٥.

(٢) البداية والنهاية ج ٨ ص ١٢٧ ونسب الأندلسي ذلك إلى عمرو بن العاص ـ لعقد الفريد ٥ - ١١١.

أبي سفيان! فقال له: يا بني، إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا عنهم، فرفعهم سبقهم وقصّر بنا تأخرنا، فصرنا أتباعاً، وصاروا قادة؛ وقد قلدوك جسيماً من أمرهم، فلا تخالفن أمرهم، فإنك تجري إلى أمد لم تبلغه، ولو قد بلغته لتنفست فيه.

قال معاوية: فعجبت من اتفاقهما في المعنى على اختلافهما في اللفظ)[١].

فهما كانا يدعوانه للحذر والترقب وعدم التمادي في تصرفاته الملفتة للنظر، لأنه كان لا يأخذ نفسه بما كان غيره يأخذون به أنفسهم ولو ظاهرياً من التقشف وجشوبة العيش وخشونته. ثم أنه لو كان قد عومل وفق المعايير التي وضعها رسول الله ﷺ في مسائل الامرة والقيادة لما وصل أصلًا إلى ما وصل إليه في عهد عمر.

لا داعي للحذر مع عثمان

أما حين استتب الأمر لعثمان (وهو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف)، ابن عم معاوية، وأصبح خليفة بعد أن اختاره عبد الرحمن بن عوف عندما رفض الإمام علي عليه السلام الامتثال لشروطه في أن يعمل بعمل من سبقه من الخلفاء؛ فقد (دعا عبد الرحمن بن عوف علياً عليه السلام فقال عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة نبيّه وسيرة الخليفتين من بعده؟ قال: اعمل بمبلغ علمي وطاقتي)[٢].

إنه لم ير أنه ملزم بالعمل بسيرة من سبقه، ما داما غير معصومين، ورأى أن علمه وطاقته يفوقان ما لديهما، ومن هنا جاء رفضه لشرط ابن عوف.

ورأى أنه ملزم بالعمل وفق كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وحسب، وهل فهم أحد كتاب الله ووعاه وعمل به كما فهمه هو ووعاه وعمل به هو؟ وهل التصق أحد برسول الله ﷺ وأخذ من علمه كما أخذ هو عليه السلام؟ إنه لم ير أن يقيده أحد بقيود أو شروط غير ممكنة التطبيق، فمن سبقه لم يكن معصوماً حتى يلتزم بسيرته، أعلن رأيه بوضوح ودون تحفظ أو مداورة.

(١) العقد الفريد ١ ص ١٤.

(٢) العقد الفريد ص ٢٩ وتاريخ الطبري ٢ ص ٥٨٢.

شروط تعجيزية لاقصاء الإمام عن الخلافة

ولعل عبد الرحمن بن عوف اتخذ شرطه ذاك ذريعة لابعاده عن الخلافة، فربما علم يقيناً أنه لن يتنازل ويستجيب لشروطه المجحفة وأنه سيجيبه بما أجاب به. فلم يكن الإمام عليه السلام ليساوم ويتنازل عن الحق وعن كل ما يعلمه ويفهمه في سبيل الجلوس على كرسي الخلافة، مع أنه أحق الناس به.

إنه شرط (تعجيزي) لا يمكن أن يستجيب له الإمام بأي حال من الأحوال، لذلك فإنه قال عندما نزع الأمر عنه واختار عثمان دونه «حبوته محاباة، ليس ذا بأول يوم تظاهرتم فيه علينا. أما والله ما وليت عثمان إلا ليرد الأمر إليك، والله كل يوم هو في شأن»[1] ومع ذلك فقد سكت وصبر وقام بالنصح والمشورة وابداء الرأي للخليفة الجديد ولم يتخل عن الدولة الإسلامية أو يقف منها موقفاً سلبياً بحجة انتزاع حقه منه وتصدى بكل حزم لايقاف الانحراف المتسارع الذي بدا يظهر بوضوح في هذه الدولة الفتية.

نقول: حين استتب الأمر لعثمان، وأصبح خليفة، استفز تقريبه الأحداث من أهل بيته على الجلّة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله حتى على عبد الرحمن بن عوف الذي اختاره والذي عوتب على ذلك، فعاتب بدوره عثمان عتاباً مراً وآلى على نفسه أن لا يكلمه أبداً، فلم يكلمه حتى مات[2]... وعندما احتج عثمان بأن بعض الولاة من أمثال معاوية، قد عينهم عمر نفسه، قال له الإمام عليه السلام: «إن عمر كان يطأ على صماخ من ولي أن بلغه عنه حرف جلبه ثم بلغ به أقصى العقوبة، وأنت لا تفعل ضعفت وقفت على أقربائك)[3].

---

(١) العقد الفريد ٥ - ٣٢ والكامل في التاريخ ٢ - ٥٨٣.

(٢) العقد الفريد ٥ ٣٣ (فلما أحدث عثمان ما أحدث من تأمير الأحداث من أهل بيته على الجلة من أصحاب محمد صلى الله عليه وآله، قيل لعبد الرحمن بن عوف: هذا عملك! قال: ما ظننت هذا! ثم مضى، ودخل عليه وعاتبه، وقال: إنما قدمتك على أن تسير فينا بسيرة أبي بكر وعمر، فخلفتهما وحابيت أهل بيتك وأوطأتهم رقاب المسلمين. فقال: إن عمر كان يقطع قرابته في الله وأنا أصل قرابتي في الله. قال عبد الرحمن: لله علي ألا أكلمك أبداً. فلم يكلمه أبداً حتى مات. ودخل عليه عثمان عائداً له في مرضه. فتحول عنه إلى الحائط ولم يكلمه).

(٣) الكامل في التاريخ ٣ - ٤٤ وتاريخ الطبري ٦٤٥.

وطبيعي أن يستغل معاوية هذا الانحياز المطلق من عثمان لأقاربه أسوأ استغلال، فيتصرَّف وكأنه هو الخليفة الفعلي، لا عثمان، كما يفعل مروان بالضبط، وقد لفت ذلك أنظار الناس وانتباههم، فحاول الإمام علي عليه السلام بدوره لفت نظر عثمان إلى ذلك، فقال عثمان لعلي (هل تعلم أن عمر ولى معاوية؟ فقد وليته. فقال علي: أنشدك الله هل تعلم أن معاوية كان أخوف لعمر من «يرفأ» غلام عمر له؟ قال: نعم. قال علي: فإن معاوية يقتطع الأمور دونك ويقول للناس: هذا أمر عثمان، وأنت تعلم ذلك فلا تغير عليه)[1].

وكما فعل معاوية، فعل مروان بن الحكم بن أبي العاص، ابن عمه الآخر فعله، فراح يجعل من نفسه وزيراً ومستشاراً ومساعداً وكاتباً لعثمان. كما راح بقية الأقارب يفعلون فعلهما على حساب مقدرات الأمة المسلمة.

وقد كانت أفعال مروان الطائشة أحد الأسباب التي جعلت الناس يقفون موقفاً معادياً من عثمان، حتى بلغت جرأتهم عليه، أنهم عمدوا إلى قتله في النهاية، ليكون ذلك بداية لسلسلة من الأحداث الكبيرة والفتن، لا تزال آثارها تمتد حتى يومنا هذا.

وهنا لا بد لنا من وقفة قصيرة أمام أحد الاشكالات التاريخية المعقدة والبسيطة بنفس الوقت والتي أثارت جدلًا ونزاعاً بين المسلمين، لا يزال يثار بين آونة وأخرى.

آل عثمان قتلوا عثمان... هكذا حدثنا التاريخ

التمهيد للانحراف المعلن

ونتساءل: من قتل عثمان؟ ولماذا؟.

ومن كان السبب في قتله؟ وماذا كانت مصلحة بعض المسببين من هذا القتل؟.

وكيف تغير موقفهم بعد مقتله؟.

وعلى من رموا تهمة القتل والتحريض؟ ولماذا؟.

وكيف كان أسلوبهم بإلصاق تهمة القتل بأمير المؤمنين عليه السلام وأصحابه ولأي غرض فعلوا ذلك؟.

وماذا كان غرض طلحة والزبير وعائشة ومعاوية وعمر بن العاص ـ بالتحديد ـ من ذلك؟.

---

(١) الكامل في التاريخ ص ٤٤ م ٣ وتاريخ الطبري ٢ ص ٦٤٥.

إن كتب التاريخ والسير المعروفة لا تكاد تختلف في الإجابة عن هذه الأسئلة، إلا في طول التفاصيل التي توردها ونصوص العبارات وطرق التعبير.. فقد أجمعت وأكدت هذه الكتب كلها على أن ما أثار الناس على عثمان هو انحيازه لأقاربه، وتقريبهم على الجلة من أصحاب محمد ﷺ أصحاب السوابق والمناقب (وأنه كثيراً ما يولي بني أمية ممن لم يكن له من رسول الله ﷺ صحبه، وكان يجيء من أمرائه ما ينكره أصحاب محمد ﷺ، فكان يستعتب ولا يعزلهم)[1].

(ومما نقم الناس على عثمان أنه آوى طريد رسول الله ﷺ، الحكم بن أبي العاص، ولم يؤوه أبو بكر ولا عمر، وأعطاه مائة ألف. وسير أبا ذر إلى الربذة، وسير عامر بن عبد قيس من البصرة إلى الشام، وطلب منه عبد بن خالد بن أسيد صلة فأعطاه أربعمائة ألف. وتصدق رسول الله ﷺ بمهزون ـ وضع سوق المدينة، على المسلمين فأقطعها الحرث بن الحكم أخا مروان، وأقطع فدك مروان، وافتتح أفريقية، فأخذ خمس الفيء فوهبه لمروان)[2].

(قال الشيباني: أول من آثر القرابة والأولياء عثمان بن عفان)[3].

(إن الذي جمع لمعاوية الشام كلها عثمان بن عفان وأما عمر فإنه إنما ولاه بعض أعمالها)[4].

---

(١) العقد الفريد م ٢ ص ٢٠٦ و م ٢ ص ٣٥ - ٣٦ - ٣٩ - ٥٥.

(٢) و(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) البداية والنهاية ٨ - ١٢٧. (وفي سنة خمس وعشرين عزل عثمان سعداً عن الكوفة وولى الوليد بن عقبة ابن أبي معيط ـ وهو صحابي! أخو عثمان لأمه ـ وذلك أول ما نقم عليه، لأنه آثر أقاربه بالولايات! وحكي أن الوليد صلى بهم الصبح أربعاً وهو سكران ثم التفت إليهم فقال: أزيدكم؟) تاريخ الخلفاء/ السيوطي ـ دار الفكر ١٩٨٨ - ص ١٤٤ (فلما وليهم عثمان لأن لهم ووصلهم ثم توانى في أمرهم واستعمل أقرباءه وأهل بيته.. وكتب لمروان بخمس أفريقية، وأعطى أقرباءه وأهل بيته المال.. فأنكر الناس عليه ذلك) نفس المصدر ص ١٤٦. (وكان كثيراً ما يولي بني أمية ممن لم يكن له مع النبي ﷺ صحبه، فكان يجيء من أمرائه ما تنكره أصحاب محمد ﷺ، وكان عثمان يستعتب فيهم فلا يعزلهم.. فلما كان في الست الأواخر استأثر بني عمه فولاهم وما أشرك معهم... نفس المصدر ص ١٤٧.

ولا بد أن نعلم أن نصائح كثيرة، بل وعتاب شديد قد وصل إلى أسماع عثمان لكي يتخلى عن عماله ومستشاريه وخصوصاً مروان بن الحكم، طريد رسول الله ﷺ إلا أنه أبى ذلك، وبرر رفضه بمختلف الحجج والتبريرات التي لم تكن مقنعة.

ولعل تقريب آل الحكم، ذوي السمعة السيئة بين أوساط المسلمين كلهم وتفضيلهم على الناس، ومنحهم الامتيازات العديدة والأموال الطائلة، وجمع الشام كلها لمعاوية والتغاضي عن أفعاله، وأفعال الولاة والعمال الآخرين الذين يمتون إليه بصلات قريبة، جعل الناس يدركون أنهم أمام أسلوب جديد في الحكم وأمام بادرة انحراف خطيرة لا بد من تلافيها وإلا اتسعت وأصبحت ظاهرة لا يمكن التغلب عليها فيما بعد ـ وقد أصبحت كذلك فعلاً ـ وصحح حدسهم أمام ما رأوه من انحراف.

أراد انقاذه فاتهموه بالتحريض على قتله «الله الله في نفسك»

وطبيعي أن ردود الفعل تجاه ذلك لم تكن واحدة لدى الجميع، وكانت النصيحة والعتاب لو أجديتا في البداية ستحسمان هذا الأمر، غير أن عثمان بدا مغلوباً على أمره وضعيفاً أمام أقاربه وذويه المتسلطين عليه بشكل واضح، حتى بلغ الأمر بزوجته نائلة ابنة القرافصة التي لم يكن شك في حبها الشديد له، أنها أنّبته بعدما سمعت عتاب أمير المؤمنين عليه السلام له وقوله «أما رضيت من مروان ولا رضي منك إلا بتحرفك عن دينك وعن عقلك مثل جمل الظعينة يقاد حيث يشاء ربه. والله ما مروان بذي رأي في دينه ولا نفسه، وأيم الله إني لأراه يوردك ولا يصدرك، وما أنا عائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك، أذهبت شرفك وغلبت على رأيك.

فلما خرج علي دخلت عليه امرأته نائلة ابنة القرافصة فقالت: «قد سمعت قول علي لك، وليس يعاودك، وقد أطعت مروان يقودك حيث شاء. قال: فما أصنع؟ قالت تتقي الله وتتبع سنة صاحبيك، فإنك متى أطعت مروان قتلك، ومروان ليس له عند الناس قدر، ولا هيبة ولا محبة، وإنما تركك الناس لمكانه، فبلغ مروان مقالة نائلة فيه فجلس بين يدي عثمان فقال: «يا ابنة القرافصة» فقال عثمان: «لا تذكرنّها بسوء فاسوِّد وجهك، فهي والله أنصح لي منك» فكفَّ مروان.

وأتى عثمان إلى علي بمنزله ليلاً وقال: إني غير عائد، وإني فاعل. فقال له

علي: بعد ما تكلمت على منبر رسول الله ﷺ وأعطيت من نفسك، ثم دخلت بيتك، فخرج مروان إلى الناس يشتمهم على بابك ويؤذيهم!)[1].

قتلوه وطالبوا بدمه..

وإذا ما علمنا أن مجموعة كبيرة من الصحابة وذوي الرأي والشأن والتأثير، كانت تعلن عداءها لعثمان بشكل صريح مثل طلحة والزبير وعائشة وعمرو بن العاص وغيرهم، وكانت تعلن رأيها صراحة بضرورة قتله وتحرض الناس عليه، وربما فكر بعضهم بصيرورة الأمر إليه بعد مقتل عثمان، أدركنا أن المسألة لا تتعلق بعلي عليه السلام نهائياً إلا بالقدر الذي أوجبه عليه تكليفه الشرعي في اسداء النصيحة وبذل المشورة باستمرار ودأب وبشكل واضح معلن، لا يضمر غير ما يظهره إلى درجة أضجرت عثمان نفسه والمقربين منه، ولو كان الإمام عليه السلام يتمنى قتله أو يسعى إليه، لتركه يتمادىٰ في أخطائه لتتراكم وتكثر، ولما أشار عليه بما أشار ولما أرسل إليه ولده الحسن عليه السلام يحرسه، حتى قال بعض الناس حين رأوا اخلاصه في الدفاع عنه تنفيذاً لأمر والده، إن الحسن عثماني الهوى، مع أنه ليس إلّا صورة من علي، وكانت المبدئية والحرص على الدين، وخوف الشقاق والفتنة هي التي جعلته يزجي النصح، ويرسل ابنه لحراسة ممثل الخلافة، لمنع الفتنة من الاتساع والامتداد. فكأنه يرى بعين البصيرة النافذة، كم ستكون عصيبة الأيام التي ستمر بالمسلمين لو قتل عثمان، فكيف يسعى هو إلى ذلك، مع أنه يريد تلافيه بكل صورة، وقد بذل جهده لامتصاص نقمة الناس عليه وتهدئتهم والسفارة بينه وبينهم، مع أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا من أشد الناس نقمة وغضباً وقد (كتب أصحاب رسول الله ﷺ بعضهم إلى بعض: ان أقدموا، فإن كنتم تريدون الجهاد فعندنا الجهاد. وكثّر الناس على عثمان، ونالوا منه

---

(١) الكامل في التاريخ ٣-٥٧ وكان مروان قد سب الناس المجتمعين على باب عثمان وقال لهم: «ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم قد جئتم لنهب! شاهت الوجوه إلى من أريد جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا! اخرجوا عنا. والله لئن رمتمونا ليمرن عليكم منا أمر لا يسركم ولا تحمدوا غب رأيكم، ارجعوا إلى منازلكم فأنا والله ما نحن بمغلوبين على ما في أيدينا». ص ٥٦ وقال في مناسبة أخرى (.. إن شئتم حكّمنا والله بيننا وبينكم السيف..) تاريخ الطبري ٢/ ٦٤٦.

أقبح ما نيل من أحد، وأصحاب رسول الله ﷺ يرون ويسمعون، ليس فيهم أحد ينهى ولا يذب إلا نفير، فاجتمع الناس، وكلموا علي بن أبي طالب. . .)[1].

لقد بذل الإمام عليه السلام جهده لنصح عثمان وانتشاله من المصير الذي كان سيؤول إليه وهو الموت قتلًا (. . . فالله الله في نفسك. . . وإن الطريق لواضح بيني، وإن أعلام الدين لقائمة. تعلّم يا عثمان إن أفضل عباد الله عند الله إمام عادل، هُدي وهدى، فأقام سنة معلومة وأمات بدعة متروكة، فوالله أن كلّا لبيّن، وإن السنن القائمة لها أعلام، وإن البدع القائمة لها أعلام. وإن شر الناس عند الله إمامٌ جائر، ضل وضل به، فأمات سنة معلومة، وأحيا بدعة متروكة، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر، فيلقى في جهنم فيدور في جهنم كما تدور الرحا، ثم يرتطم في غمرة جهنم» وإني أحذرك الله، وأحذرك سطوته ونقماته، فإن عذابه شديد أليم، وأحذرك أن تكون إمام هذه الأمة المقتول، فإنه يقال: يقتل في هذه الأمة إمام، فيفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة، وتُلبَّس أمورها عليها، ويتركهم شيعاً، فلا يبصرون الحق لعلو الباطل، يموجون فيها موجاً، ويمرجون فيها مرجاً)[2] . . . وقد تكرر نصح أمير المؤمنين عليه السلام لعثمان ومعاتبته إياه إلى درجة أضجرته فطلب منه عدم معاودته والذهاب إلى ماله بينبع ليعتزل هناك.

فكيف يسعى إلى ما حاول منعه، وما أشار أحد إلى ذلك من قبل، ولا اتهم إلا بعد أن بايعه الناس. فقد روى (جرير بن حازم عن محمد بن سيرين، قال: «ما علمت أن علياً اتهم في دم عثمان حتى بويع، فلما بويع اتهمه الناس)[3] وكان ذلك بتأثير بني أمية وأضاليلهم وأكاذيبهم.

بين مصلحة الأمة و(ضرورات) السياسة

فمن هم الناس الذين اتهموه...؟ هل هم سوى معاوية وطلحة والزبير

---

(١) الطبري ٢ ـ ٦٤٤ (لما رأى الناس ما صنع عثمان كتب من بالمدينة من أصحاب النبي ﷺ إلى من بالآفاق منهم، وكانوا قد تفرقوا في الثغور: أنكم إنما خرجتم أن تجاهدوا في سبيل الله عز وجل تطلبون دين محمد ﷺ فإن دين محمد قد أفسد من خلفكم وترك، فهلموا فأقيموا دين محمد ﷺ فأقبلوا من كل أفتق حتى قتلوه) ـ تاريخ الطبري ٢ - ٦٦٢.

(٢) المصدر السابق ٦٤٥ والعقد الفريد ٥ - ٥٨.

(٣) العقد الفريد ٥ - ٥٥.

وعمرو بن العاص وعائشة واضرابهم.. أي نفس أولئك الذين حرضوا على قتله ومهّدوا لذلك؟.

إنها إذاً (ضرورات السياسة) والمصالح التي جعلت من سعوا لقتل عثمان يطالبون علياً بدمه، مع أنهم قتلوه وعلي عليه السلام بريء من ذلك، وهم يعلمون حق العلم أنه بريء.. فمعظم كتب التاريخ تروي عن عائشة قولها: «اقتلوا نعثلاً فقد كفر»، فكيف أصبح مظلوماً بعد أن استجاب من قتله لندائها فقتله؟ (خرجت عائشة باكية تقول: قتل عثمان مظلوماً! فقال لها عمّاله: أنت بالأمس تحرضين عليه، واليوم تبكين عليه!)[1].

أما عمرو بن العاص فكان يحرض الناس عليه جهرة، وقد قال له بعد إحدى خطبه: «اتق الله يا عثمان، فإنك قد ركبت فينا أموراً وركبناها معك، فتب إلى الله. نتب. فناداه عثمان: وإنك هناك يا ابن النابغة؟ قملت والله جبتك منذ عزلتك عن العمل. فنودي من ناحية أخرى: تب إلى الله، فرفع يديه وقال: اللهم إني أول تائب... وخرج عمرو بن العاص إلى منزله بفلسطين وكان يقول: والله إني كنت لألقى الراعي فأحرضه على عثمان وأتى علياً وطلحة والزبير فحرضهم على عثمان. ثم لما قتل عثمان بعد ذلك، ارتحل عمرو من فلسطين راجلاً معه ابناه يبكي كما تبكي المرأة وهو يقول: واعثماناه، أنعى الحياء والدين، حتى قدم دمشق... وفعل ذلك لأنه بلغه أن الناس بايعت علياً)[2].

وكان عمرو هذا (لما بلغه قتل عثمان قال: أنا أبو عبد الله، أنا قتلته وأنا بوادي السباع. إن يل هذا الأمر طلحة فهو فتى العرب سيباً، وإن يله ابن أبي طالب فهو أكره من يليه إلي.. فبلغه بيعة علي فاشتد عليه.. فسمع أن معاوية بالشام لا يبايع علياً، وأنه يعظم شأن عثمان، وكان معاوية أحب إليه من علي... ثم خرج ومعه ابناه، حتى قدم على معاوية، فوجد أهل الشام يحضون معاوية على الطلب بدم عثمان. وقال عمرو: أنتم على حق، اطلبوا بدم الخليفة المظلوم»... ومعاوية لا يلتفت إليه فقال لعمرو ابناه: ألا ترى معاوية لا يلتفت إليك فانصرف إلى غيره. فدخل عمرو على معاوية فقال له: والله لعجب لك أني أرفدك بما أرفدك وأنت معرض عني.. إن

(١) العقد الفريد ٥ - ٤٣.

(٢) الكامل في التاريخ ٥٤ ـ ٥٥ ـ ١٥٧.

قاتلنا معك نطلب بدم الخليفة أن في النفس ما فيها حيث تقاتل من تعلم سابقته وفضله وقرابته ولكنا إنما أردنا هذه الدنيا. فصالحه معاوية وعطف عليه)[1].

وقد شكى عثمان طلحة إلى الإمام عليه السلام، فذهب إلى طلحة في داره، وهو في خلوة من الناس، وعاتبه على موقفه المعادي من عثمان وتحريضه الناس عليه، لما يمكن أن يجره ذلك الموقف من فتن كبيرة، وقال له: (يا طلحة ما هذا الأمر الذي وقعت فيه؟ فقال: يا أبا الحسن، بعدما مس الحزام الطبيين! فانصرف علي حتى أتى بيت المال، فقال: افتحوه. فلم يجدوا المفاتيح، فكسر الباب، وأعطى الناس، فانصرفوا من عند طلحة، حتى بقي وحده، وسر بذلك عثمان. وجاء طلحة فدخل على عثمان وقال له: «يا أمير المؤمنين، أردت أمراً، فحال الله بيني وبينه، فقال عثمان: والله ما جئت تائباً، ولكن جئت مغلوباً. الله حسيبك يا طلحة)[2].

«لما حصر عثمان، قال علي لطلحة: أنشدك الله إلا رددت الناس عن عثمان. قال: لا والله، حتى تعطيني بنو أمية الحق من أنفسها»[3].

(ابن عون عن ابن سيرين قال: لم يكن أحد من أصحاب النبي ﷺ أشد على عثمان من طلحة)[4].

ولم يكن الزبير بأقل شدة من طلحة وعائشة وعمرو بن العاص على عثمان (لما حصروا عثمان ومنعوه الماء، قال الزبير: وحيلَ بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل)[5] [6].

تصرفات مروان وتربص معاوية سببت قتل عثمان.. أمرٌ دبّر بليل

وقد كان مروان ابن طريد رسول الله، والفتى المدلَّل المقرب من عثمان، هو ومعاوية وبقية الأقارب الأمويين، سبباً مباشراً لقتل عثمان، وكما بينا، فإن سبب نقمة

---

(١) نفس المصدر ١٥٧ - ١٥٨.
(٢) نفس المصدر ص ٥٨.
(٣) نفس المصدر ص ٧٣.
(٤) العقد الفريد ٥ ص ٤٩.
(٥) سبأ: ٥٤.
(٦) العقد الفريد ٥ ص ٤٩.

الناس على عثمان هو تقريب هؤلاء ومنحهم الامتيازات والمناصب الكبيرة في الدولة. ومما زاد الطين بلة أن مروان عمد إلى أفعال وتصرفات طائشة في أوج أزمة عثمان وخلافه مع الناس، وأنه ـ كما زُعم ـ قد دس رسالة كتبها على لسان عثمان، يأمر فيها بجلد رؤساء المصريين الذين رجعوا إلى مصر بعد اقتناعهم الظاهري بأعذار عثمان، وحبسهم وحلق رؤوسهم ولحاهم وصلب بعضهم، وقد أقسم عثمان ما كتبها وما عملها..[1] وهو عمل طائش أفقد ثقة الناس بعثمان نهائياً (وكثرت الأصوات واللغط، فقام علي فخرج وأخرج المصريين، ومضى علي إلى منزله، وحصر المصريون عثمان، وكتب إلى معاوية وابن عامر وأمراء الأجناد يستنجدهم ويأمرهم بالعجل وإرسال الجنود إليه، فتربص به معاوية فقام في أهل الشام يزيد بن أسد القسري ـ جد خالد بن عبد الله القسري ـ فتبعه خلق كثير فسار بهم إلى عثمان، فلما كانوا بوادي القرى، بلغهم قتل عثمان فرجعوا..)[2].

فلماذا تربص معاوية ولم يهب لنجدة عثمان حالما وصلت إليه نداءاته واستغاثته؟ لم يكن هناك أي سبب للتريث أو المماطلة (التي دعت خالداً القسري وخلقاً كثيراً من أهل الشام للذهاب إلى المدينة بعد أن تلكأ معاوية)... ومع ذلك تلكأ معاوية، وأراد لعثمان أن يقتل ليصبح هو (ولي الدم) بزعمه، ويتاجر بدمه، ويرفع هذه الورقة الجديدة التي تتيح له تمزيق صف الأمة الإسلامية ووحدتها، والوثوب على كرسي الحكم، الذي رأى أنه كان غير ممتنع على ابن عمه المستضعف عثمان كما أسماه عبد الملك بن مروان فيما بعد[3]، حيث رفع قميصه ودعا أهل الشام إلى البكاء عليه والطلب بثأره، لقد كان معاوية يطمح منذ زمن بعيد أن يتولى الأمر خصوصاً وأنه كان يعتقد أن من ولوا الأمر كانوا أقل منه كفاءات وجدارة.

وكان عثمان يرى احتمال قتله وارداً، وقد صرح بمحفل ضم أتباعه ومريديه وعماله مثل عبد الله بن عامر ومعاوية وعبد الله بن سعد وسعيد بن العاص

---

(١) الكامل في التاريخ ٣ ـ ص ٥٩.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر ٦١ وجاء في العقد الفريد م ٥ ص ١٥٠ أن عبد الملك بن مروان خطب الناس أيام خلافته فقال: (أيها الناس إني والله ما أنا بالخليفة المستضعف ـ يريد عثمان بن عفان ـ ولا بالخليفة المداهن ـ يريد معاوية بن أبي سفيان ـ ولا بالخليفة المأفون ـ يريد يزيد بن معاوية ـ فمن قال برأسه كذا، قلنا بسيفنا كذا! ثم نزل).

وعمرو بن قائلًا (. . . ووالله إن رحا الفتنة لدائرة، فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها. .)[1].

بشارة بالملك من كعب الأحبار وحديث مزور عن رسول الله ﷺ

(فلما نفر عثمان أشخص معاوية وعبد الله بن سعد إلى المدينة، ورجع ابن عامر وسعيد معه. ولما استقل عثمان رجز الحادي:

قد علمت ضوامر المطيّ وضامراتُ عَوجُ القِسِيّ
أن الأمير بعده علي وفي الزبير خلف رضي
وطلحة الحامي لها وليُّ

فقال كعب وهو يسير خلف عثمان: الأمير والله بعده صاحب البغلة ـ وأشار إلى معاوية. . . ما زال معاوية يطمع فيها بعد مقدمه على عثمان حين جمعهم، فاجتمعوا إليه بالموسم، ثم ارتحل، فحدا به الراجز:

إن الأمير بعده علي وفي الزبير خلف رضيُّ

قال كعب: كذبت! صاحب الشهباء بعده ـ يعني معاوية ـ فأخبر معاوية، فسأله عن الذي بلغه، قال: نعم، أنت الأمير بعده، ولكنها والله لا تصل إليك حتى تكذب بحديثي هذا. فوقعت في نفس معاوية)[2].

وقد لفق معاوية قولًا على لسان رسول الله ﷺ، ادعى فيه أن الرسول الكريم ﷺ قد بشره بالملك وطلب منه إذا ما صار ملكاً أن يحسن. . . فقد قال معاوية (ما زلت أطمع في الخلافة منذ قال لي رسول الله ﷺ: يا معاوية، إذا ملكت فأحسن)[3].

عثمان.. الجسر الذي عبر عليه معاوية إلى (الخلافة)

وقد كان معاوية يبدو وكأنه يحرض على قتل عثمان، فقد قال في حديث له، وكأنه ينتصر لعثمان وفيه يشير إشارة خفية إلى احتمال قتله ويرى أن ذلك أمر ممكن،

(١) تاريخ الطبري ٢ ص ٦٤٨ - ٦٤٩ والكامل في التاريخ ٣ - ٤٨.
(٢) نفس المصدر السابق.
(٣) العقد الفريد ٥ - ١١٢ وتاريخ الخلفاء، السيوطي دار الفكر، بيروت ١٩٨٨ ص ١٨٢.

وأنه إن حدث سيكون كرامة له (. . . وقد كبر وولى عمره، ولو انتظرتم به الهرم لكان قريباً، مع أني أرجو أن يكون أكرم على الله أن يبلغه ذلك. .)(١).

لم يكن معاوية من شدة الإيمان بحيث أنه يرى أن من الهوان على المسلم أن يموت على فراشه، غير أن هذه إشارة مضللة منه، يريد أن يؤكد من خلالها أن عثمان يمكن أن لا يموت على فراشه وأنه قد يقتل، وأن في هذا كرامة له، وحسبنا أن نتصوركم ستستفز هذه الكلمة المجتمع الإسلامي الذي كان غاضباً من عثمان.

لقد كان عثمان جسراً عبر عليه معاوية إلى الملك، وقد مهَّد لذلك وغض النظر عنه وتربص به حتى قتل فقام يطالب به وينادي بأخذ الثأر له ففي حوار لمعاوية مع أبي الطفيل (قال معاوية لأبي الطفيل: أكنت فيمن حضر قتل عثمان؟ قال: لا، ولكني فيمن حضر فلم ينصره. قال: فما منعك من ذلك؟ وقد كانت نصرته عليك واجبة؟ قال: منعني ما منعك إذ تربص به ريب المنون وأنت بالشام. قال: أو ما ترى طلبي لدمه نصرة له؟ قال: بلى، ولكنك وإياه كما قال الجعد:

لا ألفينَّك بعد الموت تندبني وفي حياتي ما زودتني زادا)(٢)

وقد أوضح هذه النقطة بجلاء أمير المؤمنين عليه السلام، عندما لج معاوية في عناده وعدم انصياعه لمبايعته عليه السلام مدعياً أنه يريد الثأر من قتلة عثمان، فكتب إليه أمير المؤمنين عليه السلام: (. . . فوالله ما قتل ابن عمك غيرك، وإني أرجو أن ألحقك به على مثل ذنبه، وأعظم من خطيئته! وإن السيف الذي ضربت به أهلكَ لمعي دائم؛ والله ما استحدثت دنيا، ولا استبدلت نبياً، وإني على المنهاج الذي تركتموه طائعين، وأدخلتم فيه كارهين)(٣).

أمير المؤمنين أراد منع الناس من قتل عثمان

وعلى العكس من تلك المواقف المعادية، بل المجاهرة بالعداوة لعثمان والتي كانت تنبعث عن مطامع تزين لأصحابها الحلول محل من تتمنى قتله، بل وتدعو إلى ذلك محرضة الناس بكل ما تملك من امكانات ومراكز مرموقة في المجتمع، كان

(١) الكامل في التاريخ ٣ - ٤٨ وتاريخ الطبري ٢/ ٦٤٩.
(٢) مروج الذهب ١٩ - ٢٠ وتاريخ الخلفاء/ السيوطي دار الفكر ١٩٨٨ ص ١٨٦ - ١٨٧.
(٣) العقد الفريد ٥ - ٨٢.

موقف الإمام عليه السلام ينطلق من اعتبار واحد، هو الحفاظ على وحدة المسلمين وقوة الإسلام، مع أنه صاحب الحق الوحيد بالأمر، حتى مع وجود عثمان نفسه، وقد كان يخلص له النصح محاولاً انقاذه من القتل لمنع باب الفتن أن يفتح بقتله، فقد بلغه (إن عثمان يراد قتله، فقال: إنما أردنا منه مروان، فأما قتل عثمان فلا. وقال للحسن والحسين: اذهبا بسيفيكما حتى تقوما على باب عثمان، فلا تدعا أحداً يصل إليه بمكروه. . ورمى الناس عثمان بالسهام، حتى خضب الحسن بن علي بالدماء على بابه. .)[1].

(وكان الحسن فيمن دافع عنه واجتلد مع بعض أبناء الصحابة. . . وقبل أن يقتل عثمان قال للحسن: إن أباك الآن لفي أمر عظيم من أمرك، فأقسمت عليك لما خرجت إليه)[2].

وقد بلغ من حرص الإمام عليه السلام ومواظبته ودوامه على إزجاء النصح لعثمان، إن هذا الأخير دعاه فيما بعد للتوقف عن ذلك، ومغادرة المدينة إلى ضيعة له بينبع. (وكان عليٌّ كلما اشتكى الناس إليه أمر عثمان، أرسل ابنه الحسن إليه، فلما أكثر عليه قال له: إن أباك يرى أن أحداً لا يعلم ما يعلم، ونحن أعلم بما تفعل، فكف عنا، فلم يبعث علي ابنه في شيء بعد ذلك.

وقال عبد الله بن العباس: أرسل إليَّ عثمان فقال لي: أكفني ابن عمك! فقلت: إن ابن عمي ليس بالرجل يرى له، ولكنه يرى لنفسه، فأرسلني إليه بما أحببت. قال: قل له فليخرج إلى ماله بينبع، فلا اغتم به ولا يغتم بي، فأتيت علياً فأخبرته، فقال: ما اتخذني عثمان إلا ناصحاً ثم أنشد يقول:

فكيف به أني أداوي جراحه فيدوَى فلا مل الدواءَ ولا الداء)[3]

وهكذا رأينا أن عثمان قد مل نصائحه بعد أن رأى أنها قد أثقلت عليه، فدعاه إلى مغادرة المدينة وتركه، ثم عاد يستنجد به لما رأى جد القوم وعزمهم على قتله، ودعاه لردهم، فقال الإمام عليه السلام: (على أي شيء أردهم عنك؟ قال: على أن أصير

---

(١) العقد الفريد ص ٣٩ والكامل في التاريخ ص ٥١ - ٥٣ وتاريخ الخلفاء ص ١٤٩.
(٢) الكامل في التاريخ ٣ - ٦٤ - ٦٥.
(٣) العقد الفريد ٥ - ٥٨ - ٥٩.

إلى ما أشرت إليه ورأيته لي. فقال علي: إني قد كلمتك مرة بعد أخرى، فكل ذلك تخرج وتقول حتى ترجع عنه، وهذا من فعل مروان وابن عامر ومعاوية وعبد الله بن سعد، فإنك أطعتهم وعصيتني. قال عثمان: فأنا أعصيهم وأطيعك، فأمر الناس، فركب معه من المهاجرين والأنصار ثلاثون رجلًا، فأتوا المصريين فكلموهم. وكان الذي يكلمهم علي ومحمد بن مسلمة، فسمعوا مقالتهما ورجعوا إلى مصر. ورجع علي ومن معه إلى المدينة، فدخل على عثمان فأخبره برجوعهم وكلمه بما في نفسه ثم خرج من عنده)[(١)].

ويبدو أن الإمام قد صرف جهداً ووقتاً كثيرين بإزجاء النصح لعثمان حتى أعياه أمره ولم يجد معه حيلة، حتى قال في ذلك: (... إني إن قعدت في بيتي قال لي: تركتني وقرابتي وحقي، وإني إن تكلمت فجاء ما يريد يلعب به مروان، فصار سيفه له، يسوقه حيث يشاء، بعد كبر السن وصحبة رسول الله ﷺ، وقام مغضباً حتى دخل على عثمان، فقال له: أما رضيت من مروان ولا رضي منك إلا بتحرفك عن نبيك وعن عقلك، وما أنا عائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك، أذهبت شرفك وغلبت على رأيك.

وقال يخاطب عثمان: والله إني لأكثر الناس ذباً عنك، ولكني كلما جئت بشيء أظنه لك رضا، جاء مروان بأخرى، فسمعت قوله وتركت قولي. ولم يعد علي يعمل ما كان يعمل إلى أن منع عثمان الماء. فقال علي لطلحة: أريد أن تدخل عليه الروايا، وغضب غضباً شديداً حتى دخلت الروايا على عثمان..)[(٢)].

وبعد: فهل من مدع يستطيع أن يدعي أن الإمام وقف موقفاً سلبياً من عثمان، وأنه لم يزج النصح، ولم يبذل جهده لانقاذ عثمان؟ وهل من يستطيع أن يدعي أنه عليه السلام لم يكن حريصاً على منع الفتنة وفرقة المسلمين؟.

ومع ذلك فقد رأينا من فقد ماء الحياء، وجاء يتهم علياً عليه السلام بذلك، ويذرف

---

(١) الكامل في التاريخ ٣ ص ٥٤ وراجع الطبري ٢ - ٦٥٨.

(٢) المصدر السابق ٥٦ - ٥٧ وقد روى الطبري في تاريخه ٢ - ٦٥٩ أنه قال له (أما رضيت من مروان ولا رضي منك إلا بتحرفك عن دينك وعن عقلك مثل جمل الضغينة يقاد حيث يسار به. والله ما مروان بذي رأي في دينه ولا نفسه، وأيم الله إني لأراه سيوردك ثم لا يصدرك وما أنا بعائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك أذهبت شرفك وغلبت على أمرك).

دموع التماسيح على الخليفة المظلوم! وينصب من نفسه ولياً للمطالبة بدمه، وممن؟ من الذي بذل أكبر جهد بشري ممكن لتجنيب المقتول مصيره المأساوي الذي جر على المسلمين الويلات والمحن لمدة طويلة لا تزال تخيم علينا لحد الآن رغم مرور مئات السنين عليها.

اقبال الفتن.. عندما ترك القرآن والسنة

وقد أطلت الفتن بوجهها الكالح عندما وجدت من يؤجج أوارها ويوقد نارها، ولم تتح للإمام كما رأينا فرصة اطفائها منذ البداية، وقد أججها الطمع والحسد والضغينة والقيم الجاهلية المقيتة التي بقيت في قرارة النفوس الضعيفة، فلم يكتف أولئك الطامعون بما حصلوا عليه من مكاسب ومغانم في ظلِّ الخلفاء الثلاثة الأوائل وخصوصاً عثمان، فظلوا يسعون إلى المزيد منها، حتى لقد طمحوا إلى الخلافة نفسها فكيف كان سيسير الأمر في ظل طلحة أو الزبير اللذين كانا يحبان جمع المال إلى درجة مفرطة؟ لقد رأينا كم بلغت ثروة الزبير وطلحة، ورأينا كيف كان معاوية يحيا حياة الأكاسرة والأباطرة، ورأينا كم أخذ مروان وأخوه وأبوه.

وعندما جلس علي عليه السلام على كرسي الخلافة، حانت فرصة من ناصبوه العداء لكي يجمعوا شتاتهم ويعلنوا الحرب عليه. لقد تزامنت هذه الحرب مع استلامه مهمته الخطيرة في قيادة الأمة الإسلامية قيادة فعلية بعد أن حجبت عنه فترة طويلة. وقد أريد له أن يتراجع عن كل ما نادى به ودعا إليه طيلة حياته، ليساوم ويداهن ليظلَّ محافظاً على هذا المنصب الذي لم يكن حريصاً للحصول عليه إلا لإقامة الحق الذي عرفه، وكلف باقامته وإماتة الباطل الذي كلف باماتته، ولعل عمق المسؤولية الملقاة على عاتقه، لم يكن يدرك أبعاده أحد كما يدركه هو، ولذلك فإن تصورات من دعوه إلى الاستجابة لمطاليب من ناوؤه ومساومتهم لحين استتباب الأمور له، لم تكن بوضوح وقوة تصوراته وفهمه المستمدة من تصورات وفهم رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه، للإسلام ورسالته العظيمة؛ فلقد كان يستمد تصوراته من نبع الإسلام الأصيل.

(وقد قال عليه السلام: إن آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح أوله، فانصروا الله ينصركم ويصلح لكم أمركم... فالزموا دينكم، واهدوا بهديي، فإنه هدي نبيكم، واتبعوا سنته، واعرضوا عما أشكل عليكم حتى تعرضوه على القرآن، فما عرفه القرآن

فالزموه، وما أنكره فردوه، وارضوا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، ومحمد نبياً، وبالقرآن حكماً وإماماً)[١].

وقد رأينا ـ فيما مر بنا ـ كيف كان الإمام ينظر لمهمته، وكيف أرادنا، نحن، أن نفهم هذه المهمة، وأن نقترب من تصوراته وقيمه التي هي تصورات وقيم رسول الله ﷺ نفسه.

ولم تكن النصوص التي أوردناها، هي وحدها التي وضحت لنا تصور الإمام بشكل عام، وإنما كانت المواقف العملية المبدئية له عليه السلام هي التي أكدت بشكل قاطع استقامة هذه المواقف، واستجابتها ونطابقها مع كل ما جاء به الإسلام ونزل به القرآن الكريم وعمل به وقرره الرسول الكريم ﷺ.

مع مسؤولياته دائماً

إن مهمة الإمام هذه، المتحدة مع مهمة الرسول ﷺ والمكملة لها، والتي تصدَّى لايقافها وعرقلتها من تصدى، في الوقت الذي استعد فيه الإمام للقيام بها من موقع قيادي مباشر، خليفة لرسول الله ﷺ وأميراً للمؤمنين، كانت ستتخذ أبعاداً أخرى في تحديد ورسم صورة الدولة الإسلامية النموذج، وكانت ستبين وترسخ المؤسسات الإسلامية المتخصصة التي تدبر شؤون هذه الدولة، وتوفر على المسلمين الوقت والجهد الذي بذلوه فيما بعد، حينما بهتت صورة الإسلام، وتراجع المسلمين أمام حدَّة الانحرافات والخروج السافر عن الإسلام وتعاليمه من قبل الحاكمين الذين حكموا باسم الإسلام نفسه ورفعوا بعض شعاراته الظاهرية. كانت هذه المهمة ستنجح نجاحاً باهراً وتكون أساساً لتجربة إسلامية متكاملة مقرة معمول بها إلى يومنا هذا، لو لم يتصد له أولئك الحاقدون المنسلخون عن الإسلام، وغير المنتمين إليه نهائياً.

أوسع بيعة وأكبر إجماع

لقد أدرك أصحاب رسول الله ﷺ ومن عاصروه، حتى طلحة والزبير نفساهما، اللذان شنّا عليه الحرب فيما بعد، أن عليهم أن يستنجدوا لأن بمن حجب عنه حقه فترة طويلة، ويصروا على أن يبايعوه، وكان اصرارهم على ذلك وطلبهم الشديد وإلحاحهم عليه لكي يستجيب لهم، أكبر حجة له عليهم فيما بعد، وخصوصاً

---

(١) الكامل في التاريخ ١١٣ - ١١٦.

طلحة والزبير اللذان تقدما الوفود للمبايعة، بل كانا أول من بايع، ثم أثارا الفتن فيما بعد بمختلف الحجج والذرائع، وإلا فهل كانا يعلمان منه عليه السلام ميلًا للمساومة والانحراف على حساب المسلمين حتى يقدما على مبايعته؟ (... لما قتل عثمان، اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار، وفيهم طلحة والزبير، فأتوا علياً، فقالوا له: «إنه لا بد للناس من إمام. قال: لا حاجة لي في أمركم، فمن اخترتم رضيت به. فقالوا: ما نختار غيرك. وترددوا إليه مراراً، وقالوا له في آخر ذلك: إننا لا نعلم أحد أحق به منك ولا أقدم سابقة ولا أقرب قرابة من رسول الله ﷺ..[1].

(... لما قتل عثمان بن عفان، أقبل الناس يهرعون إلى علي بن أبي طالب، فتراكمت عليه الجماعة في البيعة. فقال: ليس ذلك إليكم، إنما ذلك لأهل بدر ليبايعوا)[2].

بيعة في العلن... وأمام أنظار جماهير الأمة

ولنلاحظ ـ إذا ما سلمنا بما ورد هنا تسليماً تاماً ـ رفضه مراراً وترددهم إليه مراراً واقرارهم بأن لا أحد أحق بالأمر منه ولا أقدم سابقة، ولا أقرب قرابة من رسول الله ﷺ، هل ترى أنهم أدركوا ذلك الآن، ولم يدركوه من قبل؟ الحقيقة أن بعضهم لم يبايع أبا بكر، بعد وفاة رسول الله ﷺ حتى بايع الإمام عليه السلام وقد تبنوا موقف الإمام الحريص على وحدة المسلمين وغلبة الإسلام، ويدلُّ عدم اختلافهم عليه الآن، وإنهم لا يرون أحداً أحق بالأمر منه، وعدم اختلاف غيرهم فيه أيضاً، إنه الرجل الذي كان ينبغي أن يتصدى للأمر منذ البداية ويأخذ دوره في قيادة الأمة وتربيتها.. وربما كان رفضه المتكرر ثم قبوله بعد ذلك، وإصراره على أن تكون بيعته علنية أمام الجميع وفي المسجد، عندما أصروا بدورهم على مبايعته (فقالوا: والله ما نحن بفاعلين حتى نبايعك، قال: ففي المسجد، فإن بيعتي لا تكون خفية ولا تكون إلا في المسجد)[3]... إلا ليلقي الحجة على المعترضين والمعاندين على صحة هذه البيعة وإجماع الأمة عليها، وربما فسح المجال أمامهم ليبينوا آراءهم ووجهات نظرهم بشأنها، ولم يكن يريد الأمة إلا لتظهر رغبتها الحقيقية في قيادته، ولم يكن هو راغباً

---

(١) الكامل في التاريخ ٣/ ٨١.
(٢) العقد الفريد ٥ - ٥٧.
(٣) الكامل في التاريخ ٣ - ٨١.

في هذه القيادة إلا بالقدر الذي يحتمه عليه شعوره بالمسؤولية الكبيرة التي يدرك هو أبعادها ومدياتها أكثر من غيره.

وإذا ما استثنينا بعض الأمويين الذين هربوا من المدينة إثر مقتل عثمان، وبعض المستفيدين من عثمان، فإن اجماع صحابة رسول الله وبقية الناس على بيعته، تدل على أنهم يقدرونه حقّ قدره، وأن لا أحد منهم على الاطلاق اتهمه بقتل عثمان أو التحريض عليه أو السكوت عنه، وهذا يثير تساؤلًا آخر: أترى أن أولئك الذين خرجوا على الإمام فيما بعد هم أناس عاديون من عامة الناس، لا يدركون ما يفعلون ويميلون مع كل هوى وينعقون مع كل ناعق، أو أنهم من الأذكياء و (الدهاة) المشهود لهم بالرأي والذكاء والنظر، وأنهم من المرموقين المعروفين في مجتمعاتهم وأقوامهم..؟.

إذ لم تستح فافعل ما شئت

ثم: لماذا يثير الذين غمسوا أيديهم بدم عثمان أنفسهم، مسألته بعدما بويع لعلي بالخلافة مع أن معظمهم وخصوصاً طلحة والزبير كانوا في مقدمة المبايعين؟ وأظننا قد بيّنا رأينا فيما سبق حول هذا الموضوع. وربما كان للأمر أسبابه ودوافعه الأخرى، ولم نرد أن نبين كل الأسباب والدوافع وراء الخروج على أمير المؤمنين عليه السلام، بعد هذا الإجماع الشعبي الواسع من الأمة عليه، لأن البحث ليس مكرّساً لهذه القضية إلا بالقدر الذي نستفيد منه في دراستنا، وإنما ذكرنا ما ذكرناه لنبيّن أن الذين خرجوا كان موقفهم (محيراً) للكثيرين وربما ضلوا بسببه وتاهوا، غير أن أقل ما يقال منه أنه لا يوجد له أي مبرر أو دافع على الاطلاق، اللهم إلا الدوافع المتدنية التي لا يقرها الإسلام ويحاول اقتلاعها من نفوس البشر، وهل غير الأثرة والحسد والخوف من فقدان الامتيازات والمناصب، والحرص على الدنيا، هي التي جعلت هؤلاء وأشباههم، يخرجون على الإمام العادل الزاهد الذي يريد المساواة بين الناس على أساس الإسلام والإسلام وحده..؟ ولعلهم علموا ما لم يعلمه غيرهم من (المفكرين) و (المؤرخين) الجدد، حق علي وآله عليهم السلام في الإمامة وخلافة الرسول صلى الله عليه وآله وقيادة الأمة.. فأصبح همهم العمل على هدم ما أوشك أن يقام ويستمر في ظل الدولة الإسلامية الجديدة التي تعيد لدولة رسول الله صلى الله عليه وآله عهدها الأول، وبادروا متكاتفين بحملةٍ مسعورة لإيقاف (الخطر) المزعوم عليهم والماثل أمامهم،

إذا ما استتبت الأمور لعلي عليه السلام، وأخذهم من غيرهم بما أخذ به نفسه وآله من الحق، والحق مر وصعب إذا ما مس المصالح والامتيازات، بل هو خطر، وخطر جسيم حينما لا يراه الإنسان ولا يعرفه ولا يرى إلا نفسه.

لا للمساومات!

لقد كان شرط الإمام عليه السلام ثقيلًا عليهم، حينما ألحوا عليه بقبول البيعة (.. واعلموا أني إن أجبتكم ركبت فيكم ما أعلم)[1]... وكانوا يعلمون أنه يعلم غير الذي يعلمون، يعلمون أن ذلك التسديد الإلهي، والخطى السائرة على خط الرسول صلى الله عليه وآله هي بعينها لا تزال تلك الخطى، وهي لا بد أن تبعدهم في النهاية عما ألفوه واعتادوه من رخاء ونعيم، وعلموا أن طبقة جديدة من الصحابة ستنشأ وتتعلم في مدرسة القرآن، مدرسة علي عليه السلام، إذا ما استتب له الأمر واستقرَّت به الحال، وأن أجيالًا من رجال القرآن سينشأون ويبرزون ويكونون أعلاماً لهذه الأمة بعد أن تربوا على يد الأمة، فهذه السيرة لا بد أن تكون كسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله عطاء وبناء.. والأجيال الجديدة قد تكتسح أمجاداً مزيفة اقامتها بعض الشخصيات القديمة ولو على حساب الإسلام ومثله وقيمه الحقيقية.

طبقة جديدة.. لن تتنازل عن امتيازاتها

إن طبقة جديدة من المتنفذين والميسورين وذوي الجاه والنفوذ الذي حصلوا عليه بفضل الإسلام (ومن خلال التجاوز عليه في واقع الحال)، أوشكت أن تبرز كهيئة أو ملأ مقرب ومتميز على الآخرين.. وقد كانت بعض المفاهيم الإسلامية، وربما الإسلام برمته - قريبة عهد بالجاهلية، توشك أن تشوّه أو تتحجر، ويوشك الدس والوضع في الحديث وفي تأويل القرآن أن يكثر وينتشر، ولعل أول جرأة بدت من القوم هي مخالفتهم رسول الله صلى الله عليه وآله في وصيته، وإذا استسهلوا ذلك فإنهم لا بد سَيَسْتَسْهلون غيرها من الأمور العظيمة، لنلاحظ أن العقلية الجاهلية لا تزال تمد أستارها وحجبها على الكثيرين، وإن التخلص منها لم يتم بشكل تام، وإن المعركة لا تزال قائمة بين الإسلام وخصومه ولم يستقر الحال بعد لصالح الإسلام.

وقد كان الخطر بعد ذلك على الإسلام، لا على علي عليه السلام وحده، ولقد كان

---

(١) الكامل في التاريخ ٣ - ٨٣.

هو يدرك هذا الخطر ويحاول أن يشدّ الأمة إلى الإسلام لا إليه خاصة، ويعلم أنه إذا ما شدهم إليه ودعاهم إلى خطّه، فإنه بذلك يشدهم إلى الإسلام نفسه، وكان الجميع يدركون ذلك، فأي جيل كان سينهض ويبرز على الساحة لو سارت الأمور كما خطط لها الإمام وأراد؟.

غير أن للهوى غلبة على الكثير من النفوس وللشهوة سلطان.

حجة للخلاف والتمرد

فأما معاوية فإننا سنترك قضيته الآن لنناقشها فيما بعد، وأما طلحة والزبير، فإنهما ما كادا يبايعان الإمام، حتى عادا نادمين على موقفهما الداعي لعلي عليه السلام، ولم يطل الأمر بهما حتى جاء إلى الإمام في نفس اليوم الذي بايعاه فيه، وقالا له: (يا علي إنّا قد اشترطنا إقامة الحدود، وإن هؤلاء القوم قد اشتركوا في قتل هذا الرجل وأحلوا بأنفسهم.. فقال لهم في كلام كثير «إن هذا الأمر أمر جاهلية وإن الناس من هذا الأمر إن حرك على أمور: فرقة ترى ما ترون، وفرقة ترى ما لا ترون، وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى تهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها، وتؤخذ الحقوق، فاهدأوا عني وانظروا ماذا يأتيكم، ثم عودوا)[1].

(واجتمع إلى علي بعدما دخل طلحة والزبير في عدة من الصحابة، فقالوا: يا علي، أنا قد اشترطنا إقامة الحدود، وإن هؤلاء القوم قد اشتركوا في دم هذا الرجل، وأحلوا بأنفسهم. فقال لهم: يا إخوتاه، إني لست أجهل ما تعلمون، ولكني كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم! ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم، وتابت إليهم أعرابكم، وهم خلالكم يسومونكم ما شاؤوا، فهل ترون موضعاً لقدرة على شيء مما تريدون؟ قالوا: لا. قال: فلا والله لا أرى إلا رأياً ترونه إن شاء الله؛ إن هذا الأمر أمر جاهلية، وإن لهؤلاء القوم مادة...)[2].

وقد دعاهم عليه السلام للأخذ بثأرهم، فتراجعوا عن ذلك، وعندما خرج طلحة والزبير من المدينة في فئة من قريش، قال عليه السلام: (ما أنهم لن يَدَعوا أن يخرجوا يقولون: نطلب بدم عثمان! والله نعلم أنهم قتلة عثمان)[3].

---

(١) الكامل في التاريخ ٨٥ - ٨٦.
(٢) تاريخ الطبري ٢ - ٧٠٢.
(٣) المصدر السابق ٢ - ٧٠٤.

وقد وجد طلحة والزبير في عائشة سنداً لهما، إذ أنها عندما أخبرت أن الناس قد اجتمعوا على بيعة علي قالت (ليت هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر. . وانصرفت إلى مكة وهي تقول: قتل والله عثمان مظلوماً. والله لأطلبن بدمه»، فقال لها الرجل الذي نقل إليها خبر مقتل عثمان، وهو من أخوالها: «ولم؟ والله إن أول من أمال حرفه لأنت، ولقد كنت تقولين: اقتلوا نعثلًا فقد كفر. قالت: إنهم استتابوه ثم قتلوه، وقد قلت وقالوا. وقولي الأخير خير من قولي الأول» ـ فانصرفت إلى مكة. . فقالت: «أيها الناس إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه، وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلماً بالأمس ونقموا عليه استعمال من حدثت سنه، وقد استعمل أمثالهم قبله، ومواضع من الحمى حماها لهم، فتابعهم ونزع لهم عنها، فلما لم يجدوا حجة ولا عذراً بادروا بالعدوان فسفكوا الدم الحرام. . . » وتبعها عمال عثمان وصنائعه وطلحة والزبير. . .)[1] عازمين الذهاب إلى البصرة لسد المنافذ على الإمام وحربه، وكان بنو أمية في مقدمة الخارجين على الإمام منذ البداية.

ذهب الجمل بما حمل... معاوية الرابع الوحيد

وقد خاض هؤلاء مع بعض من غرروا بهم، من معركة الجمل ضدّ الإمام، وكانت معركة خاسرة قتل فيها الزبير وطلحة (وكان الذي رماه مروان بن الحكم)[2] وقد أرجعت عائشة إلى بيتها. وكان معاوية يتربص لمن تكون الغلبة، وقد أفاد قائلًا بأن النتيجة ستكون لصالحه على أي حال، مهما كانت لصالح علي عليه السلام أو لصالح الخارجين عليه.

وإذاً فلم تكن المسألة مسألة المطالبة بدم عثمان، ولا الأخذ بثأره، وإنما كانت مسألة نزعات تجيش في النفوس التي تتطلع إلى المكاسب الشخصية والفوز بالغنائم وحسب. . وقد روت لنا كتب التاريخ تفاصيل معركة الجمل، وكيف أن الإمام عليه السلام سار لمنع الخارجين عليه من التمادي في عدوانهم، ولما يكد يستقر بعد وتتاح له فرصة اعداد الجيل الجديد الذي يستطيع حمل الرسالة بصلابة وعزم، كما حملها الجيل الأول الذي كان هو عليه السلام في طليعته.

---

(١) الكامل في التاريخ ١٠٠ - ١٠١.
(٢) المصدر السابق ١٣٢.

وإلا فما الذي غير موقفي طلحة والزبير من عثمان ومن الإمام ولما يكادا يبايعا حتى نكلا وذهبا لإعلان الحرب، وما الذي دعا عائشة وقد كانت تدعو إلى قتل عثمان إلى المطالبة بدمه والدعوة للأخذ بثأره والذهاب إلى حد المسير بنفسها للتحريض على الإمام وقتاله..؟.

وما الذي دعا معاوية، وقد تباطأ متعمداً عن نصرة عثمان وإتاحة الوقت الكافي لقتله، حتى لكأن قتل عثمان يكاد يكون أمنيته الوحيدة، ليعلن حربه على الإمام بنفس الحجَّة التي تذرع بها الآخرون؟ وما الذي دعا عمرو بن العاص لغسل دموع التماسيح على عثمان مع أنه كان من أشد المحرضين على قتله...؟.

أسئلة لا بد أن تثار، ولا بد أن يجاب عنها صراحة.

لقد كان قبول الإمام لما عرضته عليه الأمة وأجمعت عليه، هو الذنب الوحيد بنظر هؤلاء الحاقدين، ونتذكر هنا قول محمد بن سيرين (ما علمت أن علياً اتهم في دم عثمان حتى بويع)[1]. وقد قال عليه السلام نفسه في ذلك: (والذي أرسلها في بحره مسخرة بأمره، ما بدأت في أمر عثمان بشيء، ولئن شاءت بنو أمية لأباهلنهم عند الكعبة خمسين يميناً بدأت في حق عثمان بشيء ما[2] وخطب عليه السلام بأهل الكوفة يوم الجمل قائلاً: ... ثم ولي عثمان فنال منكم ونلتم منه ثم كان من أمره ما كان فأتيتموه قتلتموه، ثم أتيتموني فقلتم لو بايعتنا، فقلت لا أفعل، وقبضت يدي فبسطتموها ونازعتكم كفي فجذبتموها، وقلتم لا نرضى إلا بك ونجتمع إلا عليك وتداككتم علي تداكك الإبل الهيم على حياضها يوم ورودها حتى ظننت أنكم قاتلي، وأن بعضكم قاتل بعضاً فبايعتموني وبايعني طلحة والزبير..)[3].

وإذ انهزم أصحاب الجمل في معركتهم الخائبة ضد الإمام عليه السلام، فإن معاوية استمر برفع نفس الحجج التي دفعوها، وأخذ على عاتقه مسؤولية انجاح ما فشل به أولئك المنهزمون.

---

(١) العقد الفريد ٥ - ٥٢.

(٢) العقد الفريد ٥ - ٥٠ - ٦٤ وقال في رسالة أرسلها إلى معاوية (.. ولعمري يا معاوية، لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدني أبرأ الناس من دم عثمان، ولتعلمنَّ إني كنت في عزلة عنه إلا أن تتجنى، فتجنَّ ما بدا لك والسلام. (نهج البلاغة تحقيق د. صبحي الصالح ـ دار الكتاب اللبناني ط ٢ ٨٢ - ص ٣٦٦).

ذرائع معاوية... إتهامات حذرة في البداية..

وقد استثمر مواقفهم وحججهم نفسها ليعلن حربه الطويلة الظالمة على الإمام ويبرر خروجه عليه، ومن المؤكد أنه كان أحد المشجعين والموحين بالعديد من الأفكار والاحتجاجات التي تزودوا بها منذ البداية، وقد رفع الراية التي أسقطوها، مطالباً بدم الخليفة المقتول، وقد كان يعلم أن الأمر لم يكن ليصل إلى نتيجة حاسمة بهذا الشأن، وأنه سيكون مثار خلاف وجدل مستمرين وأنه ـ معاوية ـ غير مخوَّل ما دام إمام الأمة الشرعي يمارس سلطته وحكومته ليتخذ الاجراءات المناسبة في الوقت المناسب. لكن الأمر هنا يتعلق بالإمام الشرعي نفسه، ومعاوية يعلم قبل غيره أن احتجاجاته كانت مُجرد ذريعة للخروج عليه. وكان معاوية محتاجاً لإسباغ أحد أغطية الشرعية على حركته المناوئة للإمام، ذلك الغطاء الذي تخلى عنه الآخرون مكرهين، والذي أسبغوه على حركتهم الخارجة الأولى في معركة الجمل. ولا بد لنا هنا من ملاحظة الخطوات الدقيقة الماكرة التي اتبعها معاوية مع أهل الشام وغيرهم بهذا السبيل.

ولم يكن يجرؤ صراحة في البداية على اتهام الإمام بشكل مباشر، وإنما جعل من النقد الذي كان يوجهه عليه السلام لعثمان، والنصائح التي كان يزجيها له ومراجعته له باستمرار ـ منطلقاً من مهمته الأساسية الشرعية كإمام للأمة، وإن لم يستلم شؤون الزعامة الفعلية ـ لتقويم كل جوانب الحكومة الإسلامية القائمة كلما حاولت أن تنحرف أو تميل. وقد رأينا أن الإمام لم يكن (يكيد) بالسر أو (يتربص) أو (يتآمر) على من سبقه، وإنما كان يعلن آراءه صراحة وبوضوح وعلى رؤوس الأشهاد. كان يريد أن تكون الحجة بالغة وواضحة لا للخليفة وحسب، وإنما للأمة كلها. وكان ينطلق من نظرة الإسلام المستقيمة الصادقة التي طبعت سلوكه بطابعها الواضح المعروف. . وكان معاوية يعتبر ذلك النقد والتوجيه من الإمام عليه السلام محاولة لتصيد الأخطاء وعرضها أمام أنظار الأمة وتحريضاً للآخرين للنيل من عثمان، مع أننا رأينا من هم المحرضون الفعليون والمتصيدون للأخطاء ـ لا لتقويمها ولكن للتشهير ـ وفي مقدمتهم طلحة والزبير وعائشة وعمرو بن العاص، الذين تباكوا بأجمعهم على عثمان بعد أن مهدوا هم لقتله، وكانوا بذلك القتلة الحقيقيين الذين يجب أن يقتص منهم من يريد الأخذ بثأره.

وفي البداية كان معاوية يمهد لاتهام الإمام عليه السلام بحذر، ولم يشر إليه صراحة،

ففي رسالة منه إلى محمد بن أبي بكر، يقول: (... ثم قام ثالثهما عثمان، فهدي بهديهما، فسار بسيرهما، فعتبه أنت و صاحبك ـ ويقصد به الإمام عليه السلام ـ حتى طمع فيه الأقاصي من أهل المعاصي، فطلبتما له الغوائل وأظهرتما عداوتكما فيه حتى بلغتما فيه مناكما..)[1]، ففي هذه الرسالة وغيرها من الرسائل، يشير معاوية إشارة حذرة إلى أن النقد واظهار عيوب الخليفة المقتول، هو الذي جرأ عليه الناس، ولو لم يكن ذلك لما تجرأ عليه أحد، متناسياً أنه والزمرة المقربة منه كانوا أحد أهم الأسباب لغضب الأمة على عثمان، كما رأينا من قبل.

وقد أشار ابن عباس إشارة ذكية إلى هذا الموضوع في رسالة جوابية إلى يزيد على رسالة كان قد بعث بها إليه يهدده ويطلب منه الدعوة إليه ونصرته على ابن الزبير، (... ولكن أباك تربص به، وابطأ عنه بنصره، وحبس من قبله عنه، حين استصرخه واستغاث به. ثم بعث الرجال إليه معذراً حين علم أنهم لا يدركونه حتى يهلك..)[2].

واتهام صريح بعد ذلك

لقد استغل معاوية ـ الذي ربى أهل الشام على طاعته والوثوق به والاستجابة المطلقة له ـ كما سنبين ذلك فيما بعد عن مجتمع الشام، الذي أراد معاوية لكل الأمة الإسلامية أن تكون على نمطه (... وهو في أهل الشام يستمع منه..) كما قال المغيرة بن شعبة للإمام عليه السلام، استغل هذا المجتمع إلى أقصى حد ممكن، عندما جلب له النعمان بن بشير قميص عثمان الذي قتل به وعليه أصابع نائلة زوجته ورسالة نائلة التي تدعو فيها معاوية وأهل الشام للأخذ بثأره. ونعتقد اعتقاداً جازماً بأن هذه الرسالة المنسوبة إلى نائلة هي من موضوعات معاوية وإنشائه، وأن نائلة في خضم مصيبتها بمقتل زوجها ما كانت لتعترض عليها لو سمعت بها فيما بعد ولم تكن لتكذبها... لأن من دبجوها ادعوا الحرص والغيرة على الخليفة المقتول. وقد رأينا كيف أنها كانت تدرك كيف كان مروان وآل أمية سبباً قوياً لغضب الأمة ونقمتها على عثمان، وكانت تدرك حرص الإمام عليه السلام على حياته، لئلا يكون قتله سبباً لفتح باب

(١) مروج الذهب ص ١٥.
(٢) أنساب الأشراف ـ البلاذري، القدس ١٩٣٨ ج ٤، ق ٢ - ١٩.

الفتنة بين المسلمين إلى الأبد، وقد أشرنا إلى هذا الموضوع، فكيف تتهم الإمام بذلك وتذكر اسمه صراحة في الرسالة التي لفقت على لسانها، والتي كتبت بيد خبير متمرس مستريح ـ لا رسالة امرئٍ خائف مرعوب لا نحسبه إلا معاوية نفسه أو أحد أعوانه لما أزجي فيها إليه من مديح زائد عن الحد (. . . من نائلة بنت القرافصة إلى معاوية بن أبي سفيان؛ أما بعد فإني أدعوكم إلى الله الذي أنعم عليكم، وعلمكم الإسلام، وهداكم من الضلالة، وأنقذكم من الكفر ونصركم على العدو، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرةً وباطنة؛ وأنشدكم الله وأذكركم حقه وحق خليفته أن تنصروه بعزم الله عليكم. . . وإن أمير المؤمنين بغي عليه. . . والله علم به إذا انتخبه فأعطاه شرف الدنيا وشرف الآخرة.

. . . وأهل مصر قد أسندوا أمرهم إلى علي ومحمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر وطلحة والزبير فأمروهم بقتله. . فقتلوا أمير المؤمنين في بيته مقهوراً على فراشه، وقد أرسلت إليكم بثوبه عليه دمه، وأنه والله إن كان اثم من قتله، لما سلم من خذله، فانظروا أين أنتم من الله، وأنا أشتكي على ما مسنا إلى الله عز وجل، واستصرخ بصالحي عباده. . .)[1] ويبدو أن هذه الطريقة قد أثمرت مع أهل الشام إلى حد بعيد. . .

(. . فحلف رجال من أهل الشام ألا يمسوا غسلاً حتى يقتلوا علياً وتفنى أرواحهم)[2] وكان القميص والرسالة والأصابع المقطوعة بمثابة الشرارة التي يقدمها معاوية كلما لمس فتوراً من أهل الشام (. . . فكان معاوية يعلق قميص عثمان وفيه الأصابع، فإذا رأى ذلك أهل الشام ازدادوا غيظاً وجداً في أمرهم، ثم رفعه، فإذا أحس بفتور يقول له عمرو بن العاص: «حرك لها حوارها تحن» فيعلوها)[3].

وكان عمرو بن العاص قد التحق بمعاوية بعد سماعه بمقتل عثمان واجماع الناس على مبايعة أمير المؤمنين عليه السلام وهو أكره الناس إليه. .[4].

---

(١) العقد الفريد ٥ - ٥٠ - ٥١.

(٢) المصدر السابق ٥ - ٥١.

(٣) الكامل في التاريخ ٣ - ٨٢ - ٨٣.

(٤) المصدر السابق ٣ - ١٥٧ - ١٥٨.

مزاعم معاوية...

«عثمان قتل مظلوماً.. وأنا ابن عمه واطلب بدمه وأمره إليّ..».

كان معاوية أمام مفترق طرق خطير؛ فهو يعلم أنه إن بايع الإمام، فسيكون كسائر الناس، كما أخبره الإمام بذلك صراحة، وسيحمله كما يحملهم على كتاب الله، وحينها ـ لن تعود له تلك الامتيازات وتلك السلطة التي اعتادها طيلة أكثر من عشرين عاماً (. . . فإن أنت رجعت عن رأيك وخلافك، ودخلت فيما دخل فيه المسلمون، ثم حاكمت القوم إليّ حملتك وإياهم على كتاب الله. .)[1].

وقد كان يعلم أن علياً خيرٌ منه وأفضل، وقد اعترف بذلك صراحة، وكان لا بد أن يجد المبرر القوي للخروج عليه والوقوف بوجهه، والمبرر هو مقتل عثمان (. . والله إني لأعلم أنه خير مني وأفضل وأحق بالأمر مني، ولكن ألستم تعلمون أن عثمان قتل مظلوماً وأنا ابن عمه وأنا أطلب بدمه وأمره إلي، فقولوا له فليسلم إليّ قتلة عثمان وأنا أسلم له أمره. .)[2].

فهو ـ ورغم الرسالة التي لفقها على لسان نائلة ـ لم يتهم الإمام صراحة، بقتل عثمان، وأنا لهُ أن يستطيع ذلك، وما من أحد يعرف للإمام يداً في ذلك، غير أنه أخذ عليه إسداءه النصح لعثمان، بل والاكثار من النصح والعتاب والمشورة، ثم طالبه بعد ذلك بتسليم قتلة عثمان. . وإذ أنه لم يسلمهم للأسباب التي وردت فكأنه بذلك قد تستر عليهم، ولم يرد ذلك، فكأن عثمان قد اغتيل سراً، وكأنه قتل على يد نفر معدودين، وكأن الأمة لم تتظاهر عليه كلها وفي مقدمتها وجوه معروفة من الصحابة أمثال طلحة والزبير.

ماذا لو مات عثمان موتاً طبيعياً؟!

لو تساءل أحد: ما مصلحة معاوية من قتل عثمان؟ وهو ابن عمه وأحد المقرَّبين منه، كان يمكن أن نتساءل بدورنا: لو كان عثمان قد مات حتف أنفه ـ وهو قد ناهز الثمانين ـ وأنه لم يقتل، وآل الأمر بعده بشكل طبيعي ودون مشاكل إلى

---

(١) العقد الفريد ٥ - ٧٦.

(٢) البداية والنهاية ج ٨ ـ ١٣٢.

الإمام عليه السلام، ما الذرائع التي كان يمكن أن يتذرع بها معاوية للوقوف بوجهه والخروج عليه، وهو يعلم أنه خير منه وأفضل وأحق بالأمر؟.

لقد غير موت عثمان كثيراً من الموازنات المألوفة وفتح باب الصراعات والفتن على مصراعيه، وكان الداعون إلى قتله أمثال طلحة والزبير وعائشة وعمرو بن العاص وغيرهم والممهدون لذلك أمثال مروان ومعاوية على ثقة تامة بالمصاعب التي ستقوم بوجه من سيأتي بعده وهو أمير المؤمنين عليه السلام بلا شك، وهو ما أرادوه وسعوا إليه وحققوه بالفعل (. . . لو قدر لهذا الخليفة أن يموت موتاً طبيعياً، وفقاً لقوانين الفسلجة قبل يوم الثورة، كان من الممكن أن تتغير كثير من معالم التاريخ. كان من المحتمل أن يأتي أمير المؤمنين إلى الخلافة بدون تناقضات وبدون ضجيج وبدون خلاف)[١].

كان قتله إذاً بداية لخلاف كبير (ومبرراً قوياً) للخروج على الإمام، من وجهة نظر المخالفين والخارجين والوقوف بوجهه وإثارة المشاكل والضجيج، وكان أولئك الذين لا يرون أمامهم إلا ما تمنحه لهم هذه الحياة من بريق للسلطة والمال، يسرهم أن يقتل هذا الخليفة الهرم الذي استنفد أيامه، وأن يمهدوا هم لقتله لاستغلال ذلك واستثماره للتمهيد للوثوب على كرسيه باعتباره تركة شخصية وارثاً خاصاً. . .

إن معاوية لم يعلن عن رأيه بالخروج على الإمام صراحة لأنه يرى ذلك لا غير، وقد حاول أن يجس نبض الإمام حول منحه حصة في الدولة الجديدة، وهي نفس الحصة التي كانت ممنوحة له في عهد عثمان، محاولًا الضغط بوقت مقتله وقد حسب أن الإمام ربما كان مثله هو حينما قبل التنازل عن مصر طعمة لعمرو بن العاص حينما شرط عليه عمرو ذلك (. . إن عمراً كان صالح معاوية على قتال علي على أن له مصر طعمة ما بقي. .)[٢]، وقد قال معاوية لرسول الإمام إليه (إن ولاني على الشام ومصر بايعته على أن لا يكون لأحد بعده علي بيعة. . فقال علي عليه السلام: هذه خديعة. وقد سألني المغيرة بن شعبة أن أولي معاوية الشام، وأنا بالمدينة فأبيت ذلك ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا . . .﴾[٣]. . .)[٤].

---

(١) المدرسة القرآنية ٨٧ - ٨٨.

(٢) الكامل في التاريخ ٣ - ٢٢٨.

(٣) الكهف: ٥١.

(٤) البداية والنهاية ٨ - ١٢٩.

لقد كان يعلم ـ كما قلنا أن الإمام لن يستجيب له، لأنه إذا استجاب وأقر بقاءه على الشام وأضاف إليه مصراً فإنه لم يزد على أن يفعل ما فعله عثمان وذلك يعني بقاءه على الخطأ الذي وقع فيه الخليفة السابق، ومحال أن يقبل علي عليه السلام ما رفضته الأمة بأجمعها، ولو فرضنا جدلاً أنه أقر معاوية على ما بيده من ولاية الشام فإنه يعترف بشرعية ولايته وذلك قبل أن يعترف معاوية بشرعية حكم أمير المؤمنين وذلك يتيح له فرصة الاحتجاج أمام الأمة قائلاً: انظروا إليه، إنه اعترف بي وأقرَّني على ولايتي لأن من سبقه أقرني عليها ولأني أستحق ذلك، أما هو، فأنا لا أعترف به ولا أقر له لأنه لا يستحق ذلك، وهذه ورقة سياسية كان من الممكن أن يلعبها معاوية بمهارة لو فرضنا جدلاً أن الإمام عليه السلام استجاب لطلباته غير المعقولة، كما أنه قد يذهب إلى المطالبة بدم عثمان حتى لو لبّيت مطالبه، ويظهر أمام الأمة بمظهر الإنسان المبدأي الحريص على الإسلام والذي لا يتهالك على الملك، رغم أن الملك أصبح رهن يديه، كما أنه بشرطه (على أن لا يكون لأحد عليٍّ بعده بيعة) يمهّد لخلاف محتمل بعد وفاة الإمام عليه السلام، وإيقاف انسياب الخلافة وبقائها في آل النبي عليه السلام وهذا يعني لو قبل الإمام تواطئاً ضمنياً بين الطرفين على هلاك الأمة وفرقتها إلى الأبد، وهذا غير جائز عملياً لما رأيناه من مواقف الإمام الصريحة التي لا تقبل التأويل والجدل ووقوفه إلى صف الإسلام وانحيازه إليه انحيازاً نهائياً لا يقبل التراجع أو التردد.

رأي لعباس محمود العقّاد..

لو أقر علي معاوية على أمرة الشام لكان معاوية هو المستفيد الوحيد من ذلك

ويهمنا أن ننقل هنا رأياً لطيفاً للمرحوم عباس العقاد بهذه المسألة الدقيقة والحساسة والواضحة بنفس الوقت، والتي لا تزال مثار جدال بين العديدين حتى وقتنا هذا (وعندنا، أن الإمام لم يكن مستطيعاً أن يقر معاوية في عمله لسببين: أولهما، أنه أشار على عثمان بعزله أكثر من مرة، وكان اقراره وإقرار أمثاله من الولاة المستغلين أهم المآخذ على حكومة عثمان. فإذا أقره، وقد ولي الخلافة، فكيف يقع هذا الأمر عند أشياعه؟ ألا يقولون أنه طالب حكم لا يعنيه إذا وصل إلى بغيته ما كان يقول وما سيقوله الناس؟ وإذا هو أعرض عن رأيه الأول، فهل في وسعه أن يعرض عن آراء الثائرين الذين بايعوه بالخلافة لتغيير الحال والخروج من حكم عثمان إلى حكم جديد؟ فكيف تراهم يهدأون ويطيعون إذا علموا أن الولايات باقية على حالها وأن الاستغلال الذي شكوا منه وسخطوا عليه لا تبديل فيه..؟.

وندع هذا ونزعم أن اقرار معاوية بحيله من الحيل مستطاع، فهل هو على هذا الزعم أسلم وأدنى إلى الوفاق؟ كلا على الأرجح، بل على الرجحان الذي هو في حكم التحقيق، لأن معاوية لم يعمل في الشام عمل وال طوال حياته، ويقنع بهذا النصيب ثم لا يتطاول إلى ورائه، لكنه عمل فيها عمل صاحب الدولة التي يؤسسها ويدعمها له ولأبنائه من بعده، فجمع الأقطاب من حوله، واشترى الأنصار بكل ثمن في يديه، وأحاط نفسه بالقوة والثروة، واستعدَّ للبقاء الطويل واغتنام الفرصة في حينها، فأي فرصة هو واجدها خير من مقتل عثمان والمطالبة بثأره؟ وإنما كان مقتل عثمان فرصة لا يضيعها، وإلّا ضاع منه الملك وتعرض يوماً من الأيام لضياع الولاية. وما كان مثل معاوية بالذي يفوته الخطر من عزله بعد استقرار الأمور، ولو على احتمال بعيد، فماذا تراه صانعاً إذا هو عزل بعد عام من مبايعته لعلي، وتبرئته إياه من دم عثمان؟ إنما كان مقتل عثمان فرصة لغرض لا يقبل التأخير.

وإذا كان هذا موقف علي ومعاوية عند مقتل عثمان، فماذا كان علي مستفيداً من اقراره في عمله وتعريض نفسه لغضب أنصاره؟.

لقد كان معاوية أحرى أن يستفيد بهذا من علي، لأنه كان يغنم به حسن الشهادة له وتزكيَة عمله في الولاية، وكان يغنم أن يفسد الأمر على علي بين أنصاره، فتعلو حجته من حيث تسقط حجة علي..)(1).

لا حياة لمعاوية مع علي.. فليعلن الحرب عليه اذن.

وقد كان يعلم ـ كما قلنا ـ أن الإمام لن يستجيب له، وإذاً فإنه أوجد المبرر والعذر الذي يخرج به على الإمام، هذا المبرر الذي ما كان يتاح له لو أن عثمان لم يقتل ومات حتف أنفه، وهكذا حشد جيوشه لمقاتلة الإمام بعد أن حسب أنه قد وفق بتبريراته واستطاع إقناع أهل الشام (بالحرب المقدسة) لخوضها ضد الإمام عليه السلام (... لما قدم رسول علي إلى معاوية، يدعوه إلى بيعته، ماطله واستنظره، واستشار عمراً، فأشار عليه أن يجمع أهل الشام، ويلزم علياً دم عثمان ويقاتله بهم، ففعل معاوية ذلك، وكان أهل الشام لما قدم عليهم النعمان بن بشير بقميص عثمان الذي قتل فيه مخضوباً بالدم بأصابع زوجته نائلة.. وضع معاوية القميص على المنبر،

(1) نهج البلاغة ـ شرح الشيخ محمد عبده ـ مقدمة عباس العقاد/ دار البلاغة/ بيروت ط ٢ ـ ١٩٨٥ ص ٦٠ – ٦١.

وجمع الأخبار إليه، فبكوا على القميص مدة وهو على المنبر والأصابع معلقة فيه، وأقسم رجال من أهل الشام أن لا يمسهم الماء إلا للغسل من الجنابة وأن لا يناموا على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان ومن قام دونهم قتلوه)[١].

وهكذا كتب معاوية إلى الإمام عليه السلام هذه الرسالة الملتوية التي تشرح موقفه الأخير وموقف أهل الشام من الإمام: (.. فلعمري لو بايعك الذين ذكرت، وأنت بريء من دم عثمان لكنت كأبي بكر وعمر وعثمان، ولكنك أغريت بدم عثمان المهاجرين وخذلت عنه الأنصار، فأطاعك الجاهل وقوي بك الضعيف. وقد أبى أهل الشام قتالك حتى تدفع إليهم قتلة عثمان، فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين، وإنما كان الحجازيون هم الحكام على الناس والحق فيهم، فلما فارقوه كان الحكام على الناس أهل الشام، ولعمري ما حجتك على أهل الشام كحجتك على أهل البصرة، لأن أهل البصرة أطاعوك، ولم يطعك أهل الشام، ولا حجتك علي كحجتك على طلحة والزبير، لأنهما بايعاك لم أبايعك أنا. فأما فضلك في الإسلام وقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وآله فلست أدفعه..)[٢].

وهكذا كشف معاوية عن حقده الدفين على الإمام عليه السلام وتطاول عليه باتهامه الظالم بقتل عثمان، وجعل نفسه مع أهل الشام حكاماً على الناس والحق فيهم دون سائر المسلمين، ولا ندري كيف كان ذلك؟ كما أنه كشف عن نفسه عندما أعلن تنصله عن كل التزام تجاه الإمام، فهو لم يبايعه، وما دام لم يفعل فليس للإمام عليه حجة بزعمه ـ كما أن أهل الشام ليسوا ملزمين بمبايعته والسير وراءه، بل على العكس أنهم أعلنوا الحرب عليه رغم فضله في الإسلام وقرابته من رسول الله اللذين كان لهما في نظره أهمية ثانوية، بل لعلهما لا أهمية لهما على الاطلاق وفق تصوراته البعيدة والغريبة عن الإسلام.

حان وقت الإفادة من أهل الشام

بعد أن ربّاهم على طاعته والاعتقاد به

وهكذا سار معاوية بأهل الشام، بعد أن أثارهم وحرضهم، وبمن استمالهم

(١) الكامل في التاريخ ٣ - ١٦١.

(٢) العقد الفريد ٥ - ٧٦.

والذين هم أساساً من أعداء الإمام ومناوئيه، إلى صفين لمحاربته وقد (خرج معاوية إلى علي يوم صفين ولم يبايعه أهل الشام بالخلافة، وإنما بايعوه على نصرة عثمان والطلب بدمه، فلما كان من أمر الحكمين ما كان بايعوه بالخلافة)[1].

وقبيل المعركة، استعرض الإمام المسألة استعراضاً دقيقاً منذ مقتل عثمان، وحتى خروج معاوية وعمرو بن العاص عليه (. . . وولي الناس عثمان فعمل بأشياء عابها الناس، فساروا إليه فقتلوه. ثم أتاني الناس فقالوا لي بايع فأبيت فقالوا بايع فإن الأمة لا ترضى إلا بك وإنا نخاف إن لم تفعل أن يتفرق الناس، فبايعتهم، فلم يرعني إلا شقاق رجلين قد بايعاني وخلاف معاوية الذي لم يحصل له سابقة في الدين ولا سلف صدق في الإسلام، طليق ابن طليق، حزب من الأحزاب، لم يزل حرباً لله ورسوله هو وأبوه حتى دخلا في الإسلام كارهين. ولا عجب إلا من اختلافكم معه وانقيادكم له، وتتركون آل بيت نبيكم الذين لا ينبغي لكم شقاقهم ولا خلافهم. ألا إني أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه، وإماتة الباطل وإحياء الحق ومعالم الدين. . . لا يكن هؤلاء في الجد في ضلالهم أجد منكم في الجد في حقكم وطاعة ربكم)[2].

فهل كان القصد من المناداة للأخذ بثأر عثمان، سوى التمهيد للوثوب إلى كرسي السلطة والبقاء فيه إلى الأبد، تلك السلطة التي أباحوا لأنفسهم فيها ما لم يبحه لهم الإسلام وما لم يبحه لغيرهم أيضاً، ولقد كان من الأمور التي تدعو إلى السخرية وتثبط العزائم، أن آخر من دخلوا في الإسلام، تصدروا المسلمين في النهاية، وأصبحوا الممثلين لهم والناطقين باسمهم والقيّمين عليهم.

وقد أوجز الصحابي الجليل عمار بن ياسر، الذي أخبره رسول الله ﷺ أنه ستقتله الفئة الباغية، وقد قتله أصحاب معاوية في حرب صفين فعلًا، أوجز السر في تهالك معاوية وعمرو بن العاص وأضرابهما على المطالبة بدم عثمان والتباكي عليه، وتجريد السيوف على الإمام بهذه الحجة الظالمة التي كانوا يعلمون بطلانها وزورها هم أكثر من غيرهم. . فقد قال عمار في واقعة صفين هذه التي قتل فيها شهيداً (. . . والله ما قصدهم الأخذ بدمه ولا الأخذ بثأره، ولكن القوم ذاقوا الدنيا واستحلوها واستمروا الآخرة فقلوها، وعلموا أن الحق إذا لزمهم حال بينهم وبين ما يتمرغون فيه

(١) العقد الفريد ٥ - ٨٠.

(٢) الكامل في التاريخ ٣ - ١٧٤.

من دنياهم وشهواتهم. ولم يكن للقوم سابقة في الإسلام يستحقون بها طاعة الناس لهم ولا الولاية عليهم، ولا تمكنت من قلوبهم خشية الله التي تمنع من تمكنت من قلبه عن نيل الشهوات وتعقله عن إرادة الدنيا وطلب العلو فيها، وتحمله على اتباع الحق والميل إلى أهله، فخدعوا أتباعهم بقولهم: إمامنا قتل مظلوماً، ليكونوا بذلك جبابرة وملوكاً، وتلك مكيدة بلغوا بها ما ترون. ولولا ذلك ما تبعهم من الناس رجلان ولكانوا أذل، ولكن قول الباطل له حلاوة في اسماع الغافلين، فسيروا إلى الله سيراً جميلًا...)[1].

ما يمنع معاوية من توجيه الاتهام لعلي عليه السلام

كان يريد منذ البداية استثمار دم عثمان.

وأمام علي وأصحابه، كان لا بد لأعدائهم من حجج قوية مقنعة يستميلون بها الناس، وقد وجدوا هذه الحجة، بل أوجدوها، تهمة ألصقوها بالإمام ظلماً واستنفذوا أهل الشام ومن تبعهم من الظالمين الذين لم تتمكن من قلوبهم خشية الله وأثروا الدنيا واستحلوها كما قال عمار عليه رضوان الله، وهذا (الغطاء الشرعي) الذي برروا به قيامهم بوجه الإمام منذ اللحظة الأولى التي بايعه فيها المسلمون، وأرادوا وأد قوته وقبر حكومته، وحاولوا أن يضيفوا إليه غطاء آخر، لا علاقة له بالشرعية، ويحاول أن ينزعها عن الجميع بما فيهم علي عليه السلام وأتباعه وجمهور المسلمين ومعاوية وأتباعه، وأن يبرزهم أمام الأمة كأشخاص سواء يخوضون في فتنة، وهم سواء في فضلهم ومكانتهم ومركزهم العائلي، وإن اختلف بعضهم عن البعض الآخر في السوابق الدينية التي حاولوا التقليل من أهميتها وشأنها. كتب معاوية إلى أمير المؤمنين عليه السلام: (... يا أبا الحسن إن لي فضائل كثيرة، وكان أبي سيداً في الجاهلية، وصرت ملكاً في الإسلام، وأنا صهر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخال المؤمنين وكاتب الوحي...)[2].

إنه يضع نفسه في مقام علي عليه السلام نفسه، ويفخر بنفسه وبوالده بكل وقاحة حتى على الإمام، وهو يعلم أنه يعرفه حق المعرفة، لكنه ربما أراد أن يغيض لا غير

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ٢٧٨.
(٢) المصدر السابق ج ٨ ص ٩.

وربما أراد لخطابه هذا وغيره من الخطابات، أن تقرأ أمام أهل الشام المغرورين المخدوعين به، ويموه عليهم ويوهمهم بأنه وغيره، حتى علي عليه السلام سواء في المنزلة. . !.

وقد تمّت حملات معاوية الإعلامية المضللة مع حملات أخرى منظمة مركزة للرفع من شأنه أمام الأمة وإظهاره بصورة تتطابق حتى مع صورة رسول الله صلى الله عليه وآله نفسه ـ وقد رأينا كيف وضع على لسان الرسول الأمين صلى الله عليه وآله أحاديث مزورة ترفع من شأنه، ومع حملة ثالثة متزامنة لتأويل القرآن ووضع الأحاديث، وحملة رابعة لقمع المعارضين وتهديدهم وقتلهم وإسكاتهم، وخامسة لشراء الضمائر ورشوة من لا دين لهم ولا ذمة بالأموال والمناصب وسادسة لعرض المسألة وكأنها خلاف بين الحجازيين والشاميين تارة، وبين الشاميين والعراقيين تارة أخرى كما رأينا في إحدى رسائله إلى الإمام عليه السلام وكما سنرى من مجمل خطبه وخطاباته. . وهذه نقطة أكد عليها معاوية كثيراً ليعطي بها دعماً للشاميين الذين أطاعوه في كل شيء وساروا وراءه مغمضي العيون.

ايحاء غريب...

لا يتدخلنّ أحد في أمر (بني عبد مناف)

على أن أشدها حظراً كان الإيحاء الغريب للناس، بأن هؤلاء (المتنافسين) أو (المتقاتلين)، فيما بينهم هم من الأقارب الحميمين (من بني عبد مناف)، وأن على أولئك الذين لا يساوونهم في (شرف) النسب، أن لا يتدخّلوا فيما بينهم ويحكموا عليهم إذا ما عجزوا عن اصلاح ذات البين بين (هاتين الفئتين) من المسلمين، ورووا أحاديث مزورة عن فتنة ستقع، وحبذوا لذلك بعض (الصحابة) لإقناع الناس بالعقود وإغماد السيوف حتى تنجلي، أي تحييد الأمة في الصراع الدائر بين الإسلام وخصومه المتلبسين برداء الإسلام نفسه، ولا ندري كيف تنجلي إن لم يتصد قائد الأمة وإمامها بنفسه لمن جاءوا يجردون عليه سيوفهم ليخلو لهم الجو. . وكأن الإمام عليه السلام كان هو الراغب في الحرب والساعي إليها وكأنه هو الذي خرج على معاوية، فلنستمع إلى وصيته لابن الأشتر، حين أرسله لمقابلة طلائع الشام الذين حشدهم معاوية لقتاله: (. . . وإياك أن تبدأ القوم القتال إلا أن يبدؤوك، حتى تلقاهم

فتدعوهم وتسمع منهم، ولا يحملك بغضهم على قتالهم، قبل دعائهم والانحدار إليهم مرة بعد مرة..)[1].

فهل كان متلهفاً على قتالهم، أم أنه كان يريد أن يعيدوا النظر في أمرهم، ويمنحهم فرصة التراجع عن مواقفهم الخاطئة قبل بدء الحرب من كان قد أشعل نار الفتنة؟ وكيف أراد تحييد الأمة من الصراع الدائر وأي أسلوب لجأ إليه في تجنيد بعض (الصحابة) لوضع أحاديث تخدم هدفه هذا؟ لنستمع إلى كلام أبي موسى الأشعري.

أبو موسى الأشعري..

مساومة من وراء الستار

قال أبو موسى: (.. سمعت رسول الله ﷺ: إنها ستكون فتنة، القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الراكب، وقد جعلنا الله اخواناً، وقد حرم علينا دماءنا وأموالنا، فغضب عمار وسبَّه وقام وقال: يا أيها الناس، إنما قال له وحده: أنت فيها قاعداً خير منك قائماً)[2].

فهل أدَّى أبو موسى رسالة النبي ﷺ حق أدائها، وهل قعد كما أوصاه ﷺ وروى هو نفسه باعتباره أحد المسلمين الذين ينبغي عليهم القعود؟ أو كما روى عمار أن الرسول ﷺ قال ذلك له هو خاصة؟ لماذا لم يقعد أبو موسى ولماذا لم يستجب لنصيحة نبيه ﷺ بالقعود؟ ولماذا تدخل في التحكيم ليجعل الأمر لصالح معاوية في النهاية، مدعياً أن عمرو بن العاص قد خدعه؟ وهل يخدع رجل مجرب حذر بمثل السهولة التي ادعوها بها والتي وردت برواية رواها لنا هو وعمرو فقط؟ ومن كان سبب الفتنة والساعي إليها؟ هل هو معاوية الذي تصدى لإمام زمانه وخرج عليه وشنَّ عليه الحرب؟ أم علي الذي تصدى لهذا الخارج كما تصدى لبقية الخوارج؟ وهل كان معاوية من أصحاب رسول الله ﷺ، وهو لم يسلم إلا قبيل أشهر من وفاته ﷺ عند فتح مكة مع بقية الطلقاء من أهل مكة وقريش؟ وهل صحبه كما صحبه أمير المؤمنين عليه السلام وهو قد تربى في حجره وأول من شهد أن لا إله إلا الله وعمره أقل من

---

(١) الكامل في التاريخ ٣ - ١٦٥.

(٢) الكامل في التاريخ ٣ - ١١٩.

عشر سنوات، وأمضى حياته مجاهداً في سبيل الإسلام وكانت حياته حظاً ممتداً معه وفي سبيله؟.

أبو موسى.. وعمرو بن العاص.. وجهان لعملة واحدة.. تبادل أدوار

ويبدو أنَّ ضمير أبي موسى الأشعري قد استجاب للمبررات التي أوجدها له عمرو بن العاص، حين قال له وهما مجتمعان للتحكيم في إحدى الجلسات (.. فما يمنعك منه (معاوية) وبيته في قريش كما قد علمت؟ فإن خفت أن يقول الناس ليست له سابقة، فقل وجدته ولي عثمان الخليفة المظلوم والطالب بدمه، الحسن السياسة والتدبير، وهو أخو أم حبيبة زوج رسول الله ﷺ وكاتبه، وقد صحبه وعرض له بسلطان)[1].

ثم يأتي بعد ذلك من يروي (... إن أصحاب الرسول كالنجوم، بأيِّهم اهتديتم اقتديتم)[2] ويضع قصصاً طريفة بشأن معاوية، كالقصة التي تروى عن المعاض بن عمران فقد سئل: (أيهما أفضل، معاوية أم عمر بن عبد العزيز؟ فغضب، وقال للسائل: أتجعل رجلًا من الصحابة مثل رجل من التابعين؟ معاوية صاحبه وصهره وكاتبه وأمينه على وحي الله، وقد قال ﷺ: دعوا لي أصحابي وأصهاري، فمن سبهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين)[3]، لنلاحظ كلمة (أصهاري) اللطيفة التي وردت في هذا الحديث الموضوع المدسوس، وما يكمن خلفها من ايحاءات مضللة.

هل من وجه للمقارنة بين علي ومعاوية، ليأتي من يأتي ويقول مردداً أقوال معاوية نفسها، بأن الخلاف بين طائفتين من المسلمين، كلتاهما على حق، وأنه لم تبغ إحداهما على الأخرى، وأن الجميع كالنجوم الزاهرة، معصومون عن الخطأ والانحراف، ولو أن من يردد هذه الأقوال من البسطاء أو السذج لهان الأمر، لكن من يرددها أناس لا يقلون ذكاء وحيلة حتى عن معاوية نفسه أو عمرو بن العاص، لكن الخط واحد والمصالح واحدة وايحاءات الشيطان وضلاله لها نفس القوة على الجميع، وإلا فلماذا يتناسى هؤلاء الأذكياء الحريصون (الذين تهمهم وحدة

(١) نفس المصدر ص ٢٠٧.
(٢) البداية والنهاية ٨ - ١٤٢.
(٣) المصدر السابق.

المسلمين بالدرجة الأولى) حديث الرسول ﷺ لعمار: بأن الفئة التي ستقتله هي الفئة الباغية، وقد قتلته الفئة التي انقادت لمعاوية وعمرو بن العاص.؟.

أيقاس معاوية بعلي؟ لنترك قيم الجاهلية..

«لا الطليق كالمهاجر ولا المبطل كالمحق».

لقد كان أكثر ما يمض أمير المؤمنين عليه السلام ويؤلمه، أن يقارن معاوية به، وإن تصور مسألة عصيانه وخروجه عليه، كأنها مسألة خلاف (عائلي) بين بني عبد مناف..! فعندما كتب إليه معاوية يساومه ويعرض قبوله مبايعة الإمام على أن يقره على الشام ومصر، قائلاً في نهاية رسالته (... ونحن بنو عبد مناف، وليس لبعضنا على بعض فضل يستذل به عزيز ويسترق به حر..)[1] وهو كلام جاهلي، لا تجد به نفساً إسلامياً البتة، كتب إليه الإمام، رافضاً التساوم معه وإقراره على ولاية الشام أو غيرها، قائلاً أنه لم يكن يعطيه اليوم ما منعه أمس، وقال في معرض رسالته (... وأما قولك نحن بنو عبد مناف فكذلك نحن، وليس أمية كهاشم، ولا حرب كعبد المطلب، ولا أبو سفيان كأبي طالب، ولا الطليق كالمهاجر، ولا المبطل كالمحق، وفي أيدينا فضل النبوة التي قتلنا بها العزيز وبعنا بها الحر)[2].

(.. فيا عجباً للدهر! إذ صرت يقرن بي من لم يَسْعَ بقدمي، ولم تكن له كسابقتي التي لا يدلي أحد بمثلها، إلا أن يدّعي مدع ما لا أعرفه، ولا أظنُّ الله يعرفه والحمد لله على كل حال)[3].

إن هذه النغمة، نغمة التكافؤ بين علي ومعاوية والخلاف (العائلي) بين عبد مناف، ظلت تعزف من قبل معاوية وأعوانه، وظل بعده بنو أمية يديمون العزف والغناء عليها، ثم تبعهم بنو العباس، فيما بعد، حينما حاولوا أن يبينوا المسألة كما بيّنها سابقوهم، وإن تم الأمر هذه المرة على نطاق عائلي أضيق بين (العباسيين والعلويين) وكلهم أولاد عبد المطلب وهاشم.

---

(١) مروج الذهب ص ١٦.
(٢) المصدر السابق ص ١٧.
(٣) نهج البلاغة ـ تحقيق د. صبحي الصالح ص ٣٦٩.

وكانوا بإيحاءاتهم هذه يحاولون إبعاد المتحيزين إلى الإمام وآل البيت عليهم السلام والسائرين على خطهم ومنظورهم العقائدي، أو تحييدهم وإبعادهم عن (الصراع) وتضخيم معسكرهم هم الذين يستأثرون فعلًا بالثروة والجاه والقوة والسلطة.

لم يجعلوا القياس الذي تعرف به الأمة إمامها، ما وصفه الله تعالى به وما بيّنه رسوله الكريم صلى الله عليه وآله حوله، وإنما اخترعوا مقياساً وحيداً لذلك هو (العلو) في قريش والقرابة من رسول الله صلى الله عليه وآله، وهكذا اضطر معاوية لوضع هذا القياس موضع التداول، لاختراع الأحاديث التي تثبت علاقته (الحميمة) وقرابته الوثيقة من الرسول صلى الله عليه وآله، والقيام بحملة أخرى متزامنة يقلِّلُ فيها من شأن الإمام وآله، حتى بلغ به الأمر ـ كما أوضحنا ـ أنه قام بسبه على منابر الأمويين طيلة ألف شهر، وأصبح سبه سنة نشأ عليها الأمويون طيلة حكمهم عدا الفترة القصيرة التي حكم فيها عمر بن عبد العزيز الذي لم يكن ينتهج سياسة أسلافه بشكل تام.

الحكم العباسي.. إكمال لمشوار الحكم الأموي

وكان (لا بد) لبني العباس، الذين أكملوا المشوار الأموي، أن يعملوا على التقليل من شأن علي وآله عليهم السلام ويشوهوا سمعتهم ويبينوا (ضعفهم في أمور السياسة والحياة) وأنهم متكافئون معهم في كل المؤهلات الأخرى من النسب والجاه والشرف، وذلك في محاولة لكسب الناس إلى صفوفهم، واستعملوا شتى الأساليب في سبيل هذا الغرض، وربما كانت الأساليب العباسية جعلت الأساليب الأموية تبدو (متحفظة) وخفيفة بعض الشيء، فانطلقوا دون هوادة لمطاردة آل البيت وشيعتهم، وكان الأئمة عليهم السلام دون استثناء، قد استهدفوا لهذه الحملة العباسية الشرسة، حيث قتلوا مسمومين، وأدخل بعضهم السجون، وفرضت على بعضهم الإقامة الجبرية في بيوتهم مع تشديد الرقابة عليهم. ولعل من المناسب هنا أن نستعرض كلمة المنصور العباسي في جماعة من أتباعه ومريديه من أهل خراسان، بعد أن أخذ عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي عليهم السلام واخوته والنفر الذين معه: (. . . أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دعوتنا، ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا خيراً منا. . ! إن ولد ابن أبي طالب تركناهم، والذي لا إله إلا هو، والخلافة، فلم نعرض لهم إلا بقليل ولا بكثير. . . . فقام فيها علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فما أفلح، وحكم الحكمين، فاختلفت عليه الأمة، وافترقت الكلمة، ثم وثب عليه شيعته، حتى مات

على فراشه، ثم قام بعده الحسن بن علي رضي الله عنه، فوالله ما كان برجل عرضت عليه الأموال فقبلها، ودس إليه معاوية إني أجعلك ولي عهدي. فخلعه، وانسلخ له مما كان فيه وسلمه إليه... ثم قام من بعده الحسين بن علي رضي الله عنه، فخدعه أهل العراق، وأهل الكوفة، أهل الشقاق والنفاق والاغراق في الفتن، أهل هذه المدرة السوء (وأشار إلى الكوفة)، فوالله ما هي لي بحرب فأحاربها ولا هي بسلم فاسالمها، فرق الله بيني وبينها، فخذلوه، وأبرأوا أنفسهم منه، فأسلموه حتى قتلوه... ثم وثب بنو أمية علينا، فابتزونا شرفنا، وأذهبوا عزنا.. والله ما كان لهم برة يطلبونها، وما كان ذلك كله فيهم، وبسبب خروجهم، فنفونا عن البلاد فنصرنا مرة بالطائف، ومرة بالشام ومرة بالسراة، حتى ابتعثكم الله شيعة لنا وأنصاراً فأحيا الله شرفنا وعزنا بكم يا أهل خراسان، ودفع بحقكم أهل الباطل، وأظهر لنا حقنا، وأصار إلينا أمرنا وميراث نبينا ﷺ فقر الحق في قراره، وأظهر الله مناره، وأعزَّ أنصاره ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1]، فلما استقرت الأمور فينا على قرارها من فضل الله، وحكمه العدل، وثبوا علينا حسداً منهم لنا وبغياً علينا بما فضلنا الله به عليهم وأكرمنا من خلافته ميراثنا من بنيه وجبنا من بني أمية وجراءة علينا..)[2].

الأمويون استفادوا من دائرة (عبد مناف) والعباسيون من دائرة (بني هاشم)

وكما حاول بنو أمية أن يبينوا أن الخلافة حق متداول بين بني عبد مناف وتركة لهم دون غيرهم، حاول بنو العباس أن يبينوا أنها حق موروث لبني هاشم، حتى يدخلوا في دائرة المستحقين لهذه (التركة)، مع أنها دائرة أضيق من الدائرة الأموية. وقد نسي هؤلاء جميعاً، أو تناسوا أنهم إنما يستغلون المنصب الذي تركه رسول الله ﷺ لا ميراثاً شخصياً لكسب المغانم الشخصية وإنما كمسؤولية يحملها أشخاص معدّون إعداداً خاصاً من قبله هو ويحملون مواصفات خاصة عمل على أن تكون فيهم من خلال دورة تربوية طويلة استغرقت فترة طويلة من حياة أولهم أمير المؤمنين عليه السلام ثم استغرقت حياتهم كلها فيما بعد... ليكملوا مسيرته وشوطه الطويل في قيادة الأمة، ولا علاقة هنا لعبد مناف أو عبد شمس أو أبو سفيان أو معاوية وحتى العباس، إلا بمقدار التزام من أدرك الإسلام بتعاليمه، وقد عرفنا مكانة كل منهم، وعرفنا مكانة

(١) الأنعام: ٤٥.

(٢) مروج الذهب ٣ - ٣٦٦ - ٣٦٨.

العباس الكريمة لدى رسول الله ﷺ ولدى علي عليه السلام نفسه، ولم يبلغ الأمر به درجة يدعي فيها الأمر لنفسه. . كان يعرف حدوده ومنزلته ويعلم أن علياً هو من ينبغي أن يكون خليفة لرسول الله ﷺ، يكمل مشواره الطويل الذي أراده ﷺ لخلفائه من بعده أن يكملوه، وكما عرف العباس ذلك، عرفه أبو سفيان أيضاً ومعاوية أيضاً، ويبدو أن مطامع معاوية بدأت منذ عهد عثمان، فلا شك أن معاوية لم يرَ لعثمان عليه امتيازاً في أية ناحية أو أي جانب، وربما رأى نفسه متفوقاً عليه في بعض الجوانب مثل شؤون السياسة والحكم والدهاء، مع أنه يعلم أنه طليق ابن طليق، وأن أباه وهو من بعده قد كرسا حياتهما لحرب الله ورسوله ودينه.

إننا نلمس في كلمة المنصور، نفس معاوية القديم، مع تغيير بعض الحجج والمبررات. وقد وردت بعض ادعاءات الأمويين القديمة بشأن الشرف القديم الموروث والقرابة القريبة من رسول الله ﷺ.

إن حجة العباسيين هنا لاستبعاد آل الرسول ﷺ عن الخلافة هي: أنهم لم ينجحوا في تلك الخلافة التي صارت إليهم في وقت ما ثم خرجت من أيديهم، وكان عليهم أن يحتفظوا بها بمختلف الأساليب، حتى ولو لجأوا إلى الحيل والأساليب الملتوية، متناسين القوى الشريرة الطامعة التي وقفت في وجوههم، بل في وجه الإسلام ومسيرته المستقيمة التي كانت تعد بالقضاء على مصالحهم وامتيازاتهم ونعرات الجاهلية، وكل النزعات الأرضية المتخلفة التي لا تليق بالإنسان الذي أكرمه الله، عندما خلقه ونفخ فيه من روحه وجعله خليفته على الأرض.

لقد فخروا وتاهوا بقرابتهم المجردة من الرسول ﷺ، ولو كان أبو جهل معهم أو أبو لهب، لفخرا فخرهم وتاها على الناس بنسبهم القرشي، وحاولا استثمار هذه القرابة لمصلحتهما كما فعلوا. أما الإسلام فبقي غريباً، لا شأن له هنا ولا أحد يعلم عنه شيئاً إلا بالمقدار الذي يستفيدون منه لتزيين عروشهم، واضفاء غطاء الشرعية عليها.

هشام الأموي قدوة للمنصور العباسي!

وإذا ما علمنا (أن المنصور كان في أكثر أموره وتدبيره وسياسته متبعاً لهشام بن عبد الملك لكثرة ما كشفه عن أخبار هشام وسيرته)[1] أدركنا إلى أي حد كانت

(١) المصدر السابق ص ٢٥٨.

التجربة الأموية أساساً للتجربة العباسية الجديدة القائمة عليها وعلى كل التجارب الفرعونية المتسلطة والتي لا يهمها إلا (ترويض) الناس وجعلهم عبيداً للسلطان.

(وأياً كان الأمر، فقد جاء العباسيون فيما يمكن أن نسميه «الانقلاب العباسي» فأخذوا سوابق بني أمية في عالم السياسة على أنها أصول مرعية، بل أضافوا إليها من عند أنفسهم اضافات)[١]... فالأمر أمر ملك وسلطان، ولا بأس من الاستعانة بالخبرات السياسية المتراكمة للدولة الأموية (الناجحة)، حتى ولو كانت هذه الدولة معادية قامت هذه على انقاضها، واحتجت بدعوتها إلى تهديمها بقتل الحسين عليه السلام ومسلم بن عقيل وإبراهيم بن محمد وزيد بن علي ويحيى بن زيد... إلخ[٢].. لكن الملك هو الملك ولا بأس بتدعيمه حتى ولو بتعليمات مباشرة من الشيطان نفسه.

السلطان أولًا.. الملك عقيم لا رحم له

كانت التصريحات المتكررة من معاوية وعبد الملك والمنصور والرشيد والأمين وغيرهم، تدل على أنهم لا يرون أمامهم غير سلطان الملك وبريق السلطة القاهر.

فقد قال معاوية مخاطباً أهل الكوفة بعد صلح الإمام الحسن عليه السلام: (ما قاتلتكم لتصوموا ولا لتصلوا ولا لتحجّوا ولا لتزكوا، وقد عرفت أنكم تفعلون ذلك، ولكن إنما قاتلتكم لأتأمّرَ عليكم، فقد أعطاني الله ذلك وأنتم كارهون)[٣].

وقال معاوية لأهل المدينة (... إن أبا بكر رضي الله عنه لم يرد الدنيا ولم ترده، وأما عمر فأرادته الدنيا ولم يردها، وأما عثمان فنال منها ونالت منه، وأما أنا فمالت بي وملت بها وأنا ألينها فهي أمي وأنا ابنها، فإن لم تجدوني خيركم فأنا خير لكم)[٤].

وقال مروان بن الحكم، وقد خرج للناس خلال الأحداث التي سبقت مقتل

---

(١) كيف نكتب التاريخ ـ محمد قطب ص ١٢٥.
(٢) مروج الذهب ص ٢٩٩ - ٣٠٠.
(٣) البداية والنهاية ٨ - ١٣٤.
(٤) العقد الفريد ٥ - ١١٣.

عثمان (شاهت الوجوه إلى من أريد. جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا. اخرجوا عنا)[١].

وقال معاوية (... إني لا أحول بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا)[٢] وقال المنصور (... إن من نازعنا عروة هذا القميص أوطأناه ما في هذا الغمد)[٣].

وقال الأمين (... الملك عقيم لا رحم له..)[٤].

وبين أيدينا عشرات النصوص الأخرى التي تؤكد على توجههم هذا الاتجاه.

إن العباسيين عندما تبنوا (الفلسفة الأموية) في الحكم والسياسة، تلك التي تعتمد الارهاب والاستئثار بالأموال والمناصب، كانوا يرون أن الأسلوب الأموي هو الأسلوب الأمثل الذي يتيح لهم الحفاظ على سلطانهم، وأنه أسلوب ناجح جيد، لولا الأخطاء التي يقع فيها من يأتي من المتأخرين، من الأبناء المدللين المترفين، وأن هؤلاء لو ساروا على نهج أسلافهم لكانوا قد نجحوا في الحفاظ على الملك أطول مدة ممكنة. وقد دلت تصريحات (المنصور) العباسي على تحبيذه وتبنيه السياسة الأموية جملة وتفصيلا... (ولم تزل بنو أمية ضابطين لما مهد لهم من السلطان، يحوطونه، ويحفظونه ويصونون ما وهب الله لهم منه، مع كسبهم معالي الأمور، ورفضهم أدانيها، حتى أفضى الأمر إلى أبنائهم المترفين، فكانت همتهم قصد الشهوات، مع إطراحهم صيانة الخلافة واستخفافهم بحق الله وحق الرياسة وضعفهم عن السياسة، فسلبهم الله العز وألبسهم الذل ونفى عنهم النعمة)[٥]... فالمنصور لا يأخذ هنا على معاوية أو يزيد أو عبد الملك أو هشام تصرفات غير مسؤولة، بل يعتبر سياستهم غير نموذجية وإن السبب في ذهاب ملكهم عجز أبنائهم عن مجاراتهم في تلك السياسة...!.

إن الأسلوب الأموي في السياسة والحكم، أصبح مألوفاً من قبل جماهير المسلمين التي عاشت في ظل السلطة الأموية قرابة ثمانين عاماً ثم عاشت امتدادات

---

(١) الكامل في التاريخ ٣ - ٥٦.
(٢) المصدر السابق ص ٣٧٤.
(٣) مروج الذهب ٣٥٨.
(٤) مروج الذهب ٣ - ٥٠٢.
(٥) المصدر السابق ص ٣٤٧.

حكم مشابه خلال العهد العباسي، حتى أنست أساسيات الدين والمحتوى الصحيح للخلافة والحكم، ولم تعد ترى إلا ما يراه الحاكمون المتسلطون. وبدت الانحرافات العباسية التي هي امتداد للانحرافات الأموية، وكأنها هي الأسلوب الأمثل الذي ينبغي أن ينتهج، وأضيف إليها التطرف الشديد في حياة البذخ والترف الزائد الذي كان موجوداً فعلًا في عهد الأمويين، والتطرف الأشد في قمع المعارضين.

كثرة انحرافات اللاحقين لا تبرر قلة انحرافات السابقين

لقد كانت السنة السيئة التي سنها الأمويون، قد أتاحت لمن جاء بعدهم التمادي في الخروج بيسر ودون تحرج عن الكثير من تعاليم الإسلام ومبادئه وقيمه دون أن يلقى ذلك معارضة قوية من الأمة المروضة المكبلة بقيودهم وأغلالهم وأبعدت عن دورها الأساسي في المراقبة والتقويم والتوجيه وإيقاف قيامها بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (لأنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الأداة العملية لحفظ المجتمع من الانحراف، ولإصلاح الأمر وردّه إلى الصورة الصحيحة إذا وقع الانحراف بالفعل. ومن أجل ذلك أيضاً جعل اللعنة على الأمة الملعونة لعدم قيامها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾[1].

وقد أسلفنا أن المجتمع على عهد الأمويين، بتأثير الفتنة أولًا، ثم بتأثير عنف بني أمية في ضرب المعارضين، قد أخذ ينصرف تدريجياً عن مراقبة أعمال الحكام والأخذ على أيديهم حين يخطئون، فلا عجب أن يزداد الانحراف في العصر العباسي، وأن يزداد الناس انصرافاً عن طلب الاصلاح. الانحرافات الثلاثة التي وقعت من بني أمية بقيت وازدادت سوءاً: الملك العضوض بدلًا من الخلافة العادلة، البحبحة في بيت المال، العنف في ضرب المعارضين، ثم جدت انحرافات جديدة لم يكن لها وجود في عهد الأمويين، كان من أبرزها الترف الذي أخذ يغشى قصور الخلفاء، ثم الأمراء والوزراء ثم التجار والأغنياء ثم أفراد الشعب في المدن في النهاية)[2].

---

(١) المائدة ـ ٧٨ - ٧٩.

(٢) كيف نكتب التاريخ ص ١٢٦.

انحرافات.. أم خروج متعمد عن الإسلام

إن هذه الملاحظات الذكية من الكاتب الإسلامي الكبير، ما كان لها أن تشير بهذه الصورة من الحذر والحياء الكبير إلى (الفتنة)، التي لم تكن مجرد فتنة، بل كانت مؤامرة وخروجاً متعمداً عن الإسلام، وهذا الخروج الفتنة، إن وجد من يصوره في عصور لاحقة على أنه أمر بسيط لا يرقى إلى مستوى الانتهاكات التي درج عليها العباسيون وغيرهم فيما بعد، هو أكبر عصا وضعت في عجلة الإسلام، ولما تكد تدرج على الطريق وهو أكبر انتهاك خطير لحدود الإسلام وقواعده الأساسية، وليس علينا أن نمر به مروراً عابراً سريعاً، ثم نقول ـ لتسوية المسألة وكأنها أمر خلافات شخصية بحتة بين بعض الاخوان على أمور مالية أو إجرائية بسيطة، ثم نقول بعد ذلك، كما قال أحدهم، كما روي: (الخلفاء أبو بكر وعمر وعثمان وعلي. فقيل له: فمعاوية؟ قال: لم يكن أحد أحق بالخلافة في زمن علي من علي ورحم الله معاوية)[1]. ولا ندري كيف نفسر هذه المعادلة المعقدة، هل الأمر أمر غلبة طفل صغير على مثيل له في لعبة للأطفال؟ ثم نقول لمن يريد مناقشة هذه القضية وملاحظة جوانبها (لسد القضية برمتها)، ورحم الله معاوية، وكأن الإيعاز بالرحمة هو بأيدينا نستنزلها بهذه البساطة على من نحب، وكأننا لا نعرف مقاييسه العادلة ـ سبحانه وتعالى ـ وكأنه لا يمسك بيده القوية ميزان العدل الدقيق فيحاسب من يخرقون هذا الدين متعمدين مصرين، فهل هذا الدين المحكم القوي والخاتم للأديان كلها وخلاصتها، هذا الدين الذي أنزل تاماً قويماً من قبل الله تعالى، هو مهزلة من مهازلنا البشرية المضحكة حتى نتصدى لقضاياه بهذا الاهمال الواضح، ويقبل تفسيراتنا الطفولية الساذجة ومغالطاتنا اللفظية وتورياتنا الجناسية والطباقية. . .؟ (روى ابن عساكر عن أبي زرعة الرازي، أنه قال له رجل: إني أبغض معاوية. فقال له: ولم؟ قال: لأنه قاتل علياً. فقال له أبو زرعة: ويحك، إن رب معاوية، رب رحيم، وخصم معاوية خصم كريم، فأيش دخولك أنت بينهما؟ رضي الله عنهما)[2]. وإذا نظرنا إلى الأمور بعيني أبي زرعة واضرابه، ورحنا ننظر إلى الخصام بين علي عليه السلام ومعاوية، وكأنه خصام شخصي بحت لا يتعلق بدين الله، ولا يتعلق بذلك الأمر الخطير الذي

(١) البداية والنهاية ٨ - ١٣٢.

(٢) المصدر السابق ٨ - ١٣٣.

أثر تأثيراً حاسماً على مصير الأمة الإسلامية، وإذا كانت مثل هذه الانتهاكات يراها المرء سهلة مستساغة يمكن علاجها وتلافي نتائجها، وهي التي سنت الانحراف عن الإسلام وقتل آلاف من الناس، وقلب منهج الحكم الإسلامي من أساسه، فأي الأمور هي الصعبة التي لا تغتفر؟ وما ذنب الأمة الإسلامية على مر العصور إن انتهكت حرمة أجيالها، وانحرف بها الظالمون منذ البداية هذا الانحراف الخطير؟ ثم يروح قوم لطفاء حريصون على وحدة الأمة (يحسمون) المسألة برمتها ببساطة متناهية، وكأنها لا تمسُّ مصير المسلمين من قريب ولا من بعيد، مخترعين حديثاً ملفقاً، أو محرفين حديثاً أو مؤولين آية أو حديثاً آخر، وتطوى المسألة بكلمة لطيفة أو مذكرة تلقى فيها تبعة الحادث البسيط! على مجهول (لا يمكن امساكه أو العثور عليه بسهولة) كعبد الله بن سبأ، تلك الشخصية الخرافية المجهولة.. كما يحصل في دوائر الشرطة التي تعجز عن كشف الجاني أو تخشى سطوته ونفوذه، أو تنفح بمال سخي يدفع لكبار أفرادها، لتسجل أن الحادث غير متعمد، وفي أسوأ الحالات يحكم على المتهم مع وقف التنفيذ، إذا خرج الأمر من يد الشرطة وأصبح بيد المحاكم..!.

اجتهاد ورأي.. أم مُلك ومصالح

(.. ثم كان ما كان بينه (معاوية)، وبين علي بعد قتل عثمان على سبيل الاجتهاد والرأي، فجرى بينهما قتال عظيم كما قدمنا، وكان الحق والصواب مع علي، ومعاوية معذور عند جمهور العلماء سلفاً وخلفاً، وقد شهدت الأحاديث الصحيحة بالإسلام للفريقين من الطرفين من أهل العراق وأهل الشام، كما ثبت في الحديث الصحيح «تمرق مارقه على خير فرقة من المسلمين، فيقتلها أدنى الطائفتين إلى الحق» فكانت المارقة الخوارج، فقتلهم علي وأصحابه، ثم قتل علي، فاستقل معاوية بالأمر سنة إحدى وأربعين)[1].

(... ولما وقعت الفتنة بين علي ومعاوية، وهي مقتضى العصبية كان طريقهم فيها الحق والاجتهاد ولم يكونوا في محاربتهم لغرض دنيوي أو لإيثار باطل أو لاستشعار حقد كما قد يتوهمه متوهم وينزع إليه ملحد، وإنما اختلف اجتهادهم في

(١) البداية والنهاية ـ ٨ - ١٢٩.

الحق وسفّه كل واحد نظر صاحبه باجتهاده في الحق فاقتتلوا عليه وإن كان المصيب علياً فلم يكن معاوية قائماً فيها بقصد الباطل إنما قصد الحق وأخطأ والكل كانوا في مقاصدهم على حق، ثم اقتضت طبيعة الملك الانفراد بالمجد واستئثار الواحد به ولم يكن لمعاوية أن يدفع عن نفسه وقومه فهو أمر طبيعي ساقته العصبية بطبيعتها واستشعرته بنو أمية ومن لم يكن على طريقة معاوية في اقتفاء الحق من أتباعهم فاعصوصبوا عليه واستماتوا دونه ولو حملهم معاوية على غير تلك الطريقة وخالفهم في الانفراد بالأمر لوقوع في افتراق الكلمة التي كان جمعها وتأليفها أهم عليه من أمرٍ ليس وراءه كبير مخالفه...)[1].

كيف يكون الحق والصواب مع علي ويُعذر معاوية...؟.

وإذا كانت فرقة علي خير فرقة من المسلمين، وهي التي تقتل المارقة عن الدين كيف جاز لنا أن نعذر معاوية؟ وإذا ما فرضنا أن معاوية كان مسلماً صحيح الإسلام، كيف جاز له أن يخرج على إمام زمانه بأعذار وحجج واهية مرفوضة ولا أساس لها من الصحة؟ وكيف كان سيبدو أمام الأمة لو أتيحت له فرصة قتل الإمام؟ وكيف كان سيبدو لو قتله الإمام عليه السلام وهو خارج عليه؟.

وكيف يكون الحق مع الجميع، مع أن الحق واحد؟.

هل هو انحراف واحد.. حتى نغض النظر عنه

وهل نتكلم عن خطأ معاوية بمثل هذه البساطة التي يتكلم بها أناس واعون مثل ابن كثير وابن خلدون ومحمد قطب وغيرهم، وهل يحسب أحد أن القضية ستسد إلى النهاية بمثل هذه التبريرات والتلفيقات، ولماذا يتحمل هؤلاء وزر معاوية مع أنه كان (الرابح) الوحيد بالحسابات الأرضية البحتة..؟.

ثم: لماذا نؤكد على الانحرافات الثلاثة فقط لا غير، والتي وقعت من بني أمية، ونلقي اللوم بالانحراف الرابع، وهو الترف على العباسيين، وننسى الترف والبذخ والبطالة والفساد التي أخذ الأمويون أنفسهم بها؟ وأرسوا قاعدة الانحرافات أكبر في هذا المجال.. ألم يقل معاوية عن نفسه (... لم يكن في الشباب شيء إلا

---

(١) مقدمة ابن خلدون ـ ٢٢٧.

كان مني فيه مستمتع)[1] فكيف فعل أيام ملكه أو (خلافته)؟ أليس هو القائل (الأرض لله وأنا خليفة الله، فما آخذ من مال الله فهو لي وما تركت منه كان جائزاً لي)[2].

ألم يخلف عمرو بن العاص ثلاثمائة ألف دينار وخمسة وعشرين ألف دينار ومن الورق ألف ألف درهم وغلة مائتي ألف دينار بمصر وضيعته المعروفة بالوهط قيمتها عشرة آلاف ألف درهم[3]؟.

ألم يكن يزيد بن معاوية (صاحب طرب وجوارح وكلاب وقرود وفهود ومنادمة على الشراب وغلب على أصحاب يزيد وعماله ما كان يفعله من الفسوق، وفي أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة واستعملت الملاهي وأظهر الناس شرب الشراب)[4]...؟.

ألم تصل إلى أسماع مؤرخنا الجليل أخبار يزيد بن عبد الملك ولهوه واقباله على الشراب والغناء والجواري؟ ألم تصله أخبار هشام الذي اجتمع له من خيله وخيل غيره أربعة آلاف فرس ولم يعرف ذلك في جاهلية ولا إسلام..؟[5]. والوليد بن يزيد (الذي كان أول من حمل المغنين من البلدان وجالس الملهين وأظهر الشراب والملاهي والعزف، وغلبت عليه شهوة الغناء وعلى الخاص والعام واتخذ القيان وكان ماجناً خليعاً...)[6].

ألم يلحد هذا (الخليفة) في شعر له ذكر فيه النبي ﷺ بسوء وقال فيه إن الوحي لم يأته عن ربه كذلك أخزاه الله من ذلك الشعر... فلم يمهل بعد قوله هذا أياماً حتى قتل[7]؟ وبعد هذه الأمثلة اليسيرة، هل نستطيع أن نقول إن انحرافات الترف لم تكن موجودة في العصر الأموي كما يقول كاتبنا الكبير محمد قطب، أم ترى أن هذه الأخبار وغيرها هي من موضوعات الشيعة والحاقدين على النظام الأموي؟.

---

(١) العقد الفريد ٥ - ١٠٥.

(٢) مروج الذهب ٣ - ٥٣.

(٣) المصدر السابق ص ٢٩.

(٤) نفس المصدر ص ٨٣.

(٥) نفس المصدر ص ٢٤٩.

(٦) نفس المصدر ص ٢٥٩.

(٧) نفس المصدر ٢٦٣.

ابن خلدون... منهج في التشويش

إن أية (تسوية) لهذه المسألة لن تكون جدية وفاعلة ما لم تكن تحمل عوامل الإقناع، أما أن يأتي كتاب فيأخذوا نهج ابن خلدون وأمثاله ليتركوا الأمة في وضع مشوش فهذا لن يزيد المسألة إلا سوءاً، وإلا كيف يستطيع عاقل فهم هذه المعادلة المعقدة المرتبكة التي (زيّنت) بحديث نبوي ملفق لن يعمل إلا على زيادة ارتباك الناس وإبعادهم عن الحقيقة التاريخية، بل عن حقيقة الإسلام برمته، إذ لو صح الحديث عن الرسول ﷺ لكان معنى ذلك أن الناس كلهم في عهده والعهود التي تليه هم خيار الأمة.

يقول ابن خلدون (. . . والكل مجتهدون محمولون على الحق في الظاهر وإن لم يتعين في جهة منهما والقتل الذي نزل به بعد تقرير ما قررناه يجيء على قواعد الفقه وقوانينه مع أنه شهيد متاب باعتبار قصده وتحريه الحق هذا هو الذي ينبغي أن تحمل عليه أفعال السلف من الصحابة والتابعين فهم خيار الأمة وإذا جعلناهم عرضة للقدح فمن الذي يختص بالعدالة والنبي ﷺ يقول: خير الناس قِرني ثم الذين يلونهم مرتين أو ثلاثاً، ثم يفشو الكذب فجعل الخيرة هي العدالة مختصة بالقرن الأول والذي يليه، فإياك أن تعود نفسك أو لسانك التعرض لأحد منهم، ولا يشوش قلبك بالريب في شيء مما وقع منهم والتمس لهم مذاهب الحق وطرقه ما استطعت فهم أولى الناس بذلك، وما اختلفوا إلا عن بيّنة وما قاتلوا أو قتلوا إلا في سبيل جهاد أو إظهار حق وأعتقد مع ذلك أن اختلافهم رحمة لمن بعدهم من الأمة ليقتدي كل واحد بمن يختاره منهم ويجعله إمامه وهاديه ودليله فافهم ذلك وتبين كلمة الله في خلقه وأكوانه. . .)[1].

ورحم الله العقل البشري، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

(١) مقدمة ابن خلدون ٢٤١.